

مجلة

المسلم المعاصر



العدد الثاني والستون

السنة السادسة عشرة

ربيع ثان - جمادى أول - جمادى ثان ١٤١٢ هـ - نوفمبر - ديسمبر ١٩٩١ م - يناير ١٩٩٢ م

في هذا العدد

- حديث مع المفكرين
- الدين والفلسفة
- سيد قطب والتفسير الإسلامي للتاريخ
- علم الكلام القرآني
- دراسة المستقبل بروية مؤمنة مسلمة
- نحو وجهة إسلامية لعلم النفس

المعهد العالمى للفكر الإسلامى

قاسطور

* أسس المعهد العالمى للفكر الإسلامى عام (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م) للعمل من أجل تجنيد جهود العلماء والمثقفين المسلمين لإعادة صياغة مناهج الفكر الإسلامى المعاصر فى مجال العلوم والدراسات الإنسانية والاجتماعية ، ليعمل على استعادة الأمة لعافيتها ودورها الحضارى الخير الرائد ، مهتدية برسالتها الإسلامية الخالدة .

* ويعمل المعهد لتحقيق هذه الغاية على تجنيد العلماء ، وعقد المؤتمرات العلمية والحلقات الدراسية ، كما يقوم بنشر الدراسات والأبحاث ، ويسعى إلى إنجاز الكتب المنهجية والجامعية .

* ولإنجاح هذه الجهود فإن المعهد يعمل على استكمال أدوات البحث والنظر العلمى الأصيل المستقل ، بتقديم رؤية شاملة موضوعية حضارية للمثقف المسلم ، من خلال تقديم خلاصات الفكر الغربى المعاصر ، وخلاصات التراث الإسلامى الأصيل الذى أنتجه العقول المسلمة فى عصور التقدم والازدهار .

* ويعمل المعهد على تربية « الكوادر » العلمية الإسلامية فى مجال إسلامية المعرفة ، وتطوير العلوم الاجتماعية الإسلامية ، بتقديم القروض والمساعدات الدراسية وتوجيه رسائل الدراسات العليا لخدمة قضايا الأمة ، والمعرفة الإسلامية ، وتوفير وسائل الرعاية العلمية الإسلامية لطلاب الدراسات العليا .

The International Institute of Islamic Thought (IIIT)
P.O. BOX 669 - 555 Grove Street, Herndon
Tel: (703) 471-1133
Telex: 901153 IIIT WAS
Facsimile (703) 471-121

إهداء ٢٠٠٦

المرحوم الدكتور / علي حسين كرار
القاهرة

المسلم المعاصر

مجلة فصلية فكرية ثقافية محكمة، تعالج قضايا
الاجتهاد المعاصر في ضوء الأصالة الإسلامية

تصدر عن
مؤسسة المسلم المعاصر
والمعهد العالمي للفكر الإسلامي

صاحب الامتياز :
ورئيس التحرير المسؤول :
الدكتور / محمد صالح المنجد

العدد الثاني والستون

السنة السادسة عشرة

ربيع ثان - جمادى أول - جمادى ثان ١٤١٢ هـ

نوفمبر - ديسمبر ١٩٩١ م - يناير ١٩٩٢ م

مَجْلِسُ الْأَمْنَاءِ (*)

- | | |
|-------------------------|--------------------|
| د. جمال الدين عطية | أ. محيي الدين عطية |
| د. طه جابر العلواني | د. يوسف القرضاوي |
| د. محمد نجاة الله صديقي | |

مُسْتَشَارُونَ النَّحْرِير (*)

- | | |
|--------------------------|-------------------------|
| أ. خالد إسحاق | د. مالك بدري |
| أ. خرم مراد | د. محسن عبد الحميد |
| د. زغلول راغب النجار | أ. محمد بریش |
| أ. عبد الحليم محمد أحمد | د. محمد عبد الستار نصار |
| د. عبد الحميد أبو سليمان | د. محمد عثمان نجاتي |
| د. عماد الدين خليل | د. محمد فتحي عثمان |
| أ. عمر عبید حسنة | د. مقداد يالجن |

هَيْئَةُ النَّحْرِير

سُكْرَتِيرُ النَّحْرِير

- د. محمد كمال الدين إمام

رئيس التحرير

- د. جمال الدين عطية

أَعْضَاءُ (*)

- | | |
|----------------------|--------------------|
| د. حسن الشافعي | د. محمد سليم العوا |
| المستشار طارق البشري | د. محمد عمارة |
| أ. فهمي هويدي | |

مُديرُ الإدارة

- أ. مهجة مشهور

(*) رُتِبَتِ الْأَسْمَاءُ أَلْفَبَائِيَا

قواعد النشر في المجلة

- ١ - تهتم المجلة بمعالجة شؤون الحياة المعاصرة في ضوء الشريعة الإسلامية ، فقضيتها الأساسية هي « المعاصرة » ، وهي ذات مداخل ثلاثة : الاجتهاد ، والتنظير ، وإسلامية المعرفة .
- ٢ - تهتم المجلة بمجالين أساسيين لقضية المعاصرة هما مجال الحركة الإسلامية ومجال الأبحاث الميدانية .
- ٣ - تهتم المجلة بالأبحاث ذات الصلة بهذه القضية ومداخلها ومجالاتها المختلفة ، كما ترحب في باب « الحوار » بمناقشة الأبحاث التي تنشر في المجلة أو في غيرها من المجلات والندوات والمؤتمرات ، كما ترحب في باب « نقد الكتب » بالنقد الموضوعي للكتب ذات العلاقة باهتمامات المجلة .
- ٤ - تعرض البحوث المقلمة على محكمين من داخل هيئة التحرير أو من مستشاري المجلة ، وتبقى أسماء الباحثين والمحكمين مكتومة ، ويطلب من الباحث إعادة النظر في بحثه في ضوء ملاحظات المحكمين .
- ٥ - كما تنشر المجلة يعبر عن وجهة نظر صاحبه ، ولا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة .
- ٦ - الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد ولا تسترد سواء نشرت أم لم تنشر ، ولا تلتزم المجلة بإبداء أسباب عدم النشر .
- ٧ - ترتب الأبحاث عند النشر وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة البحث أو الباحث .
- ٨ - يعطى صاحب البحث المنشور مكافأة مالية مع ٢٠ فصلة (مستخرج) من بحثه المنشور ، ويكون للمجلة حق إعادة نشر البحث منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث ، بلغته الأصلية أو مترجماً إلى أي لغة أخرى ، دون حاجة إلى اشتئان صاحب البحث .
- ٩ - يشترط في البحث ألا يكون قد نشر في أي مكان آخر .

المحتويات

● كلمة التحرير

حديث مع المفكرين أ. محيى الدين عطية ٥

● أبحاث :

- الدين والفلسفة أ.د. محمود زقزوق ٩
- سيد قطب والتفسير الإسلامى للتاريخ أ.د. عماد الدين خليل ٢٧
- علم الكلام القرآنى د. بلقاسم الغالى ٦٥
- دراسة المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة د. أحمد صدقي الدجاني ١١٣
- نحو وجهة إسلامية لعلم النفس د. فؤاد أبو حطب ١٣٥
-

● حوار :

- تلازم الموضوعية والمعارية فى الميتودولوجيا
الإسلامية . أ. محمد أمزيان (عدد ٥٩) تعقيب م. أحمد سليم ١٨٥
-

● محاضرات :

- سيمنار تدريس العلوم الشرعية ١٩١
-

● مؤتمرات :

- التقرير الختامى لندوة التأصيل الإسلامى للخدمات الاجتماعية ٢٣٥
-

● النشرة المكتبية :

- نحو مكنز إسلامى للخدمة الاجتماعية أ. زينب عطية محمد ٢٤٥



حديث مع المفكرين

إن الذين يحملون الهم الفكري في مسيرة الأمة الحضارية ، هم بطبيعتهم يحسنون الاستماع ، ويحسنون الاستجابة ، ولذلك فإن الحديث معهم أمر مرغوب محمود ، بقدر ما هو مأمون العاقبة ، مرجو الثمرة ، وحديثي معهم هنا ذو ثلاث شعب :

الأولى :

أن حَمَلَة الأفكار الرائدة يحملون بنفس القدر مسئولية ثقيلة ؛ فالفكرة وحدها لن تطعم بين الناس جائعاً ، ولن تحقق في الأرض عدلاً ، ومجموعة الأفكار التي يتداولها الأذكىاء في مجالسهم لن تنقذ الأمة من أزماتها أو تسهم في حل إحدى مشكلاتها ؛ بل إن الذي يُحدث التغيير هو

تحريك هذه الأفكار ، وتطويرها ، ونشرها ، وإقناع أهل الرأي والفكر والتوجيه بها ، وتحويلها إلى عناصر فاعلة ، تتمزج بمناهج التربية وبرامج الإعلام في المجتمع ، بحيث تشكل تياراً مستمراً ، يزداد اتساعاً بتكاتف الجهود وتنسيقها ، حتى تستجيب له مراكز القرار ، وتتواءم معه ، إن أرادت أن تستمر في أداء دورها ، كأداة معبرة عن ثقافة هذا المجتمع وخياراته ، وإلا وجدت نفسها في عزلة عنه ، متخلفة عن آماله وقدراته ، وسرعان ما يتجاوزها الزمن وتجرفها الأحداث .

أما أن يظن المثقفون وأهل الرأي ، أن انقذاح الأفكار فيما بينهم هو قصارى ما

وانقشع الضباب ، وتحددت مساحة الاتفاق ، وتميزت نقاط المفارقة والاختلاف .

لو سألنا - على سبيل المثال - عشرة من المفكرين والكتاب عما يعنيه مصطلح « العلمانية » ومما اشتق اللفظ ، ومماذا يحتويه المفهوم ، لجاءتنا عشرة ردود مختلفة ، ولرأينا بأعيننا أن ما اختلفت حوله هذه الردود أكثر مما اتفقت عليه ، ومع ذلك نصر على استعمال المصطلح وإطلاقه في أدبياتنا وكأنه قضية محددة المعالم واضحة الحدود ، بدلا من أن نسقطه من حسابنا ، ونهتم بما يحتشد خلفه من القضايا التي تستحق منا الانشغال وتستأهل إطلاق طاقاتنا الفكرية لبلورتها وتحليلها وتطويرها والبناء عليها .

ولو أطلقنا بين مفكري الأمة وعلمائها شعاراً « كإسلامية » أو « الأسلمة » أو « التأصيل الإسلامي » أو « التوجيه الإسلامي » للعلوم والمعارف ، لوجدنا الكثيرين منهم قد انشغلوا عن أصل القضية المطروحة ، بمناقشة المصطلح ، والوقوف إلى جانبه ، أو الوقوف في مواجهته ، بل إن الذين ينحتون الشعارات - أنفسهم - يفتر حماسهم لها بعد فترة من الزمن نتيجة هذا اللفظ ، فيتحولوا إلى غيرها ، لأسباب موضوعية ، أو غير موضوعية . وفي كل الأحوال يختل خطابهم الذي كان قائما على

يملكون ، وعلى الأمة كلها ، بمفكرها ومؤسساتها وكتابها وصناع القرار فيها أن يلتقطوا الأفكار الصالحة وأن يتبنوها ، وأن يعملوا على تحقيقها ، فذلك وهم بعيد .

إن الداعي إلى فكرة إصلاحية عليه أن يكون أول العاملين لها ، الواهبين حياتهم لتحقيقها ، وإن صرفه عنها شاغل آخر - ضعفت ثقة الناس فيما يقول ، وأصبح شأنه شأن من يطلب من المارة أن يعينوه في رفع الحمل الثقيل ، فإذا ما شرعوا في العمل - تلفتوا حولهم فلم يجدوه بينهم ، فإن سألوه في ذلك قال إنه انشغل بالخروج إلى رأس الطريق لدعوة الآخرين إلى معاونتهم !!

الثانية :

أن الفكر لا يؤطره شعار ، ولا يجبسه مصطلح ، ولا تعوق انطلاقة حروف اللغة ولا تعريفات المعجم .

وآفتنا من قديم أننا نتراص أمام مصطلح ندفع عنه سهام المهاجمين ، بدلا من أن نحاورهم حول المحتوى والمضمون ، أو أننا نشن هجوما على صنم أقامه الآخرون ، مفترضين فيه كل صفات الكفر والشرك والنفاق . ولو سألنا المهاجمون عما نحمل في جعبتنا من أفكار ، ولو طلبنا نحن من الآخرين أن يطرحوا ما لديهم من القضايا على مائدة واحدة - لاتضحت الرؤية ،

ما يشبه التقديس للمصطلح المستعمل ،
وتضطرب معه حججهم ويقل أثرهم .

أما الذين ينفذون إلى لب القضايا ، بحثا
عن أسبابها ، وكشفا عن دوافعها ، وتحليلا
لعناصرها ، وطرحا لبدايلها ، مارين مروراً
عابراً بما أطلقه الناس عليها من أسماء وما
اختاروه لها من ألقاب ؛ فهؤلاء هم الذين
يستقيم خطابهم ويمتد أثرهم ، متجاوزا قيود
اللغة وعصبية الانتماء .

قد يكون مطلوباً إطلاق شعار ما - مع
شرحه وتدعيمه بالتموذج والمثال - عندما
يكون المخاطب بعيداً عن القضية ، غائبا عن
إدراكها ، فتلزمه الإفاقة وشد الانتباه .

أما إذا كان المخاطب منشغلاً بالقضية
المطروحة ، منفقاً فيها عمره ، مؤلفاً حولها
الكتب والأبحاث ، فأقرب الطرق إليه هو
الحديث عن المضمون ، إذ تصبح مناقشة
الشعار معه مضيعة للوقت ، مفسدة لما
يرجى من تجميع الجهود وحشد الطاقات
وتنسيقها في اتجاه الإنجاز .

الثالثة :

أن الله قد أنعم علينا أن هدانا إلى إحياء
نظام الأوقاف الذي أوشك أن يندثر مع
الانحسار الحضاري للأمة الإسلامية ،
وأوشك ألا يبقى منه سوى صيغ مشوهة
ورثتها الأنظمة الحاكمة ، مفرغة من

محتواها الإنساني والاجتماعي ، محكومة
بسياسة الدول وتوجيهها .

ثم التقطت النظم الإدارية الغربية جوهر
التجربة ، وصاغت بما يخدم أهدافها ،
وقدمتها في إطار منظومتها التشريعية تحت
اسم NONPROFIT TRUST ، فعاد
المسلمون المقيمون في الغرب - بتوفيق من
الله - إلى شراء بضاعتهم التي ردت إليهم ،
فأنشأوا من جديد أوقافهم التي تتمول من
عائداتها مساجدهم ومدارسهم ومراكزهم
الدعوية المتعددة .

ومع ازدياد الوعي لدى المحسنين ، ازداد
التحول من عقلية الصدقة العابرة إلى منهج
الوقف ، القائم على التدبير والتخطيط وعلى
استدعاء الطاقات المالية والبشرية والإبداعية
في المجتمع .

لقد كانت الأموال - في تاريخنا -
توقف على العديد من الأغراض الخيرية ،
وكان أصحابها يرفعون أيديهم عنها بعد
وقفها ، وتنتقل إدارة شؤونها إلى أهل الخبرة
الذين هم أدري بغاياتها ووسائلها وطرق
رعايتها وتشميرها . وكان هذا هو سر نجاح
الأوقاف في حضارتنا السالفة .

وأحسب أن المشروع الإسلامي المعاصر
بوجه عام ، وعموده الفكري بوجه
خاص ، هو أولى المشروعات باعتماد نظام
الوقف أساساً اقتصادياً له ، فكم من

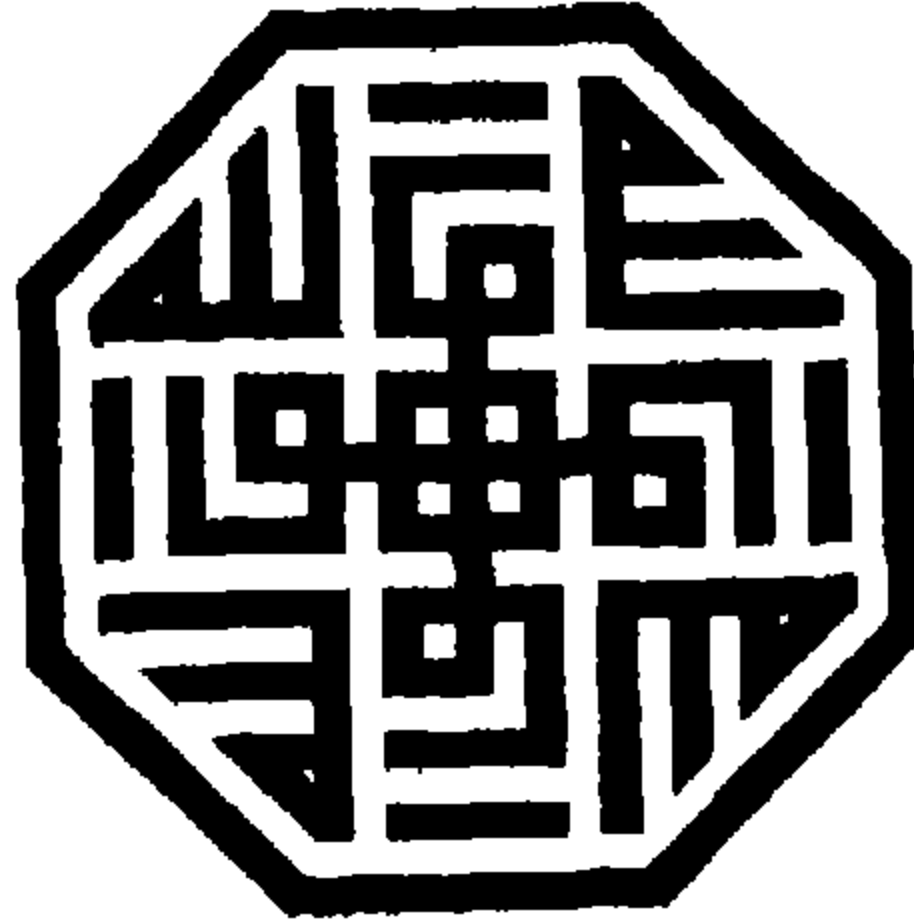
الفكري ، لا ترتبط مسيرتها بأعمار مؤسسها أو ممولها ، وإنما يتوقف نجاحها - في إطار نظام الوقف - على قوة الدفع الذاتي من داخلها ، وعلى تجدد دمائها بتجدد أجيال الحاملين همومها وآمالها ، الواعين دورها ، المستشرفين مستقبلها .

ويبقى للمؤسسين والواقفين فضل المبادرة والسبق ، ودعاء الصالحين لهم بخير المثوبة على ما قدموا وبذلوا ابتغاء وجه الله .

أ . محيي الدين عطية

المفكرين والعلماء والباحثين من يربط طموحه العلمي بالمشروعات الجماعية ، وهؤلاء يحرصون على تنميتها وتطويرها وترشيدها ، ويسهمون بدراهمهم - قلت أو كثرت - في دعمها ، متى اطمئنوا إلى استقلال مسيرتها سياسيا واقتصاديا وإداريا .

إن المشروعات الكبرى ، كالجامعات والمعاهد ومراكز البحث والإشعاع





الدين والفلسفة (*)

أ.د. محمود حمدي زقزوق

نقاط البحث :

تمهيد : مقولات شائعة :

لقد شاع بين العامة منذ قرون متطاولة مقولات عديدة حول الفلسفة ، وحول صلتها بالدين ، وترسخت هذه المقاولات في الأذهان ولا تزال حتى الآن تعمل عملها لا في محيط العامة فقط ، بل في عقول البعض ممن يتتسبون إلى الثقافة . وهذا ما دفع أفلاطون قديما إلى القول بأن الجمهور ميال إلى الاعتقاد بأن الفلسفة عديمة النفع^(١) .

ومن بين المقولات الشائعة في هذا الصدد أن الفلسفة سفه ، وأنها مرادفة للإلحاد ، أو أنها دين من لا دين له . ويشبه البعض عمل الفيلسوف بمن يبحث في حجرة مظلمة عن قطة سوداء لا وجود لها .

وقيل أيضاً عن المنطق الذي هو أحد العلوم الفلسفية : من تمنطق فقد تزندق . وعندما بدأ الشيخ محمد عبده دراسة المنطق

١ - تمهيد : مقولات شائعة.

٢ - الفلسفة ظاهرة إنسانية.

٣ - صلة الدين بالفلسفة.

٤ - موقف الإسلام من التفكير الفلسفي.

٥ - مجالات النشاط الفكري في الإسلام.

٦ - قضية النزاع بين الدين والفلسفة.

٧ - موقف فلاسفة المسلمين من الفلسفة اليونانية.

٨ - خاتمة.

(*) بحث مقدم للنشرة العلمية لكلية الشريعة بجامعة قطر ، الخميس ٢٠/١١/١٩٨٩.



وشي الواشون إلى والده بأن ولده يدرس علوم الضلالت التي توقع في الشبهات وتزلزل المعتقدات . فسافر الوالد إلى ولده فور سماعه نبأ هذه الكارثة ليصل إليه في القاهرة في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل محذرا منذرا بالويل والثبور وعظائم الأمور ، كما يروي الشيخ محمد عبده نفسه في مقال له في صحيفة الأهرام عام ١٨٧٧ م (٢) .

وقد شاع في عقول العامة أيضاً أن الفلسفة تعبير عن كل شيء مبهم وغامض مما لا سبيل إلى فهمه ولا جدوى من الاشتغال به . فهذا الاشتغال بالفلسفة - في نظرهم - يعد جهداً ضائعاً وإنهاكاً للفكر فيما لا طائل من ورائه . ومن هنا فإن العامة عندما يسمعون أحداً يقول كلاماً غير مفهوم يعلقون على ذلك بقولهم : إنه يتفلسف .

وقد علق أرفلد كوله على ذلك كله بقوله :

إن الأصوات التي نسمعها اليوم معلنة قرب انتهاء الفلسفة أو الزعم بأنها من الأمور الكمالية التي لا نفع فيها إن هي إلا أصوات تصدر عن جهل بماهية الفلسفة ومعناها ورسالتها التي اضطلعت بها في عصورها المختلفة. (٣)

ومن الملاحظ أن الكثيرين - على الرغم من نفورهم من الفلسفة والتفلسف - يستخدمون في تعبيراتهم اليومية كلمة (فلسفة) للتعبير عن اتجاهاتهم العامة ،

فيقال مثلاً : فلسفتي في الحياة أو فلسفتي في عملي هي كذا أو كذا . ويقنع الكثيرون بهذا الاستخدام السطحي للفظ الفلسفة ، إما تجملاً في الحديث ، أو تظاهراً بالثقافة أمام الغير عن طريق استخدام كلمات مبهمة مثل كلمة فلسفة ، ولا يتعدى الأمر هذا النطاق .

وسبب هذا الخلط في عقول غالبية الناس يرجع في نظرنا إلى عاملين :

- ١ - انعدام التحديد الدقيق والرؤية الواضحة الواعية لمفهوم الفلسفة في أذهان الكثيرين .
- ٢ - الميل إلى إصدار الأحكام المطلقة على المذاهب الفلسفية المختلفة وتعميم هذا الحكم على الفلسفة من حيث هي فلسفة .

الفلسفة ظاهرة إنسانية :

والحق أن الفلسفة ظاهرة إنسانية عامة . فالتفكير الفلسفي ليس - كما يتصور البعض - احتكاراً للفلاسفة أو للمشغلين بالفلسفة . فالإنسان بوصفه إنساناً يتميز عن غيره من الكائنات بعقل وهدى الله إياه ليفكر به . والتفلسف في أبسط معانيه ليس شيئاً آخر غير استخدام هذا العقل : فالحيوان يرى ويسمع ، بل ويتذكر ، ولكنه لا يستخدم هذه القوى إلا في حاجاته الوقتية . أما الإنسان فإنه يرى ظواهر الكون على اختلاف أنواعها فيتصورها ، ويكون له فيها رأياً ، ثم يجتهد في تعرف عللها وعلاقة حقائق الكون بظواهره ، فإن فعل هذا قلنا إنه

يتفلسف (٤) .

وعلى ذلك فإنه لا يوجد في الغالب إنسان لا يتفلسف ، أو على الأقل فإن لكل منا في حياته لحظات يكون فيها فيلسوفا ينظر ويتأمل ويحاول الوصول إلى أعماق الأمور . وليست الفلسفة إلا نتاجا للنظرة الفاحصة للعقل البشرى إلى هذا الوجود ، وتطلعا مشروعا من جانب هذا العقل إلى إدراك المبادئ الأولى في هذا الوجود .

والعقل الإنساني نور من نور الله ، أو كما يقول الغزالي : أئودج من نور الله (٥) ، وبهذا النور يحاول العقل أن يكشف مجاهل الوجود وشعابه فيتتبع الموجودات ويحاول أن يدرك ماهياتها وحقائقها مرتقيا من علة إلى علة حتى يصل إلى الغاية القصوى التي هي العلة الأولى والتي كان كل شيء بها ومن أجلها (٦) .

ثم يعود هذا العقل مرة أخرى إلى تأمل هذا الكون ناظرا فيه من جديد ومكونا لنفسه صورة واضحة عنه ومفسرا كيفية انسجام الأشياء في ذاته وفيما حوله مما هو خارج عن ذاته .

ومن ذلك يتضح أنه على الرغم من نفور جمهور الناس من التفلسف وتشكيكهم في جدية الفلسفة وقيمتها ، ومحاولتهم صرف الإنسان عن البحث في قضاياها الكبرى - على الرغم من ذلك كله فإننا جميعا من عامتنا إلى خاصتنا نتفلسف ، بدرجات متفاوتة ، وإن كان

البعض منا لا يريد أن يسلم بأنه يتفلسف (٧) .

فالفلسفة في واقع الأمر ليست بالشئ الدخيل على الإنسان ، فحياته حلقات متصلة من الفكر والتأمل . وهكذا يتبين لنا أن الفلسفة ليست نبأ غير طبيعي في المجتمع ، وإنما هي ظاهرة إنسانية ملازمة لوجود الإنسان . ولن تزول هذه الظاهرة من الحياة طالما كان هناك إنسان في هذا الوجود .

إن الذي يرفض الفلسفة أو ينكرها هو في حقيقة الأمر يتفلسف ؛ لأنه لا ينطلق من فراغ ، فهو يحاول أن يجد له أرضا صلبة يقف عليها ويطلق منها سهامه إلى الفلسفة ، أي أنه يحاول بناء وجهة نظر مضادة يجتهد في أن تكون منطقية ومتمينة ومستندة إلى أسس قوية . وهذا يعنى في النهاية أنه يتفلسف (٨) .

وليست الفلسفة مجرد دراسات نظرية منعزلة عن حياة الناس اليومية بعيدة عن التأثير فيها وإنما هي نظرة إجمالية في الكون ، واتجاه فكري عام نحو الحياة في مجموعها . وهذه النظرة ، وهذا الاتجاه الفكري يؤثر بطبيعة الحال في تصرفاتنا اليومية ، وفي معالجتنا للحوادث التي تمر بنا ، بمقتضاها نسير في عملنا ، ونواجه النظم الطبيعية والاجتماعية التي تحيط بنا وتحدد ميولنا نحوها ، وتصرفاتنا تجاهها (٩) .

وعندما نقول إن كل إنسان يتفلسف



المرتبة فقط من الفكر يصبح الإنسان باحثاً في الفلسفة^(١١).

٣ - صلة الدين بالفلسفة :

من الثابت أن الفكر الفلسفي قد نشأ وترعرع في حضن الدين . فقد كان الارتباط بين الفلسفة والدين ارتباطاً وثيقاً منذ القدم حيث كان التفكير الفلسفي ممتزجاً بالتفكير الديني . وقد قيل في هذا الصدد تلك العبارة المشهورة التي تقول : إن الفلسفة نبت الدين وأم العلم .

وليس هناك في حقيقة الأمر خلاف بين الهدف الذي يسعى إليه كل من الدين والفلسفة ، فالفلسفة تهدف إلى : معرفة أصل الوجود وغايته ومعرفة سبيل السعادة الإنسانية في العاجل والآجل ، وهذان المطلبان اللذان يشكلان موضوع الفلسفة بقسميها النظري والعملي هما كذلك موضوعا الدين بمعناه الشامل للأصول والفروع^(١٢).

ولكن هناك من ناحية أخرى فرقا بين المعرفة الفلسفية والمعرفة الدينية من حيث وسيلة هذه المعرفة ، فهذه الوسيلة هي العقل في الفلسفة والوحي في الدين . ويترتب على ذلك أن العقل في الفلسفة قد يرى أحيانا جانبا واحدا من الصورة أو من الحقيقة ، وهذا يفسر لنا وجود العديد من المذاهب الفلسفية لتفسير الحقيقة التي هي في ذاتها حقيقة واحدة مطلقة .

وتعبر قصة العميان والفيل - وهي أسطورة هندية قديمة نسبت إلى أفلاطون -

فليس معنى ذلك أن كل الناس فلاسفة بالمعنى الاصطلاحي . فالفيلسوف ليس هو ذلك الشخص الذي يبدأ فقط بالتفلسف وإنما هو الذي يستمر في مواصلة التفلسف حتى النهاية ، فلا يكتفي بدرجة التفكير التي يمارسها المرء في حياته العملية وحاجاته الوقتية ، ولكنه يفحص نتائج الفكر العادي في محاولة للبلوغ إلى وضوح تام ، في حين تظل الحقيقة في التفكير العادي أمرا تقريبا معتقدا^(١٠).

ومن هنا يمكننا أن نقسم مراتب الفكر عند البشر إلى ثلاث مراتب المرتبة الأولى هي مرتبة الفكر العادي التي تتمثل في انصراف الفرد إلى تدبير أمور حياته العملية ومعالجة مشاكله اليومية الجارية : أمور معاشه ومعاملاته وعلاقاته مع الناس والإنسان - في العادة - لا يقف عند هذه المرتبة من الفكر العادي ، وإنما تسلمه بالضرورة إلى مرتبة ثانية يمكن أن تسمى بالفلسفة الخاصة التي تمثل مجموعة المبادئ والمعتقدات التي ينظر من خلالها الفرد إلى الحياة والأشياء ، والتي تمثل أيضاً القواعد التي يعتمد عليها في سلوكه وتعامله مع الآخرين ، وفي تقييمه أو حكمه على الناس والأشياء . وتقنع الغالبية العظمى من الناس بالوقوف عند هذه الدرجة .

ولكن هناك مرتبة ثالثة من التفكير تتعدى هذا النطاق . وتلك هي المرتبة التي يحاول فيها المرء البحث عن تأصيل نظري لهذه المبادئ والمعتقدات قصد الوصول إلى أسس ومقومات نظرية تدعمها . وفي هذه

عليها^(١٤) .

وفي مقابل المعرفة الفلسفية التي هي معرفة إنسانية يجوز عليها الخطأ والصواب نجد أن المعرفة الدينية المبنية على الوحي الإلهي الموثوق بصحته معرفة معصومة من الخطأ وتعطينا الحقيقة كاملة دون مجهود عقلي يبذل من جانبنا . فالحقائق الدينية تعد حقائق كاملة جاهزة - إن صح التعبير - ولكن يبقى مع ذلك أن أصول الاعتقاد عقلية . ومن هنا يقول الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد :

لقد تقرر بين المسلمين كافة - إلا من لا ثقة بدينه ولا بعقله - أن من قضايا الدين مالا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل كالعلم بوجود الله وإرسال الرسل وإدراك فحوى الرسالة والتصديق بها ، كما أجمعوا على أن الدين إذا أتى بشيء يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل^(١٥) .

وهذا يبين لنا أن هناك تكاملاً بين العقيدة الدينية والمعرفة الفلسفية ، فهذه تدعم تلك . ومعارف العقل لا يمكن بحال من الأحوال أن تتناقض مع المعارف الدينية القائمة على الوحي الإلهي .

ومن أجل ذلك يقول الإمام الغزالي :

العقل كالأساس والشرع كالبناء ، ولن يفنى أساس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أساس .. فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل وهما متعاضان ، بل متحدان^(١٦) .

تعبّر هذه القصة عما نحن فيه من اختلاف المذاهب الفلسفية أصدق تعبير . وقد ذكر أبو حيان التوحيدي القصة في المقابسات على النحو التالي :

سمعت أبا سليمان يقول : قال أفلاطون : إن الحق لم يصبه الناس في كل وجوهه ولا أخطؤه في كل وجوهه ، بل أصاب منه كل إنسان جهة - قال : ومثال ذلك عميان انطلقوا إلى فيل وأخذ كل واحد منهم جارحة منه فجسها بيده ومثلها في نفسه ، فأخبر الذي مس الرجل أن خلقة الفيل طويلة مدورة شبيهة بأصل الشجرة وجذع النخلة ، وأخبر الذي مس الظهر أن خلقة شبيهة بالهضبة العالية والراية المرتفعة ، وأخبر الذي مس أذنه أنه منبسط دقيق يطويه وينشره . فكل واحد منهم قد أدى بعض ما أدرك ، وكل يكذب صاحبه ويدعى عليه الخطأ والغلط والجهل فيما يصفه من خلق الفيل . فانظر إلى الصدق كيف جمعهم ، وانظر إلى الكذب والخطأ كيف دخل عليهم حتى فرقهم^(١٣) .

وقد اتخذ خصوم القول بحقيقة مطلقة هذه القصة دليلاً على نسبية الحقيقة زاعمين أنه لا توجد حقيقة مطلقة . ولكن القصة في الواقع لا تبرهن بشيء ضد طابع الحقيقة المطلق . فقد عبر هؤلاء العميان عن قضيتهم تعبيراً غير دقيق ، ولو أن كل واحد منهم قال : إن الفيل - طالما أن الأمر يدور حول العضو الذي لمستته - مثل شجرة .. الخ فإن القضية حينئذ قضية صادقة لا غبار

للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن :- ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه ، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما ، فيظن أنه تناقض في الدين ، فيتحير به فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين ^(١٨) .

٤ - موقف الإسلام من الفكر الفلسفي :

للفلسفة في شتى عصورها تعريفات مختلفة بعضها شامل وبعضها يركز على جانب من الجوانب ، ولكنها جميعا تتكامل في النهاية ويمكن ردها جميعا إلى قضايا الفلسفة الرئيسية وهي : الله والعالم والإنسان . ومادام الإنسان يعيش في هذا الكون فلا بد أن يعرف مكانه في هذا الوجود ، وعلاقته بالكون ومن فيه وما فيه ، وعلاقته بخالق الكون .

وقد اهتم الإسلام بالعقل الإنساني اهتماما كبيرا وهياً له الظروف المناسبة ، وأزال من طريقه العقبات حتى يستطيع ممارسة دوره كاملاً في هذا الوجود . ومن هنا رفض الإسلام التقليد الأعمى ، وقضى على الخرافات والأوهام ، وغرس العزة في نفس المؤمن وحرره من عقدة الخوف من أى كائن مخلوق ، وقرر المسؤولية الفردية ، وقد كان ذلك كله بمثابة تمهيد الطريق أمام العقل الإنساني ليمارس وظيفته التي خلق من أجلها ^(١٩) .

وبالإضافة إلى ذلك فإن مبدأى التوحيد

فكل منهما يكمل الآخر ولا يمكن فصلهما عن بعضهما ، تماماً مثل الأساس والبناء اللذين لا يقوم أى منهما دون الآخر . ومجالات الدين والعقل تتأخم بعضها بعضاً . ومهمة العقل تتمثل - في نظر الغزالي - في قيادتنا إلى الدين وتسلیمنا إليه . وفي ذلك يقول الغزالي في المنقذ من الضلال : الأنبياء أطباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرفنا ذلك ، ويشهد للنسبة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن إدراك ما يدرك بعين النبوة ، وأخذ بأيدينا وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين ، وتسليم المرضى إلى الأطباء المشفقين . وإلى ههنا مجرى العقل ومخطاه ، وهو معزول عما بعد ذلك إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه ^(٢٠) .

وهذا يوضح لنا بجلاء علاقة العقل بالوحي ؛ فالعقل هنا له وظيفتان هامتان : أولاً : إرشادنا إلى الوحي والتصديق بالنبوة .

ثانياً : القيام بإدراك الوحي به وتفهمه .

وهكذا يتضح لنا أن المعرفة الفلسفية - وإن شئت قلت المعرفة العقلية وهما هنا بمعنى واحد - تعد ضرورية لدعم المعرفة الدينية .

ومن هنا لا يجوز أن يكون هناك تناقض بين العلوم العقلية والعلوم الشرعية ، وقد أكد ذلك الغزالي في الإحياء حيث يقول وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة

وختم النبوة يعدان بمثابة رفع الوصاية عن العقل الإنساني . فليس هناك مكان لأحد بعد ذلك لادعاء الاتصال بالله وفرض تعاليمه على الناس باسم الدين . فالدين قد اكتمل والعقل قد نضج ، ولا مكان لزعزعة الدين ولا للتشويش على العقل .

وقد حث القرآن الكريم على النظر والتفكير والتأمل في هذا الكون ، ودفع العقل دفعا إلى القيام بوظيفته التي خلق من أجلها وهي التفكير الذي يعد حقا طبيعيا للإنسان وغريزة فطرية مثل حقه في الحياة ومن هنا كان الحفاظ على العقل حتى يستطيع القيام بأداء وظائفه المشروعة من بين المقاصد الخمسة للشرعة الإسلامية ، مثل الحفاظ على الحياة نفسها . والإنسان دون تفكير ليس إنسانا على الحقيقة ، بل هو كائن تنازل عن إنسانيته وارتضى لنفسه أن يكون في مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان الأعجم .

ومن هنا عاب القرآن على هؤلاء الذين لا يفكرون ، أى لا يستخدمون عقولهم ، بل يصمون حواسهم وعقولهم عن طلب المعرفة ، أو الفهم . وبذلك يعطلون وسائل المعرفة لديهم من حس وعقل عن أداء وظائفها التي أرادها الله ، وفي هذا الصدد يقول القرآن الكريم :

﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (٢٠) .

ومن أجل ذلك فإن تعطيل العقل عن أداء وظيفته يعد - في نظر الإسلام - ذنبا من الذنوب التي يمكن أن تلقى بصاحبها في النار يوم القيامة . وهذا ما يؤخذ من الآية الكريمة :

﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم ﴾ (٢١) .

ومن هنا كانت دعوة القرآن الكريم المتكررة إلى الإنسان لاستخدام ملكاته الفكرية حيث يقول : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ (٢٢) ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ﴾ (٢٣) - ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ﴾ (٢٤) - ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (٢٥) وغيرها من الآيات العديدة في هذا الشأن .

ولذلك قرر ابن رشد أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها ، وذلك أخذاً من قوله تعالى : ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ (٢٦) ، وقوله تعالى : ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾ (٢٧) .

وإذا كانت ممارسة الوظائف العقلية تعد واجبا دينيا في الإسلام فإنها من ناحية أخرى تعد مسئولية حتمية لا يستطيع الإنسان الفكاك منها ، وسيحاسب على مدى حسن أو إساءة استخدامه لها مثلما يسأل عن استخدامه لباقي وسائل الإدراك

القرآن الكريم أن يقول لهم : إن هذه الفكرة التي تزعمونها إذا كانت صحيحة فإنها لا بد أن تكون مبنية على الملاحظة والمشاهدة اللتين هما وسيلتان من وسائل العلم والمعرفة الصحيحة .

ثانيا : يعرض علينا القرآن الكريم قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه والنقاش العقلي الذي دار بينه وبينهم حول الألوهية ، وما اشتمل عليه هذا النقاش من أدلة عقلية في صورة متدرجة في تسلسل منطقي رائع تحمل العقل على محاكاتها للوصول إلى نفس نتائجها وهي الوصول إلى اليقين الذي تشير إليه الآية الكريمة في بداية القصة ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ (٣٣) .

وبالإضافة إلى ذلك نجد أن الإسلام قد قدم عددا من المبادئ الهامة التي كان لها أثر حاسم في التطور الفكري والحضاري للمسلمين . ومن بين هذه المبادئ مبدأ الاجتهاد والوسطية ووحدانية الأصل الإنساني ، والتدقيق في رواية الحقائق التاريخية ، والتوجيه إلى استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية ، تلك القوانين التي يعبر عنها القرآن بأنها سنن الله .

وعلى الجملة فإننا إذا تأملنا آيات القرآن الكريم فإننا نستطيع أن نستخرج منها أصول المعرفة بالحقائق الكبرى وهي : الله والكون والإنسان والقيم ، وكذلك أصول تنظيم الحياة العملية وتشكيل الأخلاق ، ونجد فيه أيضاً منهجا لتحصيل المعرفة

الحسية . وفي ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ (٢٨) .

وقد قدم القرآن الكريم العديد من الشواهد والأمثلة التي تساعد العقل الإنساني على شق طريقه وأداء دوره . ومن بين هذه الشواهد ما يلي (٢٩) :

أولاً : يعرض القرآن بكل أمانة ودقة آراء المخالفين ثم يتبعها بالرد الحاسم القائم على المنطق السليم وقوانين الفطرة السليمة . فقد ذكر وجهات نظر الوثنيين والدهريين والماديين والكفار والمنافقين ، وعقب عليها تعقيباً مقنعاً مستخدماً في ذلك أنصع البراهين وأقوى الأدلة .

فالكفار مثلاً حين ينكرون البعث بعد الموت ويقولون : ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ يعقب القرآن على ذلك بقوله : ﴿ وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ (٣٠) وهنا يفرق القرآن الكريم بين الظن والعلم ، موجهنا نظرنا إلى ضرورة فحص الأحكام والتأكد من مصدرها ، وفي ذلك مافيه من الدعوة إلى النقد الموضوعي .

ويحذر القرآن من إصدار الأحكام في أمور لا علم للإنسان بها حتى لا يقع في الخطأ والتناقض ، فيقول : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ (٣١) .

وعندما زعم الكفار أن الملائكة إناث عقب القرآن على زعمهم بقوله : ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ (٣٢) وهنا يريد

الحسية التجريبية والمعرفة النظرية^(٣٤) ولا يوجد دين من الأديان مهد الطريق أمام العقل الإنساني على هذا النحو إلا الإسلام .

٥ - مجالات النشاط الفكرى فى الإسلام :

لقد فتح الإسلام مجال النشاط الفكرى أمام الإنسان على مصراعيه وأطلق الطاقات الفكرية للإنسان إطلاقاً لا حد له . ومن هنا رأيناه يجعل الكون كله بأرضه وسمائه وما بينهما مجالاً للنشاط الفكرى للإنسان . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾^(٣٥) .

والتفكر الذى تنص عليه الآية هنا أمر جوهرى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان . فإنه إذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون فلا يجوز له أن يقف منه موقف اللامبالاة ، بل ينبغى أن يتخذ لنفسه منه موقفاً إيجابياً ، وإيجابيته تتمثل فى درسه والنظر فيه وصولاً إلى معرفة خالقه من ناحية ، ومن ناحية أخرى للاستفادة منه بما يعود على البشرية بالخير . والإفادة من كل هذه المسخرات فى هذا الكون لا تكون إلا بالعلم والدراسة والفهم والتأمل ، باستخدام كل الملكات العقلية والحسية ، والنظر فى ملكوت السموات والأرض على هذا النحو سيؤدى إلى الرقى المادى ، وفى الوقت نفسه إلى الرقى الروحى .^(٣٦)

وقد جمع القرآن الكريم القضايا الرئيسية للفلسفة فى آية واحدة فى معرض الحث على النظر فيها وصولاً إلى الحق المطلق الذى هو فى النهاية غاية كل فيلسوف جاد . وذلك واضح تمام الوضوح فى قوله تعالى :

﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾^(٣٧) .

والتأمل فى هذا الترتيب الوارد فى هذه الآية يجد أن هذا الترتيب هو نفس الترتيب الذى سار عليه فلاسفة اليونان بدءاً بالكون الذى هو أول ما يبصره الإنسان حين يفتح عينيه ومروراً بالإنسان - الذى أصبح محوراً للتفلسف فى عصر سقراط - ثم انتهاء بقضية الألوهية التى كانوا يسمونها : الفلسفة الأولى أو العلم الأعلى . وقد اكتملت حلقات هذه القضايا فى فلسفة كل من أفلاطون وأرسطو .

وهذا يعنى أن هذا الترتيب الذى جاء فى الآية المشار إليها هو الترتيب الطبيعى الذى تقتضيه طبيعة هذه القضايا .

٦ - قضية النزاع بين الدين والفلسفة :

النزاع بين الدين والفلسفة نزاع له قصة أفرد لها الباحثون كتباً تتحدث عنها . وقد ألف الدكتور توفيق الطويل كتاباً فى هذا الموضوع بعنوان : قصة النزاع بين الدين والفلسفة .

وفى هذا الكتاب يرى أنه من استقرار

يقولون بأفكار تتفق مع العقل وتتناقض مع مواقف الكنيسة التي لم تكن بالضرورة هي مواقف الدين من حيث هو دين .

وقد استغلت الرشدية اللاتينية فلسفة ابن رشد لترويج القول بما يسمى بالحقيقة المزدوجة وهو قول يؤكد التناقض بين الحقيقتين الدينية والفلسفية . وابن رشد في الواقع برىء من هذا الزعم براءة الذئب من دم يوسف بن يعقوب^(٣٩) .

فلا يجوز من وجهة النظر الإسلامية وضع المسألة على أساس أن هناك خصومة بين الدين والعقل وأن الإنسان في موقف الاختيار بينهما . فهما عنصران جوهريان يتلازمان ولا يتناقضان ، والإنسان في حاجة إليهما معا . والدين الصحيح لا يمنع العقل البشرى من التفلسف ومن حقه في الفهم والتفكير في ملكوت السموات والأرض ، وإنما يدفعه إلى ذلك دفعا . والإسلام يعتبر العقل مناط إنسانية الإنسان فإذا عطل بالجهل والغفلة والعمى مسخت بشرية الإنسان وهبط بذلك إلى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان^(٤٠) .

والحديث عن قضية النزاع بين الدين والفلسفة يجرنا إلى الحديث عن اتهام الفلسفة بأنها مرادفة للإلحاد أو أنها دين من لا دين له .

لقد رد فرنسيس بيكون على هذا الاتهام بقوله :

« إن القليل من الفلسفة يميل بعقل الإنسان إلى الإلحاد ، ولكن التعمق فيها

تاريخ العقل مع الإيمان يتبين أنه لم يحدث بينهما نزاع أدى إلى استبعاد العقل واضطهاد أهله إلا إذا اجتمع أمران :

١ - أن تكون لدى رجال اللاهوت سلطة تمكنهم من اضطهاد العقل وأهله ، فإن أعوزتهم السلطة قنعوا بالغيبة وانتقموا بالثيمة .

٢ - أن يكون هناك عقل يجزؤ على اقتحام « المنطقة الحرام » التي حرمها رجال اللاهوت وارتداد آفاقها والانتفاء منها إلى اكتشاف مجهول أو إنكار مألوف .

وهكذا يجزئ العقل على نفسه بفضل جرأته ويقظته غضب واضطهاد خصومه . وبغير اجتماع هذين الأمرين لا يقوم نزاع أو صدام بين العقل والإيمان^(٣٨) .

وهذا النزاع التقليدي بين الدين والعقل أو بين الدين والفلسفة أو العلم بصفة عامة نزاع لا مكان له في تعاليم الإسلام .

والأقرب إلى الصواب أن تقول إن التناقض بين الدين والفلسفة هو أصلا فكرة راجت في الأوساط المسيحية بسبب بسيط وهو أن العقائد المسيحية تتناقض أصلا مع العقل تناقضا واضحا .

وقد ساعد على تأجيج نار العداوة بين الدين والفلسفة ذلك الموقف الذي اتخذته الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا في العصر الوسيط الذي تمثل في تعقب المفكرين والعلماء في كل مكان عن طريق محاكم التفتيش . وقد تعرض الكثيرون منهم للتعذيب والقتل لا لسبب إلا لأنهم كلنوا

ينتهى بعقول الناس إلى الإيمان .. وإذا ما صادف عقل الإنسان أسبابا ثانوية مبعثرة (في الطبيعة) فقد يقف أحيانا عندها ، ولا يتابع السير إلى ما وراءها ، ولكن إذا أنعم النظر فشهد سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها فإنه لا يجد بدا من الارتقاء في أحضان العناية الإلهية والتسليم لله ^(٤١) .

ويتضح لنا من خلال هذا النص أن الأمر على العكس تماما : فالفلسفة تؤدي إلى الإيمان لا إلى الإلحاد . أما السطحية في الفكر التي تقف عند الأسباب الثانوية وعند ظواهر الأشياء فإنها هي التي يمكن أن تؤدي بصاحبها إلى الإلحاد .

وماذا يمكن أن يقول المرء عن وقفة ديكارت في نهاية التأمل الثالث من كتابه « التأملات » حيث راح يتأمل جلال الله وعظمته ويعبر عن مدى انبهاره بنور الله الذي لا مثيل له ؟ لنقرأ هنا نص كلماته التي تعبر عن عمق الإيمان وصدق اليقين بعظمة الله جل جلاله .

يقول ديكارت :

« يبدو لي من الملامم جدا في هذا المقام أن أقف هنية وجيزة لكي أعاين هذا الإله ذا الكمال المطلق ، ولكي أنعم النظر في صفاته البديعة ، ولكي أتأمل بهاء نوره الذي لا مثيل له ، ولكي أتعشقه وأتعبده له ، على الأقل بقدر ما في وسعي وما تسمح به قوة ذهني الذي كأنما يرتد من هذا التطلع مبهورا . فكما أن الإيمان يعلمنا أن الغبطة العظمى في الحياة الأخرى إنما

تنال بهذه المعينة للجلالة الإلهية ، كذلك تعلمنا التجربة ولا تزال بأن تأملا كهذا ، وإن يكن بعيدا كل البعد عن الكمال ، يتيح لنا أن نظفر من الرضا بأكبر قسط نستطيع أن ننعم به في هذه الحياة ^(٤٢) .

٧ - موقف فلاسفة المسلمين من الفلسفة اليونانية :

قبل أن نتحدث عن هذه النقطة نود أن نقدم لها بملاحظة أساسية في هذا الصدد وهي أنه لا توجد فلسفة من الفلسفات منذ كان هناك تفلسف حتى الآن يمكن أن تدعى لنفسها أنها هي وحدها الفلسفة الوحيدة المطلقة . فالمذاهب الفلسفية العديدة تعد وجهات نظر قد تقترب أو تبعد عن الحقيقة ، ولكن لا شك أن في كل منها جانبا من جوانب الحقيقة فالبناء الفلسفي بناء تشترك فيه الأجيال ، ويضيف إليه كل جيل شيئا جديدا يمهّد به السبيل لمن يجيء بعده . فالكلمة الأخيرة في الفلسفة لم يقلها جيل بعينه ، وإلا أصيب الفكر بالجمود وحكم عليه بالعقم الأبدي . وفي هذا الصدد يقول أبو بكر الرازي :

« اعلم أن كل متأخر من الفلاسفة إذا صرف همه إلى النظر في الفلسفة وواظب على ذلك واجتهد فيه وبحث عن الذي اختلفوا فيه لدقته وصعوبته عِلِمَ عِلْمَ من تقدمه منهم وحفظه واستدرك بفطنته وكثرة بحثه ونظره أشياء أخرى ؛ لأنه مهد بعلم من تقدمه وفطن لفوائد أخرى



ويرى أنه لا يجوز رفض أو جحد الرياضيات والمنطقيات والطبيعيات باستثناء بعض المسائل في الطبيعيات وعلى رأسها مسألة السببية . أما السياسيات فإنه لا يرفضها ولكن يرى أن الفلاسفة أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ، وأما الخلقيات فيرى أنهم أخذوها من المتصوفة ويعنى بهم المتألهين الذين وجدوا ويوجدون في كل عصر (٤٥) .

أما الهجوم العنيف الذي وجهه الغزالي إلى هذه الفلسفة فقد انصب على قسم الإلهيات وبخاصة مسائل قدم العالم وعلم الله بالكلييات والبعث بالروح فقط .

ومعلوم أن الغزالي كان من أشد الناس تحمسا للمنطق الأرسطي وقد ألف الغزالي فيه عدة كتب هي معيار العلم ، ومحك النظر ، والقسطاس المستقيم . وكتب فضلا عن ذلك مقدمة مطولة في المنطق لكتابه (المستقصى من علم الأصول) واعتبر المنطق - كما يقول في هذه المقدمة - بمثابة مقدمة ضرورية لكل علم على الإطلاق .

وهكذا ينبغي أن نفرق بين نقد فلسفة ما من الفلسفات ورفض التفكير الفلسفي ؛ فنقد فلسفة ما أمر عادي وليس فيه بأس ، بل هو على العكس أمر مطلوب تقتضيه طبيعة الفلسفة ذاتها ، أما التفكير الفلسفي من حيث هو فهذا أمر لا فكاك للعقل الإنساني منه لأنه جوهر طبيعة هذا العقل . والذي يرفض التفكير الفلسفي

واستفضلها ؛ إذ كان البحث والنظر والاجتهاد يوجب الزيادة والفضل (٤٣) .

وإذا كان الأمر كذلك فإن الفلسفة اليونانية التي وصلت إلى المسلمين لا يمكن أن تؤخذ على أنها الحق بعينه ، بل يجب أن توضع في إطارها الصحيح ، وهو أنها تمثل وجهات نظر لها ظروفها وعصرها . ومن ناحية أخرى يجب أن يتم تقييمها أولا بمقياس عصرها . ولا شك في أنها كانت في ذلك العصر الذي ظهرت فيه تعد خطورة متقدمة وفتحا جديدا في عالم الفكر .

وإذا كان الغزالي قد قام بنقد الاتجاهات الفلسفية اليونانية فليس معنى ذلك أنه كان يرفض التفكير الفلسفي ، بل الأمر على العكس من ذلك تماما . فقد كان طول حياته نموذجا رائدا للعقلية الفلسفية الواعية . ومعلوم أن ديكارت أيضاً قد نقد هؤلاء الذين وقفوا مقلدين لأفلاطون وأرسطو بدلا من السعي إلى الوصول إلى شيء أفضل (٤٤) . ومعلوم أيضاً أن « كانت » قد نقد المذاهب الفلسفية السابقة ، ولم يقل أحد إن ديكارت أو كانت بذلك يرفض التفكير الفلسفي .

ومع أن الغزالي قد هاجم الفلسفة اليونانية هجوما عنيفا في كتابه تهافت الفلاسفة كما ظهرت في فلسفة كل من الفارابي وابن سينا إلا أنه قد اعترف بصحة وأهمية بعض العلوم الفلسفية ، ففي كتابه « المنقذ من الضلال » يقسم الغزالي علوم الفلاسفة إلى رياضيات ومنطقيات وطبيعيات وسياسيات وخلقيات وإلهيات ،

بصفة عامة مثله مثل من يحاول أن يمنع ضوء الشمس بوضع يده أمام أشعتها ، فهذا الأمر ضد طبيعة الأشياء .

ولم يكن الغزالي وحده هو الذى قام بنقد الفلسفة اليونانية وفلاسفة المسلمين بصفة عامة - وإن كان البعض منهم قد بالغ فى تقدير قيمة هذه الفلسفة - كانت لهم نظرات نقدية فى هذا الصدد ، غير أن الغزالي كان أكثر تفصيلاً وأكثر وضوحاً .

فالكندى - وهو أول فيلسوف عربى مسلم - لم يتردد فى أن « يخالف أرسطو فى قدم العالم - ويؤكد العناية الإلهية - وصفات الإله المبدع الفعال المدبر الحكيم ، ويخرج من نظره الفلسفى بوجهة نظر عامة تقوم على فهم الدين بالعقل الفلسفى ، وينتهى إلى مذهب دينى فلسفى معاً » (٤٦) .

وهذا يبين لنا أنه منذ البواكير الأولى للفكر الفلسفى الإسلامى نجد أن الدين والفلسفة يتعانقان ويتجاوران فى عقول فلاسفة الإسلام . وهنا لابد من افتراض وجود منطلق ثابت وراء التقاء الحقيقية الدينية بالحقيقية الفلسفية ، أو وجود خلفية دينية تصحح وحدة الغاية والهدف بين الدين والفلسفة عند مفكرى المسلمين ، ويتمثل هذا المنطلق الأساسى ، أو الخلفية الدينية فيما يمكن أن نسميه « وحدة الحقيقة » فى الإسلام .

وقد ظهر أثر هذه « الوحدة » فى فكر فلاسفة المسلمين بصفة عامة ، الأمر الذى

جعل البعض يصف الفلسفة الإسلامية بأنها فلسفة توفيقية تنحو نحو التوفيق بين العقل والوحي .

وهكذا نجد أن الفارابى يرى أن موضوعات الفلسفة وموضوعات الدين واحدة ، وأن كلا منهما « يعطى المبادئ القصوى للموجودات ، فإنهما يعطيان علم المبدأ الأول والسبب الأول للموجودات ، ويعطيان الغاية القصوى التى لأجلها كون الإنسان وهى السعادة القصوى » (٤٧) .

ويرى الفارابى أن الفلسفة الصحيحة لا تتناقض مع الدين الصحيح ، فإن بدا هناك بعض النفور أو التناقض بين الطرفين فما ذلك إلا لأن النظام الفلسفى الذى تناقض مع الدين يعتبر نظاماً واهياً لم تكتمل فيه البراهين المؤدية إلى اليقين . فالحقيقة واحدة لدى الفارابى ولكن الطريق إليها متعدد .

أما ابن سينا فإنه يرى « أنه لا يوجد فى أقسام الفلسفة ما يخالف الدين أو يتعارض معه ، ويرجع ضلال أدعياء الفلسفة وانحرافهم عن منهاج الشرع إلى قصور فى تفكيرهم وعجز فى أفهامهم . وفى ذلك يقول :

« لقد ظهر أنه ليس شئ منها - أى فلسفة - يشتمل على ما يخالف الشرع فإن الذين يدعونها ثم يزيغون عن منهاج الشرع إنما يضلون من تلقاء أنفسهم ومن عجزهم وتقصيرهم لا أن الصنعة نفسها توجبه ، فإنها بريئة منهم » (٤٨) .

٨ - خاتمة :

وفي ختام هذا البحث يبقى هناك سؤال لعله يدور في أذهان البعض : ما فائدة إثارة هذه القضية الآن ؟ أو بعبارة أخرى : ماذا يعنى هذا الموضوع بالنسبة لعصرنا ؟ .

ولإجابتنا عن ذلك نتلخص في الأمور التالية :

أولاً : يعد التفكير قيمة من القيم التي حرص الإسلام على العناية بها والاهتمام بأمرها ، وتوفير كل الظروف الملائمة لجعلها واقعا حيا بين الناس لأنها وظيفة العقل الذى من أجله استخلف الله الإنسان في الأرض . والتفكير الفلسفى يساعدنا على الحفاظ على هذه القيمة نقية من الشوائب بالتخلص من الكثير من الأوهام والخرافات التي يرفضها الدين أيضاً ، ويساعدنا على تجنب إصدار الأحكام المطلقة في المسائل الخلافية ، ويساعدنا على التحرر من التقليد الأعمى الذى حذر منه النبي ﷺ في حديثه الشريف :

لا تكونوا إمعة ، ويساعدنا في مهمة البحث عن اليقين في شتى المسائل الفكرية بأدلة المنطق وبراهين العقل حتى لا نضل أسرى الظنون التي لا تغنى من الحق شيئاً .

الدعوة الإسلامية في الغرب في حاجة ماسة إلى عقلية فلسفية تعرض الإسلام عرضاً يتناسب مع المستويات الفكرية والثقافية في عالم اليوم ، كما أن قطاعاً كبيراً من المثقفين في عالمنا الإسلامى في حاجة أيضاً إلى مثل هذا العرض الفلسفى

ومن حقنا أن نطبق ما يقوله كل من الفارابى وابن سينا حول الفلسفات التي تنحرف عن منهاج الشرع على فلسفة كل منهما إذا وجدنا فيها ما يخالف الشرع أو يتناقض معه .

أما ابن رشد فإنه قد بين في بداية كتابه (فصل المقال) أن النظر في كتب القدماء أمر واجب بالشرع مادام الهدف الذى يقصدون إليه هو ذات المقصد الذى حثنا عليه الشرع وهو : النظر العقلى في الموجودات وطلب معرفتها واعتبارها ، غير أن النظر في كتب القدماء يتطلب عقلية ناقدة واعية لا تعتمد إلا ما يوافق الحق الذى جاء به الدين ، وهنا يقول ابن رشد :

« ننظر في الذى قالوه من ذلك ، وما أثبتوه في كتبهم ، فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرناهم منه وعذرناهم » (٤٩) .

أما الحكمة من حيث هي حكمة ويعنى بها الفلسفة فإنها في نظر ابن رشد « صاحبة الشريعة والاحت الرضيعة ... وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجواهر والغريزة » (٥٠) .

وبناء على ذلك فإن إثارة أى نوع من أنواع العداوة بينهما إنما يرجع - في رأيه - إلى أصحاب الأفهام الفاسدة والاعتقادات المحرفة أو يرجع إلى الأصدقاء الجهال .

للإسلام .

ثانياً :

المذاهب السياسية والتيارات الفكرية والاقتصادية والأيدولوجيات المختلفة التي يروج بها عالم اليوم لا يمكن فهمها فهما سليماً إلا بالرجوع إلى أصولها الفلسفية : فكل منها يعتمد على أصول فلسفية لا بد من دراستها وفهمها لمعرفة خلفيات التيارات التي تتصارع في عالمنا المعاصر . ونحن المسلمين لا نعيش وحدنا في هذا العالم الذي أصبح مثل قرية صغيرة . ومن هنا فلا بد من فهم ودراسة ما يدور حولنا حتى لا نخدع أو نضل ، وإلا فإن الطوفان سيجرفنا في تياره . فالبث المباشر قادم في وقت قريب جداً ، ولن نستطيع المواجهة إلا بالدراسة الواعية والفهم العميق والأفق الواسع والعقلية الفلسفية الناقدة . ومن هنا فلا مفر من التفكير الفلسفي .

ثالثاً :

الفلسفات الإلحادية تعد من الفلسفات التي وقفت في منتصف الطريق الفلسفي ، وقفت عند الأسباب الثانوية القريبة ، وعجزت عن الاستمرار في طريق التفلسف حتى النهاية كما أشار فرنسيس بيكون ، وهي فلسفات لم تكتمل فيها البراهين الفلسفية الموصلة إلى اليقين حسب منطق فلسفة الفارابي ، وتدلل على عجز في أفهام

أصحابها وقصور في عقولهم بناء على فلسفة ابن سينا . ومن هنا فكل فلسفة إلحادية لا يمكن أن تحسب على الفلسفة من حيث هي فلسفة .

رابعاً :

لقد استبعد ديكارت - أبو الفلسفة الحديثة - من مجال الشك الذي عرف به العقائد الدينية وقواعد الأخلاق ، وحصر منهجه الشك في الأمور النظرية . وهذا درس من الثقافة الغربية الأصيلة ينبغي أن يتعلمه بعض أبناء المسلمين الذين يبحثون في « قمامة » الثقافة الغربية عن أباطيل المستشرقين التي تشكك في أصول الإسلام ، ويقومون بترويجها بين المسلمين خدمة لأعداء الإسلام .

خامساً :

وأخيراً نود مرة أخرى أن نؤكد أن الفلسفة الصحيحة لاتعادي الدين ، والدين الحق لا يقف حجر عثرة أمام التفكير الفلسفي . ومن ناحية أخرى لم يحدث أن حورب التفكير الفلسفي بالسيف في المجتمع الإسلامي على مدى تاريخ المسلمين الطويل . وما يحدث من هذا القليل كانت وراءه أسباب سياسية أو غيرها من أسباب لم تكن تمت إلى مجال الفكر بصلة .

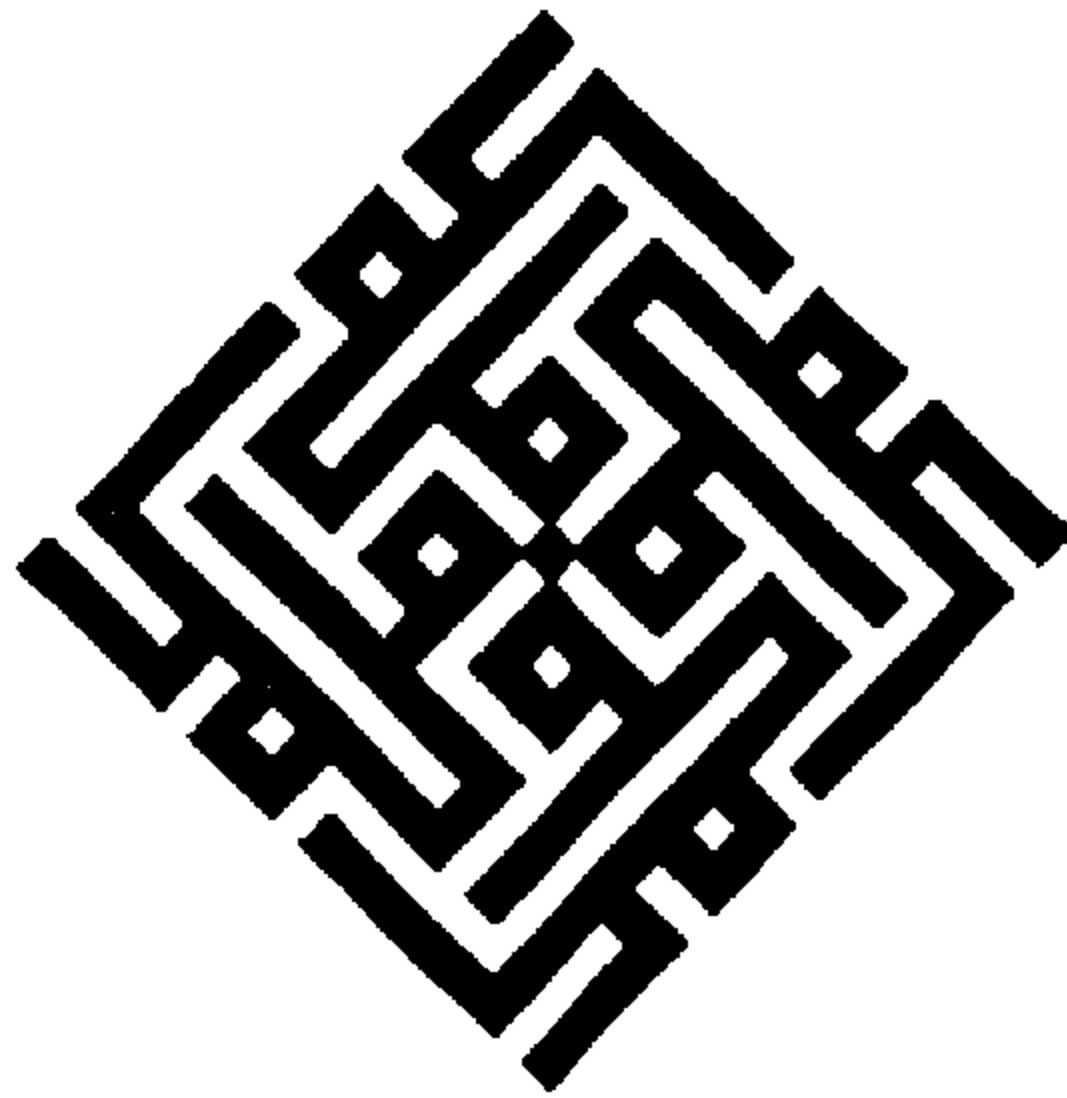
والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .



الهوامش

- (١) تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص ١٠٥ .
- (٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج ٣ ص ١٥ وما بعدها - تحقيق . د . محمد عمارة - بيروت ١٩٨٠ .
- (٣) أزلد كوله : المدخل إلى الفلسفة ص ٥ توجيه د . أبو العلا عفيفي - القاهرة ١٩٤٢ .
- (٤) مبادئ الفلسفة لرابوبرت - ترجمة أحمد أمين ص ٢/١ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥ .
- (٥) مشكاة الأنوار للغزالي ص ٤٤ - تحقيق د . أبو العلا عفيفي - القاهرة ١٩٦٤ .
- (٦) تاريخ الفلسفة العربية - تأليف حنا الفاخوري و خليل الجر ص ٧ . بيروت ١٩٦٦ .
- (٧) البراهاتزم ليعقوب فام ص ٤٠ - القاهرة ١٩٣٦ .
- (٨) كتابنا : تمهيد للفلسفة ص ١٦ - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٦ .
- (٩) البراهاتزم ص ٣٣
- (١٠) كتابنا : تمهيد للفلسفة ص ١٧ .
- (١١) مقدمة في الفلسفة العامة : د . يحيى هويدى ص ١٢/١١ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥ .
- (١٢) الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٥٣ - القاهرة ١٩٥٢ .
- (١٣) المقابسات لأبي حيان التوحيدي ص ٢٥٩ وما بعدها - المكتبة التجارية الكبرى - مصر ١٩٢٩ .
- (١٤) مدخل إلى الفكر الفلسفي لبوخينسكى ، ومن ترجمتنا ص ٦٧ - الأنجلو المصرية ١٩٨٠ .
- (١٥) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ٤٥ ، ٥٣ - دار إحياء العلوم - بيروت ١٩٧٩ .
- (١٦) معارج القدس للغزالي ص ٤٦ - المكتبة التجارية الكبرى (دون تاريخ) .
- (١٧) المتقذ من الضلال ص ١٤٦ وما بعدها - دمشق ١٩٣٤ .
- (١٨) إحياء علوم الدين ج ٣ ص ١٧ - طبع مصطفى الباي الحلبي - القاهرة ١٩٣٩ .
- (١٩) كتابنا : دور الإسلام في تطور الفكر الفلسفي ص ١٣ - ١٦ دار المنار - القاهرة ١٩٨٦ .
- (٢٠) سورة الأعراف ١٧٩ .
- (٢١) سورة الملك ١٠ ، ١١ .
- (٢٢) سورة يونس ١٠١ .
- (٢٣) سورة الروم ٨ .
- (٢٤) سورة الأعراف ١٨٥ .
- (٢٥) سورة الذاريات ٢١ .
- (٢٦) سورة الحشر ٢ .
- (٢٧) سورة الأعراف ١٨٥ .
- (٢٨) سورة الإسراء ٣٦ .
- (٢٩) كتابنا : دور الإسلام في تطور الفكر الفلسفي ص ١٩ وما بعدها .
- (٣٠) سورة الجاثية ٢٤ .
- (٣١) سورة الإسراء ٣٦ .

- (٣٢) سورة الزخرف ١٩ .
- (٣٣) سورة الأنعام ٧٥ .
- (٣٤) كتابنا : دور الإسلام في تطور الفكر الفلسفي ص ٢٢ ، ٣٢ .
- (٣٥) سورة الجاثية ١٣ .
- (٣٦) كتابنا : دور الإسلام في تطور الفكر الفلسفي ص ١٠ .
- (٣٧) سورة فصلت ٥٣ .
- (٣٨) قصة النزاع بين الدين والفلسفة للدكتور توفيق الطويل ص ١١ من الطبعة الثانية .
- (٣٩) تناولنا هذا الموضوع في بحث حول : الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية لدى ابن رشد يجرى نشره حالياً في الكتاب التذكاري لابن رشد عن طريق المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة .
- (٤٠) كتابنا : تمهيد للفلسفة ص ٩٢/٩١ .
- (٤١) أعلام الفلاسفة : هنري توماس - ترجمة مئري أمين ص ٢١٠ - القاهرة ١٩٦٤ .
- (٤٢) التأملات لديكارت ص ١٥٧ - ترجمة د. عثمان أمين - الأنجلو المصرية ١٩٥١ . (أيضاً : كتابنا : دراسات في الفلسفة الحديثة ص ١١١ - القاهرة ١٩٨٨) .
- (٤٣) مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي لزوزنتال ص ١٨٥ - ترجمة أنيس فريجة - بيروت . ١٩٨٠ .
- (٤٤) كتابنا : المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ص ٨٦ هامش ٢ . دار القلم بالكويت ١٩٨٣ .
- (٤٥) المنتقد من الضلال ص ٨٨ وما بعدها .
- (٤٦) الكندي وفلسفته للدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ص ٥٨ - دار الفكر العربي ١٩٥٠ .
- (٤٧) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق ص ٧٨ ، وتأملات في الفكر الإسلامي للدكتور محمد كمال جعفر ص ٧٨ - القاهرة ١٩٨٠ .
- (٤٨) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٦١ .
- (٤٩) فصل المقال لابن رشد ص ١٣ (ضمن : فلسفة ابن رشد - المكتبة المحمودية التجارية ١٩٦٨) .
- (٥٠) المرجع السابق ص ٣٦/٣٥ .



المعهد العالمي للفكر الإسلامي

يقدم إلى قرائه الكرام

أحدث إصداراته في سلسلة إسلامية المعرفة

تراثنا الفكري
في ميزان الشرع والعقل

للشيخ
محمد الغزالي

تقديم د. طه جابر العلواني



حديث ذو شجون حول العلوم النقلية الإسلامية ونقدها وإصلاح
مختلف جوانبها التعليمية لتتمكن هذه العلوم من أداء دورها في
بناء النسق الثقافي الإسلامي وإسلامية المعرفة.

يطلب من مكاتب المعهد بجميع أنحاء العالم



سَيِّدُ قُطْبٍ والتفسير الإسلامي للتاريخ

أ. د. عماد الدين خليل

في إحدى مقاطع تفسير سورة الأنعام
يورد سيد هذه المقولة وهو يقرأ الآية ﴿ قُلْ
سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾^(١) : « إن السير في
الأرض للاستطلاع والتدبر والاعتبار ،
ولمعرفة سنن الله مرتسمة في الأحداث
والوقائع ، مسجلة في الآثار الشاخصة وفي
التاريخ المروي في الأحاديث المتداولة حول
هذه الآثار في أرضها وقومها ، السير على
هذا النحو لمثل هذا الهدف وبمثل هذا
الوعي ، أمورٌ كلها كانت جديدة على
العرب ، تصوّر مدى النقلة التي كان المنهج
الإسلامي الربّاني ينقلهم إليها من جاهليتهم
إلى هذا المستوى من الوعي والفكر والنظر
والمعرفة . لقد كانوا يسيرون في الأرض
وينتقلون في أرجائها للتجارة والعيش ، وما

يتعلق بالعيش من صيد ورعي .. إما أن
يسيروا وفق منهج معرفي تربوي فهذا كان
جديداً عليهم ، وكان هذا المنهج الجديد
يأخذهم به ، وهو يأخذ بأيديهم من سفح
الجاهلية في الطريق الصاعد إلى القمة
السامقة التي بلغوا إليها في النهاية .

« لقد كان تفسير التاريخ الإنساني وفق
قواعد منهجية كهذه التي كان القرآن يوجه
إليها العزب ، ووفق سنن مطردة تتحقق
آثارها كلما تحققت أسبابها - بإذن الله -
ويستطيع الناس ملاحظتها وبناء تصوراتهم
للمقدمات والنتائج عليها ، ومعرفة مراحلها
وأطوارها ، كان هذا المنهج برمته في تفسير
التاريخ شيئاً جديداً على العقل البشري كله
في ذلك الزمان ؛ إذ كان قصارى ما يروى
من التاريخ وما يدون من الأخبار مجرد



(الظلال) نفسه على مساحات واسعة من كتابه الضائع المهم الآخر (في ظلال السيرة). ونحن نستطيع أن نؤكد هذا بالنظر ما يتضمنه (الظلال) من مادة غنية في الحقلين: التفسير، والسيرة، وبالقياس - كذلك - على مساحات الأخذ والعطاء الواسعة بين (الظلال) وبين كتاب قيم آخر أتيح له أن يرى النور، وأن يلعب دوره - كذلك - في الختم على مصير سيد بما يضعه في صف الشهداء والقديسين: كتاب (معالم على الطريق).

وثمة ما يتحتم أن يشار إليه هنا هو أن سيد في القسم الأول المنشور من كتابه (خصائص التصور الإسلامي ومقوماته) والذي يبلور فيه الخصائص الأساسية للتصور الإسلامي، إنما يرفد في الوقت نفسه الرؤية الإسلامية لتفسير التاريخ ويضع الكثير من أسسها النظرية، قبل أن يدلف في القسم الثاني، غير المنشور، إلى الموضوع فيمسه من قريب.

مهما يكن من أمر فإننا نجد في النص السابق تأكيداً على إحدى المقولات الأساسية في التفسير الإسلامي للتاريخ، ترتبط بمنهج التفسير وتكتسب أهميتها من هذا الارتباط، وهي أن القرآن الكريم يطرح لأول مرة في حقل الفكر التاريخي، عبر مسيرته الطويلة، مسألة الارتباط المحتوم بين المقدمات والنتائج في مجرى

مشاهدات أو روايات عن الأحداث والعادات والناس لا يربط بينها منهج تحليلي أو تكويني يحدد الترابط بين الأحداث، كما يحدد الترابط بين المقدمات والنتائج وبين المراحل والأطوار، فجاء المنهج القرآني ينقل البشرية إلى هذا الأفق ويشرح لهم منهج النظر في التاريخ الإنساني، وهذا المنهج ليس مرحلة في طرائق الفكر والمعرفة. إنما هو (المنهج) الذي يملك وحده إعطاء التفسير الصحيح للتاريخ الإنساني^(٢).

ويزيد هذا النص أهمية أن سيد يهّمه بهذه العبارة «يراجع التفسير الإسلامي للتاريخ» في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، القسم الثاني».

إذن فإن من بين فصول القسم الثاني من كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» الذي لم يتح له النشر لحد الآن، فصل عن التفسير الإسلامي للتاريخ.

وإذا كان هذا الفصل ذو الأهمية الخاصة في فكر سيد التاريخي قد ضاع مع الكتاب الأم الذي يضمّه بين جناحيه، فإن بمقدورنا - لحسن الحظ - أن نعثر على معطيات سيد التفسيرية للتاريخ، على مساحات واسعة منها بعبارة أدق، في كتابه الكبير (الظلال)، تماماً كما أن بمقدورنا - لحسن الحظ كذلك - أن نعثر في

الوقائع التاريخية ، وأن حركة التاريخ لا تمضي عبثاً وعلى غير هدى ، وإنما تحكمها سنن ونواميس وقوانين ترتب المصائر على اجتماع حشد من الوقائع والأحداث ، وتجعل من توجه الفعل التاريخي بهذا الاتجاه أو ذاك ، أمراً محتوماً .

ليس ثمة عشوائية في مجرى التحقق التاريخي إنما هنالك النهايات التي تترتب بالحق والقسطاس على بداياتها القرية والبعيدة ، ويكون الجزاء - دائماً - من جنس العمل ، فلا تطيش السهام ولا يغدو التاريخ مسرحاً عبثياً يقوم اللامعقول بدور البطولة فيه .

إن أحداً من رواد الفكر التاريخي لم يقل بهذا قبل كتاب الله المعجز ، على كثرة ما كتب من دراسات تاريخية وما دّجج من أبحاث ومطولات ، وإن أحداً من رواد الفكر التاريخي لم يقل بهذا بعد مرور عدة قرون على تأكيدات القرآن ، ولقد جاء ابن خلدون لكي يقول هذا في « مقدمته » ولكن بعد ما يقرب من ثمانية قرون ، وهو لشدة دهشته لاكتشاف ناموسية الحركة التاريخية من بين رفاق البحث التاريخي عبر القرون ، لم يشر إلى أن القرآن الكريم هو الذي فتح الطريق وأشار في حشود آياته البيّنات إلى هذه الحقيقة الخطيرة في تحليل الصيرورة التاريخية .

وقرون أخرى كان عليها أن تمضي قبل أن يأتي من يواصل الطريق الذي اعتقد ابن خلدون - خطأ - أنه شقّه لأول مرة .

إن هذه الرؤية المنهجية البكر في فهم التاريخ والتعامل معه هي واحدة من عجائب القرآن التي لا تنقضي ، وإن القول بها ، أو الكشف عنها ، أو التأكيد عليها في بيئة فكرية لم تكن قد بلغت النضج الذي يؤهلها لإفراز مقولات كهذه ، كما يتوهم الماديون ، ليدل بوضوح على الصيغة الفوقية التي يتسم بها كتاب الله ، وعلى الانفصال المحتوم - إذا صحّ التعبير - بين معطيات الله الشاملة وبين أفكار الناس الجزئية ، القاصرة ، المحدودة .. « والذين يأخذهم الدهش والعجب - يقول سيد - للنقلة الهائلة التي انتقل إليها العرب في خلال ربع قرن من الزمان على عهد الرسالة المحمدية ، وهي فترة لا تكفي إطلاقاً لحدوث تطور فجائي في الأوضاع الاقتصادية ، سيرتفع عنهم الدهش ويزول العجب لو أنهم حوّلوا انتباههم من البحث في العوامل الاقتصادية ، لبحثوا عن السرّ في هذا المنهج الرباني الجديد الذي جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله العليم الخبير .

ففي هذا المنهج تكمن المعجزة وفيه يكمن السرّ الذي يبحثون عنه طويلاً عند الإله الزائف الذي أقامته المادية حديثاً : إله الاقتصاد . وإلاّ فأين هو التحوّل الاقتصادي المفاجيء في الجزيرة العربية

الذي يُشَىء من : التصورات الإعتقادية ، ونظام الحكم ، ومناهج الفكر ، وقيم الأخلاق ، وآماد المعرفة ، وأوضاع المجتمع :- كل هذا الذي نشأ في ربع قرن من الزمان ؟ ^(٣) .

* * *

في ختام تفسير سيد لهذه الآية ذات الدلائل ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحته فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾ ^(٤) ، ينفذ سيّد إلى الرؤية الإسلامية لتفسير التاريخ ، سيما وأن منطق هذه الآية يتصادى مع حشود من الآيات والمقاطع القرآنية عبر كتاب الله من أقصاه إلى أقصاه ؛ فهو من ثم منطق مؤكد ، يملك ثقله الكبير ودلالته التي لا يأتينا الباطل من بين يديها ولا من خلفها. إن هذا النص في القرآن ﴿ فأهلكناهم بذنوبهم ﴾ ، وما يماثله ، وهو يتكرر كثيراً في القرآن الكريم :- إنما يقرر حقيقة أن الذنوب تهلك أصحابها ، وأن الله هو الذي يهلك المذنبين بذنوبهم ، وأن هذه سنة ماضية - ولو لم يراها فرد في عمره القصير ، أو جيل في أجله المحدود - ولكنها سنة تصير إليها الأمم حين تفشو فيها الذنوب ، وحين تقوم حياتها على الذنوب ؛ هذه الحقيقة جانب من التفسير الإسلامي للتاريخ ، فإن هلاك

الأجيال واستخلاف الأجيال من عوامله : فعل الذنوب في أجسام الأمم وتأثيرها في انتشار حالة تنتهي إلى الدمار ، إما بقارعة من الله عاجلة - كما كان يحدث في التاريخ القديم - وأما بالانحلال البطيء الفطري الطبيعي الذي يسري في كيان الأمم - مع الزمن - وهي توغل في متاهة الذنوب .

« وأما في التاريخ القريب نسبياً الشواهد الكافية على فعل الانحلال الأخلاقي والدعارة الفاشية ، واتخاذ المرأة فتنة وزينة ، والترف والرخاوة والتلهي بالنعم . أما الشواهد الكافية من فعل هذا كله في انهيار الإغريق والرومان - وقد أصبحوا أحاديث - وفي الانهيار الذي تتجلى أوائله وتلوح نهايته في الأفق في أمم معاصرة كفرنسا وإنجلترا - كذلك - على الرغم من القوة الظاهرة والثراء العريض » .

« إن التفسير المادي للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفاً باتاً من تفسيره لأطوار الأمم وأحداث التاريخ ، ذلك أن وجهته ابتداء هي استبعاد العنصر الأخلاقي من الحياة ، واستبعاد القاعدة الاعتقادية التي يقوم عليها ، ولكن هذا التفسير يضطر إلى مباحكات مضحكة في تفسير أحداث وأطوار في حياة البشرية لا سبيل إلى تفسيرها إلا على أساس القاعدة الاعتقادية » .

« والتفسير الإسلامي بشموله وجدّيته

وصدقه وواقعيته ، لا يغفل أثر العناصر المادية - التي يجعلها التفسير المادي هي كل شيء - ولكنه يعطيها مكانها الذي تستحقه في رقعة الحياة العريضة ، ويرز العناصر الفعالة الأخرى التي لا ينكرها إلا أصحاب العناد الصفيق لواقعيات الوجود .. يبرز قدر الله من وراء كل شيء ، ويرز التغير الداخلي في الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات ، ويرز السلوك الواقعي والعنصر الأخلاقي ، ولا يغفل عاملاً واحداً من العوامل التي تجري بها سنة الله في الحياة ^(٥).

إن سيد يؤكد في هذا العرض جملة أمور عن التفسير الإسلامي للتاريخ ، وهو يقوم بتنفيذ هذا (التفسير) في تعامله مع الآية المذكورة : ناموسية الحركة التاريخية ، المساحة الكبيرة التي تحتلها القيم الخلقية في الصيرورة التاريخية ، انكماش التفسير المادي للتاريخ برفضه هذه القيم ، والقاعدة الاعتقادية التي تقوم عليها هذه القيم ، واضطراره - أحياناً - إلى اعتماد « المماحيكات المضحكة » في تفسير أحداث وأطوار في تاريخ البشرية لا سبيل إلى تفسيرها إلا على أساس القاعدة الاعتقادية .. شمولية التفسير الإسلامي - بالتالي - وصدقه وواقعيته . فهناك اعتراف بالعناصر المادية ضمن المساحة التي تشغلها فعلاً في صياغة الواقعة التاريخية ، وهناك - أيضاً - سائر العناصر الفعالة الأخرى التي

ليس إنكارها من العلم في شيء : قدر الله ، التغير الداخلي في الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات ، السلوك الواقعي والعنصر الأخلاقي .

إنها جميعاً تصنع التاريخ ، وبدون اعتمادها جميعاً لا يمكن تفسير التاريخ ، تلك هي شمولية الرؤية الإسلامية وجديتها وصدقها وواقعيته .

إن سيد ما إن تهيأ له الفرصة لتقديم عرض نقدي مقارن بين تفسير الإسلام وتفسير الوضّاعين ، وبخاصة طبقة الماديين منهم ، إلا انتهرها لكي يبين المدى الواسع في القدرة على الاستشراف بالنسبة للموقف الإسلامي والحفر الضيقة التي تحتنق فيها الرؤى والتفسير الوضعية .

* * *

وعبر (الظلال) ذي الثلاثين جزءً نستطيع أن نضع أيدينا على مساحات واسعة مما يمس التفسير الإسلامي للتاريخ من قريب أو بعيد ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، فما ثم من مسألة لها علاقة بالموضوع إلا ونجد سيد يقول كلمته فيها من خلال تفسيره لهذا المقطع أو ذاك ، ولهذه الآية أو تلك ، ومن خلال مقدماته التحليلية الخصبية لسور القرآن وبخاصة تلك التي تحدثت عن وقائع تاريخية مما شهدته عصر الرسالة .

إن سيد يتحدثنا عن القدر والحرية ، عن



الإسلامية خبرات حية مستمدة من صميم التجربة التي يصنعونها ويعيشونها .

وهذه السور هي وفق التسلسل التاريخي للأحداث التي تعاملت معها : الأنفال (عن معركة بدر) ، آل عمران (عن معركة أحد) ، الحشر (عن معركة بني النضير) ، الأحزاب (عن معركة الخندق) ، الفتح (عن صلح الحديبية) ، والتوبة (عن معركة تبوك) .

طبعاً ، إن هناك قطعاً أخرى عن أحداث السيرة وقائعها منبثة في ثنايا القرآن ، ولكننا نشير هنا إلى المساحات الأوسع فحسب .

* * *

في تفسيره لسورة الأنفال ، باعتبارها أول معركة حاسمة بين الإيمان والكفر ، يقف سيد طويلاً لطرح وتحليل نظرية الجهاد الإسلامي فيخصص لها أربعاً وثلاثين صفحة شكلت فيما بعد موضوعاً مستقلاً في كتاب (المعالم) ، وقد اقتبس خلالها قطعة واسعة من كتاب أبي الأعلى المودودي (الجهاد في سبيل الله) ، كما أنه اعتمد في البداية على ذلك التلخيص الذي قدمه الإمام ابن القيم عن سياق الجهاد في الإسلام في (زاد المعاد) .

ويكاد يكون هذا التحليل للجهاد أدق تحليل لذلك المبدأ الإسلامي الخطير ، وأكثرها نفاذاً ، وأشملها رؤية ، وأقدرها

البعد الغيبي ، عن دور الإنسان في صياغة الحدث التاريخي ، عن تركيب الإنسان ومزايه ومثالبه ، عن الفردية والجماعية ، عن تهيئة العالم لاستقبال الإنسان .. عن خلق آدم وشروط الخلق ، والغاية النهائية منه ، عن استخلاف الإنسان في الأرض وطبيعة الدور الذي يتحتم أن ينفذه فيها ، عن تسخير العالم والطبيعة والأشياء لمهمة الإنسان ، عن الصراع الذي يلف الجزئيات والذرات والمخلوقات والأجرام فيحركها ويدفع بها إلى الأمام ، عن الشروط التي تمكن التجربة التاريخية من الديمومة والتواصل ، ونقائضها التي تقودها إلى التفكك والانحيار ، عن التغير الذاتي الذي هو مفتاح الحركة التاريخية والذي يتحقق بالصيغ التي تختلف كلية عن صيغ التفاسير الوضعية وعلى رأسها المادية التاريخية .

وغير هذه الخطوط العريضة ، مسائل (فرعية) أخرى كثيرة يفرسها سيد في (الظلال) لكي ترقد التصور الشامل للتفسير الإسلامي للتاريخ .

يمكن القول - بشكل عام - : إن نقاط الارتكاز التي يمكن وضع اليد عليها بحثاً عن النسيج التفسيري التاريخي في (الظلال) هي تلك السور التي تنزلت مساحات واسعة منها لكي تتحدث عن هذه المعركة أو تلك من معارك عصر الرسالة فتغطي جانباً من مجرياتها ، وتلامس أحداثها ، وتعلق على وقائعها لكي تمنح الجماعة

على استكناه الروح الحقيقية التي تسري في نسيج هذه الفاعلية ودمها وعصها وشرائنها ، مستمدة من الرؤية القرآنية ومعطيات السيرة ، بعيداً عن الإسقاطات الخاطئة المضللة التي ألحقت بالجهاد فيما بعد مكرراً أو جهلاً ...

والجهاد ، على ذلك ، واحداً من المفاتيح الكبيرة التي (تفسّر) الكثير من وقائع التاريخ ، وتلقي الضوء على معطياته وهي تنمو وتتطور ، أو تنكمش وتضمحل وتزول ... ليس تاريخ الرسالة وحدها ، ولا تاريخ عصر الراشدين وحده ، ولكنه كل تاريخ تكون فيه مواجهة بين الإسلام والخصوم .

ولن يتسع المجال هنا بطبيعة الحال لاستعراض ، أو حتى لتلخيص هذا المنظور المتناسك لمفهوم الجهاد ويكفي أن نحيل القارئ إليه ^(٦) .

يمضي سيد بعد ذلك لكي يستعرض وقائع معركة بدر وملابساتها من أجل تهيئة الأرضية التي سيقم عليها تفسيره للمعطيات القرآنية عن هذا الحدث الحاسم (وسنرجع إلى ذلك مرة أخرى لدى الحديث عن معطيات سيد كباحث في التاريخ الإسلامي) . ثم يختم استعراضه ذاك بقوله : « في هذه الغزوة التي أجملنا عرضها بقدر المستطاع ، نزلت سورة الأنفال ، نزلت تعرض وقائع الغزوة الظاهرة ،

وتعرض وراءها فعل القدرة المدبرة ، وتكشف عن قدر الله وتديره في وقائع الغزوة ، وفيما وراءها من خط سير التاريخ البشري كله .. » ^(٧) .

وكعاداته عبر منهجه التفسيري ذي الرؤية الشمولية يقدم الرجل عرضاً للخطوط الرئيسية للسورة ثم يختم العرض بقوله : « لقد كانت هذه الغزوة هي أول وقعة كبيرة لقي فيها المسلمون أعداءهم من المشركين ، فهزموهم تلك الهزيمة الكبيرة ؛ ولكن المسلمين لم يكونوا قد خرجوا لهذه الغاية ، لقد كانوا إنما خرجوا ليأخذوا الطريق على قافلة قريش الذين أخرجوا المهاجرين من ديارهم وأموالهم ، فأراد الله للعصبة المسلمة غير ما أرادت لنفسها من الغنيمة ؛ أراد الله لها أن تنفلت منها القافلة وأن تلقى عدوها من عتاة قريش الذين جمدوا الدعوة في مكة ، ومكروا مكرمهم لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما بلغوا بأصحابه الذين تابعوه على الهدى غاية التعذيب والتنكيل والأذى . لقد أراد الله سبحانه أن تكون هذه الوقعة فرقاناً بين الحق والباطل ، وفرقاناً في خط سير التاريخ الإسلامي ، ومن ثم فرقاناً في خط سير التاريخ الإنساني ، وأراد أن يظهر فيها الآماد البعيدة بين تدبير البشر لأنفسهم فيما يحسبونه الخير لهم ، وتدبير رب البشر لهم ولو كرهوه في أول الأمر . كما أراد أن تتعلم العصبة المؤمنة عوامل النصر وعوامل الهزيمة



السنن الإلهية التي لا تتغير ولا تتبدل كلما اجتمعت الأسباب .

فمن خلال هذه المعركة الفاصلة التي لم تتعد الساعات ، أراد القرآن الكريم أن يعلم الجماعة المؤمنة الكثير من مبادئ الحركة التاريخية وقوانينها ؛ لكي يعرفوا كيف يسوقونها - بإرادة الله - صوب الهدى المرتجى ؛ ولكي يكونوا أكثر قدرة على تغيير خرائط العالم وإعادة صياغته من جديد كيلا تكون فتنة ويكون الدين لله .

وشتان بين جماعة تعرف مبادئ وقوانين الحركة التاريخية ، وتتوافق معها ، وتبني عليها ، وتختزل الوقت والطاقة وصولاً إلى الهدف ، وبين جماعة أخرى تجهل هذه المبادئ فترتطم بها ، ولا تستفيد من عطائها ، فتطيل على نفسها الطريق ، وتستنفد من طاقتها ووقتها شيئاً أكبر بكثير من الحجم المطلوب ، وقد لا تصل إلى هدفها أبداً .

إن الماركسيين يصرون - خطأً واستكباراً - على أنهم هم الذين اكتشفوا قوانين الحركة التاريخية ، فسعوا إلى استغلالها لحسابهم من أجل التعجيل والتسريع بتحقيق أهدافهم . لكننا نجد هنا ما يضرب هذه المقولة الخاطئة ، ويبيّن للناس كيف أراد القرآن الكريم أن يمنحهم وعياً أعمق بهذه القوانين ليتمكن من تنفيذ برامجهم وتثبيت وجودهم العقيدي في العالم .

وتلقاها مباشرة من يد ربها ووليها وهي في ميدان المعركة وأمام مشاهدتها .

« وتضمنت السورة التوجيهات الموحية إلى هذه المعاني الكبيرة .. مصوغة في أسلوب التوجيه الربّي الذي ينشئ التصور الاعتقادي ويجعله هو المحرك الأول والأكبر في النشاط الإنساني ؛ وهذه سمة المنهج القرآني في عرض الأحداث وتوجيهها .. واستطرد السياق أحياناً إلى صور من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وحياة أصحابه في مكة ، وهم قلة مستضعفون في الأرض ، يخافون أن يتخطفهم الناس . ذلك اذكروا فضل الله عليهم في ساعة النصر ، ويعلموا أنهم إنما سينصرون بنصر الله وبهذا الدين الذي آثروه على المال والحياة وإلى صور من حياة المشركين قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعدها ، وإلى أمثلة من مصائر الكافرين من قبل كدأب آل فرعون والذين من قبلهم لتقرير سنة الله التي لا تتخلف في الانتصار لأوليائه والتدمير على أعدائه »^(٨) .

فها هنا نضع أيدينا على بعض الخيوط التي تسهم في نسيج التفسير الإسلامي للتاريخ : رؤية الله سبحانه ورؤية الإنسان ، فعل الله سبحانه في التاريخ وفعل الإنسان ، عوامل النصر وعوامل الهزيمة ، العقيدة كمحرك للواقعة التاريخية ، مصائر المؤمنين ومصائر الكافرين في العالم ، القوى المنظورة والقوى الغيبية في صياغة التاريخ ،

إن سيد ، عبر تفسيره لسورة الأنفال
يقفنا أمام حشد من تلك القوانين :

١ - الأسباب وحدها لا تنشئ النتائج ،
إنما هنالك ما يفوقها فاعلية ، بل ما يحيط
بها ويمنحها القدرة على العمل : إنه قدر
الله .

والاتكال على الله والتسليم بقدره لا
يمنع - مطلقاً - اتخاذ الأسباب ؛ فإنهما
متكاملان متناغمان متواصلان ، وليس -
كما يتصور البعض متعارضين - متقاطعين
ومتضادين .

والقوانين الطبيعية لا تملك حتميتها
المستقلة ، المنظورة ، فيما ينفي قدر الله
وغيبه ، فإن التحليل العلمي نفسه يقود إلى
تأكيد هذا الغيب في صميم الطبيعة ، وفي
تركيب قوانينها العاملة . وإن تجاوز
الاستسلام للأسباب الظاهرة هو القفل
التاريخي والعقيدي الوحيد الذي يحرر
الإنسان ويمكنه ، في الوقت نفسه ، من
صياغة وجوده ومصيره بما يشبه القفزات ،
إنه ليس ثمة (عبودية) أبداً لغير الله : لا
للأسباب الحتمية ولا لإرادة الطبيعة ولا
لغيرها من المسميات .

وذلك هو ملمح أساسي أصيل يفرق
بين التفسير الإسلامي للتاريخ وبين غيره من
تفسير الكهنة والوضّاعين . ولنتابع بعض
التفاصيل مما يريد سيّد أن يقوله : « ليس
الاتكال على الله وحده بمانع من اتخاذ

الأسباب . فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب
الإيمان بالله وطاعته فيما أمر به من
اتخاذها ، ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي
تنشئ النتائج ، فيتكل عليها ؛ إن الذي
ينشئ النتائج - كما ينشئ الأسباب - هو
قدر الله ، ولا علاقة بين السبب والنتيجة
في شعور المؤمن : اتخاذ السبب عبادة
بالطاعة ، وتحقيق النتيجة قدر من الله
مستقل عن السبب لا يقدر عليه إلا الله ؛
وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد
للأسباب والتعلق بها ، وفي الوقت ذاته هو
يستوفيها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله
على استيفائها .

« ولقد ظلت الجاهلية (العلمية !)
الحديثة تلح فيما تسميه (حتمية القوانين
الطبيعية) ؛ وذلك لتنفي (قدر الله) ،
وتنفي (غيب الله) حتى وقفت في النهاية
عن طريق وسائلها وتجاربها ذاتها أمام غيب
الله وقدر الله وقفة العاجز عن التنبؤ
الحتمي ، ولجأت إلى نظرية (الاحتمال) في
عالم المادة ؛ فكل ما كان حتمياً صار
احتمالياً ، وبقي الغيب سرّاً مختوماً ، وبقي
قدر الله هو الحقيقة الوحيدة المستيقنة ،
وبقي قول الله سبحانه ﴿ لا تدري لعل الله
يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ هو القانون
الحتمي الوحيد الذي يتحدث بصدق عن
طلاقة المشيئة الإلهية من وراء القوانين
الكونية التي يدبر الله بها هذا الكون بقدره
النافذ الطليق .



لأنفسهم ، فهناك من وراء رؤية الإنسان المحدودة ، رؤية شاملة مطلقة قد تختار لهم ما لا يشتهون ولكنها تسوقهم إلى المصائر التي يطمنون ﴿فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾^(١٠).

« لقد أراد الله - لمعركة بدر - أن تكون ملحمة لا غنيمة (كما تمنى المسلمون قبل وقوعها) وأن تكون موقعة بين الحق والباطل ، ليحق الحق ويثبت ويبطل الباطل ويزهقه ، وأراد أن يقطع دابر الكافرين .. ويمكن للعصبة المسلمة التي تعيش بمنهج الله ، وتنطلق به لتقرير ألوهية الله في الأرض وتحطيم طاغوت الطواغيت ، وأراد أن يكون هذا التمكين عن استحقاق لا عن جفاف ، وبالجهد والجهاد ، وبتكاليف الجهاد ومعاناته في عالم الواقع وفي ميدان القتال .

« نعم. لقد أراد الله للعصبة المسلمة أن تصبح أمة ، وأن تصبح دولة ، وأن يصبح لها قوة وسلطان . وأراد لها أن تقيس قوتها الحقيقية إلى قوة أعدائها فترجح ببعض قوتها على قوة أعدائها ! وأن تعلم أن النصر ليس بالعدد وليس بالعدة ، وليس بالمال والخيال والزاد ، إنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقف لها قوة العبادة وأن يكون هذا كله عن تجربة واقعية ، لا عن مجرد تصور واعتقاد قلبي ..

« فأين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها

» .. هذه هي النقلة الضخمة التي ينقلها الاعتقاد الإسلامي للقلب البشري وللعقل البشري أيضاً - النقلة التي تخبط الجاهلية الحديثة ثلاث قرون لتصل إلى أولى مراحلها من الناحية العقلية ، ولم تصل إلى شيء منها في الناحية الشعورية ، وما يترتب عليها من نتائج عملية خطيرة في التعامل مع قدر الله ، والتعامل مع الأسباب والقوى الظاهرية ؛ إنها نقلة التحرر العقلي ، والتحرر الشعوري ، والتحرر السياسي ، والتحرر الاجتماعي ، والتحرر الأخلاقي ، إلى آخر أشكال التحرر وأوضاعه وما يمكن أن يتحرر (الإنسان) أصلاً إذا بقى عبداً للأسباب (الحتمية) وما وراءها من عبوديته لإرادة الناس أو عبوديته لإرادة (الطبيعة) ، فكل (حتمية) غير إرادة الله وقدره هي قاعدة العبودية لغير الله وقدره .. والتصور الاعتقادي في الإسلام كل متكامل ، ثم هو بدوره كل متكامل مع الصورة الواقعية التي يريد هذا الدين لحياة الناس^(٩) .

٢ - أن النتائج التاريخية لا تأتي بالتمني ، ولكن بالجهد والجهاد وبالمعاناة في عالم الواقع وفي ميدان القتال .

وأن النصر ليس بالعدد ولا بالعدة وحدهما ، ولكنه بمقدار الاتصال بالله والاستمداد من قوته .

وأنه ليس كل ما يريده الناس خيراً

مما أراد الله لها ؛ لقد كانت تمضي وكانت لهم قافلة ألى سفيان - قصة غنيمة ، قصة قوم أغاروا على قافلة فغنموها ؛ فأما بدر فقد مضت في التاريخ كله قصة عقيدة ، قصة نصر حاسم وفرقان بين الحق والباطل . قصة انتصار الحق على أعدائه المدججين بالسلاح المزودين بكل زاد ، الحق في قلة من العدد ، وضعف في الزاد والراحلة ، قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله ، وحين تتخلص من ضعفها الذاتي ؛ بل قصة انتصار حفة من القلوب من بينها الكارهون للقتال ! ولكنها بقيتها الثابتة المستعيلة على الواقع المادى ، وبيقنها في حقيقة القوى وصحة موازينها ، قلبت ميزان الظاهر فإذا الحق راجح غالب .. ^(١١)

٣ - أن الإنسان المؤمن ليس وحده في الساحة ، فهناك قوى أخرى قد تكون منظورة حيناً ، غير مرئية حيناً آخر ، تبعث بها إرادة الله سبحانه لكي تعين الجماعة المؤمنة على تحقيق النصر والاقتراب من الأهداف .

وإن مقولة فاعلية وسائل الإنتاج ، والقدرات اللاحدودة للقوى المادية ، ليس سوى خرافة تنبثق عن رؤية نسبية محدودة قاصرة لما يجرى في ساحة الكون والعالم والحياة ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ ^(١٢)

إن المعركة كلها تدار بأمر الله ومشيئته ، وتدبيره وقدره ، وتسير بجند الله وتوجيهه ؛ إن الله لم يترك العصابة المسلمة وحدها في ذلك اليوم ، وهي قلة والأعداء كثرة ؛ وإن أمر هذه العصابة وأمر هذا الدين قد شارك فيه الملاء الأعلى مشاركة فعلية على النحو الذي يصفه الله - سبحانه - في كلماته ..

« لقد استجاب لهم ربهم وهم يستغيثون ، وأنبأهم أنه ممدهم بألف من الملائكة مردفين .. لقد كان حسب المسلمين أن يبدلوا ما في طوقهم فلا يستبقوا منه بقية ، وأن يغالبوا الهزة الأولى التي أصابت بعضهم في مواجهة الخطر الواقعي وأن يمشوا في طاعة أمر الله واثقين بنصر الله ، كان حسبهم هذا لينتهي دورهم ويحيى دور القدرة التي تصرفهم وتدبرهم .. وأنه لحسب العصابة أن تشعر أن جند الله معها لتطمئن قلوبها وتثبت في المعركة ، ثم يجيء النصر من عند الله وحده .. » ^(١٣)

٤ - أنه ليس من قبيل الصدف والفلتات أن ينصر الله العصابة المؤمنة ، وأن يسلط على أعدائها الرعب وينتهي بها إلى الهزيمة ، فتلك هي سنة الحياة ، وذلك هو واحد من أشد قوانين التاريخ ديمومة وثباتاً . وإنه بمجرد أن نستعرض مسيرة الصراع بين الأنبياء عليهم السلام وأصحابهم ، وبين خصومهم ومعارضهم تبين لنا ناموسية

الحركة التاريخية التي تؤول إلى انتصار الإيمان على الكفر .

« إنها ليست فلتة عارضة ، ولا مصادفة عابرة ، أن ينصر الله العصابة المسلمة ، وأن يسلط على أعدائها الرعب والملائكة مع العصابة المؤمنة ، إنما ذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله ، فاتخذوا لهم شقاً غير شق الله ورسوله وصفاً غير صف الله ورسوله ، ووقفوا موقف الخلف والمشاقة هذا ، يصدون عن سبيل الله ويحولون دون منهج الله للحياة . »

« قاعدة وسنة ، لا فلتة ولا مصادفة ؛ قاعدة وسنة أنه حيثما انطلقت العصابة المسلمة في الأرض لتقرير ألوهية الله وحده ، وإقامة منهج الله وحده ، ثم وقف منها عدو لها موقف المشاقة لله ورسوله ، كان التثبيت والنصر للعصابة المسلمة ، وكان الرعب والهزيمة للذين يشاقون الله ورسوله ، ما استقامت العصابة المسلمة على الطريق ، واطمأنت إلى ربها وتوكلت عليه وحده وهي تقطع الطريق ... »^(١٤)

« إن الله سبحانه لا يكل الناس إلى فلتات عابرة ولا إلى جزاف لا ضابط له ، إنما هي سنته يمضي بها قدره . وما أصاب المشركين في يوم بدر هو ما يصيب المشركين في كل وقت وقد أصاب آل فرعون والذين من قبلهم ... »^(١٥)

٥ - والإنسان في التصور الإسلامي للتاريخ

عنصر إيجابي في صياغة المصير ، وهو يملك في أية لحظة القدرة على التغيير ، فهو - من ثم - ليس مجرد أداة لما تسميه المذاهب الوضعية (الحتميات التاريخية) تفعل به ما تشاء ؛ إن الإنسان أقدر وأكرم من هذا بكثير .

وفي تفسيره للآية ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾^(١٦) ، يقول سيد : « إنه من جانب ، يقرر عدل الله في معاملة العباد ، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ، ويبدلوا سلوكهم ، ويقلبوا أوضاعهم ، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يقدروها ولم يشكروها . وفي الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم ، حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجري عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله ، ويجعل التغيير القدري في حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم ، وسلوكهم وعملهم وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم . ومن الجانب الثالث يلقي تبعة عظيمة - تقابل التكريم العظيم - على هذا الكائن . فهو يملك أن يستبقي نعمة الله عليه ويملك أن يزداد عليها إذا هو عرف فشكر ، كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر فبطر وانحرفت نواياه فانحرفت خطاه . »

« وهذه الحقيقة الكبيرة تمثل جانباً من

جوانب (التصور الإسلامي لحقيقة الإنسان وعلاقة قدر الله به في هذا الوجود ، وعلاقته هو بهذا الكون وما يجري فيه . ومن هذا الجانب يتبين تقدير هذا الكائن في ميزان الله ، وتكريمه بهذا التقدير ، كما تتبين فاعلية الإنسان في مصير نفسه وفي مصير الأحداث من حوله ، فيبدو عنصراً إيجابياً في صياغة هذا المصير - بإذن الله وقدره الذي يجري من خلال حركته وعمله ونيته وسلوكه ، وتتفي عنه تلك السلبية الذليلة التي تعرضها عليه المذاهب المادية التي تصوره عنصراً سلبياً إزاء الحتميات الجبارة : حتمية الاقتصاد ، وحتمية التاريخ ، وحتمية التطور .. إلى آخر الحتميات التي ليس للكائن الإنساني إزاءها حول ولا قوة ، ولا يملك إلا الخضوع المطلق لما تعرضه عليه وهو ضائع خانع مذلول . كذلك تصور هذه الحقيقة ذلك التلازم بين العمل والجزاء في حياة هذا الكائن ونشاطه ، وتصور عدل الله المطلق في جعل هذا التلازم سنة من سننه يجري بها قدره ولا يظلم فيها عبد من عبده .. »^(١٧)

٦ - في التفاسير الوضعية للتاريخ كان الشعار في معظم الأحيان هو (الغاية تبرر الوسطة) ، وكان بمقدور البطل في التفسير المثالي لهيكل أن يفعل ما يشاء ، وأن يتجاوز القيم الخلقية ويسحق الزهرات البيضاء ؛ لأنه لا يفعل أكثر من الاستجابة

لنداء العقل الكلي من أجل التقدم . وما كانت النازية والفاشية في نهاية الأمر إلا ثمرة مرة لهذا التصور المخطوء ، ولقد وجدنا في فلسفة هيكل الكثير من المبررات والحجج والأسانيد . وكان بمقدور (الطبقة) في التفسير المادي لماركس وإنجلز أن تفعل ما تشاء : أن تقتل وتستعبد وتسفك الدماء وتسعى في الأرض فساداً ؛ لأنها لا تفعل أكثر من الاستجابة لمنطق التبدل في وسائل الإنتاج وظروفه ، وما كانت الشيوعية في نهاية الأمر إلا ثمرة مرة لهذا التصور المخطوء ، ولقد وجدت في فلسفة ماركس وإنجلز ونبوءاتهما وحتمياتهما الكثير من الحجج لتنفيذ أبشع الصيغ للمبدأ الماكيافللي الغربي المعروف : (الغاية تبرر الوسطة) . في التصور الإسلامي نقف إزاء هذا النداء ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فأنبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾^(١٨) .

« إن الإسلام يعاهد ليصون عهده ، فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهره وعلا نيته ، ولم يخن ولم يغدر ، ولم يغش ولم يخدع ، وصارح الآخرين بأنه نفذ يده من عهده ، فليس بينه وبينهم أمان . وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة والأمن والطمأنينة ... إنه يريد للبشرية أن تعف فلا يبيح الغدر في سبيل الغلب ، وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد ،

ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة .. إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ ، ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة ، وليس مسلماً من يبرر الوسيلة بالغاية ، فهذا المبدأ غريب على الحس الإسلامي ؛ لأنه لا انفصال في تكوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات ..^(١٩)

٧ - والقوة المادية ليست الحكم الأول والأخير في مصير أي صراع ، سواء بحسابات الكم أم النوع ، فإن هنالك - في التفسير الإسلامي للتاريخ - قوة تفوقها وتسوقها في الوقت نفسه ، إنها قوة الإيمان ، توهج الروح واستنارة الفكر ويقين الفؤاد .

إن المنظور الإسلامي يكسر المعادلات التقليدية لتكافؤ القوى ويصنع معادلة من نوع جديد .. معادلة مركبة من عدة درجات لن يستطيع إدراكها والتعامل بمنطوقها إلا الذين يصنعونها وينفذونها .. لقد كان الفاتحون الرواد بعض أولئك الذين تيقنتها نفوسهم ، كانوا في معظم الأحيان الأقل عدداً ولكنهم كانوا في معظم الأحيان يخرجون منتصرين . وبدون إدراك هذا البعد في ميدان الصراع لن يكون بمقدورنا أن نفسر واحدة من أشد الظواهر التاريخية تأثيراً وتألقاً واتساعاً .. الفتح الإسلامي .

بينما في التفاسير الوضعية يبدو الرقم البسيط المجرد هو الحكم الفصل في المصير ، ولهذا كثيراً ما تعجز عن تفسير ظواهر تاريخية كهذه فتلق لها الأسباب : ﴿ يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾^(٢٠)

« ويقف الفكر ليستعرض القوة التي لا راد لها ولا معقب عليها ، قوة الله القوي العزيز ، وأمامها تلك القوة الضئيلة العاجزة الهزيلة ، التي تتصدى لكتائب الله - فإذا الفرق شاسع والبون بعيد ، وإذا هي معركة مضمونة العاقبة مقررة المصير » .

« فأما تعليل هذا التفاوت فهو ، ﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ .. فما صلة الفقه بالغلب في ظاهر الأمر ؛ إنها صلة حقيقية قوية . إن الفئة المؤمنة إنما تمتاز بأنها تعرف طريقها وتفقه منهجها وتدرك حقيقة وجودها وغايتها . إنها تفقه حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية فتفقه أن الألوهية لا بد أن تتفرد وتستعلي ، وأن العبودية يجب أن تكون لله وحده بلا شريك . وتفقه أنها هي - الأمة المسلمة - المهتدية بهدي الله ، المنطلقة في الأرض بإذن الله لإخراج الناس

من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وأنها هي المستخلقة عن الله في الأرض ، الممكنة فيها لا لتستعلي هي وتستمتع ولكن لتعلي كلمة الله وتجاهد في سبيله ولتعمر الأرض بالحق وتحكم بين الناس بالقسط .. وكل ذلك فقه يسكب في قلوب العصابة المسلمة النور والثقة والقوة واليقين ، ويدفع بها إلى الجهاد في سبيل الله في قوة وطمأنينة للعاقبة تضاعف القوة ، بينما أعداؤها (قوم لا يفقهون) ، قلوبهم مغلقة ، وبصائرهم مطموسة ، وقوتهم كليلة عاجزة مهما تكن متفوقة ظاهرة ، إنها قوة منقطعة معزولة عن الأصل الكبير .

« وهذه النسبة ، واحد لعشرة ، هي الأصل في ميزان القوى بين المؤمنين الذين يفقهون والكافرين الذين لا يفقهون . وحتى في أضعف حالات المسلمين الصابرين فإن هذه النسبة هي واحدة لاثنتين ^(٢١) » .

٨ - أن آصرة التجمع والقاعدة التي ينطلق منها المجتمع الإسلامي ويقوم عليها هي العقيدة ، ليست علاقات الدم ، ولا علاقات الأرض ، ولا علاقات الجنس ، ولا علاقات التاريخ ، ولا علاقات اللغة ، ولا علاقات الاقتصاد ، ولا العلاقات الطباقية ؛ ليست هي القرابة ولا العرقية ولا المصالح الاقتصادية ؛ إنما هي علاقة العقيدة أولاً وأخيراً .

« ولقد كان الإسلام يستهدف من خلال ذلك إبراز (إنسانية الإنسان) ، وتقويتها وتمكينها وإعلاءها على جميع الجوانب الأخرى في الكائن الإنساني .. إن هذا الكائن يشترك مع الكائنات الحيوانية - بل الكائنات المادية - في صفات توهم أصحاب (الجهالة العلمية) مرة بأنه حيوان كسائر الحيوان ، ومرة بأنه مادة كسائر المواد ؛ ولكن الإنسان مع اشتراكه في هذه (الصفات) مع الحيوان ومع المادة له (خصائص) تميزه وتفردته وتجعل منه كائناً فريداً ، كما اضطر أصحاب (الجهالة العلمية) أخيراً أن يعترفوا والحقائق الواقعية تلوي أعناقهم لياً فيضطرون لهذا الاعتراف في غير إخلاص ولا صراحة .

« والإسلام - بمنهجه الرباني - يعمد إلى هذه الخصائص التي تميز (الإنسان) وتفردته بين الخلائق ، فيبرزها وينميها ويعليها . وهو حين يجعل آصرة العقيدة هي قاعدة التجمع العضوي الحركي التي يقيم على أساسها وجود الأمة المسلمة ، إنما يمضي على خطته تلك ، فالعقيدة تتعلق بأعلى ما في (الإنسان) من « خصائص » .

« إنه لا يجعل هذه الأخيرة هي النسب ، ولا اللغة ، ولا الأرض ، ولا الجنس ، ولا اللون ، ولا المصالح ، ولا المصير الأرضي المشترك ، فهذه كلها

في كل لحظة أن يعلن فيها اختياره ، وأن يقرر التجمع الذي يريد أن ينتمي إليه بكامل حريته ، فلا يقيد في هذه الحالة قيد من لونه أو لغته أو جنسه أو نسبه أو الأرض التي ولد فيها والمصالح المادية التي تتحول بتحول التجمع الذي يريده ويختاره ، وهنا كرامة الإنسان في التصور الإسلامي .

« ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الإسلامي في هذه القضية : - أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعاً مفتوحاً لجميع الأجناس والأقوام والألوان واللغات وأن صبت في بوتقة المجتمع الإسلامي خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت وأنشأت مركباً عضوياً فائقاً في فترة تعد نسبياً قصيرة ، وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة ، على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال في ذلك الزمان .

« .. لقد اجتمع العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي والصيني والهندي والروماني والإغريقي والأندونيسي والإغريقي .. إلى آخر الأقوام والأجناس اجتمعوا على قدم المساواة وبآصرة الحب ، وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة ، فبذلوا جميعاً أقصى كفاياتهم ، وأبرزوا أعظم خصائص أجناسهم ،

أواصر يشترك فيها الحيوان مع الإنسان ، وهي أشبه شيء بأواصر القطيع . أما العقيدة التي تفسر للإنسان وجوده ، ووجود هذا الكون من حوله ، ومصيره ومصير الكون من حوله ، وتردّه إلى ما هو أعلى من هذه المادة وأكبر وأسبق وأبقى ، فهي أمر آخر يتعلق بروحه وإدراكه المميز له من سائر الخلائق ، والذي يقرر (إنسانيته) في أعلى مراتبها حيث يخلف وراءه سائر الخلائق . »

« ثم إن هذه الأخيرة - آصرة العقيدة والتصور والفكرة والمنهج - هي آصرة حرة ، يملك الفرد الإنساني اختيارها بمحض إرادته الواعية . فأما أواصر القطيع تلك فهي مفروضة عليه فرضاً ، لم يختارها ولا حيلة له كذلك فيها . إنه لا يملك تغيير نسبه الذي نماء ، ولا تغيير الجنس الذي يتسلسل منه ، ولا تغيير اللون الذي ولد به فهذه كلها أمور قد تقرر في حياته قبل أن يولد ، لم يكن له فيها اختيار . كذلك مولده في أراضى بعينها ، ونطقه بلغة بعينها بحكم هذا المولد ، وارتباطه بمصالح مادية معينة ومصير أراضى معين - مادامت هذه هي أواصر تجمعهم مع غيره - كلها مسائل عسيرة التغيير ، ومجال (الإرادة الحرة) فيها محدود . ومن أجل هذا كله لا يجعلها الإسلام هي آصرة التجمع الإنساني ؛ فأما العقيدة والتصور والفكرة والمنهج ، فهي مفتوحة دائماً للاختيار الإنساني ، ويملك

وخصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية في بناء هذا المجتمع الواحد الذي ينتسبون إليه جميعاً على قدم المساواة ، وتجمع فيه بينهم آصرة تتعلق برهبهم الواحد ، وتبرز فيها إنسانيتهم ، وحدها بلا عائق ، وهذا ما لم يتجمع قط لأي تجمع آخر على مدار التاريخ .

« لقد كان أشهر تجمع بشري في التاريخ القديم هو تجمع الإمبراطورية الرومانية مثلاً . فقد ضُمَّت بالفعل أجناساً متعددة ، ولغات وألواناً وأرضين متعددة ولكن هذا كله لم يقيم على آصرة (إنسانية) ولم يتمثل في قيمة عليا كالعقيدة ؛ لقد كان هناك تجمع طبقي على أساس طبقة الأشراف وطبقة العبيد في الإمبراطورية كلها من ناحية ، وتجمع عنصري على أساس سيادة الجنس الروماني - بصفة عامة - وعبودية سائر الأجناس الأخرى . ومن ثم لم يرتفع قط إلى أفق التجمع الإسلامي ، ولم يؤت الثمار التي أتاها التجمع الإسلامي .. »

« كذلك قامت في التاريخ الحديث تجمعات أخرى ، تجمع الإمبراطورية البريطانية مثلاً ، ولكنه كان كالتجمع الروماني الذي هو وريثه ، تجمعاً قومياً استغلالياً ، يقوم على أساس سيادة القومية الإنجليزية ، واستغلال المستعمرات التي تضمها الإمبراطورية ؛ ومثله الإمبراطوريات الأوربية كلها :

الإمبراطورية الأسبانية والبرتغالية في وقت ما ، والإمبراطورية الفرنسية .

« وأرادت الشيوعية أن تقيم تجمعاً من نوع آخر ، يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون . ولكنها لم تقمه على قاعدة (إنسانية) عامة .. إنما أقامته على القاعدة (الطبقة) ، فكان هذا التجمع هو الوجه الآخر للتجمع الروماني القديم . هذا تجمع على قاعدة طبقة (الأشراف) ، وذلك تجمع على قاعدة طبقة (البروليتاريا) والعاطفة التي تسوده هي عاطفة الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى . وما كان لمثل هذا التجمع أن يثمر إلا أسوأ ما في الكائن الإنساني فهو ابتداء قائم على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها باعتبار أن (المطالب الأساسية) للإنسان هي (الطعام والسكن والجنس) وباعتبار أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام .. »^(٢٢)

٩ - والتفسير الإسلامي للتاريخ ، على خلاف سائر التفاسير الوضعية ، يعطي مساحة واسعة للغيب ، بل يجعله قاعدة أساسية من القواعد الكبرى للتصور الإسلامي حتى لقد جعل الإسلام الإيمان بالغيب مقوماً من مقومات الإيمان لا يتم إلا به : ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين

يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك
وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من
ربهم وأولئك هم المفلحون^(٢٣).

« إن الإيمان بالغيب نقلة في حياة
الإنسان ضخمة ؛ لأن خروجه من دائرة
المحسوس الضيقة إلى إدراك أن هناك غيباً
مجهولاً يمكن وجوده ويمكن تصوّره ، هو
بلا شك نقلة من دائرة الحس الحيواني إلى
مجال الإدراك الإنساني ، وإن إغلاق هذا
المجال دون الإدراك الإنساني نكسة به إلى
الوراء ، وهو ما تحاوله المذاهب المادية
الحسية وتدعوه (تقديمية) .. »^(٢٤).

المجال الفسيح الذي يفتحه الإيمان
بالغيب أمام وعي الإنسان إنما هو « فسحة
في التصور ، وفسحة في إدراك حقائق هذا
الوجود ، وفسحة في الشعور ، وفسحة في
الحركة النفسية والفكرية يتيحها التصور
الإسلامي للمسلم .. والذين يريدون أن
يغلقوا على (الإنسان) هذا المجال ، ومجال
عالم الغيب كله ، إنما يريدون أن يغلقوا
عالمه على مدى الحس القريب المحدود ،
ويريدون بذلك أن يزجوا به في عالم
البهائم ، وقد كرمه الله بقوة التصوّر التي
يملك بها أن يدرك ما لا تدركه البهائم ، وأن
يعيش في بجوحة من المعرفة وبجوحة من
الشعور ، وأن ينطلق بعقله وقلبه إلى مثل
هذا العالم ..

« ماذا عند أدعياء العقلية (العلمية)

من علمهم ذاته ، تحتم عليهم نفى
(الغيب) وأبعاده عن دائرة التصوّر
والتصديق ؟ ماذا لديهم من علم يوجب
عليهم ذلك ، إن علمهم لا يملك أن ينفي
وجود حياة من نوع آخر غير الحياة
المعروفة في الأرض في أجرام أخرى يختلف
تركيب جوّها وتختلف طبيعتها وظروفها
عن جو الأرض وظروفها ، فلماذا يجزمون
بنفي هذه العوالم وهم لا يملكون دليلاً
واحداً على نفى وجودها ؟ لقد نرى جين
نناقش هذه القضية أن الغيب الذي ينكرونه
هو الحقيقة الوحيدة التي يجزم هذا العلم
اليوم بوجودها ، حتى في عالم الشهادة
الذي تلمسه الأيدي وتراه العيون »^(٢٥).

« إن العقلية الإسلامية لتجمع بين
الاعتقاد بالغيب المكنون الذي لا يعلم
مفاتيحه إلا الله ، وبين الاعتقاد بالسنن التي
لا تتبدل والتي تمكن معرفة الجوانب اللازمة
منها لحياة الإنسان في الأرض ، والتعامل
معه على قواعد ثابتة ، فلا يفوت المسلم
(العلم) البشري في مجاله ، ولا يفوته
كذلك إدراك الحقيقة لواقعة ، وهي أن
هنالك غيباً لا يطلع الله عليه أحداً إلا من
شاء بالقدر الذي يشاء »^(٢٦).

* * *

ويكاد يكون وقوف سيّد عند معركة
(أحد) أطول وقوف عند معركة من
معارك عصر الرسالة التي تحدّث عنها كتاب

الله ، على مستوى التفسير التاريخي وليس التاريخ الصرف ، فهو ينشر تفسير الآيات التسع والخمسين المتعلقة بها من سورة آل عمران على مساحة تزيد على المائة والعشرين صفحة . وهو يبدأ كعادته بتقديم الخطوط العريضة للرؤية القرآنية للمعركة ، ويثني باستعراض وقائعها التاريخية كما وردت في كتب السيرة ، ثم يلج بعدئذ في التفسير .

إن القرآن الكريم يؤكد في تعامله مع هذه المعركة ، القيم والقوانين التي استخلصها من معركة بدر ، ولكنه هنا يوسعها ويغنيها ويزيد عليها ، باعتبار أن مذاق أحد ليس كمذاق بدر ، وأن معطياتها التاريخية والعقيدية ليستا سواء .

- في البدء يشير سيد إلى واحدة من خصائص القرآن المنهجية في التعامل مع التاريخ . إنه لا يستهدف - البتة - العرض المجرد للوقائع والأحداث ، كما كان يفعل - ولا يزال - الكثير من المؤرخين ، ولكنه يتجاوز القشرة الخارجية للحدث بحثاً عن المغزى والمعنى ، ويتوغل في نسيج الفعل التاريخي لكي يضع يده على السنن والقوانين التي تشد وقائعه وتحركها في الوقت نفسه .

إن القرآن الكريم لا يقدم تأريخاً للأحداث ولكنه يطرح تفسيراً ، وهو لا يقف عند حدود الساحة الظاهرية التي

تتحرك على مسرحها الوقائع وتتخلق الأحداث ، ولكنه يمد كشافاته الضوئية إلى السرائر والدخائل ، عمقاً ، وإلى آفاق العالم وآماد الكون امتداداً .. إنه يعتمد نظرة كلية تتجاوز التقطيع والتضييق إلى كل ما من شأنه أن يلعب دوره في صياغة الوقائع والأحداث .

« إن النص القرآني لا يتبع أحداث المعركة للرواية والعرض ، ولكنه يتبع دخائل النفوس وخوارج القلوب ، ويتخذ من الأحداث مادة تنبيه وتنوير وتوجيه ، وهو لا يعرض الحوادث عرضاً تاريخياً مسلسلاً بقصد التسجيل ، إنما هو يعرضها للعبرة والتربية واستخلاص القيم الكامنة وراء الحوادث ، ورسم سمات النفوس وتصوير الجو الذي صاحبها ، والسنن الكونية التي تحكمها ، والمبادئ الباقية التي تقررها . وبذلك تستحيل الحادثة محوراً أو نقطة ارتكاز لثروة ضخمة من المشاعر والسمات والنتائج والاستدلالات . يبدأ السياق منها ، ثم يستطرد حولها ، ثم يعود إليها ، ثم يجول في أعماق الضمائر وفي أغوار الحياة ، ويكرر هذا مرة بعد مرة ، حتى ينتهي برواية الحادث إلى نهايتها ، وقد ضم جناحيه على حفل من المعاني والدلائل والقيم والمبادئ ، لم تكن رواية الحادث إلا وسيلة إليها ، ونقطة ارتكاز تتجمع حوالها ، وحتى يكون قد تناول ملابسات

الحادث وعقاييله في الضمائر ، فجلاها ونقاها وأراحها في مواضعها فلا تجد النفس منها حيرة ولا قلقاً ، ولا تحس فيها لبساً ولا دخلاً .

« وينظر الإنسان في رقعة المعركة ، وما وقع فيها - على سعته وتنوعه - ثم ينظر إلى رقعة التعقيب القرآني ، وما تناوله من جوانب ، فإذا هذه الرقعة أوسع من تلك وأبقى على الزمن ، وألصق بالقلوب ، وأعمق في النفوس ، وأقدر على تلبية حاجات النفس البشرية وحاجات الجماعة الإسلامية ، في كل موقف تتعرض له في هذا المجال على تتابع الأجيال . فهي تتضمن الحقائق الباقية من وراء الأحداث الزائلة والمبادئ المطلقة من وراء الحوادث المفردة ، والقيم الأصيلة من وراء الظواهر العارضة ، والرصيد الصالح للتزود بغض النظر عن اعتبارات الزمان والمكان »^(٢٧).

١١ - وفي البدء ، يرسم أرضية الحدث التاريخي بما يعمق حقيقة الحضور الإلهي في التاريخ . إن هذا (الحضور) المؤثر ، الفعال ، صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في مجرى الواقعة التاريخية ، لا يؤتى ثماره التربوية والعقيدية في النفس المؤمنة التي يتأكد لديها لحظة بعد لحظة الفعل الإلهي في عالم الواقع ، فحسب ، ولكنه يؤكد - كذلك - حقيقة تفسيرية من أهم حقائق التفسير الإسلامي للتاريخ ؛ ففي التفاسير

الوضعية يحضر (العقل الكلي) خلال تخلق الأحداث ، أو تحضر العلاقات والظروف الإنتاجية ، أو تحضر التحديات والاستجابات . ولكننا هنا إزاء حضور إلهي شامل ، كامل ، فاعل ، مريد ، وليست كل صيغ الحضور الجزئية الأخرى : فكرية أم مادية أم طبيعية أم نفسية ، سوى وسائل فحسب يستخدمها الحضور الكبير الشامل لتحقيق الفعل وترتيب النتائج وتركيب الوقائع والأحداث .

أما على المستوى التربوي - العقيدي فإن القرآن ينفذ ما يسمى بإحياء الموقف التاريخي ، وتفجير الدم في أوردته وشرائنه ؛ إنه لا يتعامل معه كما لو كان ظواهر جامدة ، وأحداثاً متييسة ، قد أخذت صيغها النهائية وتجمدت عليها ، ولكن كما لو كان يتخلق هذه اللحظة أمام القلوب والأبصار .. يتحرك وينمو ويكتسب ملامحه لحظة بلحظة ودقيقة بدقيقة ، وهو بهذه الصيغة (الإحيائية) يجعل التاريخ فعلاً تربوياً مؤثراً ، وأداة حركية للبناء العقيدي على مستوى الذات ومستوى الجماعة ، وليس مجرد عرض أكاديمي أو دراسة جامدة .

وهكذا يلتقي الخطان : الحضور الإلهي والحضور الإنساني في قلب التاريخ ، ومن خلال هذا الحضور يطرح القرآن الكريم تعاليمه وقيمه ودروسه فتستقبلها الأرض

التي عرف زارعها كيف يهيئها للإنبات
الغزير .. الجميل .

« .. » ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ
الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ
هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ . هكذا يبدأ
باستعادة المشهد للمعركة واستحضاره ،
وقد كان قريباً من نفوس المخاطبين الأولين
بهذا القرآن ومن ذاكرتهم ؛ ولكن ابتداء
الحديث على هذا النحو واستحضار المشهد
الأول بهذا النص ، من شأنه أن يعيد
المشهد بكل حرارته وبكل حيويته ، وأن
يضيف إليه ما وراء المشهد المنظور - الذي
يعرفونه - من حقائق أخرى لا يتضمنها
المشهد المنظور ، وأولها حقيقة حضور
الله - سبحانه - معهم ، وسمعه وعلمه
بكل ما كان وما دار بينهم . وهي الحقيقة
التي تحرص التربية القرآنية على استحضارها
وتقريرها وتوكيدها وتعميقها في التصور
الإسلامي . وهي هي الحقيقة الأساسية
الكبيرة التي أقام عليها الإسلام منهجه
التربوي .. إن القرآن يتولى استحياء
القلوب وتوجيهها وتربيتها بالتعقيب على
الأحداث وهي ساخنة ، ويتبين الفرق بين
رواية القرآن للأحداث وتوجيهها وبين
سائر المصادر التي قد تروي الأحداث
بتفصيل أكثر ، ولكنها لا تستهدف القلب
البشري والحياة البشرية بالإحياء
وبالاستجاشة والتربية والتوجيه كما

يستهدفها القرآن الكريم بمنهجه
القوم^(٢٨) .

١٢ - وثمة لمسة منهجية ثالثة : إن القرآن
الكريم وهو يحكي عن معركة أحد ويعقب
عليها يذكر المؤمنين بمعركة بدر لكي
يقوموا بالموازنة والمقارنة والبحث في
الارتباطات بين الأسباب والنتائج .

والجهد التاريخي لن يستكمل شروطه
إلا بالموازنة والمقارنة والتحصيل بين
التجارب والأحداث . إن القرآن الكريم
يعمق في حس المسلم هذه الضرورة المنهجية
لكي يقوده إلى جنبي ثمارها التربوية
والعقيدية .. نعم ، ولكنه يضيف إلى
خبراته في الوقت نفسه خبرة (تاريخية) لم
يكن الفكر البشري قد عرف عنها الكثير .

« ... » وقبل أن يمضي (القرآن) في
الاستعراض والتعقيب على أحداث معركة
(أحد) التي انتهت بالهزيمة ، يذكرهم
بالمعركة التي انتهت بالنصر ، معركة بدر ،
لتكون هذه أمام تلك مجالاً للموازنة وتأمل
الأسباب والنتائج ، ومعرفة مواطن الضعف
ومواطن القوة ، وأسباب النصر وأسباب
الهزيمة . ثم - بعد ذلك ليكون اليقين من
أن النصر والهزيمة كليهما قدر من أقدار
الله ، لحكمة تتحقق من وراء النصر كما
تتحقق من وراء الهزيمة سواء ، وأن مرد
الأمر في النهاية إلى الله على كلا الحالين وفي
جميع الأحوال .. »^(٢٩) .

منكم ويعلم الصابرين ﴿٣٠﴾

« إن القرآن الكريم يرد المسلمين هنا - في معركة أحد - إلى سنن الله في الأرض يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور . فهم ليسوا بدعاً في الحياة ، فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تختلف ، والأمور لا تمضي جزافاً ، إنما هي تتبع هذه النواميس ، فإذا هم درسوها وأدركوا مغازيها - : تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث ، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع ، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام . واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق . ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين ، بدون الأخذ بأسباب النصر ؛ وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول ، والسنن التي يشير إليها السياق هنا ، ويوجه أبصارهم إليها هي : عاقبة المكذبين على مدار التاريخ ، ومداولة الأيام بين الناس ، والابتلاء لتحصيل السرائر ، وامتحان قوة الصبر على الشدائد ، واستحقاق النصر للصابرين والمحق للمكذبين . »

« .. إن القرآن ليربط ماضي البشرية بحاضرها ، وحاضرها بماضيها ، فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها . وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم ولم تكن معارفهم ، ولم تكن

١٣ - والناموسية التاريخية ، أو القانونية التاريخية - مرة أخرى - : هي واحدة من القواعد الأساسية للتفسير الإسلامي للتاريخ ، قالها كتاب الله قبل أن يقول بها أحد ، وأكدها في عشرات المواضع يوم أن لم تكن حركة التاريخ في تصور العقل البشري ، وأعمال المؤرخين أنفسهم ، سوى سلسلة غير مترابطة الحلقات من الحوادث ، و حشود من الوقائع لا تدرى فيها الأسباب والنتائج ، وصدف وفلتات لا يربطها نظام ولا يحركها قانون ولا تشدها سنة .

ويعد المقطع القرآني التالي ، الذي هو قمة التصعيد في الحديث عن معركة أحد ، والذي يؤكد على الناموسية التاريخية ، واحدة من أشد الإضاءات القرآنية كثافة وامتداداً في حقل التفسير الإسلامي للتاريخ ، ولذا يقف عنده سيد طويلاً مستخلصاً القيم والمؤشرات والتعاليم : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يمسنكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ولنمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا

تجاربهم - قبل الإسلام - لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة لولا هذا الإسلام وكتابه - القرآن - الذي أنشأهم به الله نشأة أخرى وخلق به منهم أمة تقود الدنيا .

« إن النظام القبلي الذي كانوا يعيشون في ظلّه ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة ومجريات حياتهم ، فضلاً عن الربط بين سكان هذه الأرض وأحداثها ، فضلاً عن الربط بين الأحداث العالمية والسنن الكونية التي تجري وفقها الحياة جميعاً . وهي نقلة بعيدة لم تنبع من البيئة ، ولم تنشأ من مقتضيات الحياة في ذلك الزمان ، إنما حملتها إليهم هذه العقيدة ، بل حملتهم إليها ، وارتقت بهم إلى مستواها في ربع قرن من الزمان ، على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير الحالي إلا بعد قرون ، ولم يهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس الكونية إلا بعد أجيال وأجيال . فلما اهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس نسوا أن معها كذلك طلاقة المشيئة الإلهية ، وأنه إلى الله تصير الأمور : فأما هذه الأمة المختارة فقد استيقنت هذا كله ، واتسع له تصورهما ، ووقع في حسنها التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة ، فاستقامت حياتها على التعامل مع سنن الله الثابتة والاطمئنان - بعد هذا - إلى مشيئته الطليقة .. » (٣١)

١٤ - يخلص سيد إلى تقرير واحد من

الحقائق الأساسية في التفسير الإسلامي للتاريخ ، الحقيقة التي سبق وأن أكدها في تعامله مع سورة الأنفال ، وسوف يعود إلى تأكيدها عبر تعامله مع سور القرآن جميعاً ، تلك هي أن فاعلية الله في التاريخ تعمل من خلال الطبيعة حيناً ومن خلال الإنسان حيناً آخر ، تحرك القوى المادية المنظورة حيناً ، وتدفع بالقوى الروحية غير المنظورة حيناً آخر ، تعتمد السنن والنواميس حيناً ، وتخترقها بالمعجزات والحوارق حيناً آخر .. وتبقى إرادة الله قبل هذا كله ، وبعد هذا كله ، هي التي تصنع التاريخ .

« يحرص السياق القرآني على ردّ الأمر كله إلى الله ، كي لا يعلق بتصور المسلم ما يشوب هذه القاعدة الأصلية : قاعدة ردّ الأمر جملة إلى مشيئة الله الطليقة وإرادته الفاعلة وقدره المباشر ، وتنحية الأسباب والوسائل عن أن تكون هي الفاعلة إنما هي أداة تحركها المشيئة وتحقق بها ما تريده ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ .

« وقد حرص القرآن الكريم على تقرير هذه القاعدة في التصور الإسلامي ، وعلى تنقيتها من كل شائبة ، وعلى تنحية الأسباب الظاهرة والوسائل والأدوات عن أن تكون هي الفاعلة ، لتبقى الصلة المباشرة بين العبد والرب ، بين قلب المؤمن وقدر الله ، بلا حواجز ولا عوائق ولا وسائل ولا وسائط كما هي في عالم الحقيقة بمثل هذه التوجيهات

والشهوات ، دون تلبية هتاف الدين أو الاتجاه معه في طريقه اتجاههاً كاملاً حين يرون هذه الظواهر فإنهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها ! - مادام هذا الدين من عند الله - أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الديني للحياة وواقعيته ويصابون بالشك في الدين إطلاقاً .

« وهذه السلسلة من الأخطاء تنشأ كلها من خطأ واحد هو عدم إدراك طبيعة هذا الدين ، وطريقته ، أو نسيان هذه الحقيقة الأولية البسيطة : أن هذا الدين منهج للحياة البشرية يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد بشري ، في حدود الطاقة البشرية ، ويبدأ في العمل من النقطة التي يكون البشر عندها بالفعل من واقعهم المادي ، ويسير بهم إلى نهاية الطريق في حدود جهدهم البشري وطاقاتهم البشرية ، ويبلغ بهم أقصى ما تمكنهم طاقتهم وجهدهم من بلوغه . وميزته الأساسية أنه لا يغفل لحظة ، في أية خطوة ، وفي أية خطوة ، عن طبيعة فطرة الإنسان وحدود طاقته وواقعه المادي أيضاً .. ولكن الخطأ ينشأ - كما تقدم - من عدم الإدراك لطبيعة هذا الدين أو نسيانها . ومن انتظار الخوارق التي لا ترتكن على الواقع البشري والتي تبدل فطرة الإنسان وتنشئه نشأة أخرى لا علاقة لها بفطرته وميوله واستعداداته وطاقته وواقعه المادي كله .

المكررة في القرآن ، المؤكدة بشتى أساليب التوكيد ، استقرت هذه الحقيقة في أخلاق المسلمين على نحو بديع ، هادئ عميق ، مستنير . عرفوا أن الله هو الفاعل - وحده ، وعرفوا كذلك أنهم مأمورون من قبل الله باتخاذ الوسائل والأسباب ، وبذل الجهد ، والوفاء بالتكاليف ؛ فاستيقنوا الحقيقة ، وأطاعوا الأمر في توازن شعوري وحركي عجيب ^(٣٢) .

وفي مقابل هذه الحقيقة تقف حقيقة أخرى توازنها وتوازنها : أنه بدون الفعل البشري في التاريخ لن يتحقق شيء على الإطلاق !

« إن بعضنا ينتظر من هذا الدين - مادام هو المنهج الإلهي للحياة البشرية - أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة ! دون اعتبار لطبيعة البشر ، ولطاقاتهم الفطرية ، ولواقعهم المادي ، في أية مرحلة من مراحل نموهم ، وفي أية بيئة من بيئاتهم .

« وحين يرون أنه لا يعمل بهذه الطريقة ، وإنما هو في حدود الطاقة البشرية ، وحدود الواقع المادي للبشر ، وأن هذه الطاقة وهذا الواقع يتفاعلان معه ، ويتأثران به في فترات تأثراً واضحاً ، أو يؤثران في مدى استجابة الناس له ، وقد يكون تأثيرهما متضادان في فترات أخرى ، فتقعد بالناس ثقله الطين وجاذبية المطامع

« ليس لأحد من خلق الله أن يسأله - سبحانه - لماذا شاء أن يخلق الكائن الإنساني بهذه الفطرة ؟ ولماذا شاء أن تبقى فطرته هذه عاملة لا تمحى ولا تعدل ولا تعطل ، ولماذا شاء أن يجعل المنهج الإلهي يتحقق في حياته عن طريق الجهد البشري وفي حدود الطاقة البشرية ؟ ولكن لكل أحد من خلقه أن يدرك هذه الحقيقة ، ويراهنا وهي تعمل في واقع البشرية ، ويفسر التاريخ البشري على ضوءها ، فيفقه خط سير التاريخ من ناحية ، ويعرف كيف يوجه هذا الخط من ناحية أخرى .

« هذا المنهج الإلهي الذي يمثله الإسلام - كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم - لا يتحقق في دنيا الناس بمجرد تنزله من عند الله ، ولا بمجرد إبلاغه للناس وبيانه ، ولا يتحقق بالقهر الإلهي على نحو ما يمضي الله ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب وترتب النتائج على أسبابها الطبيعية ؛ إنما يتحقق بأن تحمله مجموعة من البشر ، تؤمن به إيماناً كاملاً ، وتستقيم عليه بقدر طاقتها ، وتجعله وظيفة حياتها وغاية آمالها ، وتجهده لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم العملية كذلك ، وتجاهد لهذه الغاية بحيث لا تستبقي جهداً ولا طاقة .

تجاهد الضعف البشري ، والهوى والجهل ، في أنفسها وأنفس الآخرين ، وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى والجهل للوقوف في وجه هذا المنهج ، وتبلغ ، بعد ذلك

كله ، من تحقيق هذا المنهج الإلهي إلى الحد والمستوى الذي تطيقه فطرة البشر على أن تبدأ بالبشر من النقطة التي هم فيها فعلاً ولا تغفل واقعهم ومقتضيات هذا الواقع في سير مراحل هذا المنهج وتتابعها ، ثم تنتصر هذه المجموعة على نفسها وعلى نفوس الناس معها تارة ، وتنهزم تارة بقدر ما تبذل من الجهد وتتخذ من الأساليب العملية ، وبقدر ما توفق في اختيار هذه الأساليب .

وقبل كل شيء وكل جهد وكل وسيلة - : هنالك عنصر آخر : هو مدى تجرد هذه المجموعة لهذا الغرض ، ومدى تمثيلها لحقيقة هذا المنهج في ذات نفسها ، ومدى ارتباطها بالله صاحب هذا المنهج ، وثقتها به ، وتوكلها عليه .. » (٣٣)

في التفسير الإسلامي تتوافق أفعال البشر مع إرادة الله ، تتناغم وتتلاقى ، ليس ثمة ارتطام أو تناقض أو تعارض كما يخيل للفكر الوضعي ، بل إن الأمر واضح بين : أن المصير الذي يختم به الله على هذه الحركة أو تلك ، وعلى هذه التجربة ، أو تلك ، إنما يستمد خطوطه وألوانه وتكويناته من صميم المقومات التي صاغت الحركة ، والخيوط التي نسجت التجربة ، وتبقى إرادة الله محيطة بالوجود والمصير ، ويبقى الابتلاء هو المحك الذي يشكل الوجود ويقود إلى الختم على المصير .

إن القرآن الكريم يسعى إلى أن يكشف للمسلمين عن طرف من حكمة الله



وتدبيره وراء الآلام التي تعرضوا لها ،
والأحداث التي وقعت بأسبابها الظاهرة :

« .. ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » ،
لقد كان هناك قدر الله وراء أفعال البشر .
فلما أن ضعفوا وتنازعوا وعصوا ، صرف
الله قوتهم وبأسهم وانتباههم عن
المشركين ، وصرف الرماة عن ثغرة
الجبل ، وصرف المقاتلين عن الميدان فلاذوا
بالفرار . وقع كل هذا مرتباً على ما صدر
منهم ؛ لكن مديراً من الله ليبتليهم بالشدة
والخوف والهزيمة والقتل والقرح ، وما
يتكشف عنه هذا كله من كشف مكنونات
القلوب ، ومن تمحيص النفوس وتمييز
الصفوف : وهكذا تقع الأحداث مرتبة
على أسبابها ، وفي الوقت ذاته مدبرة
بحسابها ، بلا تعارض بين هذا وذاك ،
فلكل حادث سبب ، ووراء كل سبب
تدبير » (٣٤)

« إن التصور الإسلامي يتسم بالتوازن
المطلق بين تقرير الفاعلية المطلقة لقدر الله -
سبحانه - وتحقيق هذا القدر في الحياة
الإنسانية من خلال نشاط الإنسان وفاعليته
وعمله . إن سنة الله تجري بترتيب النتائج
على الأسباب ، ولكن الأسباب ليست هي
التي (تنشئ) النتائج ؛ فالفاعل المؤثر هو
الله ، والله يرتب النتائج على الأسباب
بقدره ومشيئته ومن ثم يطلب إلى الإنسان
أن يؤدي واجبه ، وأن يبذل جهده ، وأن
يفي بالتزاماته . وبقدر ما يوفي بذلك كله

يرتب الله النتائج ويحققها .. وهكذا يتوازن
تصور المسلم وعمله ، فهو يعمل وي بذل ما
في طوقه ، وهو يتعلق في نتيجة عمله
وجهد به بقدر الله ومشيئته .. » (٣٥)

١٥ - والتفسير الإسلامي للتاريخ يتميز
بالشمولية والموضوعية والواقعية .

الشمولية التي تنظر إلى كل صغيرة
وكبيرة في صيرورة الحدث التاريخي ،
وتحسب حسابها لكل الأسباب ، وترفض
الجنوح باتجاه النظرة أحادية الجانب ، كما
يفعل الوضعيون ، فتؤكد على هذا السبب
أو ذاك ، وتقف عند هذا الجانب أو ذاك ،
مهملة الأسباب والجوانب الأخرى بالكلية
حيناً ، واضعة إياها في المرتبة الثانية أو
العاشرة حيناً آخر .

وبالموضوعية لأنه يصدر عن الله سبحانه
فلا يميل به هوى أو مصلحة أو ظن ، ولا
تأسره فئة ، أو طبقة ، أو جماعة ، أو أمة ،
ولا تحجب نفاذه وإحاطته تأثيرات نسبية
لعصر أو مكان .. إنه فوق الأهواء
والمصالح والظنون ، فوق الفئات والطبقات
والجماعات ، فوق نسيب الزمان
والمكان .

وبالواقعية لأنه يقر سائر مكونات
الواقعة التاريخية ، ويحترمها ، ويشير لها ،
حتى ولو كانت ممارسة اقتصادية هرفة ،
أو عملاً جنسياً ، أو طعاماً وشراباً ،
ويذكر الأسماء بمسمياتها الحقيقية ، فلا
تغدو الهزيمة - في تبرير ملتو - نصراً ، ولا

تزيف الوقائع لكي تخدم هذه الرؤية النسبية القاصرة أو تلك .

وسيد يقف عند هذه الميزة المنهجية ، كما وقف عند الميزات المنهجية السابقة ، ويردّ معطيات القرآن التي تتحدث عن قضايا من مثل الربا والإنفاق والفساد الاجتماعي ، وما يبدو في ظاهره بعيداً عن المجرى الأساسي للعرض المنصبّ على معركة حربية ، ويردّها إلى : هذه القاعدة المنهجية ، وتلك النظرة الشمولية ، في كتاب الله وفي نسيج الإسلام على السواء .

« قبل أن يدخل السياق - القرآني - في صميم الاستعراض للمعركة - معركة أحد - والتعقيبات على وقائعها وأحداثها ، تجيء التوجيهات المتعلقة بالمعركة الكبرى ، المعركة في أعماق النفس وفي محيط الحياة ، يجيء الحديث عن الربا والمعاملات الربوية ، وعن تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله ، وعن الإنفاق في السراء والضراء ، والنظام التعاوني الكريم المقابل للنظام الربوي الملعون ، وعن كظم الغيظ والعفو عن الناس وإشاعة الحسنى في الجماعة ، وعن الاستغفار من الذنب والرجوع إلى الله وعدم الإصرار على الخطيئة .

« .. تجيء هذه التوجيهات كلها قبل الدخول في سياق المعركة الحربية لتشير إلى خاصية من خواص هذه العقيدة : الوحدة والشمول في مواجهة هذه العقيدة للكينونة

البشرية ونشاطها كلها ، ورده إلى محور واحد : محور العبادة لله والعبودية والتوجه إليه بالأمر كله . والوحدة والشمول منهج الله وهيئته على الكينونة البشرية في كل حال من أحوالها ، وفي كل جانب من جوانب نشاطها . ثم تشير تلك التوجيهات بتجمعها هذا إلى الترابط بين كل ألوان النشاط الإنساني ، وتأثير هذا الترابط في النتائج الأخيرة لسعي الإنسان كله .

« والمنهج الإسلامي يأخذ النفس من أقطارها ، وينظم حياة الجماعة جملة لا تفريق ومن ثم هذا الجمع بين الإعداد والاستعداد للمعركة الحربية ، وبين تطهير النفوس ونظافة القلوب والسيطرة على الأهواء والشهوات ، وإشاعة السود والسماحة في الجماعة ، فكلها قريب من قريب ، وحين نستعرض بالتفصيل كل سمة من هذه السمات وكل توجيه من هذه التوجيهات يتبين لنا ارتباطها الوثيق بحياة الجماعة المسلمة ، وبكل مقدراتها في ميدان المعركة وفي سائر ميادين الحياة »^(٣٦) .

إن الرؤية الإسلامية ليست مثالية تطرح أخيلة معلقة لا يمكن تنفيذها تاريخياً ، ومجتمعاً ملائكياً من البشر لا يخطيء ولا ينحرف ولا يضلّ به الطريق ، بل يظل معلقاً هناك في القمة . وهي - أي : الرؤية الإسلامية - ليست - كذلك - صمّاء تدعو إلى قيام مجتمع يتساوى فيه الجميع



ولا يبدلها أو يعطلها ، ولا يحملها ما لا تطيق ، وإن بلغ بها الكمال المقدر لها في هذه الأرض ^(٣٧) .

١٦ - ومن عجب أن أشد مذاهب التفسير التاريخي جماعية وإنكاراً للفردية ، وهي المادية التاريخية ، ينتهي الأمر بأصحابها إلى نوع من الفردية في التعامل مع (الزعيم) والنظر إليه ، حياً وميتاً ، فيما يعد تناقضاً مكشوفاً بين النظرية وبين الواقع المشهود ، لقد غدا ماركس ولنين وستالين وماوتسي تونج .. الخ أرباباً ليس من دون الله ، فالشيوعيون لا يقرّون وجوده ، ولكن من فوق العقيدة الماركسية نفسها تلك التي تنكر دور الفرد في التاريخ وتلغيه إلغاءً ، ثم إذا بهؤلاء ، وغيرهم من قادة الفكر والحركة الشيوعية في العالم ، يتألهون على الأتباع ، ويتضخم دورهم (البطولي) فيما يضعهم في مرتبة الآلهة التي لا تخطئ ، ولا يردّ لها رأي أو ينقض لها كلام . ويزداد الأتباع في المقابل انكماشاً وتضاضلاً أمام طواغيتهم هؤلاء ويتنازلون عن كل حق مادي أو أدبي من حقوقهم الأساسية ، وملاحظهم كبشر لكي ما يلبثوا أن يغدوا مجرد أدوات لا حول لها ولا قوة ، تؤمر فتطيع ، ويصرخ في وجوهها فتلبي وتذعن ، في تجربة تاريخية يقال إن الحكم فيها للجماعة لا للفرد .

بل إن الأمر ليتجاوز هذا كله إلى صنمية عجيبة تمتد إلى ما بعد وفاة

كالأرقام ، ويسرون عبر طريق محدد ، مرسوم سلفاً ، دونما جهد منهم أو مقاومة .

إنما هي رؤية واقعية متوازنة ، تجد رصيدها الكبير من إمكانيات التنفيذ ، وتنوعها الذي ينسجم وحجم الإنسان ، وقدراته ، وطموحاته .

« إن النفس البشرية ليست كاملة - في واقعها - ولكنها في الوقت ذاته قابلة للنمو والارتقاء ، حتى تبلغ أقصى الكمال المقدر لها في هذه الأرض . وها نحن أولاء نرى - في معركة أحد - قطاعاً من القطاعات البشرية - كما هو وعلى الطبيعة - ممثلاً في الجماعة التي تمثل قمة الأمة التي يقول الله عنها : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ ، وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .. فماذا نرى ؟ نرى مجموعة من البشر فيهم الضعف وفيهم النقص .. وفيهم من ينهزم وينكشف .. وكل هؤلاء مؤمنون مسلمون ؛ ولكنهم كانوا في أوائل الطريق ، كانوا في دور التربية والتكوين ، ولكنهم كانوا جادين في أخذ هذا الأمر ، مسلمين أمرهم الله ، مرتضين قيادته ، ومن ثم لم يطردوهم الله من كنفه ، بل رحمهم وعفا عنهم .. ثم وصلوا في النهاية وغلبت فيهم التماذج التي كانت في أول المعركة معدودة .. ولكنهم مع هذا ظلوا بشراً ، وظل فيهم الضعف والنقص والخطأ .. إنها الطبيعة البشرية التي يحافظ عليها هذا المنهج

الطاغوت لكي تخطه وتجمّله ، على الطريقة الفرعونية التي تتعامل مع فرعون كما لو كان ابن الآلهة ، ثم تضعه في معارض من زجاج تقف إزاءها طوابير العابدين بخشوع لكي تمرّ قريباً منها فتلقي تحية الذلّة وتلقى البركات .

هذا في إطار دولة ترى في المادية التاريخية التي تنكر دور الأفراد ، عقيدة وفلسفة ودستوراً ، فماذا في إطار رؤية الإسلام وتجربته ؛ ماذا بصدد الرسول القائد الذي جاء بهذا الدين وقاده في الرحلة الصعبة إلى مشارف الفوز ؛ ماذا بصدد محمد عليه السلام ، وهو النبي الموصول بالسماء ، وبقدر الله ، وملاه الأعلى ؛ لا شيء على الإطلاق مما يشم منه رائحة تعبّد أو صنمية أو استعلاء .. إنه واحد من الناس يعيش كما يعيشون ، ويموت كما يموتون ، والذي يبقى هو العقيدة وحدها .

ذلك ملمح أصيل من ملامح الرؤية العقيدية في الإسلام ، وبالتالي من ملامح نظرة الإسلام للتاريخ وعناصر تكوينه ، إن الأنبياء - كأفراد متميزين - يسهمون ليس في صياغة التاريخ فحسب ، ولكن في قيادته وتوجيهه ، إلا أن هذا لا يجنح بهم إلى أن يكونوا فوق الناس ، ولا أن يجرد أتباعهم ، إزاءهم ، من محتوهم البشري ، إذا صحّ التعبير ، لكي يغدوا أرقاماً وأدوات ؛ إنهم جميعاً يسهمون في صنع التاريخ والموجه الأبدي هو العقيدة التي

تنزلت من السماء . إن كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام تقول بهذا ، وتجربة خلفائه الراشدين تؤكد وتعرّزه .

إن سيّد يقف عند هذا الملمح في التفسير الإسلام للتاريخ وهو يقرأ هذه الآية ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين ﴾^(٣٨) .

« إن محمداً ليس إلا رسولاً سبقته الرسل . وقد مات الرسل ، ومحمد سيموت كما مات الرسل قبله .. إنه جاء ليبلغ كلمة الله ، والله باق ولا يموت ، وكلمته باقية لا تموت ، وما ينبغي أن يرتد المؤمنون على أعقابهم إذا مات النبي الذي جاء ليبلغهم هذه الكلمة أو قُتل .. إن البشر إلى فناء والعقيدة إلى بقاء ، ومنهج الله للحياة مستقل في ذاته عن الذين يحملونه ويؤدونه إلى الناس من الرسل والدعاة على مدار التاريخ .

« .. إن الدعوة أقدم من الداعية ، وأكبر وأبقى .. فدعاتها يجيئون ويذهبون وتبقى هي على الأجيال والقرون ، ويبقى أتباعها موصولين بمُصنِّدِها الأول الذي أرسل بها الرسل ، وهو باق - سبحانه - يتوجه إليه المؤمنون .

« .. وكأنما أراد الله سبحانه بهذه الآية أن يفطم المسلمين عن تعلّقهم الشديد

عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده .

من الظلمات إلى النور .. ذلك هو الشعار الواحد الذي رفعه الأنبياء جميعاً ، وقاتلت دونه كل الأجيال التي انتمت إليه قرناً بعد قرن .

فإذا كان المسلمون قد ابتلوا في (أحد) ، وزلزلوا في الخندق ، وتراجعوا في (حنين) ، فإن جماعات كثيرة من إخوانهم المؤمنين الذين سبقوهم على الدرب ، ابتلوا وزلزلوا وتراجعوا ؛ ولكنهم بإصرارهم ، بيقينهم ، بإيمانهم بعدالة قضيتهم ، ثبتوا وتماسكوا وتفوقوا وحققوا الانتصار الموعود .

﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا

ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾ .. إن المثل الذي يضربه الله - سبحانه - للمسلمين في أحد ، مثل عام ، لا يحدّد فيه نبياً ، ولا يحدّد فيه قوماً ؛ إنما يربطهم بموكب الإيمان ، ويعلمهم أدب المؤمنين ، ويصور لهم الابتلاء كأنه الأمر المطرد في كل دعوة وفي كل دين ، ويربطهم بأسلافهم من أتباع

بشخص النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو حي بينهم ، وأن يصلهم مباشرة بالنبع .. وأن يجعل ارتباطهم بالإسلام مباشرة ، وأن يجعل مسؤوليتهم في هذا العهد أمام الله بلا وسيط حتى يستشعروا تبعثهم المباشرة التي لا يخلّهم منها أن يموت الرسول - صلى الله عليه وسلم - أو يقتل ، فهم إنما بايعوا الله وهم أمام الله مسئولون^(٣٩) .

١٧ - ويؤكد سيد ، مراراً ، اعتماداً على المعطيات القرآنية نفسها ، وحدة الحركة الدينية في التاريخ ، بدءاً بآدم وانتهاء بالرسول عليهما السلام ، مروراً بالأنبياء الكرام جميعاً وبالمتنمين إليهم جيلاً بعد جيل . إن مصدر التلقي واحد ، والهدف واحد ، والشرعية واحدة ، والخصم واحد ، والمعركة واحدة وإن امتد بها الزمن وشطّط بها الأماكن والديار . ويتمخض عن ذلك كله خبرة متوحدة تقتبس منها وتمشي على هديها أجيال المؤمنين جيلاً بعد جيل .

إن (الجماعة المؤمنة) ، بقيادة هذا النبي الكريم أو ذاك ، هي وحدة العمل والفاعلية في التاريخ : ليست الطبقة ، أو الدولة ، أو العرق ، كما ترى نظريات التفسير المادية أو المثالية أو الحضارية أو غيرها . الجماعة المؤمنة تواجه قوى الكفر والضلال وتقود حركة التاريخ صوب الأحسن والأرقى ، وتخرج بالناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى

الأنبياء ، ليقرر في حستهم قرابة المؤمنين للمؤمنين ، ويقرر في أخلادهم أن أمر العقيدة كله واحد ، وأنهم كتيبة في الجيش الإيماني الكبير .. »^(٤٠)

١٨ - ويشير سيد إلى ما يعدّ ملمحاً أساسياً آخر من ملامح التفسير الإسلامي للتاريخ : « إن أية فكرة ، أو عقيدة ، أو شخصية ، أو منظمة .. إنما تحيا وتعمل وتؤثر بمقدار ما تحمل من قوة كامنة وسلطان قاهر ؛ هذه القوة تتوقف على مقدار ما فيها من (الحق) أي بمقدار ما فيها من توافق مع القاعدة التي أقام الله عليه الكون ، ومع سنن الله التي تعمل في هذا الكون . وعندئذ يمنحها الله القوة والسلطان الحقيقيين الفاعلين المؤثرين في هذا الوجود ؛ وإلا فهي زائفة باطلة ضعيفة واهية مهما بدا فيها من قوة واتماع وانتفاش .

« والمشركون يشركون مع الله آلهة أخرى في صور شتى ، ويقوم الشرك ابتداءً على إعطاء غير الله - سبحانه - شيئاً من خصائص الألوهية ومظاهرها .. فماذا تحمل هذه الآلهة من الحق الذي أقام الله عليه الكون ؛ إن الله الواحد خلق هذا الكون ليتسبب إلى خالقه الواحد ، وخلق هذه الخلائق لتقر له بالعبودية وحده بلا شريك ، ولتلقى منه الشريعة والقيم بلا منازع ، ولتعبد وحده حق عبادته بلا أنداد . فكل ما يخرج على قاعدة التوحيد

في معناها الشامل ، فهو زائف باطل ، مناقض للحق الكامن في بنية الكون ، ومن ثم فهو واه هزيل ، لا يحمل قوة ولا سلطاناً ، ولا يملك أن يؤثر في مجرى الحياة ، بل لا يملك عناصر الحياة ولا حق الحياة !

« ومادام أولئك المشركون يشركون بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، من الآلهة والعقائد والتصورات ، فهم يرتكنون إلى ضعف وخواء ، وهم أبدأ خوَارون ضعفاء وهم أبدأ في رعب حيثما التقوا بالمؤمنين المرتكنين إلى الحق ذي السلطان .

« وإننا لنجد مصداق هذا الوعد كلما التقى الحق والباطل . وكم من مرة وقف الباطل مدججاً بالسلاح أمام الحق الأعزل ، ومع ذلك كان الباطل يحتشد احتشاد المرعوب ، ويرتجف من كل حركة وكل صوت وهو في حشده المسلح المحشود . فأما إذا أقدم الحق وهاجم فهو الذعر والفرع والشتات والاضطراب في صفوف الباطل ، ولو كانت له الحشود ، وكان للحق القلة تصديقاً لوعده الله ﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ .. »^(٤١)

لكن سيد لا يقف عند هذا الجانب من الصورة ، ويتنقل - في مكان آخر - إلى الجانب الثاني لكي يجيب ؛ من خلال



الطيب ، ويعظم الأجر لمن يمضي مع
الابتلاء ويثبت ؛ فهو الكسب للحق
والخسارة للباطل ، مضاعفاً هذا وذاك هنا
وهناك ^(٤٢) .

١٩ - وحتى (الشيطان) ، فإن له في
التفسير الإسلامي للتاريخ مكانة ! إنه
الباطل مجسداً في حركة التاريخ ، وإنه ليقف
من وراء كل محاولات الإفساد والتخريب
والتفكك والتحلل والدمار في تاريخ
البشرية . إنه نقيض الإيمان ، والبناء ،
والإصلاح ، والتماسك والتقدم ، وإنه
ليبذل جهده الدائم الموصول لتحقيق أهدافه
المضادة بكل صيغة ، وبكل أسلوب ، ومن
خلال نظم وزعامات وطواغيت وأتباع
يسعى إلى وقف حركة الإيمان والتقدم ،
والخروج بالناس من الظلمات إلى النور .

وهو يحاول « أن يجعل أوليائه مصدر
خوف ورعب ، وأن يخلع عليهم سمة القوة
والهيبة . ومن ثم ينبغي أن يفتن المؤمنون
إلى مكر الشيطان وأن يبتلوا محاولته ؛ فلا
يخافوا أوليائه هؤلاء ولا يخشوهم ؛ بل
يخافوا الله وحده ، فهو وحده القوي القاهر
القادر الذي ينبغي أن يخاف ^(٤٣) إنما ذلكم
الشيطان يخوف أوليائه فلا تخافوهم
وخافون إن كنتم مؤمنين ^(٤٤) .

« إن الشيطان هو الذي يضخم من
شأن أوليائه ، ويلبسهم لباس القوة
والقدرة ، ويوقع في القلوب أنهم ذوو حول
وطول ، وأنهم يملكون النفع والضرر ، ذلك

المعطيات القرآنية نفسها ، على سؤال ملح
طالما حاك في أذهان المؤمنين أنفسهم :
« لماذا يصاب الحق وينجو الباطل ويعود
بالغلبة والغنيمة ؟ أليس هو الحق الذي
ينبغي أن ينتصر ؟ وفيما تكون للباطل هذه
الصولة ؟ وفيما يعود الباطل من صدامه مع
الحق بهذه النتيجة وفيما فتنة القلوب وهزة ؟

« ولقد وقع بالفعل أن قال المسلمون
يوم أحد في دهشة واستغراب ﴿ أتى
هذا ﴾ ، ففي المقطع الختامي للمعركة
يجيء الجواب الأخير ، ويرى الله القلوب
المتعبة ، ويجلو كل خاطرة تتدسس إلى
القلوب من هذه الناحية ، ويبين سنته
وقدره وتدبيره في الأمر كله : أمس واليوم
وغداً ، وحيثما التقى الحق والباطل في
معركة فانتتهت بمثل ما انتهت إليه أحد .

« إن ذهاب الباطل ناجياً في معركة من
المعارك ، وبقائه منتفشاً فترة من
الزمان ، ليس معناه أن الله تاركه ، أو أنه
من القوة بحيث لا يغلب ، أو بحيث يضرر
الحق ضرراً باقياً قاضياً ؛ وأن ذهاب الحق
مبتلى في معركة من المعارك ، وبقائه
ضعيف الحول فترة من الزمان ليس معناه
أن الله مجافيه أو ناسيه ، أو أنه متروك
للباطل يقتله ويرديه !! كلا إنما هي حكمة
وتدبير ، هنا وهناك : يملى للباطل ليمضي إلى
نهاية الطريق ، وليرتكب أبشع الآثام ،
وليحمل أثقل الأوزار ، ولينال أشد العذاب
باستحقاق ؛ ويتلى الحق ، ليميز الخبيث من

ليقضي بهم أغراضه ، وليحقق بهم الشر في الأرض والفساد ، وليخضع لهم الرقاب ويطوع لهم القلوب ، فلا يرتفع في وجوههم صوت بالإنكار ، ولا يفكر أحد في الانتفاض عليهم ودفعهم عن الشر والفساد .

« والشيطان صاحب مصلحة في أن ينتعش الباطل ، وأن يتضخم الشر وأن يتبدى قوياً قاهراً بطاشاً جباراً ، لا تقف في وجهه معارضة ، ولا يصمد له مدافع ، ولا يغلبه من المعارضين غالب .. فتحت ستار الخوف والرعبة ، وفي ظل الإرهاب والبطش ، يفعل أولياؤه في الأرض ما يُقر عينه : يقلبون المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، وينشرون الفساد والباطل والضلال ، ويخفون صوت الحق والرشد والعدل ، و يقيمون أنفسهم آلهة في الأرض تحمي الشر وتقتل الخير ، دون أن يجرؤ أحد على مناهضتهم والوقوف في وجههم ومطاردتهم وطردهم من مقام القيادة ، بل دون أن يجرؤ أحد على تزييف الباطل الذي يروجون له وجلاء الحق الذي يطمسونه .

« والشيطان مكر خادع غادر ، يختفي وراء أوليائه ، وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته ، ومن هنا يكشفه الله ويوقعه عارياً لا يستتره ثوب من كيده ومكره ، ويعرف المؤمنون الحقيقة : حقيقة مكره ووسوسته ليكونوا منها على حذر ، فلا يرهبوا أولياء الشيطان

ولا يخافوهم ، فهم وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه ويستند إلى قوته . إن القوة الوحيدة التي تُخشى وتُخاف هي القوة التي تملك النفع والضرر ، هي قوة الله ، وهم حين يخشونها وحدها يكونون أقوى الأقوياء ؛ فلا تقف لهم قوة في الأرض ، لا قوة الشيطان ، ولا قوة أولياء الشيطان ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ .. «^(٤٣)

٢٠ - وإذا كانت ثمة حتمية في التاريخ البشري فإنها حتمية الموت الذي يختم على حياة الناس جميعاً : قادة وأناساً عاديين ، أنبياء وأتباعاً ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾^(٤٤) ، ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾^(٤٥) ، ﴿ أينما كنتم يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾^(٤٦) ... الخ . ولكن الإسلام يطرح تصوره المتميز للموت فيمنحه بعداً جديداً ، ويحوّله من إرادة انكماش واستلاب إلى وسيلة انتشار وعطاء . إنه في المنظور الإسلامي - والديني عموماً - ليس سوى نقلة إلى عالم الخلود ، وأن الشهداء على وجه الخصوص لن يطويهم الموت بالمعنى المعروف ، ولكنهم يظلون أحياء . إن هذا التصور ، أو هذه الحقيقة المؤكدة قرآناً بعبارة أدق ، لن يقتصر مردودها على نطاق الذات المؤمنة ، ولكنه يتحول إلى فعل إيجابي على مستوى الجماعة ، إلى فعل تاريخي يدفع حشود



للحياة والموت ، وتصورهم لما هنا وما هناك ...

« .. إنها تعديل كامل لمفهوم الموت - متى كان في سبيل الله - وللمشاعر المصاحبة له في نفوس المجاهدين أنفسهم ، وفي النفوس التي يخلفونها من ورائهم ، وإفساح لمجال الحياة ومشاعرها وصورها ، بحيث تتجاوز نطاق هذه العاجلة ، كما تتجاوز مظاهر الحياة الزائلة ، وحيث تستقر في مجال فسيح عريض لا تعترضه الحواجز التي تقوم في أذهاننا وتصوراتنا عن هذه النقلة من صورة إلى صورة ، ومن حياة إلى حياة .

« ووفقاً لهذا المفهوم الجديد ، للموت ، سارت خطى المجاهدين الكرام في طلب الشهادة - في سبيل الله - وكانت منها تلك النماذج (الفريدة) في التاريخ ... »^(٤٧)

* * *

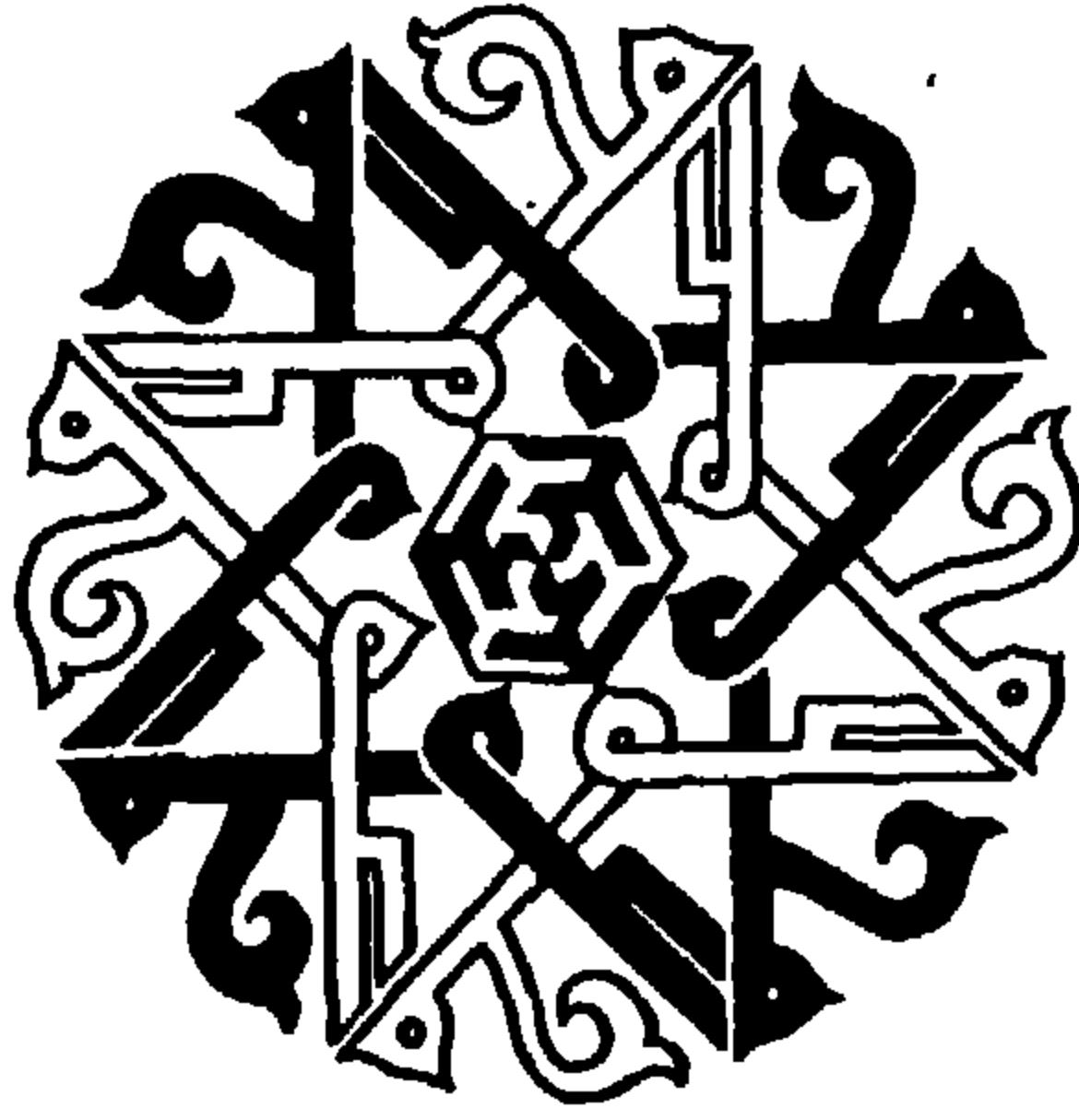
المؤمنين إلى مزيد من الفاعلية والعطاء ، ويحضتهم على الإقدام والاقترحام والتضحية ، ويكسر في دروبهم متاريس الحزن والتردد والخوف ، فيختزلون وهم يركضون إلى الشهادة حيثيات الزمن والمكان ، ويفعلون الأفاعيل ، ويجابهون التاريخ وحركته بطاقات تتجاوز منطق الحساب والقياس ، وتتأني على التحليل والتعليل . إن تاريخ الإسلام في فتراته المتألقة ، فترات التقدم والازدهار والانتشار ، عصور التغير الجذري العميق لخرائط العالم ، وإقامة دنيا سعيدة ، متوحدة ، عادلة ، كانت تسهم في صنعه هذه الرؤية ، بينما في المذاهب الوضعية يغدو الموت عنصر ابتزاز واستلاب ، ونكوص وزوال ، يقطع ويشل ، ويتصدى لمشاريع الإنسان .

في الرؤى الوضعية يغدو الموت غياباً ، أما في التصور الإسلامي فإنه حضور في قلب التاريخ .

« .. إن جلاء هذه الحقيقة الكبيرة ذو قيمة ضخمة في تصور الأمور . إنها تعدل ، بل تنشئ إنشاء ، تصور المسلم للحركة الكونية التي تتنوع معها صور الحياة وأوضاعها وهي موصولة لا تنقطع ، فليس الموت خاتمة المطاف ، بل ليس حاجزاً بين ما قبله وما بعده على الإطلاق . إنها نظرة جديدة لهذا الأمر ، ذات آثار ضخمة في مشاعر المؤمنين ، واستقبالهم

ونجد الرجل يقول كلمته فيها من خلال تفسيره لهذا المقطع أو ذاك ، ولهذه الآية أو تلك ، ومن خلال مقدماته التحليلية الخصبة لسور القرآن ، وبخاصة تلك التي تحدثت عن وقائع تاريخية مما شهدته عصر الرسالة .

وهكذا يتأكد لنا ما سبق وأن بدأنا به هذا الفصل من أن سيد - عبر ظلاله - قد قدم مساحات واسعة مما يمس التفسير الإسلامي للتاريخ من قريب أو بعيد ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، وأنه ما من مسألة أساسية لها علاقة ما بالموضوع إلا



الهوامش

- (١) الآية رقم [١١] .
- (٢) في ظلال القرآن ٧ / ١٤٢ (الطبعة الثالثة) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (بدون تاريخ) .
- (٣) الظلال ٧ / ١٤٢ - ١٤٣ .
- (٤) سورة الأنعام : الآية [٦] .
- (٥) الظلال ٧ / ١٣٠ - ١٣١ .
- (٦) الظلال ٩ / ١٦٦ - ٢٠١ وانظر المرجع نفسه ١٠ / ٤٩ - ٥٠ ، ١١ / ٧٦ - ٨٤ . وانظر على وجه الخصوص النص الذي اعتمده سيد من ابن القيم والمبادئ الأساسية التي استمدتها منه فيما يمكن أن يشكل الملامح الأساسية لقانون الجهاد ٩ / ١٦٦ - ١٦٩ . وانظر معالم في الطريق من ٥٥ - ٨٢ (الطبعة السادسة) ، دار الشروق ، القاهرة - ١٩٧٩ .
- (٧) الظلال ٩ / ٢١٨ .
- (٨) الظلال ٩ / ٢٢٧ - ٢٢٨ .
- (٩) الظلال ٩ / ٢٣٨ - ٢٤٠ .
- (١٠) سورة النساء: الآية [١٩] .
- (١١) الظلال ٩ / ٢٤٦ - ٢٤٧ .
- (١٢) سورة المدثر : الآية [٣١] .
- (١٣) الظلال ٩ / ٢٤٩ - ٢٥١ .
- (١٤) الظلال ٩ / ٢٥٤ .
- (١٥) الظلال ١٠ / ٣٦ .
- (١٦) سورة الأنفال : الآية [٥٣] .
- (١٧) الظلال ١٠ / ٣٧ .
- (١٨) سورة الأنفال : الآية [٥٨] .
- (١٩) الظلال ١٠ / ٤٧ .
- (٢٠) سورة الأنفال : الآيتان [٦٥ - ٦٦] .
- (٢١) الظلال ١٠ / ٥٨ - ٥٩ ، وانظر تفسيره لآيات معركة حنين ١٠ / ١٦٤ - ١٦٦ وكذلك ١٠ / ٢٥١ - ٢٥٢ .
- (٢٢) الظلال ١٠ / ٧٦ - ٧٩ .
- (٢٣) سورة البقرة : الآيات [١ - ٤] .
- (٢٤) الظلال ٧ / ١٣٧ .
- (٢٥) الظلال ٧ / ١٤٠ - ١٤١ .
- (٢٦) الظلال ٧ / ٢٦١ وانظر تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ من سورة

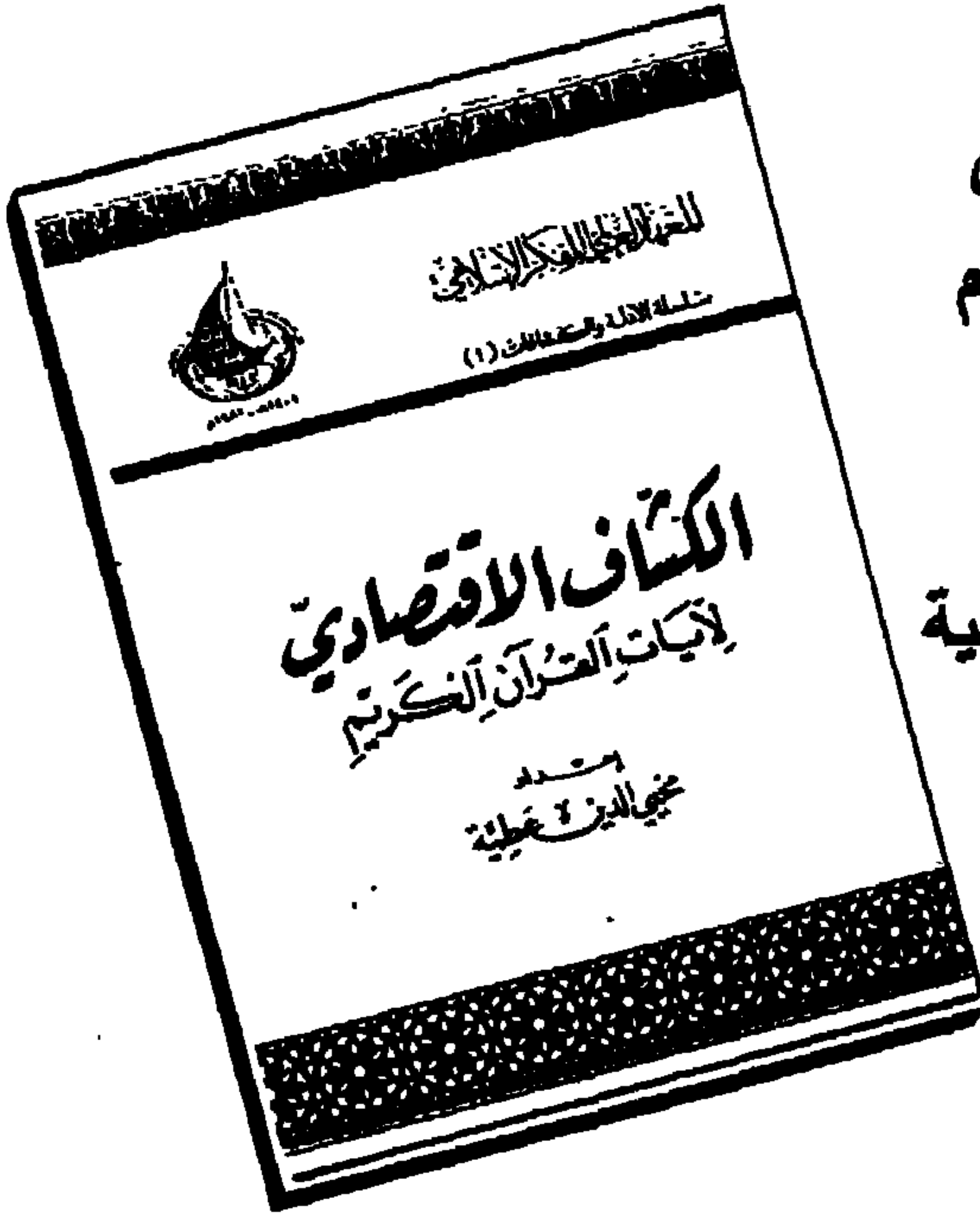
الأنعام ، حيث يقف سيد طويلاً أمام البعد الغيبي للتصور الإسلامي ويردّ على ضلالات الجاهلية المادية المعاصرة من خلال معطيات العلم نفسه الذي تبني صرحها عليه (٢٥٠/٧ - ٢٦٢) وانظر كذلك كتاب (العلم في مواجهة المادية) للمؤلف (مؤسسة الرسالة ، بيروت - ١٩٧٣) .

- (٢٧) الظلال ٦١/٤ - ٦٢ .
 (٢٨) الظلال ٦٢/٤ - ٦٥ وانظر ١٦٦/٤ - ١٦٧ .
 (٢٩) الظلال ٦٥/٤ .
 (٣٠) سورة آل عمران : الآيات [١٣٧ - ١٤٢] .
 (٣١) الظلال ٨٠/٤ - ٨١ وانظر ٨١/٤ - ٩٠ .
 (٣٢) الظلال ٦٧/٤ . وانظر ٦٨/٤ - ٧٠ .
 (٣٣) الظلال ١٧٥/٤ - ١٦٠ . وانظر ١٦١/٤ - ١٦٢ .
 (٣٤) الظلال ١٠٥/٤ - ١٠٦ .
 (٣٥) الظلال ١٢٠/٤ . وانظر ١٢١/٤ ، ١٣٥/٤ - ١٣٩ .
 (٣٦) الظلال ٧٠/٤ - ٧١ ، وانظر ١٦٤/٤ - ١٦٦ .
 (٣٧) الظلال ١٦٢/٤ - ١٦٤ .
 (٣٨) سورة آل عمران : الآية [١٤٤٠] .
 (٣٩) الظلال ٩٠/٤ - ٩٤ .
 (٤٠) الظلال ٩٥/٤ - ٩٧ .
 (٤١) الظلال ١٠٢/٤ - ١٠٣ .
 (٤٢) الظلال ١٥١/٤ - ١٥٢ . وانظر ١٥٢/٤ - ١٥٧ .
 (٤٣) الظلال ١٤٩/٤ - ١٥٠ .
 (٤٤) سورة الزمر : الآية [٣٠] .
 (٤٥) سورة آل عمران : الآية [١٤٤] .
 (٤٦) سورة النساء : آية [٧٨] .
 (٤٧) الظلال ١٤٢/٤ - ١٤٥ . وانظر ٥٤/٤ - ٥٨ .

* * *

صدر حديثاً

عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي
الكتاب الأول
في سلسلة الأدلة والكشافات



الكشاف الاقتصادي
لآيات القرآن الكريم

إعداد
الأستاذ محي الدين عطية

الكتاب أداة من أدوات البحث الاقتصادي الإسلامي، يوفر جهد الباحثين، باستخلاص الآيات القرآنية ذات العلاقة ببحوثهم، واستقصاء تفاسيرها المختلفة، وقد قصد به فتح طريق لتأصيل العلوم الاقتصادية تأصيلاً إسلامياً منطلقاً من المصدر الأول للهداية والمعرفة والحضارة.

يطلب من مكاتب المعهد بجميع أنحاء العالم



علم الكلام القرآني

د. بلقاسم الغالي(*)

- | | |
|--------------------------------------|---|
| النقاط الواردة في الدراسة | - |
| مقدمة . | - |
| تجديد علم الكلام الإسلامي . | - |
| من القرآن . | - |
| موقف أئمة المسلمين من هذا العلم . | - |
| تسمية علم الكلام وتعريفاته . | - |
| علم الكلام في مواجهة التحديات : | - |
| تحديات الأمت . | - |
| تحديات اليوم . | - |
| أساليب التحدي . | - |
| ثقافة المتكلم . | - |
| الاستعداد الفكري . | - |
| الثقافة الموسوعية . | - |
| القرآن . | - |
| السنة . | - |
| الفقه وأحواله . | - |
| المذاهب الهدامة ، الأديان المنحرفة ، | - |
| والفرق المنشقة . | - |
| الثقافة العلمية . | - |
| مبحث الألوهية . | - |
| الاستدلال على وجود الله عند | - |
| المتكلمين . | - |
| منهج المتكلمين في الاستدلال على | - |
| وجود الله . | - |
| صور من أدلة وجود الله عند | - |
| المتكلمين . | - |
| آراء العلماء في أدلة المتكلمين . | - |
| علم الكلام القرآني . | - |
| منهج القرآن في العقيدة . | - |
| نحو منهج كلامي جديد انطلاقاً من | - |
| القرآن . | - |
| مميزات المنهج القرآني في الاستدلال | - |

(*) أستاذ العقيدة بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، الجزائر .

وبرهن على صدق النبوة ببيان المعجزة
وشرف الأخلاق ، ودلل على إمكان
الآخرة بحجج أخلاقية ونفسية ، وقدم بيانا
لمسائل كلامية ومعضلات فلسفية ،
واستلهم من المصادر الإسلامية ، واستضاء
بها ، واقتبس من علوم الأوائل ، ووفق بين
مفاهيمها حتى اختلطت مباحث علم
الكلام بمباحث الفلسفة ..

ثم طرأ على مباحث هذا العلم ما طرأ
على بعض العلوم الإسلامية من بُعْدٍ عن
الابتكار والتجديد ، والتردي في مهاوي
الانحدار والسقوط ؛ وصار الاجتهاد في علم
الكلام منحصرأ في ترديد مقالات السابقين
وشرحها أو توضيح متن وحل مغلفاته
وصارت كتب السابقين تحاور في الألفاظ
وتناظر في الأساليب على حد تعبير الشيخ
محمد عبده . وتختلف ركب هذا العلم تبعا
لتخلف المسلمين العام وأصيب بالضحالة ،
ولكنه لم يصب بالعقم ؛ لأن محاولات
التجديد لم تغب عن الساحة إلا في عصور
الانحطاط والظلام .

وبدأ المسلمون يتحسسون طريق النهضة
لمختلف قضاياهم ، وفي مقدمة ذلك الاهتمام
بتجديد علومهم ، وجعلها مواكبة
للعصر ، مستجيبة لأحداثه مستفيدة من
تقنياته ومناهجه وأساليبه .

وعلم الكلام يتبوأ منزلة هامة في الخطط
الإسلامية ؛ لأن الأزمة التي تعانيها
المجتمعات الإسلامية تتمثل في العقيدة

- على وجود الله .
- نماذج من الاستدلال على وجود الله
انطلاقاً من القرآن .
- تنوع الأدلة وكثرتها .
- دليل الخلق .
- خلق الإنسان أعظم آية على وجود
الله .
- دليل الإتيان .
- دليل العناية والتسخير .
- أدلة قرآنية متنوعة .
- آراء في الاستدلال على وجود الله من
القرآن .

مقدمة

تجديد علم الكلام الإسلامي

علم الكلام الإسلامي أنار
العقول ، ووضح المفاهيم ، فكان
درعاً للإسلام ، وسلاحاً بيد علمائه
ضد الآراء التي تخالف وجهة نظر
الإسلام في المسائل الاعتقادية والكون
والحياة .

وهذا العلم قد أدى دوره ،
وأخصب الفكر الإسلامي ؛ فجعل
للقضايا الشائكة حلولاً طريفة ،
ونافح في سبيل العقيدة الإسلامية ؛
فأثبت للمخلوق الوجود والكمال
والتنزيه المطلق على كل ضرب من ضروب
التشبيه والتجسيم ، كما وردت بذلك
النصوص في حجج بليغة وأدلة قوية ،

علم الكلام علم شرعي

من القرآن :

تأسس علم الكلام انطلاقاً من مبدأ
أشار إليه القرآن الكريم ، يتمثل في الدعوة
إلى الله بالحكمة والمجادلة بالتي هي أحسن .
قال الله تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك
بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي
هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن
سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ .
[النحل / ١٢٥] .

ولا سبيل إلى سلوك هذه الأساليب إلا
بتأسيس علم له أصوله ومناهجه التي
تؤهل إلى شرح العقيدة ومناقشة الخصوم
وصد هجومهم . ثم إن القرآن الكريم
شرح العقيدة في الخالق ووصفه فأبلغ ،
وبين النبوة وتحدث عن أخلاق الأنبياء
ومميزاتهم ، وألمح إلى الآخرة وقدم عليها
الأدلة ، وأثار قضايا تتصل بالعقيدة
وأجاب عليها بإشارات البليغة ولحاته
الوضاءة .

بيد أن القرآن لم يكتف بذلك بل
عرض لأهم الأديان والمذاهب والنحل
التي كانت سائدة في عهد النبوة الخاتمة ؛
فناقش عقائدها ، وأبطل حججها ،
وأظهر انحرافها ؛ فتحدث عن نحل
أنكرت الأديان وآمنت بالدهر وأسندت

بالدرجة الأولى على مستوى التصور ثم
السلوك . وهذه الأزمة تصيب شباب الأمة
الإسلامية الذي يعاني فراغاً روحياً مرده إلى
أسباب كثيرة منها إفلاس النظم التعليمية
والتربوية ذات المناهج العلمانية ، والغزو
الفكري للفلسفات المادية المعاصرة والتأثير
الإعلامي للوسائل الإعلامية المتطورة التي
جعلت العالم قرية صغيرة .

لذلك كان لزاماً على الباحثين في شؤون
علم الكلام أن يعيدوا النظر في مناهجه
وموضوعاته وطرائق طرحها وأساليب
عرضها ، وليس من اليسير تجديد هذا العلم
نظراً لما يتطلبه من مراجعة عامة تعود به
أحياناً إلى مصدره الأصلي القرآن وتربطه
أحياناً بما يجد من اكتشافات في ميدان
التقدم العلمي .

إن ما يريده المسلم المثقف عندما يتجه
بالسؤال إلى المتكلم الحديث عن خالق
الكون لا بد أن يكون متماشياً مع أساليب
ونائج العلوم التي توصلت إلى أسرار الذرة
وغزت الفضاء ، وكشفت عن سنن الكون
وأسراره وظواهره ولا تزال تكشف ما يحير
العقول ، وإن السائل يريد جواباً يقوم على
استخدام المنطق السليم ويدعوه إلى الإيمان
بربه إيماناً يقوم على الاقتناع لا على مجرد
التسليم كما تفعل بعض الأساليب الكلامية
إزاء كثير من القضايا .



المخالفين ، ويتوسعوا في الدفاع توسع
المخالفين في الهجوم ، ويجددوا الحجج في
الرد كلما جدد المخالفون الحجج في
الطعن^(١) .

- موقف أئمة المسلمين من هذا العلم :
اختلف علماء الأمة الإسلامية حول
أهمية هذا العلم : فهناك من العلماء من
امتدحه ، واستحسن الجيوس فيه ، وهناك
من ذمه وسكت عن القول في موضوعاته .
يأتي في مقدمة هؤلاء الإمام أبو حنيفة
رضي الله عنه الذي ألف في علم الكلام :
(الفقه الأكبر) ورسائل صغيرة
(كالوصية) ليوسف بن خالد (والفقه
الأبسط) و (العالم والمتعلم) وكتاب
(العلم) قال أبو حنيفة رضي الله عنه :
« الفقه في الدين أفضل من الفقه في العلم ؛
لأن الفقه في الدين أصل والفقه في العلم
فرع ، وفصل الأصل على الفرع
معلوم »^(٢) .

ويحدثنا القاضي عياض عن رسالة ألفها
مالك بن أنس (لابن وهب في القدر والرد
على القدرية) ، وقد وصفها عياض بأنها
من (خيار الكتب الدالة على سعة علم
مالك) وقد بلور مالك اتجاه عقيدة السلف
القائم على مقاومة البدع وعدم الرد عليها إلا
بالنقل ، لا الاحتجاج عليها والمجادلة فيها
بالعقل ؛ وكان يرفض الرد العقلي على
البدع ؛ لأنه في رأيه رد بدعة ببدعة ويرى

إليه الخلق : ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا
الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا
الدهر ﴾ .

[الجاثية / ٢٤] .

وفصل كتاب الله الحديث عن الشرك
فذكر من عبد الكواكب وأشركها مع الله
﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال
هذا ربي فلما أفل قال لا أحب
الآفلين ﴾ .

[الأنعام / ٧٦] .

ورد على عبدة الأصنام فقال : ﴿ لو
كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا ﴾ .

[الأنبياء / ٢٢] .

وناقش النصارى في تأليههم لعيسى :
﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه
من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ .

[آل عمران / ٥٩] .

وفضح عقيدة اليهود وتشبيههم ؛ وأظهر
شذوذ فطرتهم قال الله تعالى : ﴿ وقالت
اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما
قالوا ﴾ [المائدة / ٦٤] .

ورد على من أنكر النبوات عموماً ونبوة
محمد ﷺ خصوصاً : قال تعالى : ﴿ الله
يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس إن
الله سميع بصير ﴾ [الحج / ٧٥] .

لذلك صار لزاماً على علماء الإسلام
المهتمين بهذه القضايا أن يستطلعوا القول
فيما أشار إليه القرآن ، ويردوا على

ضرورة الرد عليها بالنقل .

كما رد على الروافض فقال فيهم : « أهل الأهواء كلهم كفار وأسوأهم الروافض » .

وكان معاصراً للاعتزال - ومؤسسيه واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد - وقد أكد على التنزيه في الصفات ونصح بالابتعاد عن التأويل ؛ لأن طريق النجاة ينبغي فيه إمرار النصوص كما جاءت ، وكان يقول : « إنما أهلك الناس تأويل ما لا يعلمون » .

وله آراء في الإيمان والكلام والعلم ، وآراء كلامية شائعة كراهيه في الآية ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ فقد قال قولته المشهورة : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » . وبالرغم من هذا الموقف الحذري فقد مثل مذهب المفوضة دون أن يقع في التشبيه أو التجسيم وقد روت بعض المراجع أنه رد على القدرية ؛ وبذلك يكون قد مثل مذهباً كلامياً متكاملًا يشتمل على شرح التشابه ، وتوضيح القضايا الشائكة ثم الرد على المخالفين كالقدرية وغيرهم .

ويعتبر الإمام أحمد بن حنبل الرافض الحقيقي لعلم الكلام على المنهج الاعتزالي ، فقد رفض الحوار مع ابن أبي داود حول قضية خلق القرآن . ولكن هناك رسالة منسوبة إليه بعنوان الرد على الجهمية ، فإذا ثبت فإنه يكون قد اشتغل بالرد على

المنحرفين ، والمبتدعة من أهل الأهواء ، وفي الاضطلاع بهذه المهمة خير دليل على شرعية هذا العلم .

وأما الأشعري فقد كتب رسالة أكد فيها : (استحسان الخوض في الكلام) وأثبت شرعية الأدلة العقلية في الاستدلال على العقائد الإيمانية ، يقول في هذا الشأن : « أما بعد فإن طائفة من الناس جعلوا الجهل رأس ماله ، وثقل عليهم النظر والبحث عن الدين ، ومالوا إلى التخفيف والتقليد ، وطعنوا على من فتش عن أصول الدين ونسبوه إلى الضلال ، وزعموا أن الكلام في الحركة والسكون والجسم والعرض والألوان والأكوان والجزء والطفرة وصفات الباري عز وجل بدعة وضلالة ، وقالوا لو كان ذلك هدي ورشاد لتكلم فيه النبي ﷺ وخلفاؤه وأصحابه . قالوا : ولأن النبي ﷺ لم يمت حتى تكلم في كل ما يحتاج إليه في أصول الدين وبينه شافيا ولم يترك لأحد مقالاً فيما للمسلمين إليه من حاجة من أمور دينهم ، وباعدهم عن سخطه ، فلما لم يرد عنه الكلام في شيء مما ذكرنا علمنا أن الكلام فيه بدعة ، والبحث ضلالة لأنه لو كان خيراً لما فاته النبي ﷺ وأصحابه وتكلموا فيه »⁽³⁾ .

وهناك مؤلفات تدم الكلام والمشتغلين به من ذلك كتاب : (ذم الكلام وأهله) لشيخ الإسلام أبي إسماعيل عبد الله بن محمد

الأنصاري الهروي المتوفى (سنة ٤٨١ هـ) .

وكتاب (إجماع العوام عن علم الكلام)
لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي
(٥٠٥ هـ) .

وكتاب (صون المنطق والكلام عن فن
المنطق وثنايا الكلام) لجلال الدين
السيوطي (٩١١ هـ) .

وفي كتاب : (مختصر جامع بيان العلم
وفضله) لابن عبد البر (سنة ٤٦٢ هـ)
ذم للكلام وأهله من ذلك : « ما روي عن
مصعب بن عبد الله الزيري قال كان مالك
ابن أنس يقول « الكلام في الدين أكرهه أو
لم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه ، أو
نحو الكلام في رأي جهنم والقدر وما أشبه
ذلك ، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته
عمل ، قال أبو عمر : قد بين مالك رحمه
الله أن الكلام فيما تحته عمل هو المباح عنده
وعند أهل بلده - يعنى العلماء منهم رضي
الله عنهم . والذي قال مالك - رحمه الله -
عليه جماعة الفقهاء والعلماء قديما وحديثا
من أهل الحديث والفتوى » .

وإنما خالف ذلك أهل البدع المعتزلة
وسائر الفرق . وأما الجماعة فعلى ما قال
مالك رحمه الله إلا أن يضطر أحد إلى
الكلام فلا يسعه السكوت إذا طمع برد
الباطل ، وصرف صاحبه عن مذهبه ، أو
خشى ضلال عامة ، أو نحو هذا ^(٤) .

وهذا النص واضح لا ذم فيه للكلام
بإطلاق بل الذم منحصر في الآراء
المنحرفة ، ومناقشة القضايا الكلامية المعقدة
التي لا طائل من وراء بحثها .

وفي النص إشارة إلى عدم السكوت
عندما يجب الكلام كتقويم انحراف أو رد
شبهة ، أو بيان حجة مقدمة ، أو توضيح
دليل شاف كاف .

وفي عنوان الغزالي : (إجماع العوام عن
علم الكلام) مقصد ينحصر في منع العوام
عن الخوض في ترتيب المقدمات وتبويب
النتائج التي يعجز عنها ذهن العامي وتثير
شكوكه ، وتدخل الريب على نفسه أكثر
من اليقين .

وأما قول ابن خلدون « بأن علم الكلام
غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم
إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا ، والأئمة
من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا
ودونوا ، والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها
حين دافعوا ونصروا ، وأما الآن فلم يبق
منها إلا كلام تنزه الباري عن إيهاماته
وإطلاقه ^(٥) » .

ورأى ابن خلدون إن صلح لعهد فلن
يصلح لعهدنا لسببين :

(١) أن الملحدة والمبتدعة قد ملأوا علينا
الساحة الإسلامية وغزونا داخلها وخارجها
غزوا فكريا عاتيا ، ونحن أحوج ما نكون
إلى حصانة فكرية ، ولا سبيل لنا إلى ذلك

إلا بتجديد أسس علم الكلام .

(٢) مدونات أهل السنة ضخمة ، وكتابتهم جيدة بيد أن تلك الأدلة المدونة ينبغي أن تخضع إلى سنة التطور : ﴿ سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ ؛ فمضامينها إن صلحت لعصر فلا تصلح لعصرنا .

التوفيق بين الاتجاهين :

وإذا تدبرنا الاتجاهين : الأول الذي يمدح علم الكلام ؛ ويجعله علماً شرعياً للدور الذي اضطلع به من ترسيخ للعقيدة ، والدفاع عنها ، ونقض حجج أعدائها بالأدلة القاطعة والبراهين الدامغة .

والثاني الذي يذم هذا العلم ، ويعرض عن الخوض في مسائله ، فإنه لا تناقض بين الاتجاهين ؛ لأن الأول يمدح ما صلح من علم الكلام ، والثاني يذم جانب الكلام الذي خاض في البدع والأهواء ومال مع الانحراف وأغرق في القضايا الشائكة التي تستعصي على أفهام العامة وعقولها التي تحتاج إلى ضرب من الهدى القرآني والنبوي ، فذلك أجدى لها وأكثر إفادة من الإغراق في مسائل فلسفية جدلية معقدة .

تسمية علم الكلام وتعريفاته

(١) تسمية علم الكلام :

تعرض تسمية علم الكلام إلى

الانتقاص ، ولعل بعضهم يتجاوز ذلك إلى الخط من قيمته ، والاستخفاف بأساليبه ، والاستهانة بتحصيله ، ومرد ذلك إلى الحملة التي تعرض لها قديماً ، وغذتها بعض التيارات الحديثة تقليداً وجهلاً بالمهمة الخطيرة التي ينبغي أن يتبوأها في عصرنا هذا العلم الذي يدافع عن العقيدة الإسلامية بمناهج وأساليب ، نحن المسلمون في أشد الحاجة إلى إحيائها وتطويرها وصقلها وتهذيبها حتى تكون مواكبة لعصرنا .

إن تسمية علم الكلام بهذه التسمية هي التي طغت عليه منذ نشوئه ، وقد علل التفتازاني^(٦) ذلك ، فقال : لأن مباحث هذا العلم وموضوعاته تعنون بقولهم (الكلام في كذا) ، أو لأن مسألة (كلام الله) كانت أشهر المباحث وأكثر المسائل التي دار حولها الجدل والنزاع بين المعتزلة من جهة ، وأهل الحديث بزعامة أحمد بن حنبل من جهة أخرى .

أو لأنه سمي بهذا الاسم لما يورثه من قدرة على الكلام في كشف الشبهات ، وإلزام الخصوم كالمنطق للفلسفة الذي يجعل الفيلسوف بارعاً في الاستدلال ، فكذلك المتكلم يبرع في البرهنة وإقامة الحجة ودفع الشبهة .

أو لأنه أول ما يجب من العلوم التي تعلم وتتعلم بالكلام ، فأطلق اسم الكلام لذلك ثم خص به ، ولم يطلق على غيره تمييزاً له .

أو لعله سمي بهذا الاسم (علم الكلام) ؛ لأنه يتحقق بالمباحثة وإدارة الكلام من الجانبين وغيره من العلوم قد يتحقق بالتأمل ومطالعة الكتب .

أو لعله سمي بهذا الاسم لشدة افتقاره إلى الكلام مع المخالفين والرد عليهم أثناء الاختلاف معهم ، ولعله السلاح الأكثر استعمالاً في هذا الميدان ، ميدان المناظرة .

أو لعله سمي بهذا الاسم لقوة أدلته ووضوح حجته ، حتي صار كأنه هو الكلام دون ما عده من العلوم كما يقال للأقوى من الكلامين هذا هو الكلام .

ويذهب التفتازاني^(٧) بعيداً فيقول : لعله سمي بهذا الاسم الكلام المشتق من الكلم وهو الجرح فكأن أدلته القطعية وحججه الساطعة تحدث تأثيراً في القلب وتتغلغل فيه .

ومن التسميات التي تطلق على هذا العلم تسميته بـ (علم أصول الدين) أي التعلم الذي ينصرف إلى البحث في المسائل الأصولية كالعقائد الأساسية ونحوها ، تمييزاً له عن علم الفقه الذي تتجه عنايته إلى الفروع ، وعن علم أصول الفقه الذي يهتم بالنظر في الأدلة الشرعية من حيث تستنبط منها الأحكام والتكاليف .

ومن تسمياته أيضاً تسميته بعلم التوحيد أو بعلم التوحيد والصفات ، وقد لازمته هذه التسمية الأخيرة لما انحسر دور هذا

العلم في الجانب التعليمي الجاف ، وتخلي عن دوره في رد الشبهات ونقض حجج المخالفين ، وطغى عليه المنطق الإرسطي الذي نبذته المدرسة الكلامية الأولى ، وهاجمته جميع الفرق الإسلامية وسائر الطوائف من أهل النظر ، الذين عابوه لاختلاطه بالعلم الإلهي عند إرسطو الذي يناقض أوليات العقيدة الإسلامية ومنذ طفيان المنطق الإرسطي على هذا العلم يمكن القول بأن الفكر الإسلامي لم يأت بجديد ولا مبتكر في عالم الفكر الأصيل بل كل ما حدث هو كما قال الإمام محمد عبده « تحاور في الألفاظ وتناظر في الأساليب ، على أن ذلك في قليل من الكتب اختارها الضعف ، وفضلها القعود »^(٨) .

ومن تسميات هذا العلم تسميته بعلم النظر والاستدلال ، وهي تسمية تقصر مهمته الأساسية في التأمل وابتكار الأدلة والتجديد فيها .

ومهما يكن من أمر فإن مراجعة تسمية هذا العلم لإزالة ما علق به من تراكم معرفي يحمل في طياته بعض الانتقاص :- لأمر متحتم إن أردنا لهذا العلم أن تجدد رسالته وأن يخصب عطاؤه ثمرأً مفيداً كما عهد إبان ازدهار الحضارة الإسلامية .

٢ - تعريفاته :

وأقدم التعريفات التي وصلتنا لهذا

العلم تعريفُ أي نصر الفارابي (سنة ٣٣٩ هـ) ، الذي يقول فيه : صناعة الكلام يقتدر بها على نصرة الآراء والأفعال المحمودة التي صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ما خالفها بالأقوال^(٩) .

فعلم الكلام حسب هذا التعريف صناعة تحتاج إلى معرفة وعلم ومراس ومران . ولا بد لهذه الصناعة من قدرة على إظهار حجج المخالفين وتزييف كل مناقض وحمله على وجه يوافق ما في الدين .

وقد عرفه الغزالي (سنة ٥٠٥ هـ) بقوله : هو علم مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها من تشويش أهل البدعة ، فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار ، ثم ألقى الشياطين في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة ، فنهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها ، فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثه على خلاف السنة الماثورة فمنه نشأ علم الكلام^(١٠) .

وهو تعريف يؤكد على الدفاع عن عقيدة أهل السنة ؛ لأن البدع قد ازدادت في عصر الغزالي والفرق الإسلامية وغيرها

من الأديان قد ثبتت انحرافات فحوشت العقيدة السليمة المستمدة من الأصول الإسلامية الكتاب والسنة .

ويتفق ابن خلدون مع الغزالي في تعريفه لهذا العلم اتفاقاً يكاد يكون تاماً فيقول : « علم الكلام علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة »^(١١) .

ويعرفه العضد الإيجي (سنة ٧٥٦ هـ) بقوله : « والكلام يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه ، والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل ، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد عليه السلام »^(١٢) .

وليس بعيداً عن هذا التعريف ما ذهب إليه التهانوي من أن علم الكلام هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه^(١٣) .

لقد صارت وظيفة علم الكلام أشمل إذ أصبحت أداة دفاع لكل معتقد عن عقيدته ، فدفاع المبتدع عن عقيدته بالبراهين العقلية كلام أيضاً^(١٤) .

وصار دور هذا العلم تثبيت العقائد الدينية والبرهنة عليها بالأدلة المناسبة لكل عصر والحجج المواتية لكل زمان .

أما دفع الشبه المثارة أو التي يتوقع أن

تثار فهي من أهم وظائف علم الكلام .
وهكذا فإن دور هذا العلم ينبغي أن
يكون كما حدده العضد الإيجي بعلم العقيدة
الإسلامية ، ويرسخها ، ويدافع عنها ويرد
الشبه الوافدة عليها ويتصدى للغزو الفكري
بشتى صوره وألوانه .

وبالرغم من المنهج التعليمي الذي اتبعه
الأستاذ (الإمام محمد عبده) (سنة
١٩٠٥) في رسالة التوحيد إلا أنه أغفل
الجانب الدفاعي عند تعريفه لهذا العلم ،
رغم الظروف السياسية والاجتماعية التي
كان الاستعمار يتولى تدميرها وبث الخراب
فيها ، يقول معرفا علم الكلام بأن
« التوحيد يبحث فيه عن وجود الله وما
يجب أن يثبت من صفات ، وما يجوز أن
يوصف به ، وما يجب أن ينفي عنه ، وعن
الرسول لإثبات رسالتهم ، وما يجب أن
يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب إليهم ،
وما يمتنع أن يلحق بهم »^(١٥) .

والاتجاه العام الذي يندرج تحته تعريفات
علم الكلام يتميز بالتأكيد على أمرين :
(أ) الطابع التعليمي لهذا العلم فهو ينهض
لتوضيح العقيدة انطلاقاً من الكتاب والسنة
ويعمل على ترسيخها وفق منهج العصر .
(ب) الطابع الدفاعي المتمثل في الرد على
الانحراف والبدع من جهة ، ودفع الشبه
الوافدة بأسلوب علمي دقيق بعيد عن
الخطاب الفضفاض الذي لا يستند إلى

براهين وحجج مقنعة .

هاتانوظيفتان لعلم الكلام التعليمية
والدفاعية ليس بينهما توازن ؛ بل أحياناً
تتغلب الوظيفة الدفاعية كما هو الشأن في
العصور الأولى ، وقد تتغلب الوظيفة
التعليمية كما هو الشأن في عصور
الانحطاط .

وما زال العلماء يؤكدون علىوظيفتين
معا إلى العصور المتأخرة ؛ يقول طاش
كبرى زادة (سنة ٩٦٢ هـ) عند تحديده
لعلم الكلام : « هو علم يقتدر معه على
إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع
الشبه .

علم الكلام في مواجهة التحديات

إن ديناً في مستوى ما بلغه الإسلام من
الانتصارات في ظرف زمني وجيز :-
لخلق أن تواجهه صعوبات وعراقيل ، فلقد
أزال عروشا ، وقلب حكومات ، وقضى
على مصالح وامتيازات لفئات وطبقات ،
وخلق قيما جديدة في التعامل على المستوى
السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

هذا الدين الذي جاء بموازن مخالفة لما
عهدته البشرية ، ليس من اليسير أن يجد
الطريق ممهدة بل واجه تحديات مختلفة
سنقتصر على بيان التحديات التي وفدت
عليه في ميدان العقيدة .

(١) تحديات الأمس :

١ - أصل الأصول في الأديان قضية الألوهية ، وللإسلام طرحه الخاص بهذه القضية ، أساسه التوحيد الخالص ، والإعراض عما عداه من وجوه الاعتقاد . ولهذا القضية اتجاهات معارضة للتصور الإسلامي يأتي في الصدارة اعتقاد الثنوية من السمنية والمأنوية وغيرهما في الألوهية . وقد عرف عن هاتين الفرقتين ترويج لآرائهما ، ونشاط كبير داخل العواصم الكبرى خاصة في بغداد وغيرها من حواضر العالم الإسلامي^(١٦) .

ولليهودية تصورات خاطئة عن قضية الألوهية ؛ إذ الطابع الغالب على هذا التصور بشري في صفاته وأفعاله ، والنص واضح في التوراة ؛ فالله في اليهودية يحزن ويبكي حتى ترمد عيناه ، ويفرح ويصارع ، بينما قدم الإسلام تصورا تنزيها لله سبحانه ، وعمق فكرة التوحيد الخالص في النفس ؛ بل كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك مخالفة تامة لجميع الحوادث والمخلوقات .

وللمسيحية نشاط حثيث في مواجهة المسلمين ، يناظر قساوستها ويؤلفون الكتب ويجادلون المسلمين وغيرهم .

ومما زاد المسألة تشعبا اختلاف طوائف المسيحية حول طبيعة المسيح .

هذه القضية تسربت إلى العالم الإسلامي عن طريق المناظرات بين آباء الكنيسة وبين المسلمين حول طبيعة المسيح في القرآن قال تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ .

[آل عمران / ٥٩] .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل عمد بعض المسيحيين إلى الدخول مع المسلمين في جدال حول طبيعة المسيح في القرآن ، ووظفوا على آيات الكتاب الكريم حوارا ليفسدوا اعتقاد المسلمين في الألوهية : قال يوحنا الدمشقي : « إذا سألك العربي ما تقول في المسيح ؟ فقل (إنه كلمة الله) ثم يسأل النصراني المسلم : كما سمي المسيح في القرآن ؟ وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم ، فإنه سيضطر إلى أن يقول : ﴿ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ .

[النساء / ١٧] .

ثم يسأله عن كلمة الله وروحه ، أ مخلوقة هي أم غير مخلوقة ؟ فإن قال مخلوقة فليرد عليه بأن الله كان ولم تكن كلمة وروح ، فإن قلت ذلك فسيفهم العربي ؛ لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين^(١٧) .

ويوضح توماس أرنولد الأمر إذ يقول :

وهناك تحد كان قد طرحه البراهمة جحدوا فيه الرسل ، وأثبتوا التكليف من جهة العقول ، وقالوا : إن الحسن ما حسنه العقل ، والقبيح ما قبحه العقل ، وأفضل في تشريعه من الرسل الذين أباحوا ما حظره العقل من ذبح البهائم وإيلام الحيوان بلا ذنب^(٢٠) .

ونسب اليهود إلى الأنبياء نقائص تحط من مقام النبوة فهم صفوة مختارة ، وقادة الإنسانية ، ونماذج رفيعة للخير ، فكيف تصدر عنهم قبائح لا تليق بفرد عادي ؟ كمضاجعة لوط لابنتيه بعد أن سقياه خمرًا وإنجابه منهما ، وكتنازل إبراهيم عن زوجته خشية على حياته من فرعون وقوله إنها أخته .

هذه الفضائح التي ينسبها اليهود إلى أنبيائهم كانت تصك أسماع المسلمين ؛ لأن اليهود كانت تظلمهم مظلة الحكومة الإسلامية وتحميمهم رغم اعتقاداتهم المنحرفة في النبوة وغيرها .

وكتب أبو بكر الرازي الطيب كتاب (مخاريق الأنبياء) تهجما على النبوة ، هذه القضايا المتنوعة دفعت علماء الكلام أن يؤكدوا على عصمة الأنبياء ويفردوا لها بابا خاصا من أبحاثهم .

٣ - وأما الأصل الثالث الذي واجه فيه علماء الكلام التحدي فهو البعث ، ونكرانه عام في جميع الأزمان ولم ينفرد به

« هؤلاء الذين دخلوا كنف الدين ، وحملوا معهم ثقافة الإمبراطورية البيزنطية وثقافة اليونان .. وهذه الانشقاقات الواسعة أفرغت السلطات الكنسية فشرعت تهاجم بالجدل والمناظرات أسس العقيدة الإسلامية : ماهي الطبيعة الإلهية ؟ وما معنى قوله : ﴿ إنه على كل شيء قدير ﴾ و ﴿ إنه بكل شيء عليم ﴾^(١٨) وما هي علاقة علمه بذات نفسه .

ويتجلى من خلال الحوار في النص الأول والمرتب على طريقة السؤال والجواب والمتضمن لقضايا تبحث في كنه الذات أن ذلك كان تمهيدا لمشكلة من أكبر مشكلات العقيدة التي حدثت في العالم الإسلامي ، وهي مشكلة خلق القرآن .

وأما النص الثاني فيوضح في غير لبس كيف شرعت الكنيسة تهاجم عقيدة الألوهية بالجدال والمناظرة لبث البلبلة في أفكار المسلمين ؛ بل لقد أورد ابن النديم أقوال قساوسة كانوا يهدفون إلى تنصير المسلمين^(١٩) .

٢ - والأصل الثاني الذي وقف فيه المسلمون يواجهون التحديات قضية النبوة . وقد أشار القرآن إلى مقدمات هذه القضية تلميحا عندما قال على لسان بعضهم : ﴿ قالوا أبعث الله بشرا رسولا ﴾ .

[الاسراء / ٩٤] .

زمن دون آخر . ولقد أشار القرآن إلى رأي أقوام أنكروا الحشر والنشر عند قوله : ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية / ٢٤] .
والدهرية مذهب مادي ينكر الألوهية والنبوة والبعث وهو مذهب فارسي قديم رد عليه القرآن بمثل قوله : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ [الأنبياء / ١٠٤] .

وتوسع علماء الكلام في هذه اللمحات القرآنية ليكونوا ردا متكاملا على مختلف النزعات المادية ، في هذه القضية الشائكة التي زلت فيها أقدام كثير من المفكرين .

(٢) تحديات اليوم :

إن التحديات التي تواجه العقيدة الإسلامية اليوم كثيرة وخطيرة منها ما يعود إلى فلسفات قد ظهرت في هذا العصر ، ومنها ما يعود إلى مواقف قد وقفتها مؤسسات كالكنيسة . فالكنيسة قد وقفت مواقف من العلماء مثل جاليلي وجرادنو برونو وكوبرنيك جعلت الناس ينظرون إليها نظرة رية . وبدأ المفكرون يهاجمونها ، ويهاجمون من خلالها الأديان عموما ، بل ويسخرون من معتقها يقول فولتير في هذا المعنى (١٧٨٨) : « إذا رأيت اثنين يتناقشان في موضوع ولا يفهم أحدهما الآخر ، فاعلم أنهما يتناقشان في الميتافيزيقا ... » إلى آخر هذه الموجة من السخرية .

وبالإضافة إلى ما تعتمد إليه الكنيسة من العقائد التي تشغل بها كاهل أتباعها من المسيحيين ولا يخضع فيها إلى عقل ولا إلى منطق كصك الغفران ، وغيره من الأوامر التي لا يرضاها العقل ولا يقرها المنطق . وثمة أمر آخر خطير أدى إلى فقدان الثقة في الكنيسة هو تعاونها مع السلطة خاصة عند الاعتراف بالخطايا . إذ لم يتورع بعض القساوسة من نقل أخبار المعارضين إلى حكوماتهم فتسبب ذلك للمعارضين فيما تسبب من قتل وتشريد .

وحدثت أزمة ثقة بين الكنيسة وبين جماهيرها خاصة بينها وبين العلماء إذ لم يعودوا على ثقة بما تتحدث عنه من الغيب وما تدعو إليه من عقائد عموما .

هذه التوترات أدت إلى تكوين مذاهب هدامة ، ما لبثت أن تسربت إلى العالم الإسلامي في أشكال شتى وأساليب مختلفة : كالدعوة إلى الفصل بين الدين والدولة ، ونكران الغيب ، والمذاهب الوضعية ، والوجودية ، والشيوعية ، وكل المذاهب التي تنظم في سلك واحد هو الفلسفة المادية ، التي أنكرت كل ما ليس بمادة ويأتي في مقدمة المذاهب :

المذهب الوضعي :

مؤسس هذا المذهب أوجست كونت (سنة ١٨٥٧) أنكر كل تفكير قبلي ، واستبعد البحث في الغايات القصوى



الوضعي البحث في الغيب وأبى أن يقر حقائقه أو يرفضها . وتركزت جهود أتباع كونت على النزعة العلمية التجريبية وانصرفوا عن البحث في كنه الموجودات وحقيقتها إلى دراسة الظواهر نفسها فأسسوا العلوم التجريبية على مقتضى هذا الاتجاه فتركزت كتابات رينال في تاريخ الأديان (سنة ١٨٩٢) ودور كايم (سنة ١٩١٧) في علم الاجتماع ، وليفي يرول (سنة ١٩٣٩) في علم الأخلاق ، وجوبلو (سنة ١٩٣٥) في علم المنطق ، ورينبو (سنة ١٩١٦) في علم النفس ، وتين (سنة ١٨٩٨) في علم الجمال .

وابتدع كل واحد من هؤلاء وغيرهم تفسيراً للدين :

— فرأى دوركايم الفيلسوف الفرنسي في الدين أنه مؤسسة اجتماعية اختلقها المجتمع وابتدع لها نواميس وسنن .

— ورأى علماء النفس أن الدين نتاج اللاشعور الإنساني وليس انكشافاً لواقع خارجي .

— وترى الشيوعية أن العوامل الاقتصادية هي التي خلقت الدين ، والدين أفيون الشعوب ، وهو خدعة تاريخية ابتكرتها البرجوازية للاستيلاء على جهد الطبقات الكادحة وثرواتها .

— وترى الوجودية أن الإنسان هو الذي خلق الله ولم يخلق الله الإنسان . وفسرت

والعلل الأولى ، ولم يعترف بغير الواقع المحسوس يعالجه بمناهج البحث التجريبي . ويرى (كونت) أن العقل قد مر بثلاث مراحل .. اللاهوتي والميتافيزيقي والواقعي . وهذه المراحل قد عبر عنها بقانون الأطوار الثلاثة : -

— في الدور الأول : كان العقل يبحث في كنه الموجودات وأصلها ومصيرها ، وكانت تفسيرات العقل للموضوعات بعيدة عن الطبيعة ، وكان منهجه في ذلك قائماً على الخيال ، فالظواهر تحدث بفعل كائنات سامية تختفي وراء الطبيعة المرئية .

— وفي الدور الميتافيزيقي يظل العقل يبحث في كنه الأشياء وأصلها ومصيرها ، ولكنه يرتقي فيتخلى عن الكائنات السامية غير المرئية ، ويرد الظواهر إلى علل مجردة خفية يتوهمها .

— وفي الدور الثالث يتجنب العقل الطريقتين السالفتين في البحث موضوعاً ومنهجاً ، ويعول على البحث في أصل الكون ومصيره وعمله ، ويهتم بمعرفة الظواهر وكشف قوانينها . وبهذا يستغنى عن العلل بوضع القوانين أي العلاقات المطردة بين الظواهر ، ويقيمها على أساس من الملاحظة لا من الخيال ولا من الاستدلال ، وبهذا يهتم بالإجابة عن السؤال : كيف حدث ؟ وليس عن السؤال : لماذا حدث ؟ بهذا رفض المذهب

نظرية تطور الخلق بشكل بدا للكثيرين أنه مخالف لما جاء به الدين .

هذه الفلسفات قد غزت العالم الإسلامي ، وتحدثت عقيدته بالرغم من أنها لم ترق إلى مستوى الحقائق العلمية ، ولم تبلغ منبتوى المقولات الفلسفية .

فقانون الأطوار الثلاثة عند (كونت) أقرب إلى التفكير الفلسفي الميتافيزيقي منه إلى باب العلم الوضعي . هذا إلى جانب خطئه الذي يشهد به استقراء التاريخ ، فالتجربة تشهد بأن الأدوار الثلاثة قد توجد في الفرد الواحد والجماعة الواحدة مقترنة بعضها ببعض ، فقد يقبل الفرد أو الجماعة تفسيرات لاهوتية أو ميتافيزيقية في بعض المشاكل التي تواجهه مع اعتقاده بالعلم الوضعي الواقعي ونتائجه .

والملاحظ أن الدور الأول الذي يقولون إنه يتمثل في عصر ما قبل التاريخ وبدء التاريخ قد اخترعت فيه صناعات عن طريق المشاهدة ومعرفة طبائع الأشياء ، وفي الدور الفلسفي الذي يقال إنه شمل العصور القديمة قد وجدت فيه مشاهدات فلكية ومدنيات شرقية . وعرفت هندسة إقليدس وطب أبقراط وطبيعات إرسطو وكيمياء المسلمين وطبهم . وفي الدور الوضعي الذي يقال إنه يتجلى في العصور الحديثة وجد كثير من دعاة الأخلاق والدين والتأمل . وإذن فليس في تاريخ العقل البشري ما يثبت أن

مرحلة التفكير الفلسفي تسبق مرحلة التفكير العلمي .

(٣) أساليب التحدي :

يمتاز كل عصر بأساليبه وطرقه ومناهجه التي يروج بها فلسفاته ومذاهبه ويعمل على نشرها وبثها بين الناس .

فالقدامى من المتكلمين قد مهرؤا في بث دعائهم لتلقين عقائدهم قال الشاعر يصف دعاة :

دعاة لا تقل عزيمتهم

تهكم جبار ولا كيد مكر
وعقد أصحاب المذاهب المناظرات
لإفحام خصومهم وألفوا المؤلفات التي
تدافع عن مقولاتهم وتشرح أصولهم .

وإذا كان القدامى قد مهرؤا هذه الأساليب - : فإن عصرنا يشهد ثورة إعلامية لم تشهد الإنسانية مثيلا لها ، فلقد صار العالم قرية صغيرة بل غرفة ألكترونية .

لذلك فالغزو الفكري مسلط على العالم الإسلامي . لتكريس التبعية الاقتصادية والثقافية ، ولتحطيم الإنسان المسلم من الداخل والخارج .

فهناك أساليب الدعاية الشيوعية تمارس داخل مجتمعاتنا ، وهناك المذاهب الهدامة والدعوات الماكرة التي تطمح إلى إفراغ العالم الإسلامي وإخلائه من مثله العليا ، وإحلال بدائل بعيدة عن روح الإسلام



في (مقالات الإسلاميين) الجلي منها والخفي، وبرهن في اللمع على قضايا العقيدة. والجويني ألف في القضايا الأصولية، وكان كتابه (الشامل) لختلف المسائل الاعتقادية. والغزالي في غزارة إنتاجه الفكري، والبيضاوي في تفسيره وكتابه الطوابع، والشهرستاني في الملل ونهاية الأقدام، والعضد الإيجي في كتبه خاصة المواقف، كل هؤلاء خير من يمثل الثقافة الإسلامية الشمولية.

وقد امتاز بهذه المميزات علماء أصول الدين في العصر الحديث أمثال جمال الدين الأفغاني في رسالة الرد على الدهريين، والشيخ محمد عبده في مؤلفاته خاصة رسالة التوحيد وشرح العقائد العضدية.

وزعماء الإصلاح في أطوار التاريخ الإسلامي كان لهم اهتمام بعلم أصول الدين ونظرات فيه قبل أن ينطلقوا في دعواتهم الإصلاحية، فكان الأرضية الصلبة والمنطلق الحقيقي لحركات الإصلاح.

الثقافة الموسوعية :

لا غنى لمن أراد الاشتغال بعلم العقيدة من الإمام بثقافة موسوعية تشمل ما يسمى بعلوم المقاصد وعلوم الوسائل من العلوم الإسلامية.

القرآن :

ويتبوأ منزلة الصدارة الاهتمام بالقرآن،

السامية. فالصهيونية تحارب المقدسات وتدوس القيم وتروج الإلحاد.

والكنيسة تنفق بسخاء على التنصير في كافة أرجاء المعمورة، وخاصة داخل العالم الإسلامي. وهناك أبناء المسلمين يتمذهبون بمذاهب هدامة كالوجودية والوضعية والتطورية والعلمانية ويتمسكون بها ولها يدعون.

خلاصة القضية : غزو مدمر، وتحد صارخ في صور شتى.

ثقافة الحكم

الإمكانات الفكرية : الاستعداد الفكري

يحتاج المتصدي للإمام بعلم الكلام في ثوبه الجديد إلى مواهب تجعله قادراً على القيام بأعباء هذا العلم. رأيت الاختصاصات العلمية الدقيقة لا يوجه إليها من الطلبة إلا من امتاز بمميزات معينة؛ فذلك هذا العلم من بين العلوم الشرعية لا تُعْرَى به من الطلبة إلا من كان له إمكانيات ذهنية، تؤهله للقيام بأعباء هذه المهمة المنتظرة من خلال هذا العلم.

والأمثلة جلية في مسار هذا العلم، فلن نجد متكلماً في أصول الدين إلا وضرب به المثل في الذكاء الحاد وسرعة البديهة والثقافة المعمقة وغزارة الإنتاج الفكري.

فالإمام أبو الحسن الأشعري ألف

وعلموه حفظاً وعلماً حتى يتمكن من الاستشهاد به عند الحاجة .

وينبغي عليه أن يفرد آيات العقيدة بالفهم والحفظ والتحليل والتبويب حتى يحسن الربط بينهما في المحور الواحد كمبحث الألوهية ومبحث النبوة ، ومبحث البعث . كما هو الشأن في ضبط آيات الأحكام بستمائة آية خدمة للتشريع الإسلامي للربط بين أجزائه ، ولإدراك أسرارهِ وخفاياه ؛ فآيات التوحيد ، وآيات الخلق ، وآيات العناية ، والآيات التي تصف النبوة والأنبياء - : ينبغي استقراؤها جميعاً وتصنيفها كما ينبغي رصد آيات السنن الكونية والسنن التاريخية والاجتماعية .

وللإعجاز منزلة في علم العقيدة بألوانه المختلفة البياني والغبيي والعلمي . وقد كرس العلماء جهودهم لبيان النوع الأول والثاني من الإعجاز . أما النوع الثالث من الإعجاز فهو اتجاه قد ازدادت العناية به لما ازدهرت الاكتشافات العلمية وظهر جلياً للراسخين في العلوم أن لا تعارض بين الحقيقة العلمية وبين الحقيقة الدينية ، ويمكن أن تخدم الأولى الثانية ، وقد مهر علماء هذا الفن أمثال سعيد حوى في « الله جل جلاله » ، والدكتور محمد أحمد الغمراوي في كتابه « الإسلام في عصر العلم » ، وعبد الرزاق نوفل في كتابه « المسلمون والعلم الحديث » ، و« الله والعلم الحديث » ،

و« القرآن والعلم » ، وغير هؤلاء كثير ممن ولع بهذا الفن في هذا العصر .

وأما أنواع الإعجاز البياني والغبيي فقد ألف فيها القدامى والمحدثون أمثال الجاحظ ، والرماني ، والخطابي ، والزملكاني ، وابن عطية ، والرازي ، والقاضي عياض ، والمراكشي ، والزرکشي ، والجرجاني ، والسكاكي ، والتوحيدي ، والأصبهاني ، وغيرهم . وقد طبعت بعض هذه الكتب مثل رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني ، وكتابان للزملكاني هما (البرهان الكاشف) و(التبيان) تحقيق : د . أحمد مطلوب ، وخديجة الحديثي ، و(الشفا) للقاضي عياض ، و(البرهان) للزرکشي ، كما ذكر عمر ملا حويش في كتابه (تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية) آراء بعض العلماء في الإعجاز ، كما تحدث الرافعي في (إعجاز القرآن) عن ضروب من الإعجاز ، ولفت عبد الله دراز النظر إلى ما في القرآن من أدلة على صدقه في (النبأ العظيم) ، وقام سيد قطب في (التصوير الفني) ومحمد المبارك في (صور أدبية من القرآن) بإظهار ما في البيان الرباني من تصوير فني معجز ، وفي القرآن وجوه من الإعجاز متنوعة بحسب الموضوع أحياناً وبحسب النظم والفصاحة أحياناً أخرى .

السنة :

للسهيلي المسمى (الروض الأنف)،
(إمتاع الأسماع) للمقرئزي، والسيرة
الحلبية، والشفاء للقاضي عياض،
(البشائر المحمدية) للترمذي، و(زاد
المعاد في هدي خير العباد) لابن القيم.

وأما السنة القولية فمصادرها كتب
الصحيح والمسانيد كمسند الدارمي وموطأ
مالك، ومسند أحمد، وغير هذه الكتب
كثير، بيد أن الإفادة من هذه الكتب يحتاج
إلى مراس ودربة ينبغي على الباحث في
شؤون العقيدة أن يكون على بينة منها حتى
يتمكن من تخرج الحديث تخرجاً علمياً يتفق
وصناعة الحديث والعلم بمصطلحه.

والإعجاز العلمي في الحديث النبوي قد
استقطب اهتمام العلماء إذ قد حوت
أحاديثه جوامع الكلم، وجواهر الحكم،
وكنوز المعرفة، وأسرار الدين ودقائق
التوجيه، وعميق التربية، وآيات البلاغة،
ولا يستغني عالم العقيدة عن الرجوع إلى
هذا المنهل الثري ليستقي بقدر ما يدل على
نبوة محمد ﷺ دلالة عقلية تضاف إلى
آيات الإعجاز الأخرى فلا تدع شكاً لشاك
ولا ريباً لمرتأب.

الفقه و أصوله :

يشكل الفقه وأصوله قاعدتين من أهم
قواعد الثقافة الإسلامية، فالفقه علم
إسلامي محض : إنه من هذه الناحية يشكل

تعتبر السنة النبوية المصدر الثاني لثقافة
المتكلم في علم العقيدة، وهي أقوال وأفعال
وتقريرات والرسول هو الحكمة العملية
للوحي وهو المثال الحي الذي ابتعثه الله
معلماً في حوارهِ وشمائلهِ، فلقد أرشد إلى
فنون الحكمة العملية والمصالح الدينية
والدنيوية، وهو فضلاً عن ذلك خاطب
العقل وحارب الجهل وساوى بين الناس
ووقف مع المستضعفين وقاوم الطغاة
المترفين وأخرج بشريعته وتعاليمه العالم من
ظلمات التوحش والهمجية إلى نور الحضارة
والمدينة.

وقد ظهرت أحوال رسول الله ﷺ على
صفات ترفض فيه العقول كل ريبة، وتدفع
عنه كل شك، كما عرف بالسخاء،
والكرم، والشجاعة، ومكارم الأخلاق،
والرحمة بالخلق والإشفاق عليهم، والصبر
على الأذى، ورفض الرئاسة والسيادة
المعروضة عليه من قبل قومه نظير رجوعه
عن دعوته.

هذه الصفات في شخص واحد
معجزة، وليست عبقرية؛ لأن العبقرية
تتفوق بصفة واحدة من الصفات، أما إذا
كانت الذات تجمع كمالات فذلك الأمر
نبوة. هذه الصفات فصلت القول فيها
كتب كأعلام النبوة لأبي الحسن
الماوردي، وسيرة ابن هشام وشرحها

المذاهب الهدامة والأديان المنحرفة والفرق المنشقة

(١) المذاهب الهدامة :

قضية المذاهب الهدامة قضية قديمة ولكنها متجددة في كل عصر . لفت القرآن الكريم أنظار المسلمين إلى الدعوات الضارة ، والمذاهب الهدامة ، ووضع الأسس الثابتة لمواجهة الشبهات ، وكشف عن مخططات الاحتماء والتبعية ، وتحريف الأصول الثابتة ، ونبه المسلمين إلى الحذر من متابعة غير المسلمين والتماس ما عندهم : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ [البقرة / ١٠٩]

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ . [آل عمران / ١٠٠]

والمذاهب الهدامة كالغنوص تقوم في مجموعها على فهم بشري ، يشكل نظرية مختلطة من عدة مذاهب وعقائد ، ومعارضة لمفهوم الإسلام والتوحيد القائم على أساس الفطرة . وتتألف الغنوصية من مذاهب متعددة كالجوسية ، والزرداشتية ، والمانيوية ، والديمانية ، والمزدكية ، والرقونية .

إلى جانب علوم اللغة العطاء الخالص للثقافة الإسلامية . وعندما تبرز أهمية الفقه في ثقافة المتكلم فليس من أجل الانخراط في عملية التنويه الذاتي السائد في الخطاب الإسلامي اليوم وقوفا في وجه تحديات الغرب ؛ بل إنما نريد من وراء ذلك تأكيد الحقيقة التي تبرز قدرة الفقه على استيعاب القضايا الحضارية ، والمشاكل الإنسانية المتشعبة التي جددت على الساحة الإسلامية .

وفي هذا أدلة على قدرة العقل الإسلامي على الاستجابة للمقتضيات الحضارية ، وتاريخ الفقه يزكي هذه الحقيقة تمام التزكية .

وأهم ما في الفقه الإسلامي من أصالة وابتكار فضلا عن أنه يجسم الجانب العملي من الشريعة الإسلامية جانبه المنهجي الذي يعرف بعلم أصول الفقه ، فهو ضروري للمتكلم بل هو يمثل قواعد المنهج التي ينبغي أن يتبعها المجتهد ليستنبط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها الإجمالية اليقينية .

والتكلم لا يحتاج إلى مستوى المجتهد ، ولكن عليه أن يلم بهذه المسالك وأن يكون عارفا بها .

(٢) الأديان المنحرفة :

إن اشتغال المسلمين بالأديان ومقارنتها كان مبكراً ، فأسسوا لذلك علم العقيدة ، وهو يشمل في جانب منه مناقشة الأديان المخالفة من اليهودية والنصرانية وأديان الهند والصين والصابئة والمجوس عامة .

فما هي المصادر التي أوردت هذه المناظرات ؟ وما هو منهج علماء الإسلام في هذه المناظرات ؟ إن جهداً عظيماً قد بذله المتكلمون لمواجهة التحديات الخارجية المتمثلة في مناقشة الأديان المنحرفة .

وهؤلاء العلماء مثل النظام ، والإسكافي ، والعلاف ، والجاحظ ، والبلخي ، والكعبي والقاضي عبد الجبار ، وأبي الوليد الباجي ، والقرطبي ، والخزرجي ، وأبي المعالي الجويني ، وأبي حامد الغزالي ، وأحمد بن إدريس القرافي الصنهاجي [شهاب الدين (سنة ٦٨٤)] ، وأحمد ابن تيمية ، وغيرهم كلهم قد ناظروا أهل الأديان ودحضوا شبههم وفندوا افتراءاتهم . ولعلماء الإسلام منهج متميز في الرد على اليهود والنصارى بدءاً بالجاحظ في رسالته (الرد على النصارى) مروراً بأبي يعقوب الكندي الفيلسوف في رسالته حول إبطال التثليث النصراني وبالحسن النوبختي في كتابه (الآراء والديانات) الذي اقتبس منه المسعودي في (مروج الذهب) في هذا

وقد أضاف من كتب في الرد على الدهريين في العصور الحديثة كجمال الدين الأفغاني بعض المذاهب كالنفعيين والماديين عامة القائلين بأن لا إله والوجود مادة فحسب .

والمذاهب الهدامة منها ما هو سافر المهجومات يستهدف تدمير مقومات الإسلام ، وضرب قيمه الأساسية .

ومنها ما هو يستهدف ضرب الأديان عموماً كإنكار الخالق والقول بالصدفة في وجود العالم ، ومذاهب هدامة تنكر النبوات ، وترى الوحي ضرباً من المستريا أو هوساً قد تولد عن اللاشعور .

وفلسفاته ترى أن الله لم يخلق الإنسان ، وإنما الإنسان هو الذي خلق الله ، وأخرى ترى أن الأديان مؤسسة اجتماعية ابتكرها الإنسان هذا المخلوق الخاضع للمجتمع خضوعاً تاماً بل كل شيء فيه وليد المجتمع خاصة دينه وقيمه .

هذه المذاهب الفلسفية والتيارات الإلحادية المتنوعة ، يجب على عالم العقيدة الإمام بأصولها ليحسن الرد عليها ومناقشة مبادئها ، ودحض أفكارها دحضاً علمياً متمكناً بعيداً عن الأسلوب الخطابي الذي لا يصلح لهذا المجال .

(٣) الفرق المنشقة :

كالبهائية وغيرها وهي تهدف إلى إسقاط
فريضة الجهاد وتدعو إلى وحدة الأديان
والأجناس والشعوب ، وقد كشفت
مخططات البهائية عن منهج كامل في هدم
الإسلام .

وغير هذه الفرقة كثير ومنها ما هو
أخطر على الإسلام ، لذا يجب على الباحث
في شئون العقيدة العلم بأصول هذه الفرق
وبمناهجها المعتمدة ليحكم الرد عليها رداً
مقنعاً .

الثقافة العلمية

المراد بالثقافة العلمية التي يجب على
عالم العقيدة تحصيلها ما يتعلق منها بالعلوم
الطبيعية كالكيمياء ، والفيزياء ،
والرياضيات ، والفلك . وهي حقائق بينة
لمن أحسن عرضها وتوظيفها لزرع العقيدة
وترسيخ الإيمان .

وهذه الثقافة العلمية ينبغي أن تقتصر
منها على الثقافة الشائعة ولا نفرق فيها
إغراقاً تنقلب فيه محاضرة العقيدة إلى
محاضرة علمية متخصصة .

وعالم العقيدة كالطبيب يتخير ما يتلاءم
مع كل فرد عقلياً ، ونفسياً ، واجتماعياً ،
ويراعي الظروف والملابسات ، ويستغل
المناسبات عندما يستشهد بالحقائق
العلمية .

الموضوع ، وبالمسيحي (سنة ٤٢٠) في
كتابه درك البغية في وصف (الأديان
والعبادات) وبابن حزم في الفصل ، وبابن
تيمية في الجواب الصحيح ، وبالشهرستاني
في الملل والنحل ، وبالسبيروني (أبي
الريحان) في (بيان ما للهند من مقولة)
انتهاء بكتب من أسلم من المسيحيين مثل
(تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب)
لأنسليمو تورميذا ، ونصر بن يحيى بن
عيسى أبي سعيد المتطبب في كتابه
(النصيحة الإيمانية بفضح الملة
النصرانية) .

ورغم أصالة هذا المنهج الذي سلكه
المسلمون في نقد الأديان واجتهادهم في هدم
الأديان المنحرفة ونقض أسسها إلا أنها لم
تخل من النقد ، يقول ابن قتيبة (سنة
٢٧٠هـ) في نقد رسالة الرد على النصارى
« ويعمل - أي الجاحظ - كتاباً يذكر فيه
حجج النصارى على المسلمين ، فإذا صار
إلى الرد عليهم تجوز في الحجة كأنه إنما يريد
تنبيههم على ما لا يعرفون وتشكيك الضعفة
من المسلمين » (٢١) .

وخلاصة القضية أن الإمام بالأديان
والرد عليها ومعرفة مناهج المسلمين في هذه
الردود من ألزم الواجبات على الذين
يتصدون لتجديد علم العقيدة .

الفضاء وكشفت عن سنن الكون وأسراره وظواهره ، ولا تزال تكشف ما يحير العقول . إن السائل يريد جواباً يقوم على استخدام المنطق السليم ويدعوه إلى الإيمان بربه إيماناً يقوم على الاقتناع لا على مجرد التسليم . وهكذا فإن الثقافة من أوكد أنواع الثقافات التي يجب على عالم العقيدة أن يسلم بها في مجالات المعرفة العلمية وفي مختلف أنواع العلوم .

وقد كلف معاصرونا بمعرفة هذه الحقائق والتأليف فيها . ومن أنجح الأساليب الاعتدال في استعمالها وأن لا نسرف في التأويل لفائدتها وأن لا نتحكم حتى نلوي عنق اللفظ ليكون موافقاً للحقيقة العلمية ، فخير الأمور أوسطها ، وأعظم الحقائق تأثيراً ما أحسن استغلاله في تأييد الحقيقة الدينية ، ومراعاة الزمان والمكان ومقتضيات الأحوال النفسية والاجتماعية .

مبحث الألوهية

بداية البحث في الألوهية :

إن البحث في وجود إله خالق مدبر للكون ، وعن أدلة وجود هذا الإله الخالق ، بحث قديم مفرق في القدم إلى أماده البعيدة النائية وإن اختلفت أشكاله على العصور ، وتفاوتت أساليبه وتغايرت أدلته وبراهينه .

هذه الحقائق التي أحدثت ثورة في عصرنا ، فغيرت العقليات وعودتها على أساليب جديدة تقوم على أساس التجربة ، والملاحظة ، والتكميم ، والقياس ، والضبط الدقيق لكل ما يتعلق بالظاهرة .

واستدلنا اليوم على مسائل العقيدة ينبغي أن يأخذ في الاعتبار هذه العقلية السائدة فسيتمجلى حقائق الدين بالأدلة التي تطمئن الذهن الجديد ، وتوصل التعاليم الإسلامية بأحدث أساليب الاستدلال الملائمة للعقل الجديد ؛ لأن القضايا القائمة على أسس المسلمات المنطقية قد سقطت فلا شيء في العقل الحديث بمسلم منطقياً إلا ، وله نقيض منطقي يمكن أن يتحملة العقل ؛ أما الحقائق العلمية التجريبية فهي الدليل الذي لا يدفع .

ولذلك صار من الضروري تطوير المناهج في علم العقيدة لإشباع رغبات متجددة في اليقين ، تريد أن تؤسس موقفها على أرض من المعرفة الجديدة التي اخترقت الآفاق ، وقاست أبعاد النجوم ، وتغلغلت في أسرار المادة حتى حطمتها واستخرجت منها طاقات لا حدود لها^(٢٢) .

وما يريد المثقف في القرن العشرين عندما يسأل هذا السؤال عن خالق الكون لا بد أن يكون متمشياً مع أساليب ونتائج العلوم التي توصلت إلى أسرار الذرة وغزت

والإنسان - منذ أصبح إنساناً واعياً
شاعراً - مجبول على حب التطلع إلى ما
وراء الغيب ، ومفطور على الرغبة في معرفة
مبادئ الأشياء وغاياتها وفهم حقائق كل
شيء منها ، من أين جاء وكيف صار ؟
وإلى أين ينتهي به المطاف ؟

وتحت تأثير هذه الفطرة والجلبة تطلع
الإنسان إلى الكون ولم يتوان عن التأمل في
أسراره ، بمقدار ما يستوعبه عقله وتفكيره
في كل دور من أدواره الحضارية - على
امتداد التاريخ - وكان البحث في وجود
خالق في مقدمة الأسرار التي حاول فهمها
والتأمل فيها .

ولما كان إدراك الإنسان وفهمه لحقائق
الأشياء - أول ما نشأ - محدوداً لا يتعدى
دائرة حياته البسيطة الضيقة ، ثم تطور
وتقدم على مر العصور تبعاً لتطوره وتقدمه
في ميادين المعرفة ، فلا غرابة إذا ما رأينا
موضوع الاعتقاد بالإله الخالق الموجد
للكون متدرجاً بمقدار تدرج الإنسان في
نموه العقلي والفكري في تاريخ تطوره البعيد
والقريب .

فالحضارات الإنسانية والفلسفات عرفت
الاستدلال على وجود الله تعالى .
فاليونانيون على اختلاف مشاربهم أدلة ،
والغربيين مناهج في البرهنة متنوعة منها ما
هو مغرق في القدم ومنها ما هو حديث
ولذلك قال برغسون : « قد وجدت

وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم
وفنون وفلسفات ، ولكن لم توجد قط
جماعات بدون ديانة » ولعله من الحكمة
القول : إنه لم توجد قط حضارة بدون
فلسفة إلهية تثبت وجود الله في الأعم
الأغلب وينفي أفراد فيها على سبيل القلة
والشدوذ والانحراف هذا الوجود .

الاستدلال على وجود الله تعالى عند المتكلمين

تمهيد

إن الاستدلال على مباحث العقيدة
تجري مجرى الأدوية التي يعالج بها مرضى
القلب ، فالطبيب إن لم يكن حاذقاً
مستعملاً للأدوية على قدر طاقة المريض كان
إفساده بالدواء أكثر من إصلاحه ، وحينئذ
يجب أن لا يكون استعمال هذه الأدلة
لجميع الناس على وتيرة واحدة . بل على عالم
العقيدة أن يتخير من هذه الأدلة ما يزخر
به واقع الحياة ، وما يدور في عالم الناس
من معارف وما وصلت إليه العلوم من
اكتشافات .

لذلك نقد العلماء طرق الاستدلال إذا
لم تستجب لمقتضيات العصر . وذلك ما
فعله ابن رشد حين ثار على الأساليب
التقليدية ودعا إلى الاستلها من أدلة القرآن
وقد اشتهر بدليلي العناية والاختراع ، وذكر
أنهما دليلان قرآنيان ، ونقد أدلة المعتزلة



المنطق ، فإذا سلم بهما الخصم تثبت دعواك . ومثاله في التدليل على حدوث العالم : العالم لا يخلو عن الحوادث وكل ما لا يخلو عن الحوادث فإنه حادث ؛ لأن الخصم إذا أقر بحجة المقدمتين فلا يجوز له إنكار صحة الدعوى وبالتالي رفض النتيجة .

(٣) الطريقة الثالثة :

وهي أن لا تتعرض لإثبات دعواك ، بل تترك موضوعك الذي ستستدل عليه جانباً ، وتتجه إلى بطلان دعوى الخصم ، كأن تذكر أن القول بدعوى الخصم يفضي إلى محال وكل ما يفضي إلى محال فهو محال مثله .

ومبحث حدوث العلم يبرز بوضوح عقم مناهج الطرق الكلامية القديمة ، وهي وإن صحت لعصورهم فهي لا تستجيب لمقتضيات عصرنا وأوضح الأمثلة على ذلك مبحث حدوث العالم : يقول أبو بكر الباقلاني الذي أقام بناء المذهب الأشعري على منهج استدلال : « الموجودات كلها على ضريين : قديم أزلي ، ومُحدث لوجوده أول » وبعد أن يناقش فكرة القديم يقسم المحدثات إلى ثلاثة أقسام : جسم مؤلف ، وجوهر منفرد ، وعرض موجود بالأجسام والجواهر . ثم يبرهن على إثبات الحدوث لهذه الأقسام ، فيثبت بذلك

والأشاعرة على مسائل العقيدة ونعتهما بطغيان الطابع الجدلي عليهما وليس لهما هدف الإقناع^(٢٣) بل غايتهما الجدل .
منهج المتكلمين في الاستدلال على وجود الله :

وجمهور علماء الإسلام قد عابوا استدلال الفلاسفة والمتكلمين المتسمة بالطابع الجدلي ، وقالوا : إن معرفة الله لا تتأتى بالنظر في الجواهر والأعراض ، وإن الذين فعلوا ذلك قد تكلفوا ما لا يجب عليهم ، وأصابوا من غامض العلم ما لا يقدر عليه العوام .

وهكذا فإن طرق المتكلمين وأساليبهم وغموضها وتكلفها واستعصاؤها على فهم العوام أهم مطعن قد وجه إليها . وقد بين حجة الإسلام الغزالي مسالك المتكلمين وضرب على ذلك مثالا بحدوث العالم وحصرها في ثلاثة :

(١) طريقة السبر والتقسيم :

وهو أن يحصر الموضوع في قسمين ثم يبطل أحدهما فيلزم منه ثبوت الآخر ومثاله : العالم إما حادث وإما قديم ، ومحال أن يكون قديماً ، فيلزم منه ثبوت الآخر .

(٢) طريقة تقسيم الحجة :

كأن تقسم الحجة على مقدمتين وترتيبها على وجه مخصوص معروف في علم

حدوث العالم من موجود واحد قديم هو الله تعالى^(٢٤) .

وأقوال متكلمي الأشاعرة في إثبات حدوث العالم ، لا تخرج عما أوردناه من كلام الباقلاني : فقد أفاد منه تلميذه إمام الحرمين أبو المعالي الجويني (سنة ٤٧٨ هـ) ، وأفاد من الجويني تلميذه حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (سنة ٥٠٥ هـ) .

أما الجويني فيعرف العالم بأنه كل ما سوى الله تعالى : والعالم هو الجواهر والأعراض والأكوان والأجسام وهي كلها محدثة حسب أدلة ناقشها ليثبت العلم من خلالها بالصانع على أساس التفرقة بين الممكن والواجب وهي التفرقة التي ستؤدي دورا خطيرا عند الفلاسفة المسلمين^(٢٥) .

وقد أورد نقد هذه الأدلة غير واحد من المتكلمين . نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر النقد الذي وجهه أبو الخير الحسن بن سوار البغدادي المعروف بابن الخمار ، وأبان ضعفها ، وعدم استنادها إلى مقدمات منطقية سليمة عند استقرارها وفحصها .

ولابن حزم منهج يغاير منهج متكلمي الأشاعرة في إثبات حدوث العالم يقول : « وإذا كان العالم ذو أول فلا بد ضرورة من أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها وهي : إما

أن يكون أحدث ذاته ، وإما أن يكون حدث بغير أن يحدثه غيره وبغير أن يحدث هو نفسه ، وإما أن يكون أحدث غيره ، وبعد أن يناقش الوجوه المختلفة ينتهي إلى القول : « لن يكون ثمة ما يدعو لترجيح حالة على أخرى فلم يبق إذن إلا أن يكون أحدثه غيره وهو المطلوب »^(٢٦) .

وركز المعتزلة أدلتهم في مسألة حدوث العالم على فكرة الوجود والعدم والمحدث ، وانتهوا في مباحث طويلة الذيل قليلة النيل - على حد تعبير الغزالي - إلى قدم العالم أخطر المسائل التي عمل مفكرو الإسلام على دحضها .

وناقش الغزالي شبه برقلس في قدم العالم ، ورد على الفلاسفة في شبههم المتعلقة به وقال بأن وجود مرجح ليس معناه أن الله كان عاجزا ثم أصبح قادرا بل معناه أن العالم حدث بإرادة قديمة اقتضت وجوده في الوقت الذي وجد فيه^(٢٧) .

وهكذا كما قال صاحب المواقف واصفا مسلك المتكلمين في إثباته وجود الله تعالى بالتعدد والتنوع : « قد علمت أن العالم إما جوهر أو عرض ، وقد يستدل على إثبات الصانع بكل واحد منهما إما بإمكانه أو بحدوثه فهذه وجوه أربعة قد سلكها المتكلمون^(٢٨) .



صور من أدلة وجود الله عند المتكلمين :

إن الاستدلال على وجود الله من أهم مباحث العقيدة ؛ لأنه الدعامة الأساسية التي يقوم عليها الدين ، لذلك كان ثبت فيها مغزاً في القدم إلى آماده البعيدة وإن اختلفت أشكاله على مر العصور وتفاوتت أساليبه .

ورغم صفاء عقيدة التوحيد فإن الفكر الإسلامي خاض هذا المبحث وأطنب القول فيه « بالرغم أن وجود الله لم يكن محل شك في يوم من الأيام لكثير من المجتمعات فهو حقيقة الحقائق التي ينبع منها كل ما في الوجود من حقائق » .

وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد

وللمفكرين المسلمين في البرهنة على وجود الله مسالك ماثورة ومناهج مشهورة ، فما من عالم إلا وجعل لهذا الموضوع مكاناً بارزاً في مباحثه في أصول العقيدة .

دليل الأحوال المتضادة :

وهو من أشهر الأدلة، استدل به إبراهيم ابن سيار النظام المعتزلي على وجود الله يقول في هذا الشأن : « وجدت الحر مضاد للبرد ووجدت الضدين لا يجتمعان في موضوع واحد من ذات أنفسهما ، فعلمت أن لهما جامعاً ، وقاهراً قهرهما على

خلاف شأنهما ، وما جرى عليه القهر فضعيف ، وضعفه دليل على حدوثه ، وعلى أن محدثاً أحدثه ، ومخترعاً اخترعه^(٢٩)

ونجد صدى لهذا الدليل عند الماتريدي ولعله متأثر فيه بفكر النظام المعتزلي ، فيذكر أبو منصور أن « الحركة والسكون ، والحسن والقبح ، والاجتماع والافتراق ، والزيادة والنقصان حقائق متضادة »^(٣٠) .

والعقل البشري لا يجوز اجتماع الضدين في موضع واحد من ذات أنفسهما لأن الطبائع المتضادة من حقها التدافع وفي ذلك التفرق التبدد والتفاني فلا بد من جامع جمع هذه الأحوال ، وقاهر قهرها على ذلك ، وبغيره لا تتلاءم ولا تنسجم^(٣١) .

وظاهرة التكامل أو التضاد التي استقرأها المتكلمون من المعتزلة وأهل السنة من الماتريدية يمكن أن تستغل استغلالاً علمياً ، ويصير هذا الدليل مواكبا لعصرنا مقنعا لمختلف المستويات الفكرية .

دليل الجواهر والأعراض :

أو دليل الحدوث، كان دليلاً شائعاً في أوساط المتكلمين استدل به النظام المعتزلي وإن رفض القول بالجزء الذي لا يتجزأ . واستدل به الأشعري وجعله البغدادي موضع أصل من أصول كتابه القيم المعروف بـ (أصول الدين)^(٣٢) .

واعتبره الغزالي القطب الأول من أقطاب كتابه الاقتصاد في الاعتقاد^(٣٣) وعده الشهرستاني القاعدة الأولى من قواعد كتابه المعروف (نهاية الإقدام في علم الكلام)^(٣٤) .

وبالرغم من هذه الشهرة فهو دليل قليل الإقناع مغرق في التفريعات كالجواهر الفرد والوجود والعدم ويشبهه : دليل الأشياء الحية وغير الحية .

وفحواه أن ليس لأحد من الأحياء أن يدعي لنفسه القدم ؛ بل لو قال ذلك لعرف الناس كذبه بالضرورة . ويمكن بناء هذا الدليل على الصورة التالية : - الأحياء حادثة ، والأحياء تستعمل الأشياء غير الحية ، فهذه الأشياء حادثة من باب الأولى ، ويضيف الماتريدي^(٣٥) أن هذه الموجودات تمتاز بخصائص تثبت لها صفة الحدوث ، منها أنها محتاجة إلى غيرها وعاجزة عن إصلاح ما فسد منها هذا إذا كانت حية ، أما إذا كانت ميتة فاحتياجها إلى غيرها أشد ، فهي إذن أحق بالحدوث . وإذا تأملت هذا الدليل وجدته دليلاً سفسطائياً فاسداً يقول أحد الباحثين في هذا الشأن : « ليس المرء في حاجة إلى دراسة أساليب المنطق حتى يعلم بفطرته أنه أمام دليل سفسطائي فاسد ، أما إذا كان من هؤلاء الذين أفسد الجدل استعدادهم الطبيعي (يقصد المعتزلة والأشاعرة) فمن

الممكن أن نستخدم معه منطق إرسطو لكي نبين له أننا نوجد أمام قياس من الشكل الثالث ، وأن النتيجة الطبيعية له هي بعض الحادث يستخدم الأشياء غير الحية فأبي صلة إذن بين هذه النتيجة وبين إثبات حدوث العالم في جميع أجزائه الحية وغير الحية »^(٣٦) .

وهكذا يبدو أن الاستدلال على وجود الله منه ما يتجه إلى البرهنة على وجود الله كدليل العناية الإلهية ، ومظاهر الإتيان التي تشهد بوجود الصانع ، وبرهان الخلق والاختراع . ومنها ما يتجه إلى البرهنة على الحدوث كدليل التغير ودليل تنامي العالم ودليل الحركة .

بيد أن دليل الحدوث التي تعود الأدلة في معظمها إليه له طابع قرآني ، يقول البيضاوي الحنفي : إنه برهان لطيف مأخوذ من مسلك الخليل عليه السلام حيث استدل قبل أن يجري عليه القلم بالظهور بعد أن لم يكن ، والأقوال بعد الطلوع وآثار العجز عن التدبير كما قال الإمام أبو منصور الماتريدي مستفهماً على سبيل الإنكار في قوله : ﴿ هذا ربي ﴾ فإن حذف أداته مشهور قائلاً : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ أي : لا أئني على الذي تتعاقب عليه الأحوال ويعتريه التغير والزوال باستحقاق الربوبية ، ولا أعطيه المحبة التي تجب لله واجب الوجود الذي يستحيل عليه الزيادة والنقصان والذهاب والإتيان^(٣٧)



نحّة عن الاستدلال على وجود الله عند
الفلاسفة الإسلاميين :

سلك الفلاسفة الإسلاميون لإثبات
وجود الله تعالى طريق الوجوب والإمكان ،
وقسموا الموجودات إلى واجب وممكن بدلا
من قديم وحادث ؛ لأن فئة منهم لا تقول
بحدوث العالم . فاستدل هؤلاء الفلاسفة
بالإمكان بدل الحدوث ، وقد لخص
صاحب المواقف هذا الاستدلال فقال :
المسلك الثاني للحكماء وهو أن - في
الواقع - موجودا فإن كان واجبا فذاك ،
وإن كان ممكناً احتاج إلى مؤثر ولا بد من
الانتهاء إلى الواجب وإلا لزم الدور أو
التسلسل وهو محال^(٣٩) .

قالوا حد الحق « عند الكندي لا يدخل
مع الكائنات تحت جنس أو ما يشبهه ، فإن
لم يكن كذلك فهو غير مركب بل إنه فوق
الانقسام والكثرة وإنه الآنية الحق التي لم
تكن ليس ولا تكون ليس أبداً وهو العلة
الفاعلة التي لا علة لها »^(٤٠) .

وأما الفارابي فإنه يقول : « لك أن
تلاحظ عالم الخلق فتري فيه أمارات
الصنعة ، ولك أن تعرض عنه ، وتلاحظ
عالم الوجود المحض ، وتعلم أنه لا بد من
موجود بالذات ، وتعلم كيف ينبغي أن
تكون عليه الموجودات بالذات . فإن
اعتبرت عالم الخلق فأنت صاعد ، وإن

وتابع عضد الدين الإيجي رأي الماتريدية في
قوله إنه دليل مستوحى من ملاحظة إبراهيم
للكواكب وما يطرأ عليها من تغير .
واستنتج من قوله تعالى : ﴿ لا أحب
الآفلين ﴾ معنى الحدوث ؛ فلم يجب
إبراهيم عليه السلام هذه الكواكب « فضلا
عن عبادتها لأن الآفل حادث ، وما هو
حادث فله محدث غيره ؛ فلا يكون مبدأ
لجميع الحوادث ، ولا يكون صانعا للعالم ،
ولا يكون محبوبا للعقل وفي الآية أيضا نفي
لربوبية الجوهر فلهذا قيل باختصاص
طريقته عليه السلام بحدوث
الجواهر »^(٣٨) .

نستنتج من خلال استقراءنا لأدلة
المتكلمين إيغالا في التجريد ، ولعلها بدت
لنا كذلك لكونها غير مألوفة لدينا -
وكانت مبذولة شائعة عندهم - وبقيت
كذلك مهجورة لم تواكب العصر ، ولم
تعد قادرة على مواجهة الأيديولوجيات
الفلسفية المعاصرة . وبالرغم من انطلاق
بعض هذه الأدلة من القرآن إلا أنه سرعان
ما ابتعدت عن منهجه الذي يخاطب العقل
والقلب بصفة تنسجم مع كل المستويات
العقلية .

وقد صدرت دعوات من فلاسفة
ومتكلمين تأمر بالاستلها من أسلوب
القرآن منهجا وروحا في الاستدلال على
وجود الله سبحانه .

اعتبرت عالم الموجودات فسانت نازل^(٤١) .

ويقول ابن سينا : تأمل كيف لم يحتاج بياننا لثبوت وحدانيته ، وبراءته من السمات ، إلى تأمل لغير نفس الوجود ، ولم يحتاج إلى اعتبار من خلقه وفعله ، وإن كان ذلك دليلا عليه ، لكن هذا الباب أوثق وأشرف أي إذا اعتبرنا حال الوجود فيشهد به من حيث هو موجود وهو يشهد بعد ذلك على سائر ما بعده في الوجود ، وإلى مثل هذا أشير في الكتاب الإلهي ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾^(٤٢) .

[فصلت / ٥٣]

أقول : إن هذا حكم لقوم ، ثم يقول في الكتاب الإلهي ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ .

[فصلت / ٥٣]

أقول : هذا حكم للصديقين الذين يستشهدون به لا عليه^(٤٣) .

والملاحظ في هذين النصين : -

اعتبار الكون طريقا ثانيا للاستدلال وهو المعبر عنه بالطريق الصاعد . بينما الأسلوب المعول عليه في الاستدلال هو التأمل في الكون ، وهو أوضح الأساليب ؛ نحير أن الفارابي وابن سينا يعتبران عالم الوجود المحض أو الطريق النازل أشرف

الأدلة وأوثقها . وهكذا يتضح أن الفكرة العامة حول مفهوم الذات الإلهية والاستدلال عليها فكرة تجريدية ، قد أوغلت في النظر حتى صارت مهجورة .

آراء العلماء في أدلة المتكلمين :

أصدر علماء الكلام أحكاما قيموا بها ما أنتجوه من براهين في الاستدلال على مباحث العقيدة ؛ لكن الملفت للنظر أن هناك آراء فيها حسرة على الاشتغال بهذا العلم بل فيها ندم على ما فرط منهم من إغراق في الجدل ، فلقد أورد السبكي في طبقات الشافعية عن الجويني ما نصه : لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفت أن الكلام يبلغ لي ما بلغ ما اشتغلت به^(٤٤) .

وتجربة الغزالي مع الطرق الكلامية أشهر من أن نقف عندها إذ جربها فوجدها وافية بمقصودها غير وافية بمقصوده فسلك مسلك الصوفية وارتضاها أفضل الطرق لمعرفة الله^(٤٥) .

ولفخر الدين الرازي وصية أملاها في مرض موته نصح فيها بالابتعاد عن الطرق الكلامية في الاستدلال على مباحث العقائد والعود إلى منهج القرآن في استدلاله ؛ لأنه أقوم المناهج وأشرفها^(٤٦) .

وللشهرستاني وغيره آراء تنصح بالرجوع إلى أساليب القرآن في بناء العقيدة الإسلامية .

فما هو المنهج الذي سلكه القرآن في
بحث العقيدة ؟

علم الكلام القرآني

لم يكن القرآن الكريم كتاباً في علم
الكلام ذكر الحجج والبراهين لكل باب من
أبواب العقائد ؛ وإنما هو كتاب عقيدة
وهداية رسم منهج الحياة الإسلامية اجتماعياً
واقتصادياً وسياسياً ، وخط مسلكاً فريداً
في العبادات والمعاملات والأخلاق ، ورتب
كل ذلك وفصله بإحكام وإتقان ﴿ كتاب
فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا
ونذيرا ﴾ .

[فصلت / ٣] .

منهج القرآن في العقيدة :

وفصل القرآن مسائل العقيدة التي أخبر
بها تفصيلاً متميزاً ، وأشار إليها إشارات
بليغة ووقف عند بعضها الآخر طويلاً في
مواضع مختلفة من سوره وآياته . وقد
اشتمل على جميع أنواع البراهين ، وألوان
الأدلة وسلك جميع طرق الاستدلال ، وما
من سبيل لإثبات العقيدة إلا وكتاب الله قد
سبق إليه وقرره ، ووضع له الأسس التي
يجب أن تحتذى .

استدلال القرآن على وجود الله تعالى :

إن الأدلة الواضحة على وجوده تعالى
تفوت الحصر وكما يقال : إن لله طرائق

بعدد أنفاس الخلائق ، وقد تعدد الأسلوب
الذي اتخذته القرآن الكريم في الاستدلال على
وجود الله سبحانه وتعالى وعظيم قدرته
وجليل حكمته ، قال ابن الهمام : « أولى
ما يستضاء به من الأنوار ما اشتمل عليه
القرآن ؛ فليس بعد بيان الله بيان ، وقد
أرشد سبحانه إلى وجوده بآيات
كثيرة » (٤٧) .

نحو منهج كلامي جديد انطلاقاً من القرآن :

أحدثت العلوم ثورة فكرية ، وساهمت
في تكوين عقليات تهتم بالحقائق إلى حد
كبير ، وهي تتمثل في تقديم الكلام على
أساس التجربة والمشاهدة لا على أساس
التخمينات أو القياسات المنطقية ، وبذلك
سقطت القضايا القائمة على المسلمات
المنطقية ؛ لأنه لا شيء في العقل الحديث
يسلم منطقياً إلا وله نقيض منطقي يتحمله
العقل ، أما التجربة فهي الدليل الذي لا
يدفع على قضيتها ، وما ينتج عنها لن يجد
الشك إليه سبيلاً ، ولذلك كان لا بد من
تطوير المناهج الكلامية على أساس من هذه
الاكتشافات العلمية الباهرة .

بيد أن الفرق بين رجل العلم وعالم
العقيدة فرق واحد ، هو أن العالم يقتصر
في بحثه على البحث العلمي ، بينما يهدف
المؤمن بهذا العمل إلى العبرة والموعظة التي
تؤكد على حقيقة الإيمان وتهدف إلى

تركيزه . كما يظهر الفرق في طريقة البحث وأسلوب العرض إذ يقتصر العالم الطبيعي على خواص الأشياء ، بينما عالم العقيدة يجتاز هذه الخواص والمميزات إلى حقائق الأشياء وصفاتها وعجائب ما فيها من دقة صنع ، وعظيم حكمة تدل دلالة قاطعة على وجود الله وكمال قدرته وعلمه .

وقد ظهرت في الفترة الأخيرة كتب كثيرة لعلماء ومفكرين مسلمين ، نظروا فيها للعلم الحديث وثمراته في ضوء آيات القرآن التي تتكلم عن العالم وعجائبه وظواهراته وأسراره ؛ لكنها لا تزال محاولات متفرقة .

ونمط هذا الاستدلال الجديد قد يكون منعطفا في الأديان الأخرى كما يتجلى في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ؛ ولكن هذا النمط من الاستدلال مبحث أصيل في القرآن . ولكن بعض علماء الكلام هم الذين أخطأوا في اجتهادهم وانتهجوا منهجا بعيدا عن الواقع وجنحوا فيه إلى المجردات وإن نبه بعضهم إلى الأخذ بأساليب القرآن ؛ ذلك لأن نمط الاستدلال القرآني إنما هو نفس النمط الذي يعبر عن الاستدلال بالحقائق الطبيعية القائمة على المشاهدة والمؤسسة على المعرفة التجريبية .

وأوضح الأمثلة استدلال إبراهيم عليه السلام لما دعا قومه المشركين إلى التوحيد قبل أربعة آلاف سنة : فقد أقام الدليل على

دعوته بمشاهدات الشمس والقمر والنجوم : ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الظالمين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برئ مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض وما أنا من المشركين ﴾ [الأنعام / ٧٩] . إلى أن تقول الآية : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ فكلمة حجتنا : تشير إلى أن نمط الكلام الذي اتخذ إبراهيم عليه السلام كان نمط الكلام الإلهي ، ويتجلى من هذا أن الحجة الإلهية أو الاستدلال الإلهي هو أن يستدل من الحقائق المعلومة المشهودة لهذا الكون .

ونمضي في هذا السياق فنقول إن التعليم الذي أعطاه الله في كتابه بصورة كلامية جعل الكون بأسره دليلا عمليا لتأييده وتأكيد ، وأي دليل يكون أقوى من الدليل الذي اتخذ الله لنفسه ولذلك جاء في القرآن في جانب ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ [الجاثية / ٢٩] . وجاء عن الكون (السماء والأرض) في جانب آخر ﴿ ما خلقناها إلا بالحق ﴾ [الدخان / ٣٩]

وفي هذا يبدو لنا القرآن والكون كليهما إظهار للمشئة الإلهية الربانية وهو إظهار بصورة عقلية نظرية وبصورة عملية محسوسة .

وهذا الطريق الاستدلالي هو الذي اختاره الله لجميع رسله فهذا نوح عليه السلام أسلوب استدلاله هو نفس الاستدلال المبني على البراهين الحقيقية أو الطبيعية يقول نوح عليه السلام ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل من السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾ .

[نوح / ١٠ - ٢٠] .

وتأمل في الأسلوب الاستدلالي الذي انتهجه القرآن الكريم هذا الأسلوب المعتمد على الحقائق الطبيعية يقول القرآن : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ .

[الغاشية / ٢٠ - ٢٢] .

إن هذا هو الاستدلال القرآني الأصيل الذي بدا عند سائر الرسل من خلال استقرائنا لآيات الكتاب ، وتلك هي الحجج التي اعتمدوا عليها ؛ فالحقائق الكونية وآيات الله في الآفاق والأنفس - : أسلوب مقنع يناسب مختلف المستويات البشرية ، ويعمق الحقائق الإيمانية على قدر الأبعاد الفكرية للمخاطبين .

مميزات المنهج القرآني في الاستدلال على وجود الله

امتاز كتاب الله العزيز بمميزات جعلته خالدا إلى اليوم وإلى الغد وإلى الأبد : فمن أخص خصائص القرآن أنه « كتاب مبين » ، وقد سماه سبحانه « نورا » و « هدى للناس » و « فرقانا » و « برهانا » و « آيئة » .

ومن أهم مميزات القرآن في الاستدلال على وجود الله تعالى :

(١) منهج مناسب لجميع المستويات الفكرية : وفهمها لا يتوقف على علم فائق ودراسة واسعة للعلوم والفلسفات ، يفهمها العوام كما يفهمها الخواص ، وتناسب جميع المستويات سواء في ذلك العامي أو العالم أو الفيلسوف ، وكل واحد من المستويات يجد فيها ضالته ، فنظرة العامي إلى قوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق ﴾

[الطارق]

تثير إيمانا ساذجا بعجيب القدرة ، كما أن نظرة (البيولوجي) (عالم الحياة) إلى منشأ الإنسان وخلقته تثير عجبه وإعجابه وإيمانه العميق .

ونظرة العامي إلى السماء وتلألأ نجومها وسطوع شمسها وأقمارها - : تبث عنده الإيمان بمدير هذا الكون وعظمته ، ونظرة الفلكي بمعرفته الواسعة لحركات النجوم وسيرها ونظامها وخلقها وأبعادها - : أقدر على معرفة العظمة وأشد إعجابا بخلقها ومديرها .

وهكذا الشأن في العامي والفسولوجي ، والعامي والسيكولوجي ، والعامي والفيلسوف : كلهم صالح لأن يتأثر بهذا المنهج على اختلاف استعدادهم ومداركهم .

والحقيقة أن العالم يزداد خشوعا كلما شاهد حكمة الله في مخلوقاته وتجلت له روعة الله في بديع صنعه ، ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر / ٢٨] . وقيل : « كلما داخلني الشك في عقيدتي في الله وجهت وجهي إلى أكاديمية العلوم لتثبيتها » .

(٢) منهج في الاستدلال لم يفرق في التجريد والنظريات الصرفة كما فعل الفلاسفة ، ولم ينهمك في الاستدلالات

الإرسطية ، والتفريعات المنقسمة إلى مقدمات كبرى وصغرى ونتائج كما فعل المتكلمون ، وإنما هو منهج قد اعتمد الإقناع مراعيًا في ذلك الفطرة الإنسانية وهي قدر مشترك بين الناس جميعاً .

(٣) منهج القرآن في الاستدلال على وجود الله ينطلق من المحسوس والمحسوس قريب من الإنسان ، سهل التناول عقليا ، وهذه الآيات كثيرة في القرآن وكثرة الأدلة تفيد القوة وترسخ الإيمان ، وهي تعتمد كثيرا على الأمور الموضوعية الواقعية . وهذه الأدلة في مظاهر يكثر تعامل الإنسان معها لذلك عادة ما تكون محسوبة بقيود الألف والعادة ولذلك فإن القرآن الكريم يدعونا إلى التأمل فيها ويلفت أنظارنا إلى ما اشتملت عليه من بديع الأسرار وهي كالإنسان والنفس والطعام والمظاهر الطبيعية المتنوعة .

قال تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات / ٢١] . وقال : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ .. ﴾ [عبس / ٢٤] . وقال : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقَتْ .. ﴾ [الغاشية / ١٧] .

وقد ذكر سبحانه الإبل لأنها وسيلتهم المفضلة في السفر .

ومادة الأدلة القرآنية فضلا عن كونها

السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه
تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون
والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في
ذلك لآية لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل
والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات
بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴿١٠﴾ .
[النحل / ١٠ - ١١ - ١٢] .

وذلك على عكس الأدلة الوضعية ،
فهي تقوم على التعميم ، ثم تنتقل إلى
التفصيل ويحتاج التفصيل إلى تفصيل وهذا
من شأنه أن ينفر الناس ويجعلها تشعر بالملل
ويصرفها عن الهدف المنشود .

(٦) منهج القرآن في استدلاله على وجود
الله سبحانه : يعتمد التنوع بحيث لم يقتصر
على مثال واحد في المجال الواحد بل لفت
نظر الإنسان إلى عظمة الاختراع ، ودقة
الصنع في عجائب الحيوان والنبات ، وما
اشتمل عليه الإنسان من الآيات الباهرة ،
وما حوته الأرض والسموات من ملايين
الكواكب قال تعالى : ﴿أأنتم أشد خلقاً أم
السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش
ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك
دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبـال
أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ .

[النازعات / ٢٧ - ٣٣] .

وقال سبحانه : ﴿ومن آياته أن
خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون
ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا

محسوسة ففيها منافع للإنسان ومآرب
وخلقت لأجل غايات معينة ، منها ما
أدركها العقل ، ومنها ما عجز عنه ، أو لا
يزال يحاول إدراكه ، والطبع الإنساني قد
جبل على حب ما ينفعه ، وهذه المنافع
تهدي إلى شكر المنعم وبالتالي تقود إلى
الإيمان .

(٤) منهج القرآن في الاستدلال على مقام
الالوهية يخاطب العقل والقلب معا ؛ ذلك
لأن الإنسان قد اشتمل على جانبيين عقلي
ووجداني ، والاعتماد على جانب دون
الآخر لا يوصل إلى الحقيقة الجازمة ، ولعله
يورث الشك إذا أسرفنا في الاعتماد على
ناحية دون الأخرى ؛ لأن الإيمان عملية
متشعبة سبيلها تضافر الوجدان والعقل معا .

فالقرآن صيغت أدلته في منتهى الدقة
المنطقية ولكنها سيقّت في جو وجداني يأسر
القلب ويهز المشاعر ولا يترك المجال
للشك ، فسبحان من أحكم كتابه وأحاطه
بضروب الإعجاز .

(٥) منهج القرآن في الاستدلال : لا يكون
الدليل فيه على صورة عامة مجملة ، ولكنه
يسوق الأدلة على هيئة جزئية مفصلة ،
وبذلك يغني عن التفصيل بعد ذلك ، وما
يحتويه التفصيل من تفريعات قد تشغل
النفس عن الهدف الأصلي ، فضلا عن
الأمر الجزئية تدركها النفس بسهولة ويسر
يقول الله تعالى : ﴿هو الذي أنزل من

لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴿٢٠﴾

[الروم / ٢٠ - ٢٢]

(٧) منهج القرآن يساير الفطرة في صوغ أدلته ويغذيها ويشعر كل إنسان في أعماق نفسه بالاستجابة لها والإصغاء إليها حتى الملحد بعقله .

والفطرة شعور مشترك بين الناس جميعا كامن فيهم يشهد بأن فوق هذه الكائنات المحدودة المتناهية كائنا غير محدود ولا متناه ، يهيمن على كل شيء ، ويدير كل شيء ، شعور ينبع من أعماق النفس ، شعور يجده الإنسان في نفسه بغير تعلم ولا تلقين ولا اكتساب^(٤٨) ، وهو إحساس يشعر به المرء عندما يتحرر من الميول الفاسدة ويرتفع عن قيود الإلف والعادة . وهذا الإحساس الفطري أجلى ما يظهر عند الشدائد والملمات ، ولكنه قد يخفي عندما يحاط الإنسان بمظاهر الثراء والبذخ وإلى هذه الحقيقة أشارت الآيات : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ [الشورى] .

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ [فصلت / ٥١] :

﴿ وإذا غشيهم موج كظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ [لقمان / ٣٢] .

ويضرب القرآن مثلا لهذا الإيمان الذي يبرز فجأة عند الشدائد والملمات في قوله تعالى : ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ [يونس / ٩١ - ٩٣] .

وهكذا فإن القرآن الكريم حينما يسوق الأدلة على وجود الله يعتبر أنها قضية بديهية وأمر مسلم ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ﴾ [الأنعام / ٦٣] .

﴿ أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ .

[النمل / ٦٤]

﴿ أفي الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ [إبراهيم / ١٠] .

فكيف يكون شك والفطرة شاهدة بوجوده مجبولة على الإقرار به ، قال ابن تيمية : إن فطرة الخلق مجبولة على أنهم متى شاهدوا أشياء من الحوادث المستجدة كالبرق والرعد والزلازل ذكروا الله وسبحوه ؛ لأنهم يعلمون أن ذلك المتجدد لم يتجدد



نماذج من الاستدلال على وجود الله
تعالى انطلاقاً من القرآن

تنوع الأدلة وكثرتها :

لم يكن وجود الله محل شك في عصر
من العصور ، فهو حقيقة الحقائق التي ينبع
منها كل ما في الوجود من الحقائق .

قال الشاعر :

فوا عجباً كيف يعصى الإله
أم كيف يحجده الجاحد
والله في كل تحريكه
وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد

وقد استعرض المفكرون^(٥١) والفلاسفة
شتى صنوف الأدلة التي قيلت على مر
العصور وقسموها إلى أقسام منها : -

(١) ما سموه برهان الخلق وهو أقوى الأدلة
وأبسطها في ذات الوقت وهو يدور حول
بديهية هي أن كل مخلوق لا بد له من
خالق .

(٢) وثاني هذه الأقسام ما وصف بأنه
برهان الغاية والقصد والنظام . فحيثما أجلنا
البصر حولنا في الكائنات ، وجدناها
محكمة الصنع ، وكل ما فيها يقطع بأنه
صنع لغاية محددة ودل على أنها تسير نحو
غاية مسددة .

بنفسه بل بمبدع أبدعه وصانع حكيم قد
أتقنه .

وقال ابن قيم الجوزية : « إن وجود
الرب تعالى أظهر للعقول والفطر السليمة
من وجود النهار ومن لم ير ذلك في عقله
وفطرته فليتهمها » .

ومما يستأنس به ما ذكره ديكارت في
ميثاق الفطرة من أنها مغروسة في النفس
البشرية ، أي أن الله حين خلق الإنسان
أخذ عليه عهداً وميثاقاً لكي تكون علامة
الصانع واضحة جلية مطبوعة في
صنعتة... (٤٩) .

لذلك كانت أدلة وجود الله تعتمد على
ما ركز في الفطرة الإنسانية ، ويتجه
بالخطاب إليها مباشرة لعلها تتذكر العهد
والميثاق الذي أخذه الله عليها في عالم الذر
على حد تعبير أحد المفسرين^(٥٠) .

قال تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من
السماء والأرض أم من يملك السمع
والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج
الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون
الله فقل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق
فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى
تصرفون ﴾ [يونس / ٣١ - ٣٢] .

(٣) أما القسم الثالث فهو يسمى ببرهان المثل الأعلى فالعقل لا يقف عند أمر من الأمور إلا ويتخيل أن هناك ما هو أكمل منه وأجمل وأقدر ، وإذن فلا بد من انطواء الوجود على المثل الأعلى الذي هو الله تعالى .

(٤) وهناك أقسام أخرى متنوعة من الاستدلال منها ما يعود إلى شهادة الوجدان والشعور كبرهان الأخلاق أو وازع الضمير . وسنقتصر على بعض البراهين القرآنية على وجود الله .

دليل الخلق :

يعتبر دليل الخلق من أعظم الأدلة على وجود الله ومن أكثرها بدهة ووضوحا . وقد اهتم به المفكرون والفلاسفة والعلماء بحسب بيئاتهم وثقافتهم وقد تأثر هذا الدليل بما كانت تعج به البيئة من عوامل مختلفة .

ونبه إلى هذا الدليل الماتريدي^(٥٢) وغيره ، كما ينسب إلى ابن رشد الفيلسوف ، ودليل الاختراع ، كما سماه أقرب الأدلة إلى مدارك الجمهور^(٥٣) . وقد سماه بعض المفكرين بدليل الإبداع ، وبدليل الصنع ، وسماه الرازي بدليل الآفاق والأنفس . والقضية في هذا الدليل تكمن في طريقة عرضه . وبقدر ما يحسن أسلوب تقديمه وطريقة عرضه بقدر ما نحقق من

نجاح .

وهذا الدليل قد تظاهرت عليه آيات الكتاب الكريم ، ففيه أكثر من ثمانين آية كلها تنبه على مظاهر الخلق ، وتدعو إلى التأمل في عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات وبدائع صنعها ، وكثيرا ما تختم هذه الآيات بقوله تعالى : ﴿ لَا يَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أو ﴿ لَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أو ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . والقرآن في هذا الدليل لا يذهب بالإنسان بعيدا بل يلتفت نظره إلى ما تكثر مشاهداته من حوله ، وما تعج به بيئته من مظاهر الاختراع في الكون كأحوال الأرض والمعادن والنبات وعالم الحيوان من الطيور والزواحف والتمل والنحل ، وأساليب التفاهم بين كل جماعة منها قال تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ . [الأنعام / ٣٨] .

وكالكواكب وحركاتها وأوضاعها والأحوال المتعلقة بها ، من سرعة متناسبة تناسباً دقيقاً مع مسافتها بالنسبة للشمس ، وكذلك بالنسبة لدورانها حول مركزها وما يترتب على ذلك من آثار الليل والنهار والأزمنة الأربعة من السنة ، وما في ذلك من المصالح كأغذية الخلق وتدير معاشهم وصحة أبدانهم وسياسة شؤونهم .

وإن الأعجوبة في الدلالة على وجود الله لا في كثرة العدد ولا ثقل الوزن ، وإنما

من شيء ﴿ [الأعراف / ١٣٥] .
وقال سبحانه : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء
فوقهم كيف بيناها وزيناها وما لها من
فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي
وأثبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة
وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء
ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد
والنخل باسقات لها طلع نضيد ﴿ .
[ق / ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا في
السموات والأرض ﴿ [يونس / ١٠١]
وتأمل حكمة الله في خلق الأرض كيف
خلقت ممهدة ساكنة ، لتكون مستقرا
للأشياء جميعا ، ويتمكن الناس والأنعام من
السعي عليها في مآربهم والجلوس لراحتهم
والنوم لهدوئهم والإلتقان لعملهم ، فإنها لو
كانت رجراجة لم يكونوا يستطيعون أن
يتقنوا البناء والنجارة والحدادة ... بل
كانوا لا يهتثون بالعيش والأرض ترتج من
تحتمهم قال تعالى : ﴿ والأرض فرشناها فنعم
الماهدون ﴿ [الذاريات / ٤٨] .
لو فكر المرء في المطر والصحو كيف
يتعاقبان على العالم لما فيه الصلاح . ولو دام
واحد منهما عليه كان ذلك فسادا . ألا
ترى أن الأمطار إذا توالى عطنت البقول
والخضر واسترخت أبدان الحيوان وخفر
الهواء ، فأحدث ضروبا من الأمراض ،
وفسدت الطرق والمسالك ، وأن الصحو

العبرة في صغر الحجم مع عجيب
التركيب . ولو وقفت على جناح بعوضة
وقوف معتبر وتأملت تأمل متفكر :-
لامتلات نفسك عبرة ولرايت من أسرار
الخلق ولطيف الحكم ما لا يحصى .

وهكذا إذا استعرضت مظاهر الخلق فلا
تستصغرن الصغير لأن فيه من عظيم التدبير
ودقيق الحكم ما يعجز عنه المتفحص وما
لا يدركه إلا العالم المتأمل .

وظاهرة الحياة وما اشتملت عليه من أسرار
تبقى اللغز الذي لم يكشف أمام العلوم ،
رغم أن المواد الأولية التي تتكون منها
الأجسام الحية معلومة المقادير ومع ذلك
عجز البشر عن صنع الحياة قال تعالى :
﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا
ذبابا ولو اجتمعوا له ﴿ .
[الحج / ٧٣] .

وظاهرة الإبداع تتجلى في كل كبيرة
وصغيرة من هذا العالم فإذا تأملت بفكرك
وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع عتاده ،
السماء مرفوعة كالسقف ، والأرض
ممدودة كالسطح ، والنجوم منضودة
كالمصابيح ، وهي من أشد الأشياء تعقيدا
فلو أن كوكبا حاد عن مساره ، أو اختلت
سرعته ، وحدث الارتطام بين هذه
الكواكب المنضودة لكانت الكارثة ولا انتهى
الكون . قال تعالى : ﴿ أو لم ينظروا في
ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله

إذا دام جفت الأرض والأبدان وانعدمت
الثمار وغيض ماء العيون والأودية ، فأضر
ذلك بالناس وغلب اليبس على الهواء ..
فإذا تعاقب الصحو والمطر هذا التعاقب
المعتدل اعتدل الهواء ودفع كل منهما عادية
الآخر فصلحت الأمور والأشياء
واستقامت .

وتأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف
النبات ، وتأمل خلق ورق الشجر : في
الورقة شبه العروق مبثوثة فيها أجمع ، فمنها
غلاظ ممتدة في طولها وعرضها ، ومنها
دقائق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً
رقيقاً محكماً معجباً لو كان مما يصنع
بالأيدي كصناعة البشر لما فرغ من ورقة
شجرة في عام كامل .

وظاهرة الاختراع لا تنحصر في عالم
النبات ولا في عالم الكائنات الحية ، وإنما
تشمل مظاهر الوجود مما أدركته عقولنا
ومما لم تدركه بعد ، ولقد ثبت علمياً أن
الكائنات الحية عبارة عن عوالم تحوي عوالم
أخرى وقف أمامها العلم عاجزاً عن حل
كثير من ألغازها .

خلق الإنسان أعظم آية على وجود الله :

كل شيء في خلق الإنسان آية من آيات
الله تعالى ، يدل على التدبير والقصد
والإحكام من الله ويبعد به عن الإهمال
والصدفة . وأي شيء فيه ليس مثار دهشته

وعجبه ؟ أليس نظام طعامه وشرابه وتحليل
الطعام إلى عناصر مختلفة بموازن يذهب كل
عنصر إلى حيث يؤدي وظيفته ، وأما ما لا
يفيد فيلفظ إلى الخارج .

أليس توزيع الدم من مكانه الرئيسي
وهو القلب في أنحاء الجسم بواسطة
الشرايين التي لا يحصى عددها إلا الله ثم
عودته إلى القلب بواسطة الأوردة ليفيد منه
الجسم آية من آياته سبحانه . وتأمل حكمة
التدبير في تركيب البدن ، ووضع هذه
الأعضاء مواضعها ، وإعداد هذه الأوعية
فيه لتحمل تلك الفضلات ، ولا تنتشر في
البدن .

أفلا ترى جسم الصبي كيف ينمو
بجميع أعضائه نمواً في توازن وبمقدار لجميع
الأجزاء في تناسق ، أوليست أطواره في
الرحم آية من آياته سبحانه وتعالى .
وأعجب من هذا تصويره في الرحم حيث
لا تراه عين ولا تناله يد يخرج سوياً بجميع
ما به قوامه من الأحشاء والجوارح ... إلى
ما في تركيب أعضائه من العظام ،
واللحم ، والشحم ، والمخ ، والعصب ،
والعروق ، والغضاريف ، من دقائق
التركيب والتقدير والحكمة .

وكل شيء في الإنسان يدل على الحكمة
والإتقان : فبصره وعقله وسمعه لو تأملتها
لامتلكك العجب ، ولو فكرت في أعضاء
الإنسان وما خلقت عليه أفراداً وأزواجاً

دليل الإتقان

دليل الإتقان ويسمى بدليل التقدير
وبدليل الأحكام وبدليل نظام العالم .

فهذا الكون يبدو على جميع مظاهره
صواب التدبير والتنظيم الدقيق والصنع
المحكم ، فكل شيء بحساب دقيق في ذاته
ومع غيره ليحصل التوازن الشامل بين
أجزاء الوجود .

لقد كان من أهم ما اكتشفه الإنسان في
هذا العصر أن هذا العالم يخضع إلى منتهى
الدقة ، يدركه ذلك الإنسان في تعاقب
الليل والنهار ، والصيف والشتاء ،
وحركات الشمس والقمر ، ثم كلما ازداد
تعمقه في دراسة الطبيعة ازداد إيمانا بهذا
النظام ودقته ، فإذا تبين في شيء ما فوضى
أدرك فيما بعد أن ذلك يعود إلى جهله
بقوانينه لا حاجته إلى النظام . وأكثر الناس
إيمانا بالنظام في فرع من فروع العلم علماء
ذلك الفرع ، فالفلكيون أشد الناس إيمانا
بنظام الكواكب ، وعلماء الحيوان في
الحيوان ، وعلماء النبات في النبات ،
وعلماء وظائف الأعضاء في وظائف
الأعضاء ، وأطباء العيون في العيون
وهكذا ، كل يدرك أتم نظام وأدقه في
فرعه . والفيلسوف يدرك ذلك في العالم
كوحدة ، بل يدرك أنه لولا نظام ناحية من
نواحي العالم ما كان لها علم . فالعلم معناه
جملة من القوانين المنظمة تتعلق بجانب من

لرأيت ما في ذلك من الصواب والحكمة .
وتأمل لين المفاصل في الإنسان وكيفية
تهيئتها حتى صار بها يقبض ويسط ويتقلب
في مختلف الأحوال وتأمل ما في هذه
المفاصل من غضاريف تمنع العظام من
الاحتكاك ، ومواد دهنية تسهل الحركة ،
ثم مفاصل تتحرك إلى الأمام مثل مفصل
المرفق ، ومفاصل تتحرك خلفا مثل مفصل
الركبة ، ومفاصل تتحرك لجميع الجهات
مثل مفصل الرسغ ؛ فستدرك أن مدبر هذا
الجسم قوة حكيمة عاقلة وهو الله سبحانه
وتعالى .

وليس هذا الدليل مقتصر على هذه
الظواهر بل إنك تلمسه في اختلاف الناس
ألوانهم وأصواتهم وبصماتهم ، فإنه لا
يوجد شخص كالأخر ، أو يشبهه شياً
دقيقاً في الظاهر والباطن بل كل واحد عالم
قائم بذاته ، وفي ذلك أعظم قدرة لله تعالى
تجلى في مخلوقاته وتشهد بألوهيته .

هذه الإشارات من برهان الخلق هي
قطرة من بحر ، وذرة من ذرات هذا
الوجود ، لو أحكمنا استغلالها بما وصل إليه
العلم من اكتشافات ، وأبرزنا مظاهر
الإبداع في صور من العرض العلمي الدقيق
لطورنا علم الكلام القرآني تطورا يواكب
العصر ، وجعلنا من أدلة وجود الله مادة
مشوقة تأسر العقول والقلوب وتدعو إلى
الإيمان وترسخ العقيدة الإسلامية .

إن يد الله التي خلقت قد أرت نفسها في خلقها ، وإرادة الله التي خصصت أرت نفسها في مبدعاتها ، وحكمة الله ظاهرة في هذا الكون .

ولا شك أن نظاماً بديعاً معجزاً كهذا فيه دلالة على أن هذه الكائنات لم تخلق عبثاً ، وليست نتيجة قوة عمياء ؛ بل من وراء ذلك قوة مدبرة عليه ، قد ضبطت كل شيء بمقدار .

وكل ما في هذا الكون لا تكاد تتحرك فيه ذرة واحدة على غير هدي أو غير محكمة بقاعدة معينة وناموس مخصوص ، وكل ما فيه كتاب مفتوح يقرأه كل من يتأمله ويتدبره بعين العقل والوجدان ؛ ليتضح أمام بصيرته ما فيه من نظام وقوانين تحكمه وتلاءم أجزائه وتتكامل .

ولو تأمل الإنسان أعضائه وخلاياه وما بينها من تعاون وتناسق وتوازن - : لأدركنا من دقة التقدير وإحكام التدبير ما لا ينقضي منه العجب . ومما ذكره (أ . كريسي مورسون) في فصل ضوابط وموازن من كتابه قال : « ما أعجب نظام الضوابط والموازنات في الكون » (٥٤) ثم يعدد بعد ذلك مظاهر التوازن في الكون فيظهر أمراً عجيباً كالهواء والماء والتوازن بين الحشرات في الليل والنهار . ولقد نبه القرآن الكريم إلى هذه الظواهر الكونية في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض

جوانب الحياة كالنبات ، والحيوان ، والفلك ، حتى الجسم في مقاومته للمرض يفعل الأعاجيب في نظامه ، ولولا ذلك ما كان طب . ثم كل جزء من أجزاء العالم مرتبط بأجزائه الأخرى ، يخضع هو وهي لنظام عام كعلاقة الخلية في الجسم بالجسم كله ، فالعالم حروف هجاء ترتبط ألفه ببيائه ارتباطاً قريباً ، وألفه ببيائه ارتباطاً بعيداً ، وكلها تكون نظاماً واحداً ، وتخضع لقوانين واحدة حتى إن العالم الدقيق النظر لو تعمق في دراسة جزء من أجزاء العالم أعانته ذلك على فهم سائر أجزائه لتشابه القوانين ووحدة النظام ، وبلغ من دقة نظامه أنه لولا نظامه ما وجد .

وهذا التقدير ظاهرة عامة في كل شيء وقد نبه القرآن على ذلك في مواطن عديدة إذ قال : ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ . [الرعد / ٨] . وقال : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ [الفرقان / ٢] . وقال : ﴿ .. قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ [الطلاق / ٣] . وقال : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ .

[القمر / ٤] .

وقال : ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ .

[الحجر / ٢١] .

والكون المنظم عليم حكيم قد نظمته ؛ لأن من المتناقضات وجود تنسيق عجيب وترتيب بديع بلا منسق ولا مرتب .

وهذه الحقيقة التي تشكل برهاناً يقينياً على وجود الله جل جلاله والتي تسمى عند بعض المفكرين والفلاسفة (العلة الغائية) وتسمى عند علماء العقيدة بـ (دليل النظام والتدبير) أو (دليل الحكمة والتناسق) هي التي يظل القرآن يوجه العقول بأساليب رائعة متنوعة يفهمها الناس على اختلاف مستوياتهم وثقافتهم . وهو برهان يخرس السنة الملحدون ويسد في وجوههم منافذ الحيل كلها .

والأسلوب العملي الأمثل في مثل هذا البرهان هو الاهتداء بآيات الله ، وإبراز مظاهر إتقانه في الوجود بوسائل علمية تبث على الإيمان وترسخه .

دليل العناية والتسخير

دليل العناية أشهر الأدلة على وجود الله وأثرها وأكثرها إقناعاً للعقول البشرية . وهو قسم من دلالة نظام العالم .

وقد ازدادت أهمية هذا الدليل إثر الاكتشافات العلمية وأخذ الناس بطرق التفكير العلمي الحديث .

وقد فضله ابن رشد على سائر الأدلة وذكر أنه دليل قرآني ، يقول في هذا الشأن : إن الهدف منه « الوقوف على عناية الله

مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا » .

[النبأ / ٦ - ١٦] .

وكمثل قوله : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ . [الرعد / ٤] .

وكمثل قوله : ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون وجعلنا في الأرض رواسي أن تמיד بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ﴾ .

[الأنبياء / ٣٠ - ٣١] .

هذه الحقائق الجلية من الظواهر الكونية في الإنسان والحيوان والنبات والمظاهر الطبيعية المختلفة التي تحصى ولا تعد ، كلها براهين تشهد بأن وراء هذا العالم المتقن

بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله»^(٥٥) ووضعها متناسبة معه ، موافقة لمتطلبات وجوده ملائمة لظروفه ومنافعه .

فالكون بجميع أجزائه مسخر لخدمة النوع البشري ، فمن أعظم كائن فيه إلى أصغر كائن ، الكل يخدم هذا النوع . وهذه الحقيقة مدهشة للغاية ، أن يكون هذا الكون الفخم الهائل بكل ما فيه ، من أجرامه السماوية ، ومخلوقاته الأرضية ، الجميع مسخر تسخيـرا خاصا لخدمة نوع واحد من بين سائر المخلوقات التي حواها الكون وانتظمها هذا الوجود على أساس الحق والعدل والخالي من العبث .

إن كل شيء في هذا الكون محكوم بالعناية الإلهية .. يتحدث الله عن هذه العناية فيقول إنه سخر لنا البحر ، وسخر لنا ما في السماء والأرض جميعا منه ويلفتنا بعد ذلك إلى التفكير والتأمل يقول الله تعالى : ﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

[الجاثية / ١٢ - ١٣] .

ولو تأملنا حكمة تسخير الله للبحر سوف نلاحظ أول إشارة لمعنى العناية الإلهية ، وأن الحياة تبدأ من الماء ، وبغير الماء تهلك الكائنات على الأرض ، وكل ما

في الأرض من مياه عذبة هي أصلا مياه قادمة من البحر ... إن المياه تغطي أربعة أخماس كوكبنا الأرضي.. بحيث تبدو الأرض من الفضاء مثل كرة مائية معلقة تدور حول نفسها وحول الشمس ... وبسبب حرارة الشمس تتبخر المياه وتصنع السحب ... وبسبب كهرباء السحب تسقط الأمطار ، ولولا سقوط المطر لاستحال وجود الأنهار والبحيرات ، ولاستحالت الزراعة على الأرض ، فكل ما في الكون يقطع بوجود الله تبارك وتعالى ويشهد له ، قال تعالى : ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ [النحل / ١٠ - ١١] .

وقد جعل ابن رشد دليل العناية من أشرف الأدلة على وجود الله ، واعتبره دليل الشرع يقول شارحا هذا الدليل : فأما دليل العناية فينبني على أصلين : أحدهما أن جميع الموجودات التي ههنا موافقة لوجود الإنسان . والأصل الثاني أن هذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد ، إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق . فأما كونها موافقة لوجود الإنسان فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الإنسان . وكذلك موافقة الأزمنة



وكقوله : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ... أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون ﴾ .
[الطور / ٢٥ - ٢٦] .

وقد ذكر ابن رشد أن هناك آيات تجمع دلالاتي العناية والاختراع كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ﴾ إلى قوله : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ فإن قوله سبحانه : ﴿ الذي خلقكم والذين من قبلكم ﴾ تنبيه على دلالة الاختراع وقوله : ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً ﴾ تنبيه على دلالة العناية .

أدلة قرآنية متنوعة

إن أدلة وجود الله تعالى كثيرة متنوعة ، يمكن أن تشمل آيات قصار إشارات واضحة إلى براهين على وجوده سبحانه كمثل قوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى ﴾ [الأعلى / ١ - ٢ - ٣] .

فلقد قدمت هذه الآيات أدلة بينة كدليل التسوية ودليل التقدير وهما دليلان يتفرعان عن دليل نظام العالم .

وأما دليل الهداية الذي يندرج تحت برهان العلة الغائية ، وهو دليل ثري ؛ لأنه ما من موجود على ظهر الكون إلا ويسير نحو غاية مسددة وهدف واضح ، يتجلى

الأربعة والمكان الذي هو فيه أيضاً وهو الأرض ، وكذلك تظهر أيضاً موافقة كثير من الحيوان له ، والنبات ، والجماد ، وجزئيات كثيرة مثل الأمطار ، والأنهار ، والبحار ، وبالجملة الأرض ، والماء ، والنار ، والهواء . وكذلك تظهر العناية في أعضاء الإنسان والحيوان أعني كونها موافقة لحياته ووجوده^(٥٦) .

ويستقرىء ابن رشد آيات العناية في القرآن الكريم ويصنفها ، ويفعل مثل ذلك في آيات الاختراع ، ويرى في آيات أنها تجمع دلالة العناية والاختراع معاً .

أما العناية فقد نبه عليها الكتاب العزيز بمثل قوله تعالى : ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ﴾ [الفرقان / ٦١] .

ومثل قوله : ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾ .

[الأنعام / ٩٧] .

ومثل قوله : ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً ﴾ [البقرة / ٢٢] .

وبالنسبة لدليل الاختراع فقد نبه عليه بمثل قوله : ﴿ ألم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾ [الأعراف / ١٨٥] .

آراء في الاستدلال على وجود الله
من القرآن :

نبه علماء الأمة الإسلامية على أهمية
براهين القرآن على وجود الله وفضلوها على
غيرها من بين سائر الأدلة بقول الغزالي :
« إن أدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل
الناس وأدلة المتكلمين والفلاسفة مثل الدواء
ينتفع به آحاد الناس ويستضر به
الأكثر » (٥٧) فلقد شبهها حجة الإسلام
بالطعام المعد لاستهلاك عموم الناس وليس
لفئة دون أخرى .

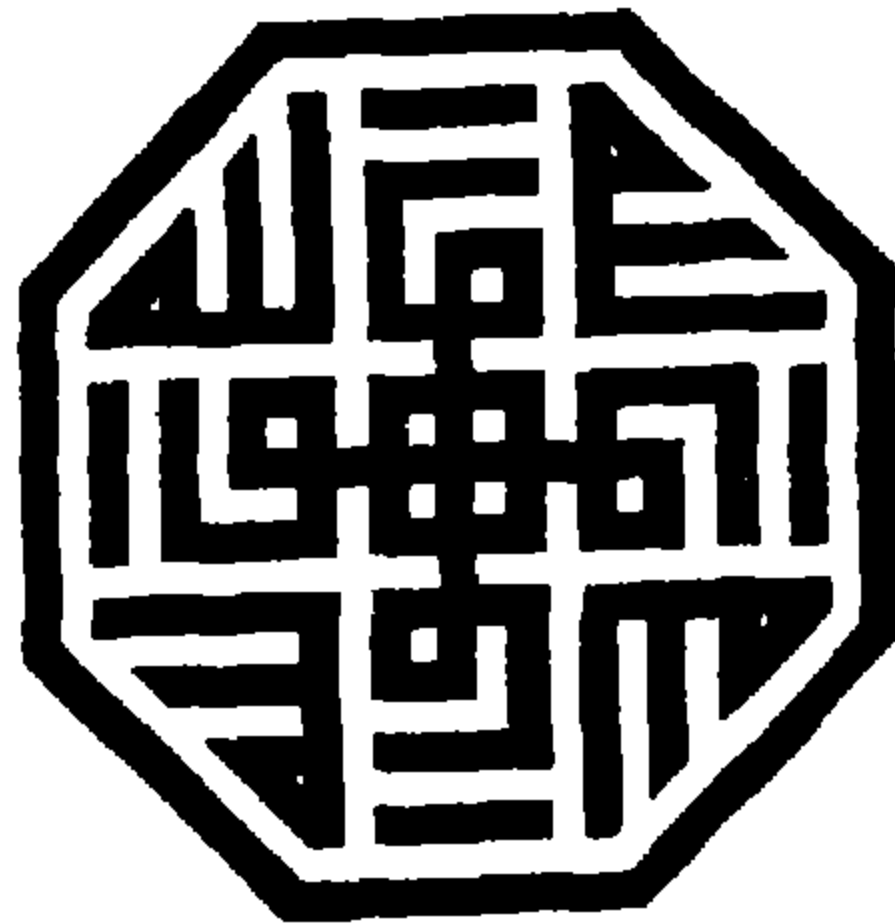
وقال العقاد : « إن البراهين التي جاء بها
القرآن الكريم وخصها بالتوكيد والتقدير
هي أقوى البراهين إقناعاً » (٥٨) .

فالأجدر بنا في هذا العصر العود إلى
منهج القرآن في الاستدلال على وجود الله
والأخذ ببراهينه - غير غافلين عما كشف
عنه العلم الحديث من حقائق توافق آيات
القرآن الكريم - وإبرازها بحكمة في مواطن
الاستدلال .

ذلك في عالم الحيوان ، والنبات ،
والجماد ، فالنحلة رغم صغر حجمها ، فيها
غريب الحكم ، وعجيب التدبير ،
كالادخار ليوم العجز عن كسبها ، وشمها
ما لا يُشم ، ورؤيتها ما لا يُرى ، وحسن
هدايتها ، والتدبير للمكها ، وطاعة سادتها ،
وتقسيم أجناس الأعمال بينها على أقدار
معارف وقوة أبدانها . والنبته من أوحى لها
بالصعود إلى الأعلى في نموها ، ومن همس
لها بالإزهار ، والنضوج في زمن معين .

والصغير ما إن ولدته أمه حتى يلطم
ثديها فمن هداه إلى ذلك ؟ .

هذا الدليل مشاهدة متحركة تنبض
بالحياة ، فإذا أحكمنا رسم هذه اللوحات
بأسلوب علمي دقيق - : أوصلتنا إلى الإيمان
الصحيح .





الهوامش

- (١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ٣ / ٢ .
- (٢) الفقه الأكبر : ص ٦ .
- (٣) الأشعري : رسالة في استحسان الخوض في الكلام ، ص ٥ .
- (٤) ص ١٥٥ .
- (٥) المقدمة : ص ٤٣١ (ط . دار الشعب ، القاهرة) .
- (٦) التفتازاني : شرح العقائد السنية : مكتبة المثنى ص ١٥ .
- (٧) التفتازاني : شرح العقائد السنية : مكتبة المثنى .
- (٨) محمد عبده : رسالة التوحيد ، ص ١٢ .
- (٩) إحصاء العلوم : ص ٧١ .
- (١٠) المتقذ ، ص ٧٦ .
- (١١) المقدمة : ٣٢٠٧ .
- (١٢) المواقف : ٤٢ / ١ .
- (١٣) كشف اصطلاحات الفنون : ٢٢ .
- (١٤) مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة : ٦٢٦ .
- (١٥) رسالة التوحيد : ٤ .
- (١٦) ابن النديم : الفهرست : ٤٧١ - ٤٧٢ .
- (١٧) محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، ج ١ ، ص ١٨٧ .
- (١٨) سير توماس أرنولد : تراث الإسلام ، ص ٣٦٣ .
- (١٩) ابن النديم : الفهرست : ١٨٠ .
- (٢٠) البغدادي : أصول الدين : ١٥٤ .
- (٢١) تأويل مختلف الحديث : ص ٦٠ .
- (٢٢) مقدمة الإسلام يتحدى : ص ١١ - (الطبعة السادسة) .
- (٢٣) ابن رشد : مناهج الأدلة : ص ١٥٢ .
- (٢٤) التمهيد : ٢٠ .
- (٢٥) الإرشاد : ٣٠ .
- (٢٦) الفصل : ٥٠ .
- (٢٧) تهافت الفلاسفة : ٢٠ .
- (٢٨) الإنجي : المواقف ٧ / ٢ .
- (٢٩) الانتصار : ٤٦ .
- (٣٠) التوحيد : ص ١٣ و ١٧ .
- (٣١) ذاته ن . م .

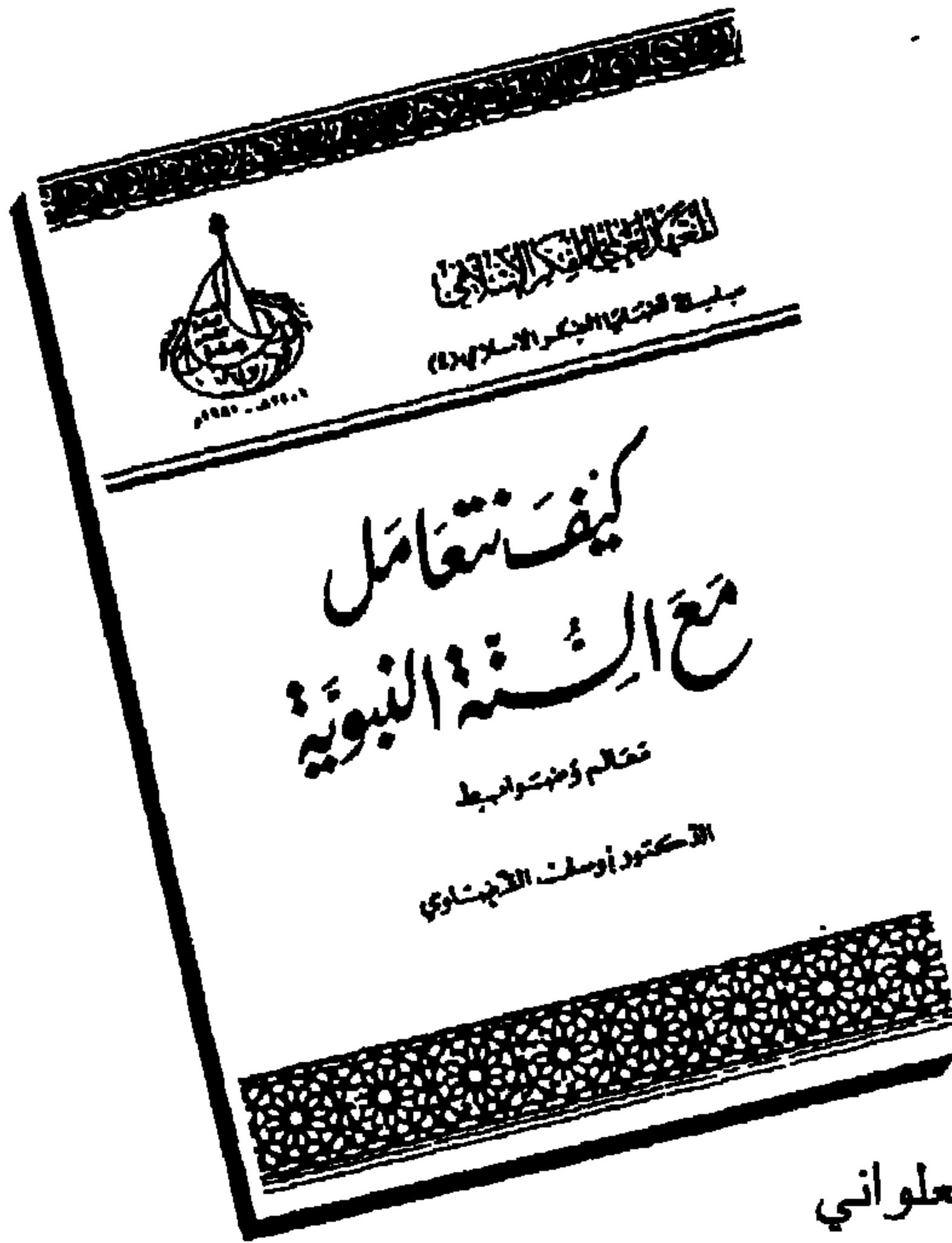
- (٣٢) ص : ٣٥ .
- (٣٣) التوحيد : ص ٩٤ .
- (٣٤) التوحيد : ص ١١ .
- (٣٥) التوحيد : ١ .
- (٣٦) مقدمة مناهج الأدلة لابن رشد : ص ٢٠ .
- (٣٧) كمال الدين البياضي الحنفي : إشارات المرام من عبارات الإمام : ٨٦ .
- (٣٨) الإنجي : المواقف : ٣ / ٣ .
- (٣٩) الإنجي : ٨ .
- (٤٠) رسائل الكندي الفلسفية : تحقيق د . محمد عبد الهادي أبو ريذة ، ص ٢١٥ .
- (٤١) الفارابي : فصوص الحكم : ١٣٩ .
- (٤٢) ابن سينا : الإشارات ج ١ ، ص ٢١٤ .
- (٤٣) ابن سينا : الإشارات ج ١ ، ص ٢١٤ .
- (٤٤) ابن السبكي : طبقات الشافعية ٢٦٠ / ٣ .
- (٤٥) المنقذ من الضلال : ٢٠ .
- (٤٦) زركان : آراء الرازي الكلامية : ص ٩٠ .
- (٤٧) ابن الهمام : المسيرة : ٢٠ .
- (٤٨) العقاد : الله : ٢١٢ .
- (٤٩) ديكرت : التأملات في الفلسفة الأولى : ١٥٥ .
- (٥٠) النسفي : التفسير : ج ١ : ص ١٠٥ .
- (٥١) العقاد : الله : ٢١٤ .
- (٥٢) أبو منصور الماتريدي : كتاب التوحيد : ٢١ .
- (٥٣) ابن رشد : مناهج الأدلة : ٤٥ .
- (٥٤) العلم يدعو إلى الإيمان : ٢٠ .
- (٥٥) ابن رشد : مناهج الأدلة : ١٥٠ .
- (٥٦) ابن رشد : مناهج الأدلة : ١٥١ .
- (٥٧) الغزالي : إلهام العوام عن علم الكلام : ٢٠ .
- (٥٨) العقاد : الله : ٢٣٧ .



المعهد العالمي للفكر الإسلامي

يقدم إلى القارئ الكريم

الكتاب الرابع - في سلسلة قضايا الفكر الإسلامي:



الكتاب القيم

كيف نتعامل مع
السنة النبوية
معالم وضوابط

للدكتور

يوسف القرضاوي

تقديم: الدكتور طه جابر العلواني

كتاب يعتبر دعامة في بناء منهج فهم السنة النبوية..
يعرض لأهم قواعد فهم السنة النبوية المطهرة.. ويعمل على
توجيه الأمة إلى قضايا فهم السنة.. ويجعل دراسات السنة
وفهمها تأخذ مكانها اللائق بها..

يطلب من مكاتب المعهد بجميع أنحاء العالم



دراسة المستقبل برؤية مؤمنة مُسلمة

د. أحمد صدي الدجالي

مفهوم دراسة المستقبل :

ما هو مفهومنا للدراسات المستقبلية ؟
وماذا نعني بدراسة المستقبل ؟

أذكر أن هذين السؤالين برزا أمامي حين عكفت على تأليف كتابي « ماذا بعد حرب رمضان فلسطين والوطن العربي في عالم الغد » أواخر عام ١٣٩٣ هـ . الموافق ١٩٧٣ م ، بعد ثلاث سنوات من العناية بموضوع الدراسات المستقبلية . وقد حاولت الإجابة فقلت : « الدراسات المستقبلية هي امتداد للدراسات التاريخية . فكلتاهما رحلة عبر الزمان الذي ميّز الله سبحانه وتعالى الإنسان عن غيره من مخلوقاته بإدراكه . وهي تتناول بالحديث المستقبل من خلال النظر في الحاضر

والماضي . ودراسة المستقبل من ثمّ ليست تنبؤاً يقوم على الرجم بالغيب ، وإنما هي محاولة علمية تتكامل فيها الدراسات لمعرفة جوانب صورة الحاضر وتحليلها والتعرف على مجرى الحركة التاريخية من خلال دراسة الماضي وملاحظة سنن الكون ، والانطلاق من ذلك كله إلى استشراف المستقبل وتشوفه وصولاً إلى طرح رؤية له . وتتضمن هذه الرؤية توقعات يحتمل حدوثها كاستمرار للحركة التي تحكم الواقع القائم ، وبدائل وخيارات وأحلاماً يجري التطلع لتحقيقها بممارسة الفعل . فلا يغيب عن البال في هذا الطرح دور إرادة الفعل عن الإنسان والمجتمع الإنساني في الاختيار وصنع المستقبل وترجيح بديل على

آخر . كما لا يغيب عن البال أيضاً دور الحلم عند الإنسان والمثل الأعلى عند المجتمع الإنساني في صنع إرادة الفعل هذه ، ومن ثم توفير القدرة على الفعل . فهذا الإنسان قادر على أن يكون فاعلاً في الأحداث ومؤثراً على تيارها المتدفق .

لاحظت يومذاك أيضاً أن دراسة المستقبل هي تعبير عن حاجة أصيلة في الاجتماع الإنساني وقلت : « إن الحاجة إلى استشراف آفاق المستقبل واستشفاف كنه ما سيأتي هي حاجة إنسانية تلح في فترات معينة أمام بروز سؤال ماذا بعد ؟ وتدعو إلى محاولة الإجابة عنه » . وبدا لي أن لدراسة المستقبل هدفاً هو « توظيف المعرفة للفعل والتأثير ، وتحديد ما ينبغي أن يكون بعد توقع ما سيكون بحيث يمكن بالفكر والإرادة والقدرة أن تحكم الأحلام التوقعات » .

أجد نفسي اليوم من خلال اشتغالي بالدراسات المستقبلية لسنين طويلة أشد مقتنعاً بهدف دراسة المستقبل هذا . وقد استوقفني مؤخراً وأنا أعاود قراءة كليلة ودمنة الذي نقله للعربية ابن المقفع ما جاء على لسان دمنة وهو يخاطب كليلة ، وكلاهما من أبناء آوى ذوي دهاء وعلم وأدب ، قائلاً « فإن أموراً ثلاثة العاقل جدير بالنظر فيها والاحتياط لها بجهد . منها النظر فيما مضى من الضر والنفع ، أن يحترس من الضر الذي أصابه فيما سلف

لئلا يعود إلى ذلك الضر ، ويلتمس النفع الذي مضى ويحتال لمعاودته ومنها النظر فيما هو مقيم فيه من المنافع والمضار ، الاستيثاق مما ينفع والهرب مما يضر . ومنها النظر في مستقبل ما يرجو من قبل النفع ، وما يخاف من قبل الضر ليستتم ما يرجو ويتوقى ما يخاف بجهد » . فنحن هنا أمام رجاء النفع وتوقى الضر ببذل الجهد . ونحن هنا أمام نظر في المستقبل من خلال النظر في الماضي والحاضر المقيم . تتوقفني أيضاً قول دمنة للأسد : « وأعجز الملوك آخذهم بالهويناء ، وأقلهم نظراً في مستقبل الأمور » . وتداعى إلى خاطري ما أكدته ألفين توفلر من أن دراسة المستقبل تجعلنا أقدر على فهم مشاكلنا الراهنة وتلمس حلول ناجحة لها حين قال في كتابه الأول : « صدمة المستقبل » : « في الماضي درس الرجال التاريخ الماضي ليسلطوا الأضواء على الحاضر . ولقد قمت بتدوير مرآة الزمان متوقفاً أن صورة المستقبل تستطيع إمدادنا بنظرات قيمة عن حاضرننا . وسنجد في أيامنا القادمة أن الصعوبة في فهم مشاكلنا الخاصة والعامة تزداد أماننا إذا لم نستفد في معالجتها من رؤية المستقبل » . وقد دعاني التأمل في هذا الحديث إلى أن أكتب في كتابي « ماذا بعد حرب رمضان » : إذا كان الفيلسوف الألماني فون بابل قال بحق : « إن الذي يعرف من أين يعرف إلى أين » ، فإن الذي

يتشوف غده يدرك إدراكاً جيداً أين يقف اليوم . وهذا الإدراك يجعل الإنسان أشد ثقة بقدرته على معالجة مشاكله : « فكلما زادت القدرة على حساب المستقبل ورؤيته على أسس صحيحة في صدر الوقائع . وفي استدلال النتائج » - كما قال زكي نجيب محمود في كتابه « مجتمع جديد أو الكارثة » - « نقصت الأوهام والخاوف » . وقد أوضح هذا المفكر أن الإسلام الذي يدعو الناس ألا يركنوا في حياتهم إلى تشاؤم أو تفاؤل يدعوهم إلى حساب المستقبل حساباً علمياً ليعرفوه قبل وقوعه . فنحن هنا أمام دعوة لإعمال الفكر فيما ينبغي عمله لصالح أمورنا . ويؤكد زميلنا المهدي المنجرة على هذه الدعوة وهو يتحدث عن أهمية الدراسات الاستقبلية ، ويستحضر قول الله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ ليقول : « إن الإسلام كدين ودنيا هو قبل كل شيء نظرة نحو الأفق بالنسبة لمسائل هذه الدنيا وما بعدها . ذلك أن على هذه النظرة تتوقف الأعمال التي نحن مسئولون عنها أمام أنفسنا وأمام المجتمع وأمام الله » ، ثم ليشدد على تجنب الرؤية القدرية التي لا يتحكم فيها الإنسان ولا المجتمع في مصيره .

للدراستات التاريخية وهي من ثم تتطلب ما يتطلبه علم التاريخ من « نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق » . وهذا تعريف شيخنا ابن خلدون لعلم التاريخ في باطنه . ثم هي تتطلب فضلاً عن ذلك تشوّفاً . وقد تحدث ابن خلدون في مقدمته عن « تشوف الأمور المستقبلية » بعد أن وصف الإنسان بأنه « صاحب الفكر والروية » . والحق أن الدراسة المستقبلية لا يمكن أن تتم إلا بالدراسة التاريخية فركن التاريخ هو أحد أركان ثلاثة فيها ، فيتكامل مع ركن الحاضر المقيم وركن التشوف المستقبلي . وقد ألحت عليّ وأنا أكتب « ماذا بعد ... » فكرة أننا حين ندرس التاريخ نأخذ في اعتبارنا قدرة الإنسان على التذكر ، وحين ندرس المستقبل نأخذ في الاعتبار قدرته على الحلم ؛ وبهاتين الخاصتين التذكرو والحلم ميّز الله الإنسان عن غيره من مخلوقاته وكرم بني آدم . وكما أسعدني مؤخراً أن أطلع في نهاية الأرب للنويري وفي الكشكول للعامل حديثاً عن العوالم الثلاثة لدى الإنسان : عالم التذكر وعالم الفكر وعالم التخيل ، وهذه العوالم الثلاثة ضرورية لدراسة المستقبل ، وكل منها شرط لازم . وواضح أن « تشوف الأمور المستقبلية » الذي تتجاوز به دراسة المستقبل الدراسة التاريخية يتطلب ولوج عالم التخيل الثالث والتعامل مع عنصر الحلم وما يتضمنه من أحلام وآمال وتطلعات

أجد نفسي اليوم أيضاً راسخ الاقتناع بأن الدراسات المستقبلية هي امتداد



ورجاء . وقد توقفت طويلاً أمام هذا العنصر مرة أخرى إبان الأزمة التي عشناها في وطننا وعالمنا منذ الصيف الماضي وتأملت في سورة الشرح : اليسرين والعسر وانشراح الصدر والنصب والرغب إلى الله ، وفي عدد من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حول الأمل . وألح عليّ قول الطغرائي في لامية العجم « ما أضيّق العيش لولا فسحة الأمل » . وتعريف أريك فروم للإنسان بأنه هو الذي يُؤمِّل ويأمل في كتابه « ثورة الأمل .. نحو أنسنة التقنية » الذي درس فيه المجتمع التقني وإمكانات جعله إنسانياً .

تاريخ الدراسات المستقبلية الحديثة :

يرز عند هذا الحد من الحديث سؤال عن تاريخ هذه الدراسات المستقبلية بمفهومها الذي حددناه لها : متى بدأت ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ .

يطيب لأكثر المشتغلين بالدراسة المستقبلية وفق هذا المفهوم أن يتحدثوا عن حداثة هذه الدراسات ، فهي عند بعضهم لم تظهر إلا في أعقاب الحرب العالمية الثانية أي : أنها ابنة عالمنا المعاصر . وقد يعود بها بعض آخر إلى بداية القرن العشرين الميلادي فهي ابنته ، ويرى هؤلاء في كتابات الروائي الفرنسي جول فيرن التخيلية أواخر القرن الماضي إشارات للحلم بهذه الدراسات . ومن أصحاب الرأي الأول زميلنا المهدي

المنجرة الذي يقول : « إن الدراسات الاستقبلية تعد ظاهرة حديثة النشأة تعود إلى نهاية الحرب العالمية الثانية ، وأول من باشرها مؤسسة راند بناء على طلب البنتاجون في عام ١٩٤٦ ، ولم تشهد انطلاقها الحقيقية إلا مع نهاية الستينات » . وقد تتبع زكي نجيب محمود في مقاله « المستقبل المحسوب » بدايات الاهتمام بهذه الدراسات منذ مطلع القرن العشرين . وتحدث قسطنطين زريق في كتابه « نحن والمستقبل » عن هذا النمط العلمي الريادي المعاصر في الاهتمام المستقبلي الذي يتميز بصفته العلمية وبتمسكه بالمنطق الاختياري وبأنه جهد جماعي فرآه ينتسب إلى عالمنا المعاصر .

واضح أن ظهور الدراسة المستقبلية بمعناها الحديث وثيق الصلة بثورة العلم التقني التي تفجرت في عالمنا المعاصر هذا ، وأثمرت ثورة في الاتصال وثورة في المعلومات ، وأحدثت تحولات وتحولات . وقد أورد هوج ستيوارت في كتابه « تذكّر المستقبل » تسعة تحولات تحدث عنها جون نيببست عام ١٩٨٢ وسماها توجهات عظمى « تحول من مجتمع صناعي إلى مجتمع معلوماتي ، انتقال من انقياد للتقنية إلى استجابة إنسانية لها ، انتقال من ضيق الاقتصاد القومي إلى شمول الاقتصاد العالمي ، تحول من المركزية إلى اللامركزية ، تزايد الاعتماد على الذات في

مقابل الاعتماد على المؤسسات ، التحول من ديمقراطية الإنابة إلى ديمقراطية المشاركة ، تحول من نظام هرمي إلى نظام شبكي ، انتقال من مناطق صناعية إلى مجتمعات جديدة ، تحول من مجتمع خيارات محدودة إلى خيارات عديدة . ولما كانت ثورة العلم التقني قد تفجرت في الغرب فإن ظهور الدراسة المستقبلية بمعناها الحديث بدأ هناك . وقد أولتها عناية خاصة المؤسسات العسكرية والشركات متعددة الجنسيات . عبارة القارات . وهكذا بدت الصلة وثيقة بين الدراسات المستقبلية والدراسات الاستراتيجية .

كان طبيعياً أن يجري بحث عن اسم يطلق على هذه الدراسة المستقبلية التي ظهرت بمعناها الحديث ، وأن يجتهد المشتغلون بها فيطلقون عليها هذا الاسم أو ذاك ؛ وهكذا ظهر اسم « المستقبلية » ولم يلبث جاستون بيرجر الفرنسي أن سماها عام ١٩٦٠ « علم الريادة » . ثم استخدم أوسيب فليشتم الألماني عام ١٩٦٦ اسم « علم المستقبل » في كتابه « علم التاريخ وعلم المستقبل » . وهناك من سماها « علم حساب المستقبل » .

هل « دراسة المستقبل » « علم » ؟؟

يلفت النظر في هذه التسميات حرصها على استخدام مصطلح « علم » بمفهومه الغربي الحديث الأمر الذي ينم عن رغبة

مطلقها في تأكيد « علمية » هذه الدراسة المستقبلية وتمييزها عن أنماط أخرى من الاهتمام المستقبلي عرفتها الإنسانية في تاريخها المتصل عبرت عن نفسها في صور من التنبؤ . وقد أثار هذا الحرص على استخدام مصطلح علم التساؤل : هل هذه الدراسة المستقبلية هي حقاً وفق المفهوم الحديث لهذا المصطلح ، الذي يركز على التجربة والاختيار ؟ هل هي علم كعلم التاريخ وفق المفهوم الذي طرحه ابن خلدون ؟

يجمع المشتغلون بالدراسة المستقبلية على أنها اجتهاد علمي منظم يرمي إلى صوغ مجموعة من « التنبؤات المشروطة » تشمل المعالم الرئيسية لأوضاع مجتمع أو مجتمعات عبر فترة عقدين أو أكثر ، وتنطلق من بعض الافتراضات الخاصة حول الحاضر والماضي لاستكشاف أثر دخول عناصر مستقبلية على المجتمع أو المجتمعات . وقد سماها البعض نمطاً علمياً في التنبؤ يعتمد « الحساب » أو أكد الجميع على أنها تخضع لشروط تنأى بها عن أن تكون عملاً خيالياً طوباوياً . ولكن التأمل في هذا التحديد للدراسة المستقبلية يلاحظ وجود حذر من اعتبارها علماً تجريبياً اختبارياً مع حرصها على اعتماد المنطق الاختباري ؛ لأنها تتطلب في نهاية المطاف « رؤية » تتبلور، يكون للفتنة والحدس دور في بلورتها وتقوم على اعتماد « النظرة الشاملة » . وقد أثر ألفين توفلر أن يصفها مؤخراً بعد سنوات طويلة

من الاشتغال فيها بأنها « فن وليست شكلاً هندسياً » ، وقال بعد أن شرح طريقته فيها وهو يجيب عن أسئلة كثيرة في كتابه « خرائط المستقبل » : « وليأت العلم لمساعدة الفن » .

لم يتحدث ابن خلدون عن علم المستقبل وإنما أشار إلى تشوف الأمور المستقبلية . وقد بحث في مقدمته في علوم تعاملت مع المستقبل بأنماط مختلفة ضمن الباب السادس الذي جعله في ستين فصلاً « في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه » ، فنظر في علم التصوف ومراتب التجليات وعلم تعبير الرؤيا وعلم السحر والطلسمات وعلم أسرار الحروف « السيميا » الزايرة ، وفي إبطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها . كما ضمن الباب الأول الخاص بال عمران البشري مقدمةً سادسة في أصناف المدركين للغيب من البشر ، فتحدث في تفسير حقيقة النبوة والوحي والكهانة والرؤيا والإخبار بالمغيبات وانتهى من ذلك كله إلى قوله : « وأما الكائنات المستقبلية إذا لم تعلم أسباب وقوعها ولا يثبت لها خير صادق فهو غيب لا يمكن معرفته .. ولا سبيل إلى معرفة ذلك من هذه الأعمال بل البشر محجوبون عنه ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ . ووضح أن ابن خلدون حين أطلق مصطلح علم على السحر والزايرة وأمثالهما كان ينطق من تعريف العلم بأنه « كل ما علم

فهو علم » كما أورد ابن حزم في رسالته « مراتب العلوم » . ولكنه اعتمد في الوقت نفسه تعريف « حد العلم » عند علمائنا بأنه « الاستيقان والتبين » ، كما أوردته التمرى القرطبي في كتابه « بيان جامع أحكام العلم » ، ليميز بين ما هو واقع يمكن معرفته وما هو غيب لا يمكن معرفته .

أذكر أنني حين بدأت الاشتغال بالدراسة المستقبلية ، تجنبت استخدام مصطلح علم المستقبل ، واستخدمت الدراسة المستقبلية . ولم ألبث أن استخدمت مصطلحات أربعة في إطارها هي الاستشراف والتشوف والرؤية وصولاً إلى الصنع ، وشرحت مدلول كل منها . وقد جرى مؤخراً استخدام المصطلح الأول « الاستشراف » للدلالة على الدراسة المستقبلية في بعض الأوساط العربية المشتغلة بها ، فرأيناه في كتاب صور المستقبل العربي لإسماعيل صبري عبد الله وآخرين وفي مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي الذي قام به مركز دراسات الوحدة العربية . وأجد نفسي اليوم مطمئناً إلى مصطلح الدراسة المستقبلية وإلى مصطلحات الاستشراف والتشوف والرؤية والصنع ، وأتجنب في الوقت نفسه مصطلح علم المستقبل آخذاً بعين الاعتبار حد العلم عند علمائنا الذي هو « الاستيقان والتبين » ، وقد حسم زميلنا المهدي المنجرة في إجابته عن التساؤل بقوله :

« ليست الدراسات الاستقبلية بعلم ، وإن استعانت منهجياتها ببعض العلوم الدقيقة والاجتماعية » وذلك في بحثه الذي قدمه عنها لدوة قضايا المستقبل الإسلامي (الجزائر ٤ - ٥/٧/١٩٩٠ م) . ويمكن القول بعد هذا الحديث : إن الدراسة المستقبلية وإن لم تكن علماً بمفهوم العلم التجريبي فإنها تحاول اعتماد مناهج علمية تنأى بها عن التنبؤ رجماً بالغيب بأنماطه المختلفة ، وبقدر ما تتوافر العلمية في هذه المناهج بقدر ما يتحقق مفهوم « الدراسة » الوارد في هذا المصطلح ؛ الأمر الذي يصل بنا إلى الحديث عن المنهج أو المناهج .

مناهج دراسة المستقبل :

يتحدث المشتغلون بالدراسة المستقبلية عن عدة مناهج جرى اتباعها في الدراسات المستقبلية التي ظهرت في عالمنا . وقد حرصت دراسة استشراف مستقبل الوطن العربي في القسم الأول منها على تصنيف هذه المناهج ، فهناك منهج إصدار نبوءات يقوم على انتقاء بعض المتغيرات التي يعتقد بوجود أهمية خاصة لها ، وتتبع مساراتها ، كالتغير السكاني مثلاً أو متغير الموارد بفعل استنزافها وقد تركزت عملية نقده على أنه يعتبر المستقبل قدراً محتوماً تحدد سلفاً . وهناك منهج إجراء تنبؤات هي أساس بناء قاعدة صلبة من المقدمات تبنى عليها نتائج يجري استخلاصها منها ؛ ويعاب عليه أنه يغرق في أرقام قد تكون غير دقيقة ، وأنه

ينتقد النظرة المجتمعية التي تلاحظ ما يقوم في المجتمع وشائج . وهناك منهج التخطيط للمستقبل الذي يضع نصب عينه هدفاً محدداً مرغوباً فيه يحدد اتجاه الدراسة ؛ ويرى ناقده أنه يجعل الدراسة تخطيطية أكثر من كونها مستقبلية . وهناك منهج الاستعانة بالدراسات « المستقبلات » التي تركز على ما تشهده التقنية من تقدم ، ولا تلتزم بمنهج محدد فتأتي مفتقدة الشمولية المطلوبة . وهناك أخيراً منهج التحليل المستقبلي الاستشرافي ، وهو منهج مركب « لا يسعى إلى تنبؤ أو تخطيط ، بل يقوم بإجراء مجموعة من التنبؤات المشروطة أو المشاهد التي تفترض الواقع تارة والمأمول فيه تارة أخرى .. دون أن تنتهي إلى قرار بتحقيق أي من هذه الصور فهذا أمر يدخل في حيز التخطيط . والقصد هو اطلاع القوى الفاعلة في المجتمع على متطلبات تحقيق إحدى الصور المأمول فيها » . وقد اختار المركز هذا المنهج الاستشرافي لدراسته التي صدرت بعنوان « مستقبل الأمة العربية التحديات .. والخيارات » . وجاءت هذه الدراسة معتمدة أربعة محاور وطرح نتائجها في ثلاثة مشاهد مستقبلية بديلة تغطي فترة ربع قرن هي المدى الزمني للدراسة بين عامي ١٩٩٠ و ٢٠١٥ .

وتحدثت بمقدمتها عن خمس خصائص لهذا المنهج الاستشرافي هي الشمولية ، وتجنب



التحيز ، والجمع بين الأسلوبين الكمي وغير الكمي ، والترابط بين الإنسان ، واستخدام أسلوب المحاكاة .

يؤكد المشتغلون بالدراسة المستقبلية على ضرورة أن يكون المدى الزمني للدراسة محدداً في نطاق المستقبل القريب . فإذا تجاوز هذه الحدود يخشى أن يفقد القدرة على الاستدلال كما يقول زكي نجيب محمود . وهكذا « لا نجدنا كثيراً عندما نعلم إلى تكوين صور المستقبل أن نتوغل في مجاهل المستقبل البعيد .. وإنما المجدي أن نقصر على المستقبل القريب المحدد بوضعة عقود من السنين » كما يقول قسطنطين زريق في كتابه « مطالب المستقبل العربي » . وقد حدد مؤلفو « صور المستقبل العربي » المدى الزمني لدراستهم المستقبلية بعقدين من السنين . وهذا شأن كثير من الدراسات المستقبلية التي ظهرت في أنحاء مختلفة من عالمنا منذ السبعينات وتراوح مداها الزمني بين عقدين وثلاثة وهناك دراسات مستقبلية اعتمدت العقد الواحد من السنين مدى زمنياً لها ملبية نزوعاً إنسانياً لاستشراف المستقبل في مطلع كل عقد جديد من السنين ندخله حسب التقويم . وأجد نفسي قد لبيت هذا النزوع في كتابي « رؤى مستقبلية عربية » بينما امتد استشرافي في كتاب « ماذا بعد » لثلاثة عقود .

لقد تحدث مؤلفو « صور المستقبل

العربي » عن أربعة أساليب تتعلق بالمنهج الذي ساروا عليه : أسلوب حدسي مبني على الخبرة ، وآخر استكشافي يستطلع علاقات قامت في الماضي ، وثالث استهدافي يستوجب معياراً وتدخلًا لتغيير المسار ، ورابع نماذجي يهتم بمجمل التغيرات والتفاعلات . واستبعد هؤلاء من منهجهم التخطيط طويل المدى والتنبؤات . والحق أن مباشرة الدراسات المستقبلية تتطلب خبرة متراكمة تثمر حدساً يمكن القائمين بها من إحسان مقاربتها ، كما تتطلب قدرة على استخلاص عصارة الماضي في صغده المختلفة وتحديد مجرى الحركة التاريخية ، وهي تتطلب وعياً بأحلام الاجتماع الإنساني ، كما تتطلب فكراً يعتمد النظرة الشاملة ويتقن التركيب . والسؤال الذي يبرز عند هذا الحد هو : « من أين يكون البدء في الدراسة المستقبلية ؟ » .

يحدد قسطنطين زريق طريقتين لتكوين صورة المستقبل الأولى « هي البدء من الحاضر ومحاولة استكشاف اتجاهاته . وإسقاط هذه الاتجاهات على المستقبل لاستخلاص صورته » ، والأخرى « هي البدء بتحديد الأهداف والتطلعات ثم صياغتها إطاراً ضابطاً للتوجيهات المستقبلية فكراً وعملاً » ، وهو يفضل الأولى التي يقول عنها إنها : « هي الطريقة التي يتبعها اليوم غالب المهتمين ببحث المستقبل أو بعلم المستقبل . وهي ترمي إلى استجلاء ما

يبدو أنه سيكون على درجات مختلفة من الإمكان أو الترجيح ولا نقول الثبوت ؛ لأن المستقبل هو بطبيعته ميدان الاحتمال . أما الأخرى « فهي عرضة للتيهان الوهمي أو التفكير الرغبي أو النزوع الوعظي ما لم تبق شديدة الأواصر بالحاضر متفاعلة وإياه تفاعلاً مستمراً » ، وهذا ما يجعل الاستطلاعيين العلميين يعزفون عنها عادة . وقد رأى زريق في النمط العلمي الريادي المعاصر من الاهتمام المستقبلي نزعة استطلاع فيها من ذلك النمط البدائي من الاهتمام المستقبلي ، ونزعة إيمان فيها من النمط العقيدي من الاهتمام المستقبلي ، ونزعة تخيل فيها من النمط التنبؤي التخيلي الطوباوي المثالي من الاهتمام المستقبلي ، ولكنه يتميز كما سبق أن ذكرنا بصفته العلمية وبتمسكه بالمنطق الاختباري وبحاجته إلى عمل الفريق الذي يوفر مجمع فكر متعدد فيه اختصاصات العاملين ويكون ملتصقاً بالواقع . ويأتي هذا النمط في صورة احتمالات ، وعنصر التخيل أصيل فيه .

هذه البداية من الحاضر هي البداية التي نختارها للشروع في الدراسة المستقبلية ، ونصّب أعيننا تحليل الواقع القائم على مختلف صعدته ونجميع أبعاده . فالدراسة المستقبلية تستند إلى أرضية هذا الواقع القائم الصلبة ، وهي تنأى بنفسها عن مجرد التنبؤ رجماً بالغيب . وقد أوضح توفلر هذا الأمر قائلاً في كتابه « خرائط المستقبل » : المستقبليون

الجادون بصورة عامة لا يدعون أبداً بأنهم يقومون بمهنة التنبؤ . وهم يخصصون وقتهم لتشريح الحاضر والإيحاء بتوجيهات لمتخذي القرارات وتوضيح المخاطر ونتائج القرارات التي بدون ذلك تمر ولا يلحظها أحد . وهم مثل كل إنسان عاقل مدرك يعرفون ما الذي لا يعرفونه وما لا تمكن معرفته .. ومن النادر أن يتنبأوا . فنحن « حقيقة بعيدون جداً عن وسيط الوحي في دلفي » مشيراً من واقع ثقافته الغربية إلى معبد دلفي الشهير - في التاريخ الإغريقي - بعراقه .

لعل من أهم ما ينبغي الحرص عليه عند البداية في الدراسة المستقبلية هو النظرة الشاملة للواقع القائم ؛ فالشمولية هي أولى خصائص الاستشراف ، وهي تقتضي منظوراً كونياً . وقد أوضح توفلر أنه كتب كتابه « صدمة المستقبل » ، و« الموجة الثالثة » ضمن منظور كوني يتجاوز الوطنية والمحلية والإقليمية ، « وكانت أبحاث التوثيق والأمثلة المتقاة تفسر كلها في هذا الاتجاه » . وهذا المنظور الكوني قديم في حضارتنا العربية الإسلامية وقد اعتمدته علم التاريخ والمؤرخون فيها سواء حين كتبوا التاريخ العام أو حين بدأوا به لينتهوا إلى تاريخ زمن محدد أو مكان محدد . وأذكر أنني حرصت على هذا المنظور في كتابي « ماذا بعد ؟ » فبدأت حديث المستقبل برؤية للعالم المحيط .

جين « البنية المبذرة » . وإن لنا أن نقف في هذا الحديث أمام التحليل ، والأدوات ، والموقف الرئسي ، والملاحظة المباشرة دون وسيط ، واستخدام الفطنة والحدس ، ومجموعة الحقائق التي يجب أخذها في الاعتبار ، لنذكر كم تبدو الدراسة المستقبلية عملية تحليلية تركيبيّة .

لقد أوضح توفلر في نموذج ما أسماه « الموجة الثالثة » أن في كل حضارة ستة أفلاك تقنية واجتماعية ومعلوماتية وبيولوجية وسلطوية ونفسية تمثل عناصرها البنيوية وطرح نظرية الموجة بدل نظرية المراحل في رؤية التاريخ .. أي : فهم مجتمعات بأكملها ضمن حركيتها ؛ لأن الصراعات ذات الطابع العرقي والطابع الطبقي لا تكفي لتحليل مجتمع ما . كما أوضح أن لكل حضارة عقيدة عليا فوقية ، وأن هناك مبادئ ينبغي أخذها في الاعتبار ، فالصراع يحكم الكون وعنصر الصدفة موجود ولل فرد دوره في التاريخ .

مقاربة المستقبل برؤية مؤمنة :

إن الحديث في الدراسة المستقبلية عن مبادئ ينبغي أخذها في الاعتبار فيها :- يدعونا إلى أن نطرح نحن المسلمين المؤمنين بمبادئ الإسلام تصورنا لهذه الدراسة المستقبلية ، ومقاربتنا لها برؤية مؤمنة ، وفي اعتبارنا أن البحث العلمي لا بد من أن ينطلق من رؤية تحكمه فهناك كما يقول

آن لنا وقد استعرضنا بإيجاز مناهج اتبعت في الدراسة المستقبلية أن نتعرف على منهج ألفين توفلر كما شرحه بنفسه ، فهو يقول عن منهجه : « إعطاء قيمة كبيرة للتحليل المنهجي والكمي للتغيير الاجتماعي الاقتصادي والاستعانة بالحد الأقصى من الأدوات الكمية والنماذج المنهجية والناظمت الآلية مع اتخاذ موقف رئسي حيال نتائجها ؛ فهي تحمل لمحات بنائية وتوضح روابط واتجاهات ، ولكنها لا تحمل الحقيقة بسبب انتفاخها بالأرقام .. ولا بد من الملاحظة المباشرة دون وسيط . فالمستقبلية فن وليست شكلاً هندسياً .. وليأت العلم لمساعدة الفن ثم استخدام الفطنة والحدس في بناء نماذج (بعد خمس سنوات من القراءة النهمة) عمل فكري داخلي معقد جداً حتى يصل إلى مرحلة الإنشاء المكتوب » . وهو يأخذ في الاعتبار ترابط الأحداث الاجتماعية مع بعضها ، وأن التاريخ لا تحكمه قوة واحدة بل تلاقي قوى واتجاهات منها تشتق التغيرات الكبرى ، وأن الحوادث تقع وتشهد عند وقوعها تموجاً داخلياً يتزامن مع تموج خارجي ، وأن كل ظاهرة وكل نظام يملك الأنظمة الفرعية الخاصة به ، وأن كل ظاهرة تنتمي إلى بيئة خارجية هي موضوع تموجات داخلية بدورها ، وأن انفجار بنية جديدة بفعل تموج أو أكثر يقود إلى تشكيل بنية أكثر تعقيداً . وهذا ما يسميه بريفو

محمود شاكر في كتابه « رسالة في الطريق إلى ثقافتنا » : « ما هو قبل المنهج سابق عليه » . وإذا كان النمط العلمي الريادي كما أسماه قسطنطين زريق في الاهتمام المستقبلي فيه نزعة إيمان لا يمكن أن يقوم بدونها ، فهذه النزعة توفر نظرة شاملة إلى الكون والحياة تنسحب على الماضي والحاضر والمستقبل ، وتختلف هذه النظرة من دين لآخر وبين فلسفة وأخرى في رؤيتها لجوهر الكيان الكوني والإنساني وما يتصل به من مادة وفكر وروح ، وفي تصورهما لشكل التغير التاريخي وهل هو في خط مستمر أو في خط دائري ، وفي موقفها من الجبر والاختيار . ومتوقع أن يكون لهذه النظرة أثرها النظري على مقارنة الدراسة المستقبلية وفعلها العملي في صنع المستقبل بعد استشرافه وتشوفه ورؤيته . والفارق بين الموقف الذي يقفه مثلاً هوج ستوارت في كتابه تذكر المستقبل حين يستهل حديثه قائلاً : « إن الإنسان هو لعبة القدر ومحركه في الوقت ذاته ، وكذلك خلفية ألفين توفلر حين يشير إلى وسيط الوحي في معبد دلفي ، وبين موقف المسلم الذي يقول في صلاة الاستخارة داعياً : « اللهم أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم أن تبين لي عاقبة أمري » ، وخلفيته التي تؤمن بأن الله وحده هو عالم الغيب .

تتميز مقارنة الدراسة المستقبلية برؤية

مؤمنة مسلمة يبعدها الروحي وأساسها الإسلامي العقيدتي ؛ فهذا الأساس يحث بدايةً على الاهتمام بدراسة المستقبل ، والالتفات إلى الزمن . وأذكر أنني حين توجهت لهذه الدراسة وقفت طويلاً متأملاً في سورة العصر التي تبدأ بالقسم الإلهي به لفتاً لأهميته ثم تتحدث عن الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر . وقد لفت نظري أن التربية القرآنية لأبد أن تثمر اهتماماً بالدراسة التاريخية والدراسة المستقبلية ؛ فالقرآن الكريم يقص علينا من قصص الأولين ويدعو أولى الألباب للوقوف أمام عبرتها ، وقد جاء ختم سورة يوسف بالآية الكريمة : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ . ونزول الوحي بسورة الروم في العهد المكي بمناسبة حرب نشبت بين الروم والفرس فيه تربية للجماعة المؤمنة على العناية بمجريات الأحداث في دائرتها الواسعة ضمن العالم المحيط بها ، وعلى استشراف المستقبل وتشوفه : ﴿ ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين الله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾ ، وإن لنا أن نتأمل في القبلية والبعدية ، وقد قال الله سبحانه في سورة فصلت :



﴿سُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ ، وهو وعد برؤية مستقبلية . وتتردد في القرآن الكريم كلمات « الدهر » و« الغد » و« الحين » و« الوقت » و« قبل » و« بعد » وجميعها تدعو إلى الالتفات للرسم والاهتمام المستقبلي ؛ كما تتردد كلمات « البصر » و« البصيرة » و« رأى » و« الرؤيا » و« الحلم » وهي تدعو إلى النظر في ما هو قادم مقبل . وكثيرة هي الأحاديث الشريفة التي توحى بأهمية النظرة المستقبلية والرؤية المستقبلية ، ويكفي أن نستحضر كمثال عليها حديثه صلى الله عليه وسلم لأصحابه - بعد أن تعرضوا لأذى الكفار وسألوه ألا يدعوا لهم ويستنصر - الذي ضمنه عبرة تاريخ الأولين من المؤمنين وختمه بقوله : « والله ليؤمن الله هذا الأمر حتى تسير الراعية من صنعاء إلى حضرموت لا تخشى إلا الله والذئب على غنمها ، ولكنكم تستعجلون » . وحديثه صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوم الخندق وهو يضرب بالفأس الصخرة أثناء الحفر فيرى من خلال الشرارة ملك فارس وملك الروم وربوع اليمن .

الأساس العقيدي :

إن هذا الأساس العقيدي للرؤية المؤمنة يلفت النظر إلى السنن التي تحكم الكون والحياة والإنسان ومجرى الحركة التاريخية .

وقد تحدث القرآن الكريم عن سنة الأولين ، وسنة من قد أرسلنا ، وسنة الله ، وسنن من قبلنا ؛ الأمر الذي يؤدي إلى توفير وعي عميق بها وإدراك نافذ لها من خلال التفكير فيها . ويرفض هذا الأساس العقيدي في الوقت نفسه التنبؤ رجماً بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه ، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « ليست بنبيء الله ولكن نبي الله » و« فرق بين النبوة التي هي من الرفعة والارتفاع وسفارة بين الله وذوي العقول من عباده ، والنبىء من التنبؤ والاستنباء . وإن التأمل في قضية سيدنا يوسف عليه السلام مع ملك مصر بعد أن أول رؤياه يجد فيها دراسة مستقبلية ﴿وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ . والحفظ مطلوب فيها وكذلك العلم . وقد استطاع يوسف أن يوظف الرؤية المستقبلية في معالجة أوضاع البلاد التي تعرضت للرخاء والقحط .

لقد استقر بفعل هذا الأساس العقيدي في تراثنا الحضاري العربي الإسلامي تقدير خاص لأصحاب البصر والبصيرة ذوي النظر النافذ ، عبر عنه المقرئ التلمساني في مطلع قصيدته التي افتتح فيها كتابه « نفع الطيب في غصن أندلس الرطيب » أروع تعبير ، وأحسن فيه استخدام قصة زرقاء

اليمامة رمزاً لأولئك الذين يتميزون بالرؤية

المستقبلية . وزرقاء اليمامة هي امرأة من جديس عاشت في الجاهلية وذكر الجاحظ أنها كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام وضرب بها المثل « أبصر من زرقاء اليمامة » ، وقد أورد ابن عبد ربه قصتها في العقد الفريد . ويقول المقرئ :

سبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة

أعمى وأعشى ثم نو بصر وزرقاء اليمامة

إن هذا الأساس العقيدي للدراسة المستقبلية برؤية مؤمنة إسلامية يجعل الدين في بؤرة الشعور ، وهو يقضي بأن تكون الوحدات الأساسية في التاريخ البشري هي الأديان . وقد توصل أرنولد توينبي إلى هذه الحقيقة وإلى أن الحضارات ليست سوى وسائل لظهور هذه الأديان بعد أن أصدر المجلدات الأولى من كتابه « دراسة في التاريخ » معتبراً فيها أن الحضارة هي الوحدة الأساسية في التاريخ . وجاء ذلك التحول بعد الحرب العالمية الثانية ، ودعاه - كما يقول زريق - إلى أن : « يذهب من هذه الحقيقة إلى أن الحوار الأساسي الذي يجب أن يقوم في هذه المرحلة المصيرية من وجود الإنسانية ليس الحوار بين الدول ، أو حتى بين الحضارات ، بل بين الأديان الكبرى في عالم اليوم ، وسيتوقف على هذا الحوار مصير الإنسانية وحدة وبقاء وازدهاراً وانقساماً وزوالاً وتبدلاً » .

يحدد هذا الأساس العقيدي أيضاً مفاهيمنا للمصطلحات التي تدل على موضوعات تتناولها الدراسة المستقبلية : فمصطلح السياسة مثلاً له مفهومه المحدد المختلف عن مفهومه في الحضارة الغربية اليوم ؛ فالسياسة كما يقول التهانوي في كشف مصطلح العلوم « هي استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في الدنيا والآخرة ، ورسمت بأنها القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأموال وهي نوعان سياسة عادلة .. وأخرى ظالمة الشريعة تحرمها » . وعلم السياسة يكتسب مفهوماً متشرباً هذا الأساس العقيدي . وقد بلور ابن خلدون مصطلح العمران وهو « مفهوم جذري يرتكز على فكرة الخلق الدينية » كما يقول عبد السلام شداوي : « ويدل على وجود الإنسان والنظام البشري بصفة عامة ، فالناس أساساً متساوون وأحرار ولهم على الأرض سيادة بوصفهم مخلوقات الله ، ولا يختلفون فيما بينهم إلا نتيجة لأحوال حياتهم التي تتوقف على ظروفهم الجغرافية والمناخية » . وقد ميز ابن خلدون في نطاق العمران بين العمران البدوي والعمران الحضري ، كما بلور مصطلح الملك . وهكذا يعطي كل مصطلح مفهوماً متمثلاً هذا الأساس العقيدي .

لعل ما يوفره الأساس العقيدي للدراسة

المستقبلية برؤية مؤمنة هو التوجه الإيجابي فيها النابع من حسن الظن بالله سبحانه وتعالى والمعتمد على العمل الصالح . وقد سبق أن أشرنا إلى سورة الشرح والعسر الذي لا يغلب يسرين و«النصب» و«الرب» . ويرفض هذا التوجه الإيجابي في التعامل مع المستقبل التشاؤم اليأس ، ﴿إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ، تماماً كما يرفض التفاؤل المتواكل والفرق شاسع بين التوكل بعد العمل والتواكل الذي يعطل عن العمل وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم «اعقلها وركل» . وما أروع الآيات القرآنية التي تغذي هذا التوجه الإيجابي وتراها في سورة آل عمران بمناسبة معركة أحد وفي سورة الأحزاب وفي يوم حنين ، كما نراها في سورة الصفات وغيرها من السور المكية وهي تتحدث عن النجاة من الكرب العظيم . والحق أن الحاجة إلى هذا التوجه الإيجابي تبلغ أشدها إبان الأزمات وهذا ما يدعو إلى الرؤية المستقبلية التي تحمل في طياتها الأمل وفقاً للقول المأثور «اشتدي أزمة تنفرجي» . وقد شرح الأب إسطفان شربنتيه في كتابه دليل إلى قراءة الكتاب المقدس أهمية الرؤية وهو يتحدث عن كتب الرؤى قائلاً : «نواجه طوال حياتنا أحداثاً سارة وأخرى مؤلمة ، ونحاول أن نتغلب على ما هو مؤلم ونغيره ليصير ساراً ، وأن نعطي هذه الأحداث

معنى . وإذا شعرنا بأننا ضللنا السبيل فإننا نغير أنفسنا . هذا ما كان الأنبياء يفعلونه وهم يدعون الناس إلى التغير والاهتداء . وقد يحدث أحياناً أن يستعصى الشر ، ويبدو أن لم يعد هناك مخرج والطريق مسدود ؛ فلا يبقى إلا ترقب أيام أفضل ، وإن كان هناك أحد في إمكانه أن ييسرنا بذلك ويجدنا في الأمر نوراً ورجاء يساعدنا على الصمود » .

إن الأساس العقيدي الإسلامي يوجه الدارس المستقبلي إلى وسائله في دراسته من خلال ما جاء في القرآن الكريم عن «الرؤية» . فإدراك المرئي ، كما قال الراغب الأصبهاني في تفسير غريب القرآن يتم أولاً بالحاسة وما يجري مجراها ﴿لترون الجحيم﴾ ، وثانياً بالوهم والتخيل ﴿لو ترى إذ يتوفى الذين كفروا﴾ ، وثالثاً بالتفكير ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ ، ورابعاً بالعقل ﴿ما كذب الفؤاد وما رأى﴾ . وفعل رأى إذا عدي مفعولين اقتضى معنى العلم ﴿ويرى الذين أوتوا العلم﴾ ، ﴿إن ترين أنا أقل منك مالا وولداً﴾ فنحن هنا أمام إدراك بحاسة وتخيل وتفكير وعقل ، وجميعها تدخل في الدراسة المستقبلية .

بقي أن نقول بشأن الأساس العقيدي لمقاربة الدراسة المستقبلية برؤية مؤمنة مسلمة إنه لما كان القرآن الكريم قد نزل

بلسان عربي مبين ، فإن هذا الأساس يوجه الدارس المستقبلي أيضاً إلى الوقوف أمام دلالات اللفظ العربي واستجلاء معانيه الدقيقة والوقوف أمام الفرق القائم بين ما يبدو وكأنه مترادفات . وهذا كله يوصل إلى الدقة العلمية المطلوبة في الدراسة المستقبلية ؛ فمتى نستخدم « السنة » ، ومتى نستخدم « العام » ، وكذلك الأمر بالنسبة للزمن والوقت والدوام والبقاء ، وكيف نخطط بدلالة اللفظ إذا انتبهنا لما أسماه البعض جدلية الحرف العربي وقد أُلّف فيها محمد عنبر كتاباً يحمل هذا الاسم نَبّه فيه على أن « كل لفظ مكان في ذاته وزمان لما هو كائن فيه . فهو على هذا مكان من وجه وزمان من وجه آخر . ولكن الزمان هو الوجه الكائن دوماً وحين يظهر يصبح مكاناً » . ومعنى الزمن مثلاً يبدو أكثر وضوحاً إذا تعرفنا على معنى الزمن . والحق أن هذا التمكن من اللسان العربي ضروري لإتقان الدراسة المستقبلية وينحث عليه الأساس العقيدي .

إن الأساس العقيدي في الدراسة المستقبلية يوفر للدارس ما هو قبل المنهج سابق عليه ، ويكون الانطلاق من هذا الأساس للسير وفق منهج مناسب يختاره خطوة خطوة . والمنهج الذي نختاره يتضمن مرحلتين ، يتركز النظر في أولاهما على الحاضر والماضي ، وفي الأخرى على المستقبل .

البداية في المرحلة الأولى مع الحاضر كما سبق أن ذكرنا ، ويكون نصب عين الدارس فيها الإحاطة بهذا الواقع من جميع جوانبه بنظرة شاملة وتحليله ؛ لتحديد العوامل الفاعلة فيه والعناصر المكونة له ، والنظر فيما هو ثابت منها وما هو متغير . وطبيعي أن تكون الدراسات التي تتناول هذا الواقع مستقصية ما أمكن . وقد يتولى الفريق الدارس إعداد بعضها ، وله أن يستعين بالحد الأقصى من الأدوات والناظمات كما سبق أن نقلنا عن توفلر . وتجدر الإشارة هنا إلى ضرورة العناية ضمن هذه الخطوة بدراسة بغداد المكان الذي يمثل عاملاً جغرافياً ثابتاً له تأثيره . ويمكن للفريق الدارس أن يصنف جوانب هذا الواقع في محاور . ويتداعى إلى خاطري هنا ما قام به عبد العزيز كامل من دراسة لبعدي الزمان والمكان في القرآن ، وبحوث الجغرافيا السياسية التي تفرغ لها جمال حمدان ، كما أذكر تجربتي في عملية التحليل هذه أثناء دراستي لدور مصر العربي في الثمانينات . كما ينبغي على الفريق الدارس أن ينتهي من تصنيفه إلى ترتيب العوامل الفاعلة في تكوين هذا الواقع والعناصر وفقاً لقوة فعلها .

الخطوة التالية في هذه المرحلة الأولى من الدراسة المستقبلية هي تتبع جذور هذا الواقع الحاضر في الماضي لمعرفة أصوله ، والنظر في التفاعلات التي جرت بين عوامله



تغطي بانتشار واسع على صعيد حياة الناس من خلال الجماعات والحركات البشرية الكبيرة . ورغم أنه يدور بالضرورة داخل الفكر العقلاني إلا أنه يتناول أفكاراً ترتفع إلى درجة الإيمان والمعتقد . وهو يعرفنا بالقيم التي جاءت من الماضي وبالتعليل التاريخي لكيفية تأثر الناس بهذه القيم ، ويسجل دوراً كبيراً للمثقفين أهل العلم الذين يقومون بنشر هذه الأفكار ويوليهم عناية خاصة . وقد عني أجدادنا بتاريخ الأفكار حين أرخوا للأوائل والمجددين متمثلين ما جاء في القرآن الكريم من قصص الأولين .

إن الغفلة عن أهمية المنطلقات التاريخية في الدراسة المستقبلية تهدد بالوقوع في خطر السطحية والعجز عن سبر الأغوار والنفوذ إلى العمق . ويقع في هذه الغفلة كثيرون من الذين عذبهم بريق الحديث عن المستقبل . وهؤلاء نراهم يقفزون إلى النظر المستقبلي ويعجبون من العناية بالمنطلقات التاريخية ظانين أن ذلك حديث مضي ومتضايقين أحياناً من إعطائها نصيباً وافياً من مجمل الدراسة المستقبلية ، والحق أن الوفاء بحق هذا الجزء أمر بالغ الضرورة وشرط للتوصل إلى الاستعداد المطلوب للولوج في عملية النظر المستقبلي . ويكفي لاستشعار حقيقة ذلك أن نذكر بأن هذه الخطوة وبخاصة ما يتعلق فيها بتاريخ الأفكار هي التي تمكن الدارس المستقبلي من التعرف

الثابت منها والمتغير ، وصولاً إلى التعرف بعمق على كل منها وتحديد مجرى الحركة التاريخية للأحداث التي شكلته ، والوقوف أمام السنن التي تحكم هذه الحركة . وقد يطمح الدارس المستقبلي هنا إلى التعبير عن هذا كله بلغة رياضية ، ويستعين بالرموز والرسومات التوضيحية ، وأشير كمثال على ذلك إلى محاولتي في كتابي « ماذا بعد حرب رمضان » تحديد مجرى الصراع ومكان الحرب منه في ختام حديث الحاضر والماضي .

المنطلق التاريخي في دراسة المستقبل

نحن هنا في هذه الخطوة مع المنطلقات التاريخية لدراسة المستقبل . ودارس المستقبل يسأل نفسه « ما هو جدوى فهم الماضي ؟ » ، وهو يجيب « من أجل صحة إدراك الحاضر وحسن الإعداد للمستقبل » على حد تعبير زريق وتتطلب هذه الخطوة في الدراسة المستقبلية إعداداً للدارس المستقبلي يمكنه من حسن التعامل مع التاريخ ويزوده بنظرة في فلسفة التاريخ . ولتاريخ الأفكار في هذه الخطوة أهمية خاصة ؛ فمهمته « إدراك دور المذاهب والأفكار التي تدفع الناس في اتجاه معين » كما تحدث عنه كرين برنتون وفرنكلين باومر . ويتركز هذا التاريخ على أفكار الكافة أو على العالم الباطني للفكر ، فهو ليس مقصوراً على أفكار القلة ، وهو يهتم بالأفكار التي

على الأهداف التي بلورها المجتمع الذي يدرسه والتعرف على هذه الأهداف ضروري في النظر المستقبلي عند أخذ عنصر الحلم والأمل في الاعتبار ورؤية تفاعله مع العوامل التي نراها في الواقع . ومازلت أذكر كيف أطلق دارس مستقبلي حكماً على مجتمع بأنه لا يعرف ماذا يريد ، لأن هذا الدارس لم يلتفت إلى المنطلقات التاريخية ، كما أذكر كيف أوحى دراسة إمارة الجهاد وإبان حروب الفرنجة بطريقة التعامل المثلى لاستشراف مستقبل الصراع العربي الصهيوني في إحدى الدراسات المستقبلية .

سيجد الدارس المستقبلي في مدرسة التاريخ التي ظهرت في حضارتنا العربية الإسلامية ما يساعده كثيراً على التمكن من حسن التعامل مع المنطلقات التاريخية في الدراسة المستقبلية . فمعاني التاريخ فيها تجمع بين عملية التدوين التاريخي وعلم التاريخ وتاريخ الأعلام وسير الزمن والأحداث أي : التطور التاريخي ؛ وهي من ثم لا تعرف الفجوة التي نراها في الغرب بين فلاسفة التاريخ والمؤرخين الممارسين ، وقد تحدث عنها دونالد إستروفسكي من هارفارد في مجلة ديوجين (العدد ٨٧/١٤) قائلاً : « كلا الفريقين يشجع في زهو وافتخار الانعزال عن الآخر : فالفلاسفة يرون أن المؤرخين غير مؤهلين للتفلسف في دراسة التاريخ .

والممارسون يرون أن فلسفة التاريخ ضرب من الهراء » . وتحرص مدرسة التاريخ العربية الإسلامية على فهم التاريخ بالمعنى الشامل ، فأفقها عالمي ، والإسلام أمة واحدة ، كما أوضح شاعر مصطفى في كتابه « التاريخ العربي والمؤرخون » ؛ وهي من ثم تتميز بالشمول وتضع نصب عينها رسالة عالمية . وقد حفلت هذه المدرسة بالمجتهدين الذين يغني الدارس المستقبلي التعرف على محاولاتهم . ومنها محاولة إيجاد علاقة بين التاريخ والنجوم والفلك التي قام بها مشغولون في ميدان التنجيم امتدوا إلى ميدان التاريخ ، وتحدث عنها إخوان الصفا في رسائلهم . ومن المتوقع أن يتمثل الإغناء في هذه الحالة في التحصن إزاء محاولة نراها في الغرب اليوم تتحدث عن « باراسيكولوجي » كعلم يزعم الطموح إلى اكتشاف طاقات الإنسان المجهولة وخوارق الظواهر مثل تأثير الفكر على المادة والخروج من دائرة الزمان والمكان ، وتضرب مثلاً بنوستراداموس ، والحديث عن محاولات أخرى عدة نجده في ما كتبه ابن خلدون في مقدمته وسبق أن أشرنا إليه . ويكفي لنصور مدى غنى مدرسة التاريخ في حضارتنا أن نستذكر قول شاعر مصطفى : « إن التاريخ في اعتقادي علم عربي إسلامي أو يمكن اعتباره كذلك .. » فقد تميزت الحضارة العربية الإسلامية بالنزعة التاريخية الواضحة التي تجلت في ظهور خمسة آلاف مؤرخ على الأقل ، وما

المرحلة الأخرى ، وقد عدت في كتابي « وحدة التنوع » إلى المعاجم لتحديد دلالتها في لساننا العربي ، وانتهيت إلى أن الاستشراف « يتضمن التطلع والنظر وحديث النفس والتوقع . وهو أول ما نبداً به ، والتشوف هو « الاستجلاء من خلال التطلع والنظر الشامل وفيه معنى الارتفاع بغية الإحاطة بالنظر ، وقد رأينا كيف تحدث ابن خلدون عن تشوف الأمور المستقبلية في مقدمته في معرض حديثه عن الرؤيا ؛ فالتشوف إذن قرين الاستشراف ، وهو خطوة تالية له في الدراسة المستقبلية يصل الدارس من خلاله إلى الاستجلاء بعد أن يكون قد تطلع وأمعن النظر . والرؤية هي ذروة عملية الدراسة المستقبلية وهي « النظر بالعين والقلب » و« النظر بالعين والعقل » وإدراك المرئي بطرق عدة هي كما سبق أن ذكرنا الحاسة والتخيل والتفكير والعلم .

عنصر الحلم وإرادة الفعل

سيكون على الدارس في هذه المرحلة من دراسته أن يبدأ أولاً بإدخال عنصر الحلم والأمل فيما أدركه من خلال النظر في الحاضر والماضي ، وهو يستشرف ويتشوف متطلعاً ناظراً محدثاً نفسه متوقفاً مستجلياً . وعنصر الحلم والأمل هذا يتضمن الأهداف التي بلورها المجتمع وتم التعرف عليها من خلال المنطلقات التاريخية في الدراسة المستقبلية . وقد اجتهدت في

يزيد على عشرة إلى اثني عشر ألف كتاب تاريخ في أقل تقدير لديها ، وبعض هذه الكتب في خمسين وثمانين ومائة مجلد . وقد تحول التاريخ إلى علم منهجي على يد ابن خلدون .

يتهيؤ دارس المستقبل بعد أن يقطع المرحلة الأولى إلى دخول المرحلة الأخرى ، والانتقال من حديث الحاضر والماضي إلى حديث المستقبل ، ويكون قد « عرف الأمور على وجهها » ، وهذه فائدة « فن التاريخ » عند السخاوي الذي قال في كتابه « الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ » : « وبعد فلما كان الاشتغال بفن التاريخ من أجل القربات ، بل من العلوم الواجبات المتنوعة للأحكام الخمسة بين أولى الإصابات ... وأما فائدته فمعرفة الأمور على وجهها » . ويصبح هذا الدارس مستعداً لمباشرة عملية الاستشراف والتشوف والرؤية وفي اعتباره المعنى الذي أبرزه المقرئ في خطبة كتابه « العقود الفريدة » حين قال : « إن الله أقام الخلائق جيلاً بعد جيل ، واستعمرهم قبلاً إثر قبيل ، لبقى الأول للثاني قصصه مواعظ وعبراً ، ويحني الآخر للمتقدم ذكراً وينثر خبراً ، كي يرعوى الفطن عن فعل ما يذم ويستقبح ، ويقتدي الأديب بما هو الأحسن من الأخلاق والأصلح » .

الاستشراف هو الخطوة الأولى في هذه

اختيار لفظة الحلم للدلالة على هذا العنصر لأن اللفظ في اللسان العربي يجمع في دلالاته بين الرؤيا في المنام وضبط النفس والطبع عن الهيجان والغضب ومسببات العقل كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا ﴾ أي : عقولهم « وليس هو العقل ولكن من مسببات العقل » كما جاء في لسان العرب ، واستخدمت هذه اللفظة منذ كتابتي « ماذا بعد حرب رمضان » ، واستشعرت مؤخراً جدوى قرنها بلفظة الأمل للدلالة على التطلع لتحقيق الحلم . وهكذا ينظر الدارس كيف تتفاعل العوامل التي حددها تحليل الواقع القائم وجرى التعرف على جذورها التاريخية ورسم خطوطها البيانية ضمن مجرى الحركة التاريخية ، مع عنصر الحلم والأمل وما يتضمنه من أهداف ، موظفاً طرق الرؤية الأربع الحاسة والتخيل والتفكير والعلم .

العنصر الآخر الذي سيكون على الدارس إدخاله في هذه المرحلة هو عنصر « الفعل » منطلقاً وإرادة وقدرة . والحق أن مما يتداعى إلى خاطر عند ذكر كلمة المستقبل « عزم الإنسان على الفعل لتحقيق ما يريد ، تحته أحلامه وآماله التي كوّنها ، وهو يعيش أيامه ، من خلال تجاربه مستمداً العون من خالقه عالم الغيب الحليم الخبير الفعال لما يريد » . ولا بد للدارس من أن يقوم بقياس عنصر الفعل هذا مستفيداً من نظره في الحاضر والماضي . هذا النظر

الذي يمكنه من تحديد الطور الذي يمر به الاجتماع الإنساني موضع الدراسة ، أهو طور انبعاث أم طور انحطاط أم طور سكون . ويمكنه أيضاً من رؤية حال الفكر والصلة وثيقة بين الفكر والفعل وقد تحدثت عنها في مقدمة كتابي الذي يحمل عنوان « فكر وفعل » . وأذكر أنني عانيت بدراسة هذين العنصرين « الحلم والأمل » و« الفعل » حين استشرفت مستقبل القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني في محاضرة ألقيتها في المجمع الثقافي بالإمارات العربية مطلع عام ١٩٨٦ فبدأ لي أن أهلنا داخل وطننا المحتل على وشك الانتفاض ، وقد طرحت رؤية مستقبلية لانتفاضتهم . كما أذكر أنني دُعيت بعد عامين أثر قيام الانتفاضة للحديث عنها هناك ومراجعة تلك الرؤية المستقبلية وما تحقق منها وما لم يتحقق .

الرؤية والتوقع المشروط

في أي شكل يطرح الدارس المستقبلي الرؤية التي يتوصل إليها ؟

إن له أن يطرح هذه الرؤية في مجموعة توقعات مشروطة ضمن مشاهد تفترض الواقع تارة والمأمول تارة أخرى . وهذا ما فعلته دراسة استشراف المستقبل العربي وكان القصد منه « إطلاع القوى الفاعلة في المجتمع على متطلبات تحقيق إحدى الصور المأمول فيها » . ولقد اخترت في كل ما

المدرسة « في لساننا العربي . وهي كما سبق أن ذكرنا تحتاج إلى عمل الفريق لإنجاز جميع متطلباتها في مرحلتها . ولكنها في آخر الأمر تحتاج إلى أفراد من ذوي البصيرة يتميزون بالقدرة على النظر الشامل والتحليل والتركيب والتوقع والاستجلاء ، ليقوم الواحد منهم بصياغة الرؤية المستقبلية من خلال بلورة كل ما توصلت إليه دراسات الفريق . وقد رمز المقرري لهؤلاء بـ « زرقاء اليمامة » كما رأينا ، وأسماهم الشاعر كونستانتين كفاقي « اليوناني السكندري » : « حكماء الأمور الدانية » حين قال : « البشر يعرفون الحاضر/ المستقبل يعلمه الله ذو الكمال المالك الوحيد لجميع الأنوار/ من أمور المستقبل يدرك الحكماء تلك التي تدنو/ يهيج سمعهم أحياناً أثناء التأملات المليئة/ يأتهم الصخب السري للأحداث التي تدنو/ وينصتون إليه في ورع/ بينما في الخارج ، في الشارع/ لا يسمع الناس شيئاً » وصنّف ابن خلدون في

مقدمته النفوس البشرية بحسب تعاملها مع ما أسماه « الإدراك الروحاني » إلى ثلاثة أصناف الأول عاجز ، والثاني متوجه بالحركة الفكرية نحو العقل الروحاني ، والثالث مفطور عليه .

نستطيع من خلال ما سبق أن نستخلص الضوابط التي يحددها لنا الأساس العقيدي الإسلامي في الدراسة المستقبلية : فنحن نؤمن بالغيب ، وأن الله سبحانه هو

قامت به من دراسات مستقبلية أن أنهي إلى طرح توقع مشروط هو في الوقت نفسه الذي أتبنى الدعوة إليه ؛ ذلك أن حديث المستقبل كما سبق أن ذكرنا « يوظف المعرفة للفعل والتأثير ، ويحاول تحديد ما ينبغي مع الأخذ في الاعتبار توقع ما سيكون . والغاية أن تتوافق من خلال الفكر والفعل صورة الأحلام والآمال مع صورة التوقعات . فهذا الحديث يتصف دعوى في أحد وجوهه: يوحى بما ينبغي أن نفعله ونكده من أجله ؛ ومن هنا تأتي دقته . وكم بخطيء أولئك الذين لا يدخلون فيه أحلام الناس وآمالهم وأهدافهم التي يسعون إلى تحقيقها ، ويسقطون من حسابهم إرادة الفعل عند الإنسان والمجتمع الإنساني ، فيسقطون في مهاوي التشاؤم اليأس . كما قلت في كتابي « وحدة التنوع » . وهكذا جاء شكل الطرح « نتوقع إذا عملنا هذا أن يحدث هذا وهذا ،... وإذا لم نعمله أن يحدث كذا... ، وإذا عملنا ذاك أن يحدث .. » والحق أن حديث المستقبل كأني حديث يجب أن يكون حديث خير يوظف لما فيه خير الإنسان ، حثاً أو تحذيراً ، ﴿ فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ﴾ ، ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ .

إن الدراسة المستقبلية ستنتهي إلى رؤية تعبّر عن « البصيرة » ، وهي « قوة القلب

﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ... ﴾ ، وأنه خلق الإنسان صاحب رؤية وفكر مدركاً ما حوله ومدركاً الزمن . ومتوقع من ثم أن لا نتحدث عن علم الغيب وإنما عن رؤية المستقبل ، وأن لا نعلم إلى التنبؤ وإنما نعلم إلى النظر والرؤية وننتهي إلى التوقع والعزم على العمل الصالح . وهذا يدعونا إلى أن نستخدم مصطلحات تتفق مع إيماننا وتتميز بالتحديد الدقيق للمفهوم . وإن لنا أن ندعو بدعاء الاستخارة « اللهم إني

أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك » . وأن نتوجه من عملية الدراسة المستقبلية إلى صنع المستقبل وكلنا ثقة بقدرتنا بعون الله على تحقيق أهدافنا ؛ وقد قال أجدادنا « إن لله عبادة إذا أرادوا أراد » ، وصدق الله العظيم القائل ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ ، الذي وعد الذين آمنوا ﴿ ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ .



المعهد العالمي للفكر الإسلامي

بالاشتراك مع الأزهر الشريف

مركز صالح عبد الله كامل للأبحاث والدراسات

التجارية والإسلامية

يقدمان إلى القارئ الكريم

أبحاث ندوة

إسهام الفكر الإسلامي

في

الاقتصاد المعاصر



هو خلاصة ندوة بحث فيها عدد من الموضوعات الحيوية في مجالات الاقتصاد الإسلامي كالتدريس والبحوث من وجوب تطوير العلوم الاقتصادية ، ومجال البنوك والمؤسسات المالية الإسلامية ، ومجال التنمية الاقتصادية داخل أنحاء العالم الإسلامي يطلب من مكاتب المعهد بجميع أنحاء العالم



نحو وجهة إسلامية لعلم النفس^(*)

أ.د. فؤاد أبو حطب

مشكلة البحث

لعلنا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا : إن علما من العلوم الإنسانية أو السلوكية أو الاجتماعية لم يلق في تاريخه ما لقيه علم النفس من غارات الهجوم الضارية . وكانت أشد هذه الحملات قسوة وعنفا في السنوات الأخيرة تلك التي صدرت عن فريق من الكتاب الإسلاميين . وعلى عكس الحال في المجالات الأخرى كالاقتصاد والاجتماع والفلسفة والتربية : لم يجد هذا العلم إلا قلة من رجاله ، هم الذين تصدوا لأعباء الدفاع ، وأقل القليل هم أولئك الذين توجهوا لمهام أكثر إيجابية في مجال

الإبداع . وقد واجه الفريقان مشقة المسألة ، ووعورة الطريق على نحو كان يمكن أن يؤدي بهم جميعاً إلى ضيق العيش ، لولا فسحة الأمل .

وبالطبع اختلفت - كيفياً - المشكلات التي واجهها كل فريق . ونبدأ بمشكلات الذين اختاروا جبهة الرد أو المقاومة ، وأخطرها أنهم لم يكذبوا على أنفسهم . وكانت أسباب ذلك كثيرة يرجع بعضها إلى فيلق الهجوم ويعود بعضها الآخر إلى كتيبة الدفاع .

وأقوى أسباب نجاح فريق الكتاب الإسلاميين المهاجمين ما يمكن أن نسميه

(*) بحث مقدم إلى « ندوة علم النفس » التي نظمها المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالاشتراك مع الجمعية العربية للتربية الإسلامية (القاهرة : ١٩٨٩ م) ، وسيم نشره على ثلاث حلقات بإذن الله تعالى .

« خصوصية الظرف والوقت » ؛ فالعالم العربي والإسلامي يمر في أحواله الراهنة وزمنه الحالي بما اصطلح على تسميته « الصحوة الإسلامية » ، وفي مثل هذا الظرف المؤيد ، والوقت المدعم - : تصبح كل إشارة إلى « الإسلام » لها جاذبية خاصة ووقع مميز . ولعل لا أستبق بعض ما سوف يأتي به هذا البحث - ونحن لا نزال في مطلعته - : إذا قلت : إن قليلاً مما كتب ونشر وأذيع في السنوات الأخيرة حول « علم النفس الإسلامي » أو « أسلمة علم النفس » فيه كثير من الحق الذي أريد به وجه الحق فعلاً ، وإن كثيراً من هذا الذي قرأه الناس أو سمعوه لا يتجاوز حدود استغلال « الظرف الخاص » واستثمار « الوقت المميز » .

أما السبب الثاني لنجاح الهجوم الإسلامي على علم النفس فيرجع إلى المكانة الرفيعة لبعض المشاركين فيه ، ولعل أكتفى في هذا الصدد بمثال واحد يغني عن الكثير ؛ فالأستاذ محمد قطب - بمكانته ككاتب إسلامي متميز وبصلة الرحم التي تربطه بالداعية والمفكر الإسلامي الكبير الشهيد سيد قطب - هو أول من قاد هذا الهجوم . وقد انتقلت معظم أفكاره إلى كثيرين غيره ، أشار بعضهم إلى مصدرها الأصلي ، وتبناها آخرون على أنها أفكارهم الخاصة . وفي جميع الحالات كانت حجة « الشخصية » ملزمة للكثيرين .

والسبب الثالث - في رأينا - لنجاح الحملة الإسلامية على علم النفس هو كفاءة بعض المهاجمين في استغلال وسائل العصر ؛ ولعل أشهر الأمثلة في هذا الصدد الكاتب والأديب الذائع الصيت الطيب مصطفى محمود ، فاستخدام الإعلام الحديث - وخاصة الصحف السيارة والمجلات والكتب الخفيفة والتلفزيون والإذاعة - في شن الحملة على علم النفس امتد بآثره إلى قطاعات عريضة من عامة المسلمين لا تصل إليها عادة وسائل الثقافة التي استخدمها المدافعون (الكتب الجادة ، وبحوث المؤتمرات العلمية وغيرها) . ولعل هذه النتيجة تمثل أحد أوجه الصراع بين الإعلام والثقافة في عصرنا ، وهو صراع يتخذ في بعض وجوهه التناقض في المحتوى بين الخفة والعمق ، وفي الشكل بين الإقناع الوجداني والاقتناع العقلي .

أما أسباب فشل المدافعين فترجع في كثير إلى أسباب نجاح فريق الهجوم بالطبع ، مضافاً إليها مجموعة أخرى من العوامل تخص الذين استجابوا لهذا النقد أنفسهم . وعلى رأس هذه العوامل أن معظم الأصوات الجادة التي سعت للدفاع عن علم النفس أحبطت أو توقفت ، بينما سادت على السطح بضعة اتجاهات لا تنتمي إلى « الدفاع » بقدر انتسابها إلى « الحيل الدفاعية » ، إذا استخدمنا لغة سيكولوجية قد ينفر منها نقاد علم النفس .

ولكى نوضح ما حدث نقول : إن النقد العنيف الذى وجهه الكتاب الإسلاميون إلى علم النفس أحدث لدى بعض السيكولوجيين المسلمين والعرب حالة من التنافر المعرفى Cognitive Dissonance الذى يعود الفضل فى اكتشافه إلى ليون فستنجر L. Festinger عام ١٩٥٧ . وهى الحالة التى تنشأ من تعامل المرء مع النقااض (سيد عثمان ، فؤاد أبو حطب ، ١٩٧٨) . وكان أول من توصل إلى هذا التشخيص - فى حدود علمنا - مالك بدرى (١٩٨٧) .

ومنشأ ذلك أن الحالة التى عليها علماء النفس فى العالمين العربى والإسلامى ظلت - لسنوات طويلة - تمتد إلى النشأة الأولى الحديثة لعلم النفس منذ أكثر من قرن ، هى ما يمكن أن نسميه حالة التوافق adaptation أو التكيف adjustment أو الاتزان والاستقرار Stability أو التوازن equilibrium أو الهميوستازيس homeostasis أو التآلف consonance (وكلها من المفردات اللغوية لعلم النفس الحديث) . فعلم النفس الذى يتسبون إليه هو من السمات البارزة للقرن العشرين كما كانت العلوم البيولوجية سمة القرن التاسع عشر والعلوم الفيزيائية والكيميائية سمة القرون التى تلت عصر النهضة الأوربية (يوسف مراد ، ١٩٤٧) . كما أن العلم الذى سيحقق للإنسان القدرة على الضبط

الذاتى ، وسيسهم فى تحقيق الضبط الاجتماعى ليتوازنا مع قدرته على ضبط القوى المادية (جيلفورد ، ١٩٥٠) . وهو العلم الذى أصبح (داخل أسرة العلوم الطبيعية) (مصطفى سويىف ، ١٩٦٧) . وهو العلم الذى تزداد صورته لدى جمهرة الناس بهاء وزهاء ، بالرغم من قصور الإمكانيات والموارد (مصطفى سويىف ، ١٩٧٠) .

وحين تعرضت هذه الصورة المشرقة لعلم النفس للنقد ، وخاصة من جانب الكتاب الإسلاميين - : حدث لدى علماء النفس المسلمين التنافر المعرفى ، الذى أشرنا إليه ، وما يصاحبه من قلق وصراع داخلى . وكانت معظم الاستجابات التى صدرت عنهم لحل هذا التنافر المعرفى من نوع « الحيل النفسية » أو « ميكانيزمات الدفاع » . ويعود الفضل على وجه الخصوص إلى هيشينوما (Hishinuma) (١٩٨٧) فى اكتشاف أوجه التشابه بين الحيل الدفاعية وطرق حل التنافر المعرفى ، وهى جميعاً - كما يعلم السيكولوجيون قبل غيرهم - قد تكون طرقاً خائبة فى حل الصراعات ومنها الصراعات المعرفية ، وهى طرق أقرب إلى المساومات السلبية منها إلى الحلول الإيجابية ، وبالتالي كان أثرها على علم النفس أكثر خطراً من نقد النقاد أنفسهم .

تكرس له الجهود في المرحلة الراهنة هو محاولة بناء « وجهة » إسلامية Islamic Psrsdigm لعلم النفس تحدد. « موجّهات » العمل في الميدان ، وتضع استراتيجيات ما سبق أن أسميناه « التوجيه » الإسلامى لعلم النفس (فؤاد أبو حطب ، ١٩٧٨) . وهذا الجهد الإيجابي ، إذا نجح علماء النفس المسلمون في إنجازه - : لن يعود بآثاره عليهم أنفسهم فحسب فيحل مشكلات تناقضاتهم المعرفية ؛ وإنما سوف تمتد هذه الآثار - في رأينا - إلى علم النفس الحديث كما يعيشه عالم اليوم فيقدم حلولاً لمشكلات مزمنة فيه عجزت عنها حتى الآن فلسفة العلم .

والبحث الراهن هو جهد المُقِلّ في هذا الموضوع الهام . وفي سعينا نحو هذه الوجهة نتناول أولاً الموضوعات الآتية :

- (١) تحليل ومناقشة حجج النقاد الإسلاميين لعلم النفس .
- (٢) ردود الفعل « الدفاعية » التي صدرت عن بعض علماء النفس المسلمين .
- (٣) بعض الاستجابات الإيجابية لعلماء النفس المسلمين .

ثم نخصص الجزء الأكبر من الدراسة لعرض معالم الوجهة الإسلامية لعلم النفس وفي سبيل تحقيق ذلك نعرض ما يلي :

- (١) مفهوم الوجهة Paradigm في العلم .
- (٢) بعض وجهات علم النفس الحديث .

ولم يبق أمامنا من سبيل لتجاوز المحنة إلا بالجهد الإيجابي الإبداعي من علماء النفس المسلمين . وقد أشرنا في البداية إلى أن هذا الجهد تكتنفه أيضاً المشكلات والعوائق التي قد يكون دونها خراط القتاد ، ولعل أخطر هذه المشكلات ما يسود الميدان في وقتنا الحاضر ما يمكن وصفه بتقسيم العمل العلمي ؛ ففريق ينتمى بحكم التخصص إلى ميدان العلوم الإسلامية ، وينتمى الفريق الآخر إلى ميدان علم النفس ؛ ولهذا ظلت الجهود تنسم بأنها تطوعية اختيارية تحكمها المصادفات ، بينما المهمة أرفع وأجل من أن تقتصر على جهد فرد أو بضعة أفراد . ولا بد أن تتوافر عليها العصبية أولو القوة التي يلم أفرادها بالموضوعين إماماً عميقاً وواسعاً . فالمتخصص في علم النفس الذي يتناول هذا الموضوع لا يجب أن يقتصر على ذخيرته من المعرفة في علم النفس وإنما عليه أن يلم إماماً دقيقاً بخصائص الإسلام عقيدة وشرعية دون الاقتصار على جانب دون الآخر . وهذا ما يجب أن يقال أيضاً على رجال الدين الذين يتناولون المسائل النفسية من وجهة نظر الإسلام . أى الأمر يجب أن يتجاوز ما يسميه علم الاجتماع الحديث « توزيع العمل في الدراسة العلمية » (حليق ، ١٩٥١) .

والجهد الإيجابي الأساسى المطلوب - في رأينا - لتخطي الأزمة ، والذي يجب أن

(٣) معالم الوجهة الإسلامية لعلم النفس .
والله وحده هو الموفق والمستعان
والهادى إلى سواء السبيل .

حجج النقاد الإسلاميين لعلم النفس : تحليل ومناقشة

في بحث سابق (فؤاد أبو حطب ،
١٩٧٨) عرضنا لحجج نقاد علم النفس
من وجهة نظر إسلامية . وكان أكثر النقاد
شهرة حينئذ - ولا يزال - الكاتب الطبيب
مصطفى محمود ، إلا أنه بعد انقضاء أكثر
من عشر سنوات على عرضنا السابق وجدنا
من المناسب أن نعيد تناول الموضوع بعد
أن اقتحم الميدان نقاد جدد ، وأضيفت إلى
الانتقادات حجج جديدة ، ونعرض فيما
يلي تحليلاً ومناقشة لهذه الحجج .

(١) الشك في علمية علم النفس :

لعل أول الحجج وأولها بالتحليل
والمناقشة تلك التي تطعن طعنًا مباشرًا في
« علمية » علم النفس ، وتشكك في إمكان
قيامه كعلم . فعلم النفس عند النقاد ليس
علمًا بالمعنى المتعارف عليه للعلم . بل لا
تنطبق عليه شروط العلم الواجبة ،
وأهمها - عندهم - اليقين والموضوعية .
وكان أول من أثار هذه الحجة مصطفى
محمود (١٩٧٦) ، ثم أعاد طرحها حديثاً
(١٩٨٨) ، وفي الحالتين كان تناول -
على طريقته - على المستوى الإعلامي
العام ، والصحف اليومية ، والكتب

الخفيفة . أما أول من طرح هذه القضية
على المستوى الأكاديمي فكان إسماعيل
الفاروقى (Al-Faruqui, 1977) حين دمج
العلوم الاجتماعية بصفة عامة - ومنها علم
النفس - بأنها جميعاً علوم زائفة . ويشبه
ذلك الموقف الفلسفى لتوفيق الطويل
(١٩٨٣) الذى أنكر أيضاً على علم
النفس علميته بسبب نقض موضوعيته .
ولعل هذا ما دفع محمد رشاد خليل
(١٩٨٧) إلى القول بأن إنكار قيام العلوم
الإنسانية جاء أولاً من الفكر الغربى ذاته
مستنداً في ذلك إلى آراء فيلسوف العلم
الفرنسى موى (١٩٦١) ، على الرغم من
أنه كانت لديه حجة أقوى عند فيلسوف
الوضعية الأشهر أوجيست كونت الذى
رأى منذ قرنين من الزمان أن علم النفس
ما هو إلا مجموعة من المعارف يمكن أن
تتوزع على نحو أفضل بين علوم أكثر
موضوعية هي البيولوجيا (علم الأحياء)
والسوسولوجيا (علم الاجتماع) .

والواقع أن رفض علم النفس لأنه - كما
يقال - لا تنطبق عليه شروط العلم الواجبة
كاليقين والموضوعية حجة متخلفة .
وحسبنا أن نشير إلى أن مفاهيم اليقين
والموضوعية - في الأستمولوجيا
المعاصرة - تتعرض لتطور كبير إلى حد
يدفعنا إلى القول بأنه لا يوجد في فرع من
فروع العلم التجريبي - ومنه العلوم

وإنما تتضمن نوعاً من الحكم « بالإعدام » على هذا العلم ، مادامت تعوزه الموضوعية ، ومادام لا يستطيع تحقيقها . وقد أشرنا إلى تهافت هذه الحجة في ضوء طبيعة الملاحظة في العلم عامة ، ونشير إلى تهافتها أيضاً في ضوء التناقض الذاتي الذي وقع فيه بعض الكتاب في دعوتهم إلى « إلغاء » علم النفس بسبب لاموضوعيته ولايقينه ، وإلى « بناء » علم نفس إسلامي في وقت واحد ، فهل يننى ذلك أن دعوة البناء عندهم تتضمن أن يقوم « علم النفس الإسلامي » على الأسس الموضوعية للعلوم الطبيعية مادام علم النفس الذي ينقدونه لا تتوفر فيه هذه الأسس ؟!

إن الإجابة على هذا السؤال ليست بالإيجاب قطعاً . وكل ما نستخلصه من كتابات النقاد الذين استخدموا هذه الحجة بإسراف شديد أنهم يرفضون « المنحى الإمبريقي » empirical الذي غلب على علم النفس الحديث منذ نشأته ، وهو موقف يوافقهم عليه معظم الكتاب المحدثين في علم النفس ، وفي نظرية المعرفة ، ومنهم أقطاب إمبريقيون قدامى لهم باع طويل من أمثال كارناب وبردجمان . ويكفي أن نشير إلى اهتمام فلسفة العلم المعاصر بالعوامل « الشخصية » و « الذاتية » في المعرفة كالحساسية والتمييز والاستبصار والحكم الشخصي والحديسي ، بالإضافة إلى ما أسماه بولاني (Polanyi, 1958) بالمعرفة الضمنية

الفيزيائية - يؤدي إلى المعرفة اليقينية ، ولا توجد ملاحظة بشرية معصومة من الخطأ infallible . وكل ما تطمح إليه العلوم التجريبية في الوقت الحاضر أن يكون ما يقرر الملاحظ حدوثه أكثر احتمالاً في الحدوث بنسبة عالية من « اليقين » ، كما أن ما يلاحظه يكون أكثر احتمالاً في الاتفاق عليه مع غيره من الملاحظين بنسبة كافية من « الموضوعية » . وكل ذلك يعتمد على ما يمكننا أن نستنتجه من دقته وثباته وغير ذلك من الحقائق المتعلقة بعملية الملاحظة .

والرفض بحجة اللاموضوعية واللايقين في علم النفس ذاته له تاريخ قديم ، بل وكانت صورته أكثر عنفاً من نقد النقاد . وأشهر أمثله التطرف السلوكي في أطواره المتعددة . وقد ناقشنا هذا الاتجاه في موضع آخر ، وبيننا آثاره في علم النفس الحديث ، ومعظمها آثار سلبية وصل بعضها إلى مستوى « المحنة » وليس أقلها اهتمام هذا العلم - في إطاره السلوكي - بالصورة الدنيا والبسيطة من السلوك ، وإهمال النشاط العقلي المعرفي الراقى للإنسان (فؤاد أبو حطب ، ١٩٧٣) .

وبالطبع فإن هذه الحجة عند نقاد علم النفس من الكتاب الإسلاميين لا يقصد بها الدعوة إلى مزيد من التطرف « الموضوعي » ومزيد من التشدد « اليقيني » كما فعل السلوكيون وأشياعهم ،

tacit والاندماج indwelling ، وما دعا إليه بردجمان ... مؤسس الإجرائية - في سنواته الأخيرة من ضرورة العودة إلى الاهتمام بالاستبطان وملاحظة شاهد العيان .

أضف إلى ذلك أن « تيار العلم الطبيعي » الذي يعتبره نقاد علم النفس محكاً « لعلمية » هذا العلم أو « لاعمليته » إنما يعتمد على « تيار » ذلك العلم الطبيعي كما كان في القرن التاسع عشر ، وهو يختلف عن مفهوم « العلم الطبيعي » نفسه كما يقدمه علماء العصر الحاضر . فعلم القرن التاسع عشر - رغم اعتماده بالطبع على الملاحظة - إلا أنه استبعد الملاحظة استبعاداً كاملاً ؛ ولكن علماء الفيزياء المحدثين من أصحاب نظرية الكم والنظرية النسبية أكدوا أن الملاحظة لا يمكن تجاهله . ومن ذلك مثلاً أن مقياس الزمن الذي يلعب دوراً هاماً في كل العلوم الطبيعية إنما هو « نوع من الزمن الخاص بالملاحظة » . وفي ذلك يذكر أستاذ الفيزياء الشهير بوندي Bondi أنه في حالة السرعة العالية فإن الذي يعيننا هو الأزمنة الخاصة التي لا تقع تحت حصر والتي تتحدد في زمن عام مستقل » (عن Burt, 1964) .

عجيب إذن موقف النقاد الإسلاميين لعلم النفس من قضية الموضوعية واليقين في هذا العلم ؛ إنهم يرفضونه بسبب نقص

« موضوعيته » ، وزيادة « ذاتيته » على عكس خصائص العلوم الطبيعية - كما يتصورونها ، في الوقت الذي نجد الفروع المتقدمة من علم الفيزياء تتحول تدريجياً إلى « الذاتية » .

(٢) مادية علم النفس :

الحجة الثانية التي يطرحها النقاد الإسلاميون لعلم النفس هي غلبة الاتجاه المادى عليه بحيث جعله يتصور « النفس الإنسانية » تصوراً مادياً ؛ فالإنسان عند سيجموند فرويد هو مجموعة « غرائز » تتطلب الإشباع المادى المباشر (مصطفى محمود ، ١٩٧٦ ، ١٩٨٨) ، وهو عند السلوكيين « آلة ميكانيكية معقدة لا تحركه دوافع موجهة نحو غاية ؛ بل مشيرات فيزيقية تصدر عنها استجابات عضلية وغدية مختلفة » (محمد رشاد خليل ، ١٩٨٧) .

وحتى تتضح لنا الأمور ولا تختلط أماننا الأوراق علينا أن نعود بالمسألة إلى أصولها في ثنائية المثالية idealism والواقعية realism ، والتي يردّها معظم مؤرخي الفلسفة إلى أفلاطون « المثالي » ، وأرسطو « الواقعي » ، ولو أن المسألة في رأيها جذورها في الفكر الإنساني منذ نشأته في الحضارات « القبل - يونانية » (وهذا موضوع لا يتسع البحث الحالى لتناوله وتفصيله) . وقد نشأت عن هذه الثنائية



يخصنا وهو إطار العلاقة بين العقل والجسم .

يلخص ماريو بنجي (Bunge, 1980) الحلول المختلفة التي قدمها فلاسفة الغرب ومفكروه لهذه المشكلة في عشرة حلول يوضحها الجدول رقم (١) وهي حلول مصنفة إلى القسمين الأساسيين : الأحادية السيكونوفيزيائية ، والثنائية السيكونوفيزيائية . وفي كل منهما خمسة حلول مختلفة . ويشمل الجدول أشهر الممثلين لكل اتجاه في العصر الحديث .

الأساسية معظم الثنائيات الأخرى في تفكير الإنسان : الروح والمادة ، العقل والجسم ، العلم والدين ، الفطرة والخبرة وغيرها مما سنعرض له بالتفصيل في هذا البحث فيما بعد .

وفي محاولة حل مشكلة العلاقة بين طرفي الثنائية (أو الثنائيات) قدمت حلول كثيرة يمكن تصنيفها إلى فئتين أساسيتين : الأحادية monism والثنائية dualism وفي كل منهما فئات فرعية كثيرة كان لها جميعاً أثرها وصداها في العلم عامة ، وفي علم النفس خاصة . ولنتناول المسألة في إطار



جدول رقم (١) الحلول المختلفة التي قدمت لمشكلة العلاقة بين العقل والجسم
(عن Bunge, 1980)

الأحادية السيكوفيزيائية	الثنائية السيكوفيزيائية
(١) كل شيء هو العقل (المثالية ، الظاهراتية أو الفينومينولوجيا) : بركلي ، فخته ، هيجل ، ماخ ، ولیم جیمس ، وابتهد ، كارل روجرز ، ماسلو .	(١) العقل والجسم مستقلان . لا يوجد لهذا الاتجاه أنصار في العصر الحديث سوى فتجنشتين .
(٢) كل من العقل والجسم (المادة) ليسا إلا مظاهر مختلفة لشيء واحد (الأحادية المحايدة ، وجهة النظر المزدوجة) : أسينوزا ، ولیم جیمس أيضاً ، برتراند رسل ، كارناب شليك ، فيجل .	(٢) العقل والجسم متوازيان (التشاكية السيكوفيزيائية) : لبيتز ، لوتز ، جاكسون ، بعض أصحاب نظرية الجشطات في علم النفس .
(٣) لا يوجد شيء اسمه العقل ولا يوجد سوى الجسم أو المادة (مادية « الحذف أو الاستبعاد » السلوكية في علم النفس) : واطسون ، سكر ، ترنج ، رونزي ، كوين .	(٣) الجسم (المادة) يؤثر في العقل أو يسببه أو حتى يفرزه (الظاهرياتية المضافة) : فوجت ، برود ، آير ، بتشتي ، هكسلي .
(٤) العقل مادة أى جسم (المادية الاختزالية أو الفيزيائية) : توماس هوبز ، لاشلي ، سمارت ، أرمسترونج ، فيرابند ، واطسون والسلوكيون أيضاً .	(٤) العقل يؤثر في الجسم (المادة) ويسببه أو يتحكم فيه أو يحيه (مذهب حيوية المادة) : سيجموند فرويد ، سيري ، كارل بوبر ، تولمين .
(٥) العقل هو مجموعة من الوظائف أو الأنشطة المنبثقة من المخ وهو مادة (المادية الانثاقية) : ديدرو ، تشارلز داروين ، شنيرلا ، دونالددهب ، بندرا .	(٥) العقل والجسم (المادة) متفاعلان (التفاعلية) ديكارت ، ولیم مكبد وجل ، أيكلس ، كارل بوبر أيضاً ، مارجوليس .

وهكذا يتضح لنا أن مادية واطسون مؤسس السلوكية في علم النفس تختلف عن « مادية » فرويد مؤسس التحليل النفسي ، وهما اللذان صنفا عند النقاد الذين استخدموا حجة « مادية علم النفس » على أنهما في فئة واحدة . بل حقيقة الأمر أنه إذا كان واطسون مادياً مسرفاً (مادية الحذف والاختزال معاً) فإن فرويد ينتمى إلى الاتجاه الثنائى أو الاثنينى مع جعل الأولوية النسبية للعقل (أى ما ليس مادياً) . أضف إلى ذلك أنه لا تقتصر الاتجاهات في علم النفس الحديث في النظر إلى هذه المسألة على هذين الاتجاهين وحدهما . فجميع الاتجاهات المتضمنة في الجدول رقم (١) لها ممثلوها في هذا الميدان ابتداء من المادية المسرفة عند واطسون وحتى المثالية المسرفة عند وليم جيمس من قبل والفيينومينولوجيين من بعد .

وعلى هذا فإن تلخيص الموقف النظرى الراهن لعلم النفس على النحو الذى عرضه النقاد في مطلع هذه الفقرة ييسط الأمور على نحو يخل بالحقيقة من ناحية ، ويظلم هذا العلم من ناحية أخرى .

ومن الطريف أن بعض هؤلاء النقاد (مصطفى محمود ، ١٩٧٦ ، ١٩٨٨ ، وحسن الشرقاوى ، ١٩٨٨) يقبلون في نفس الوقت العلم « الطبيعى » بصورته كما يأتي بها الغرب ؛ فهذا العلم عندهم

« محايد » والحقائق العلمية فيه « واحدة » (مصطفى محمود ، ١٩٧٦) ، وهو علم من النوع التكنولوجى المسخر ليس حكراً على أحد دون غيره . بل هو علم يشترك فيه « الإنسان المؤمن وغير المؤمن » (حسن الشرقاوى ، ١٩٨٨) . ولا ندرى كيف غاب عنهم - وهم ينتقدون بضعة اتجاهات في علم النفس الحديث غلب عليها الطابع « المادى » - أن « المادية » فلسفة حياة . وإذا كانت قد تركت بصماتها صريحة - بحيث استطاع هؤلاء النقاد إدراكها - في بعض اتجاهات علم النفس - وربما غيره من العلوم الإنسانية والاجتماعية - فإن « جراثيمها » مضمرة خفية في العلوم « الطبيعية » التى يقبلونها ويتحمسون لها . ولا ندرى كيف لا يدرك هؤلاء النقاد وغيرهم ما أحدثته منابع العلم الطبيعى ومراجعته الأصلية « المحايدة » - كما يقولون - من صراع بين « العلم » و« الدين » لدى المسلمين من المثقفين والعامه . وقد أشار إلى هذه المسألة أحد علماء الجيولوجيا المسلمين المعاصرين (زغلول النجار ، ١٩٧٦) حين حلل مصادر التحدى الحضارى الذى يتعرض له المسلمون اليوم ، وخص منها « ما يحمله تيار العلم - الوافد إلينا من الغرب ، ومن الشرق - من خلفية إلحادية واضحة في طياته ، جعلت من الكفر بكل ما هو غير مادى سمة هذا العصر » .

وهذه « المادة العلمية » التي ترى أن الحقيقة كلها تكمن في المادة تمثل ما يسميه مؤرخ الحضارة الشهير توماس بري Thomas Berry (في أغروس وستانسيو ، ١٩٨٩ : ١٥) « النظرة القديمة للعلم » ، والتي تأسست على يد نيوتن في القرن السابع عشر ، وتأصلت على يد هولباخ في أواخر القرن الثامن عشر وأحرزت تقدماً هائلاً في القرن التاسع عشر ، ومفهوم النظرة عنده أشبه بمفهوم الوجهة أو المنظور Paradigm عند توماس كون (Kuhn, 1970) . إلا أن العلم منذ مطلع القرن العشرين تعرض لتغيرات جوهرية مثلت على حد تعبير بري « نظرة جديدة للعلم » أو « وجهة جديدة » له على حد تعبير كون . وكان أقطاب التغير عديدين ابتداء من أينشتاين ، وهايزنبرج ، ورذرفورد في الفيزياء ، ثم بنفيلد في مجال فسيولوجيا المخ ، وحتى ماسلو في ميدان علم النفس . وقد تغيرت نتيجة لذلك الأسس الفلسفية للعلم ، وبدأ التمييز في العلوم الطبيعية ذاتها بين الوجود الواعي والوجود المادي . وأصبح اختزال أولهما في ثانيهما محض عبث ميتافيزيقي . وأدلة بنفيلد النيروولوجية على وجه الخصوص أكدت ذلك . فالمخ هو « مقر الإحساس والذاكرة والعواطف والقدرة على الحركة ، ولكنه فيما يبدو ليس مقر العقل أو الإرادة » ، ومعنى ذلك « أن العقل البشري والإرادة البشرية ليس

لهما أعضاء جسدية » (أغروس ، ستانسيو ، ١٩٨٩ : ٣٩) ، وأن العقل لا المخ هو الذي يراقب ويوجه في وقت واحد . والعقل هو المسئول عن « الوحدة التي نحس بها في جميع أفعالنا وأفكارنا وأحاسيسنا وعواطفنا » (المرجع السابق : ٤٢) .

ويرى بنفيلد أن تشبيه المخ بالكمبيوتر هو تشبيه صحيح ، ومادام الأمر كذلك فإن هذا الكمبيوتر البيولوجي لا بد من أن ترجمه قوة قادرة على الفهم المستقبل ، وهو بالطبع هنا العقل . ويسخر من « المادية » سخرية لاذعة هنا حين يقول : إن توقع العثور على العقل في أحد أجزاء المخ أو في المخ كله أشبه بتوقع كون المبرج جزءاً من الكمبيوتر (المرجع السابق : ٤٢) ، وأي توقع بأن يقوم المخ أو بعض أجزائه - مهما تعقدت - بما يقوم به العقل أمر مستحيل تماماً . وبنفس الدرجة من الاستحالة توقع انبثاق العقل من المادة . وعلى ذلك فإن العقل جوهر متميز ومختلف عن الجسم .

ويخلص عالم النيروولوجيا الشهير وفيلسوف العلم الأشهر والحائز على جائزة نوبل في الطب السير جون إكلير Eccles من هذه النتائج إلى أن العقل والإرادة (والروح بالطبع) حقيقتان غير ماديتين ، وبالتالي فهما لا تخضعان بالموت

(ص ٨٥ - ٨٦) .

وهذه « القوة الثالثة » هي التي أطلق عليها فيما بعد (في مطلع السبعينات) اسم « علم النفس الإنساني » Humanistic Psychology ، وفيه تحتل « القيم » محور الاهتمام ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما شهده العقدان الأخيران من تطور في مجال « علم النفس المعرفي Cognitive Psychology - : نجدنا بالفعل بإزاء ثورة حقيقية في علم النفس الحديث ، يمكن استثمارها على نحو أفضل في أي محاولة لبناء وجهة إسلامية لعلم النفس . وهذا ما فعله فراجر (Frager, 1987) بالنسبة لعلم النفس الإنساني على وجه الخصوص .

(٣) بناء علم النفس على أساس الطبيعة الحيوانية للإنسان :

يوجه النقاد الإسلاميون إلى علم النفس نقداً آخر ، خلاصته أنه يبنى الطبيعة البشرية على أساس حيواني مسترشداً في ذلك بنظرية التطور . فإذا أضيف إلى ذلك أن نظرية التطور - كما يرونها - تنكر الخالق والخلق ، وتقول بالطبيعة المتطورة ، التي تحكمها قوانين تنازع البقاء ، و البقاء للأصلح - : أصبحت وجهة نظر علم النفس لا تعترف - عندهم - بالروح الإنساني الذي تميز به الإنسان عن بقية الحيوانات (محمد رشاد خليل ، ١٩٨٧) .

للتحلل الذي يطرأ على الجسم والمخ كليهما . وهكذا تحقق نبوءة كريس مريسون منذ بضعة عقود بأن « العلم يدعو للإيمان » .

ونموذجا السلوكية والتحليل النفسي - موضع نقد النقاد - ينتميان إلى « الوجهة القديمة للعلم » ، وبالطبع كان لابد « للوجهة الجديدة » أن تنعكس بآثارها على علم النفس في عصرنا الحالي . ولنأخذ شهادة اثنين من غير أهل الاختصاص حتى يكون موقفنا أكثر حياداً . لقد تناول (أغروس ، ستانسيو ، ١٩٨٩) أثر النظرة الجديدة على علم الفيزياء (نظرية النسبية وميكانيكا الكم) في التركيز على محورية العقل ، وعلى فسيولوجيا المخ التي أثبتت استقلال العقل واستحالة اختزاله إلى مادة ، ثم ينتقلان إلى علم النفس فيقولان : « وفي علم النفس المعاصر حركة تتجه إلى النتيجة ذاتها ، وهي أولية العقل . » ففى أعقاب الحرب العالمية الثانية شعر كثيرون من علماء النفس أن إخضاع العقل للغريزة في طريقة التحليل النفسي ، وإلغاء العقل في السلوكية ، قد أفضيا إلى تجريد الإنسان من إنسانيته في علم النفس ، معتبرين أن هذا موقف لا يطاق في فروع من فروع المعرفة مكرس لخدمة الجنس البشرى . وأخيراً التحمت في الخمسينات من هذا القرن قوة ثالثة في علم النفس إلى جانب القوتين الآخرين : التحليل النفسي والسلوكية «

وقبل أن نناقش هذه المسألة نذكر أن النموذج الحيوانية Animal modeling في تاريخ علم النفس اتخذت وجهتين أساسيتين : أحدهما سعت إلى التعميم الامتدادى (الاستكمال) من الحيوان إلى الإنسان ، والأخرى اتخذت الاتجاه العكس أى التعميم الامتدادى من الإنسان إلى الحيوان .

والتعميم الامتدادى (أو الاستكمال) extrapolation يقصد به مد ظاهرة معينة (أو وظيفة معينة) بحيث تتجاوز الحدود المعلومة لها . والمفهوم في أصله مفهوم رياضى ، ويتضمن في جوهره أن الوظيفة (أو الدالة) الممتدة - كما تظهر في صورة منحني رياضى - يجب أن تكون ممهدة Smooth ، ومتصلة continuous ؛ ولهذا إذا حدث أى خلل أو انفصال أو انقطاع فيها يؤدي ذلك إلى دحض التعميم أو الاستكمال وإثبات بطلانه .

ونبدأ الآن في مناقشة النوع الأول من التعميم ، أى الاستكمال من الحيوان إلى الإنسان ، وتفسير السلوك الإنسانى في ضوء البحث على السلوك الحيوانى ، وهذا الاتجاه ينتمى في جوهره إلى التقليد التطورى الكلاسيكى . وكانت السلوكية في جميع مراحلها أكثر دعائه حماساً وتطرفاً ؛ فاهتمت على وجه الخصوص بالتعلم البسيط ، وظهر عندها التمييز

المشهور بين الاشتراط الكلاسيكى والاشتراط الإجرائى ، وتجاهلت العمليات العقلية العليا ، وتبنت منطقاً - كان أقوى ممثليه كلارك هل - يرى أن هذه العمليات العليا يمكن اشتقاقها من المسلمات التى تحكم مبادئ السلوك الأساسية ، ومن خلال تطبيق مبادئ الاشتراط التى يجب أن تستخلص أولاً من نتائج البحوث على الحيوان أو على أبسط استجابات الإنسان . وفى رأى أصحاب هذا الاتجاه أن أى علم فعال للسلوك يجب أن يكون قادراً على اكتشاف الظواهر السلوكية الأولية حتى يمكن تحليل الأداء المعقد في ضوءها ، ثم إثبات مدى ملاءمة التحليل باستخدام التركيب المناسب .

وقد ظلت السلوكية الجديدة - عند كل من كلارك هل وسكندر - تنتظر لأكثر من عشرين عاماً (١٩٣٠ - ١٩٥٠) الوصول إلى الاشتقاقات الثانوية من المبادئ الأولية للسلوك البسيط لتطبيقها على «العمليات العليا» ، إلا أن ذلك لم يحدث لأسباب منهجية وأبستمولوجية تناولناها في موضع سابق (فؤاد أبو حطب ، ١٩٧٢) . بل فشلت بعض المحاولات - عند سكينر خاصة - لتفسير السلوك اللغوى عند الإنسان في ضوء قواعد التسلسل والتشكيل ، وكان هذا الفشل بداية لظهور علم اللغة الحديث عند

الأعلى » - : فإن هذا « الاتجاه المعرفي » للسلوك الحيواني يفتح الطرق للتحرك من أعلى إلى أدنى ، وفي كلتا الحالتين يستخدم المنهج التمثيلي ^(١) analogical .

وفي ضوء هذه الاستراتيجية أجريت دراسات عديدة نشأ عنها مجال خاص سمي « السلوك المعرفي المقارن » تناول ذاكرة الحيوان ، وخريطته المعرفية ، وتعلمه النمط التسلسلي من السلوك ، وذكاء الحيوان ، وسلوكه اللغوي (هولس وآخرون ، ١٩٨٣) . إلا أن هذا الاتجاه مرة أخرى لم يقدم أدلة على اتصال الإنسان بالحيوان . وكان مقتله مرة أخرى أيضاً في دراسة السلوك اللغوي . فقد أجريت سلسلة من البحوث على تدريب القردة والشيمبانزي والغوريلا على ما يشبه اللغة البشرية ، حظيت باهتمام بالغ من وسائل الإعلام وعرضناها بالتفصيل في موضع آخر (فؤاد أبو حطب ، ١٩٨٧) ، إلا أن النتائج أكدت مرة أخرى تفرد الإنسان واستقلاله بالسلوك اللغوي عن أي نوع حيواني آخر ، وهكذا سقط أيضاً افتراض « إنسانية » الحيوان .

وقد صاحب ذلك كله تغير جوهري في صميم « علم التطور » ، والخطأ الجوهري الذي لايزال شائعاً توهم أن هذا العلم لايزال حتى وقتنا الحاضر تسوده نفس النظريات التي صاحبت نشأته ، والتي

تشومسكي ثم علم النفس اللغوي فيما بعد (آمال صادق ، ١٩٨٩) . وهكذا كان موقف السلوكيين أشبه بشخصيات مسرحية صمويل بكيت الشهيرة التي ظلت تنتظر جودو الذي لا يجيء أبداً .

وظاهرة السلوك اللغوي خاصة أثبتت الفجوة والانفصال في دالة (أو منحني) الاستكمال من سلوك الحيوان إلى سلوك الإنسان . وقد دفع ذلك وغيره بعلماء النفس المعاصرين إلى تجاوز السلوكية ، واعتبار سلوك الإنسان « فئة مستقلة » . وبهذا أسقط علم النفس الحديث افتراض « حيوانية » الإنسان .

ويصدق نفس القول على الاتجاه العكسي في الاستكمال : أي من الإنسان إلى الحيوان . ونحن أن نذكر أن الأساس النظري للاتجاهين واحد ، وهو افتراض مبدأ المتصل . البيولوجي biological continuum بين الأنواع ، وهو مبدأ يتضمن بالطبع احتمال التعميم في اتجاهي المتصل . وخلاصة هذا الاتجاه استخدام مفاهيم الخبرة الإنسانية - وخاصة العمليات المعرفية - في وصف سلوك الحيوانات الأخرى ، وهذا - في رأي هونج Honig - أيسر في وضع الصيغ النظرية (في Hulse, et. al 1978) . وإذا كان الاستكمال من النوع الأول يتحرك صاعداً في المتصل البيولوجي « من الأدنى إلى

اقترحها العالم الفرنسي لا مارك (١٧٤٤ - ١٨٢٩) ، والعالم البريطاني تشارلز داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢) في القرنين الماضيين . لقد أصبح هذا العلم في الوقت الحاضر يجمع أدلته من عدة فروع بيولوجية متطورة هي على وجه الخصوص : علم التشريح المقارن ، وعلم الأجنة ، وعلم التصنيف الحيواني ، وعلم الحفريات ، وعلم التوزيع الجغرافي للحيوانات ، وعلم وظائف الأعضاء ، وعلم الوراثة . كما أصبحت تسوده الآن نظرية ذات مواصفات مختلفة عن النظريات الكلاسيكية السابقة هي النظرية التركيبية الجديدة والتي نمت حثيثا طوال السنوات الخمسين الماضية ولاتزال تنمو حتى الآن ، ولا يتسع المقام لتناولها ويمكن الرجوع إلى أحد المصادر المبسطة المتخصصة (علم الدين كمال ، ١٩٧٣) . ويكفي أن نذكر مجموعة من الحقائق الهامة التي يتفق عليها علماء البيولوجيا وعلماء النفس في هذا الصدد ، وهي :

(أ) أن بحوث التطور أثبتت وجود ما يسمى الآن الخصائص المميزة للنوع species - specific ، وهذا يعني أن الاختلاف بين الأنواع اختلاف كيفي ، أي اختلاف في النوع ، وليس في الدرجة كما كان شائعا من قبل (هولس وزملاؤه ، ١٩٨٣) .

(ب) أن علماء التطور لا يقولون بانحدار

الإنسان من أصل حيواني (وخاصة القرد كما يشيع بين عامة الناس) . فإذا كانت لكل نوع حيواني خصائصه المميزة له كفيها ، فلا بد أن يكون للإنسان بالضرورة ما يميزه كفيها عن المستوى الحيواني مهما بلغ رقيه .

(ج) أن عدم الاتصال بين الإنسان والحيوان في مظاهر بيولوجية كثيرة يؤكد مرة أخرى استقلال الإنسان وتميزه ؛ فالتعميم الامتدادي في هذه الحالة لا تتوافر فيه قواعد الاستكمال الصحيح ، كما سبق أن أوضحنا (Blackman, 1983) .

(د) أن بحوث علم النفس الحيواني لا تعنى بالضرورة أي معنى تطوري ، ففي بعض الأحيان يكون ذلك لدراسة سلوك الحيوان في ذاته . كما أن اللجوء إلى دراسة الحيوان قد يكون لأسباب « قيمية » تتصل باستحالة البحث على الإنسان في بعض الأحوال . بالإضافة إلى أن بعض الحيوانات تصلح لأنواع معينة من البحوث . ناهيك عن الظروف العملية الميسرة التي تهيؤها دراسة الحيوان (راجع ديفيد وف ، ١٩٨٣ : ٢٧ - ٢٩) .

(هـ) أن قبول حقيقة التطور في العلوم البيولوجية لا يعني بأي حال من الأحوال أي تشكك في الإيمان ؛ فكثيرون من علماء هذا العلم يؤمنون بأن جميع العمليات التطورية لم تحدث جزافا بل بإرادة الخالق

سبحانه وتعالى (علم الدين كمال ،
(١٩٧٣) .

(و) أن دراسة السلوك الحيواني قد تفيدنا
في فهم السلوك الإنساني في بعض أحواله
وخاصة حين ينحط إلى هذا المستوى ،
فتغلب عليه الغريزة ، ويفقد العقل قدرته
على التحكم فيه ، ويظهر ذلك خاصة في
بعض حالات المرض أو الانحراف .

وهكذا تبدو لنا أن حجة اتهام علم
النفس الحديث بأنه يحط من شأن
الإنسان ، ويخلع عليه طابعاً « حيوانياً » قد
تجاوزها هذا العلم منذ أكثر من ثلاثين
عاماً ، وكان النقد داخلياً أكثر منه
خارجياً ، وقد ساعد ذلك علمنا على
مسايرة تيار العصر في فلسفة العلم على
النحو الذي بيناه في الفقرة السابقة (حول
مادية علم النفس) .

(٤) الربط بين علم النفس والتحليل
النفسى (وخاصة عند فرويد) :

لا يكاد يرى النقاد الإسلاميون -
باستثناءات قليلة - من علم النفس وعلمائه
إلا العالم النمساوي الشهير سيجموند فرويد
Sigmund Freud (١٨٥٦ -
١٩٣٩) ، حتى إننا لا نتجاوز الحقيقة إذا
قلنا إنه أكثر الشخصيات - وربما بعد ، أن
لم يكن قبل ، كل من كارل ماركس
وتشارلز داروين - استهدفاً للنقد ، وهو
على وجه اليقين أكثر الشخصيات

السيكولوجية تعرضاً له . وقد أدى ذلك
إلى تبسيط المسألة ، وأشاع بين الناس لونا
من التطابق ، والخلط بين علم النفس
Psychology والتحليل النفسى
Psychoanalysis ، وبين المهنيين
الممارسين لكل من هذين المجالين ، وأضيف
إلى ذلك خلط جديد ، صنعه أيضاً النقد
المتسرع ، بين علم النفس والطب العقلي
Psychiatry . وقبل أن ندخل إلى جوهر
الموضوع لابد من الإشارة هنا بإيجاز إلى ما
نذكره لطلابنا المبتدئين في علم النفس تمييزاً
لهم بين المجالات الثلاثة .

فالأخصائى النفسى Psychologist -
وهو المتخصص في علم النفس - يمارس
مهاماً مختلفة في مجال الحياة العملية ، ومنها
مهمة الأخصائى الكلىنىكى ، وعندئذ قد
يعمل مع طبيب الأمراض العقلية
Psychiatrist والمحلل النفسى
Psychoanalysit في أحد مراكز الصحة
النفسية ، أو إحدى عيادات (أو
مستشفيات) العلاج النفسى ؛ وقد يكون
في ذلك مصدر الخلط والغموض إلا أن
الاختلافات الجوهرية بين الفئات الثلاثة
ترجع إلى نوع الإعداد الذى يتلقاه كل
منهم ، ونوع العمل الذى يمارسه في مهنة
العلاج النفسى : فالأخصائى النفسى
يتخرج عادة في أحد أقسام علم النفس (في
كلية الآداب أو التربية أو العلوم) ؛ ليعمل
أساساً في مجال البحوث وتقديم الخدمات

النفسية في مجالات الحياة اليومية للإنسان (التوجيه والانتقاء المهني والتعليمي مثلاً) ، فإذا كان عليه أن يعمل في المجال الكلينيكي يصبح عليه أن يتلقى تدريباً منظماً (بمواصفات معينة) على أساليب التشخيص والعلاج النفسي ؛ وفي ممارسة التشخيص والعلاج لا يلجأ مطلقاً إلى الإجراءات الطبية الفنية ، فهو ينتمي إلى فئة « المعالجين النفسيين من غير الأطباء » ، وفي جميع الحالات عليه أن يحصل من الجهات المسؤولة (عادة وزارات الصحة) ترخيصاً بممارسة هذا اللون من العلاج النفسي .

أما طبيب الأمراض العقلية (أو الأمراض النفسية كما أشاعها الأطباء أنفسهم تخفيفاً لوقع المصطلح الأصلي) فهو طبيب يتخرج في كلية الطب ويخضع لبرنامج الإعداد الخاص بالأطباء ، وهو بالطبع مدرب على استخدام الإجراءات الطبية المختلفة مثل العقاقير والجراحة وغيرها .

أما المحلل النفسي فيتم إعداده أيضاً في كلية الطب^(٢) وعادة ما ينتسب إلى فئة الطب العقلي وليس إلى علم النفس ، إلا أن الفرق الجوهرى بين المحلل النفسي وطبيب الأمراض العقلية المعتاد أن التحليل النفسي يتطلب من صاحبه التعمق في نظريات فرويد للشخصية ، وطرق العلاج المستندة إليها ، وذلك في معهد متخصص في هذا

اللون من التدريب حيث يخضع هو نفسه (أى المعالج) لهذا التحليل النفسى . وعلى الرغم من أنه من الوجهة النظرية يمكن لأى سيكولوجى أن يصبح محلاً نفسياً (مادام التحليل النفسى لا يستخدم الفنيات الطبية الخاصة) ، إلا أن معظم معاهد التدريب على التحليل النفسى لا تقبل سوى الأطباء ؛ ولهذا يعتبر التحليل النفسى في الوقت الحاضر فرعاً من الطب العقلي .

وكان يمكن لعلم النفس أن يتجنب الكثير من المشكلات لو ظل التحليل النفسى في حدوده الأصلية ، أى ممارسة طبية مهنية خالصة إلا أنه سرعان ما دخل التيار السيكولوجى الأساسى ، وظهر له قليل من الأشباع بين علماء النفس أنفسهم ، وداخل أقسامهم التخصصية التى تقع بالطبع خارج نطاق كليات الطب . وكان يمكن لمعرفة هذه الحقائق التى تؤكد أن أصحاب التحليل النفسى من السيكولوجيين ليسوا إلا شريحة قليلة العدد ، محدودة الأثر في علم النفس - أن تجنب النقاد الإسلاميين شن تلك المعارك الضارية على علم النفس ، وكأن فرويد وتياره هما وحدهما هذا العلم .

بعد ذلك نتقل إلى الصورة التى يقدمها النقاد الإسلاميون لفرويد وللتحليل النفسى فنجدها صورة مختصرة نمطية قد يمثلها هذا الوصف الذى يكرره مصطفى محمود في

(هـ) الإحساس بالذنب ، والتوبة ، والندم هي بهذا المعنى عقد نفسية وأمراض يلزم التخلص منها .

(و) استخرج فرويد وأتباعه تلك النظريات من دفتر مرضى الهستيريا والنورستانيا والملائخوليا ، ثم عموها على الأصحاء والأسوياء ، وجعلوا منها قانوناً لا يتخلف .

وتعقياً على هذه الصورة « النمطية » الشائعة عن فرويد وأفكاره نقول : إن نظريته في التحليل النفسي أكثر تفصيلاً وتعقيداً من ذلك ، فهي أولاً نظرية في الشخصية ، وقد عرضها بنجاد وموضوعية شديدين (Hall & Lindzey, 1978) ، كبنية structre تتألف من الهو والأنا الأعلى ، وديناميات dynamics تشمل الغريزة والطاقة النفسية ، والميكانيزمات (الحيل) الأساسية للأنا ، والتي شملت عنده : التقمص ، والإزاحة ، والنقص ، والإسقاط ، والتكوين الضدى . وهي ثانياً نظرية في العصاب (المرض النفسي) ، والتي تناولها بالتفصيل (Fenichel, 1945) ؛ وهي ثالثاً نظرية في النمو الإنساني عرضها أيضاً بالتفصيل (Thomas, 1979) ؛ وهي رابعاً مجموعة من الفنيات العلاجية والمنهجية (التداعى الحر ، تحليل الأحلام ، دراسة الحالة ، التحليل الذاتى ، .. الخ) ؛ ثم هي خامساً تطبيقات

معظم كتاباته ، لعل آخرها مقال عام ١٩٨٨ (مصطفى محمود ، ١٩٨٨) والتي نعرضها - بلغته هو - قدر الإمكان :

(أ) النفس في تصور فرويد غرائز تطلب الإشباع في طرف ، ثم بيئة مادية هي مجال لهذه النفس ومحل لفعالها وانفعالها في طرف آخر ، ثم لا شيء وراء ذلك : لا روح ، ولا إله ، ولا غيب ، ولا شيء من وراء هذه الدنيا المادية الكثيفة الغليظة : الغرائز ، واللاشعور ، والطاقة الجنسية هي الإله الحاكم ، والكل في خدمته .

(ب) السنوات الخمس الأولى في حياة الطفل هي التي تحدد سلوكه ونفسيته إلى ما تبقى من سنوات عمره .

(جـ) ما نفعله ، وما نفكر فيه ، وما نحلم به يتم في جبرية وحتمية تبعاً لما ينفثه فينا اللاشعور والعقل الباطن .

(د) الإنسان مدفوع دائماً بقوى لا معقولة وملقى به نحو أفعال قهرية لا تبصر فيها ولا روية ، وهو مغلوب على أمره لا حيلة له ولا مخرج ، وكل ما يملكه العقل هو أن يحاول تبرير هذه الرغبات البهيمية ، والبحث عن وسائل مقبولة لإشباعها ، أو التسامى بها ليزاوها بصورة أجمل ، أو الانتكاس بها إلى حالات هستيرية تنفس عن غليانها .

« جرافية » - على حد تعبير هول ولندزى (Hall & Lindzey, 1978) - في العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى ، وفي مجال الفنون والآداب والإنسانيات والدين ؛ ثم هي أخيراً تنتمي إلى فلسفة معينة للعلم .

وقد تعرضت هذه الجوانب جميعاً للنقد طوال تاريخ علم النفس ذاته ، ولئن نكرر هنا ما هو شائع ومألوف في المؤلفات الأولية في علم النفس ، وسوف نكتفى بتناول ما يتصل بفلسفة العلم التي تنتمي إليها هذه النظرية لارتباطها بموضوع بحثنا .

وبإيجاز نقول : إن نظرية فرويد خاصة - والتحليل النفسي عامة - ينتميان إلى « النظرية القديمة » للعلم بالمعنى الذي أشرنا إليه عدة مرات من قبل . فالحتمية والميكانيكية الصارمة والتي كانت من خصائص العلم حتى نهاية القرن التاسع عشر ، انتقلت إلى التحليل النفسي كما انتقلت من بعده إلى السلوكية ، وهي جميعاً تتفق مع التصور المادي للطبيعة البشرية ، الذي عرضناه ناقدين من قبل ، ويعرض أغروس وستانسيو (١٩٨٩) هذا الموقف بصورة بليغة في العبارات الآتية :

« لو كان الإنسان مجرد كائن مادي - كما تزعم النظرية القديمة - لكان من المعقول أن نتخذ أشياء مادية أبسط - كالآلات - نماذج للسلوك البشري ، فلكل آلة قوة دافعة تشغيلها ، كالبخار أو الكهرباء أو

الاحتراق الداخلي . وعلى ذلك كان أهم عنصر في الإنسان ، وفقاً لعلم النفس في النظرية القديمة هو قوته الدافعة . والقوى المادية في الآلة الإنسانية تتخذ شكل غرائز وانفعالات ، وهي مصدر جميع الأعمال التي يقوم بها الإنسان . أما العقل فلا يملك زمام الأمر ؛ لأنه نتاج ثانوي للمادة . إذا فمفتاح سر النفس البشرية يكمن في اكتشاف أقوى غريزة أو عاطفة تدفع الإنسان وتطغى على كل ما عداها . »

وإذا كان توماس هوبز أول الماديين الاجتماعيين قد اختار الخوف من الموت باعتباره الغريزة السائدة ، وركز مالتوس على غريزة الجوع ؛ فقد كان تركيز فرويد أخيراً على الجنس ، وقد ساير فرويد روح « العلم القديم » في عصره ، فكان مادياً اختزالياً أيضاً - كما حدث للسلوكية من بعده . وعلى الرغم من أن هناك من ينفي عنه هذه الصفة (Wolman, 1984) فإن كتابات فرويد نفسه تؤكد هذا ، وخاصة تلك الرسالة المعنونة بـ « مشروع لسيكولوجيا علمية » ، والتي يصفها مصطفى زيور (١٩٨١) ، بأنها محاولة « حاول أن يضم فيها بنظرية واحدة شاملة علم النفس المرضى وعلم النفس العام وتشرح المخ وفسولوجيته » ، والتي فسر فيها الظواهر النفسية على أنها ترد إلى أصول فيزيائية كيميائية . وهذه وغيرها من

الجنس عند فرويد ، وتفسيراته الأسطورية (عقدة أوديب وعقدة الكترا ، وغيرها مما تجاوزه العصر) ، ويهوديته بل صهيونيته . ولعل هذا الصمت - والأخطر منه المشاركة في نفس الحملة من جانب بعض علماء النفس - يصل بهم إلى حد الشلل الكامل أو العجز المطلق عن مسابقة روح « العلم الجديد » التي تفتح لهم آفاق أرحب لهم قبل غيرهم .

(٥) رفض التجريب في علم النفس :

من الحجج الأخرى التي يشرعها النقاد الإسلاميون لعلم النفس ضده - : رفضهم لاستخدام المنهج التجريبي فيه . وفي ذلك يقول مصطفى محمود (١٩٧٦) : إن « علم النفس التجريبي - أيضاً - هو كذبة كبرى ؛ لأن النفس ذات كلية ، ولا يمكن تحويلها إلى موضوع أو تشريحها تحت المجهر ، وهي بالتحليل والتشريح شيئاً آخر غير النفس الحية المطلوب فهمها . والنفس بطبيعتها تغلب وتستعصى على التجريب ، وإذا اقتطعت من النفس جانباً في عملية التحليل فإن ما تراه لا يكون هو النفس ؛ لأن النفس كل لا يقبل التجزئة ، وواحد لا يقبل القسمة » . ويصدر حكماً عاماً على علم النفس التجريبي بقوله (مصطفى محمود ، ١٩٨٨) : « إن ما فعله علماء النفس المتأخرون - بعد فرويد كان أسوأ ؛ لقد أخرجوا هذا الإنسان من بيئته

مكونات « العلم القديم » قد سقطت - كما بينا من قبل - بظهور معالم « العلم الجديد » منذ مطلع القرن العشرين ، والتي اندمجت خصائصه في علم النفس منذ خمسينات هذا القرن لتحول وجهته إلى الاتجاهين المعرفي والإنساني اللذين هما السيادة عليه في عصرنا . إلا أن هذا لا يعنى بالطبع استبعاد كل مكونات « العلم القديم » . فبعض عناصر النسق الفرويدي تواترت أدلة على صحتها ، ولعل أهمها دور خبرات الطفولة المبكرة في تكوين شخصية الإنسان ، ودور اللا شعور والدوافع اللا شعورية في سلوك الفرد ، وأهمية مفهوم دفاع الأنا ego - defense ضد القلق ، ودور الميكانيزمات (أو الحيل) الدفاعية في حل مشكلات الصراع النفسي (محمد عثمان نجاتي ، ١٩٨٠) ، وهذه جميعاً يمكن استثمارها بفعالية في بناء « العلم الجديد » .

وخلاصة القول أن الهجوم على علم النفس من خلال فرويد والتحليل النفسي يمكن وصفه بأنه من نوع حرب « طواحين الهواء » . وبالطبع فإن لشهرة فرويد وانتشاره الهائل أسباب ثقافية وحضارية ، بل وأيديولوجية لا يتسع المقام لتناولها . إلا أن هذا لا يعنى أن يصمت علماء النفس من العرب والمسلمين على التشويه شبه المتعمد لمبادئهم ، وتحويله إلى بؤرة للدعاية الرخيصة ، لا هم لها إلا التركيز على فكرة

الطبيعية ، وأدخلوه العمل ، فيما يعرف الآن بعلم النفس التجريبي .

والواقع أن حكمنا العام على هذه الحجة - وغيرها مما تناولناه وسنتناوله - بأنها نوع من خلاصة « القراءات الخارجية » من غير أهل الاختصاص ، وفي مجملها لا تتفق مع كثير مما هو شائع ، وموطد ، ومستحدث في علم النفس من ناحية ، وفي نظرية المعرفة « الإستمولوجيا » من ناحية أخرى .

فمن حقائق تاريخ علم النفس أولاً أن علم النفس التجريبي لم يأت بعد فرويد . فأى قارئ لكتاب مبتدىء في تاريخ علم النفس يعلم أن أول معمل لعلم النفس التجريبي أنشئ في جامعة ليبزخ في ألمانيا على يد ولهم فوندت عام ١٨٧٩ ، بينما صدر كتاب « تفسير الأحلام » لفرويد - وهو الكتاب الذى عرض فيه أساسيات التحليل النفسى - عام ١٩٠٠ . بل إن ميلاد علم النفس « العلمى » الحديث ينسب إلى فوندت ولا يكاد يمتد إلى فرويد بوشيجة نسب .

ومن حقائق علم النفس التجريبي ثانياً أنه لم يقصر بحوثه على « المعمل » وتجاهل البيئات الطبيعية للإنسان ، وحسبنا للرد على هذا القول أن نقول : إن كثيراً من الوقائع التى توافرت لعلم النفس الحديث تم التوصل إليها بالتجريب في مجالات كثيرة

خارج المعمل وفي « البيئات الطبيعية » للإنسان ؛ ومن ذلك بحوث علم النفس الاجتماعى ، وعلم النفس التربوى ، وعلم النفس الصناعى ، وعلم النفس التنظيمى والإدارى .

ومن حقائق هذا العلم ثالثاً أن علماء النفس يميزون بين ثلاثة مستويات للبحث العلمى فيه هى المستوى الأساسى basic والمستوى التطبيقى applied والمستوى التكنولوجى technological (مستوى الفنون العملية) . ويقوم اتجاه البحوث الأساسية على افتراض أن المبادئ التطبيقية ، والفنون العملية التكنولوجية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتقدم الذى تحرزه البحوث الأساسية التى تعتمد عليها . وفي نفس الوقت يعى علماء النفس أن البحث في العلوم الأساسية يهتم باكتشاف القوانين العامة ، وبالطبع لا يعترض الباحثون في العلوم الأساسية للنفس على تطبيق نتائج بحوثهم على المشكلات التطبيقية والعملية ، إلا أن تصميم البحوث الأساسية - كغيرها من البحوث الأساسية في المجالات الأخرى - لا يتضمن في العادة أى اهتمام بمشكلات التطبيق والمواقف العملية . فالبحوث الأساسية تهدف في جوهرها إلى تقدم المعرفة ؛ ولذلك عادة ما تكون نتائجها على درجة كبيرة من العمومية تتعدى حدود التطبيق المباشر ، كما أن صياغة القانون العلمى العام أو المبدأ العلمى

عرضها - بالتفصيل في مجال التربية - فؤاد أبو حطب وآمال صادق (١٩٨٤ : ٣٤ - ٤٢) . ويمكننا أن نصف انتقال القانون العلمي من معمل البحث الأساسي إلى ميدان التطبيق ، والاستخدام مباشرة - دون أن يمر بالخطوات الوسيطة - بأنه نوع من « الانتحار العلمي » ، وبالطبع فإن نقله ، على نفس القياس ، هو نوع من « القتل العلمي » لهذا القانون .

ويمكن أن تتضح خطورة ذلك إذا تصورنا حدوث ما يشبهه في ميدان الطب ، أى حين يستخدم الأطباء في علاجهم للإنسان الأساليب الجراحية والعقاقير السامة وغيرها من الأساليب العلاجية التي ثبتت صحتها في أنابيب الاختبار وحدها أو من خلال التجربة على الحيوانات فقط (فؤاد أبو حطب ، آمال صادق ، ١٩٨٤) .

وبالطبع فإننا في جميع مستويات البحث التي أشرنا إليها مجتمعة فيما سبق يمكن أن نستخدم المنهج التجريبي كما يستخدم غيره من طرق « الملاحظة » التي يعتمد عليها علم النفس - باعتباره ينتمى إلى العلوم التجريبية الإمبريقية empirical أو الخبرية experiential . وبالطبع فإن هذه « الملاحظة العلمية » لا تقع بالضرورة في السياق التجريبي وحده ؛ فبعض مشكلات علم النفس وقضاياها تعتمد على طرق أخرى كالملاحظة في المواقف الطبيعية

العام لا تتضمن في ذاتها طرق التطبيق أو وسائل الاستخدام . ويتطلب الأمر بالطبع من أصحاب الاهتمامات التطبيقية العملية تحديد الغايات ، وتوصيف الشروط على هذا المستوى مما يتطلب إجراء بحوث جديدة (قد تستخدم هي ذاتها المنهج التجريبي بالطبع) . ويؤدي ذلك بنا إلى فهم الطريقة التي يعمل بها القانون العام في الحالة الخاصة أو الموقف الخاص . وهذا أشبه بأن معرفتنا بقوانين الانشطار النووي لا تدلنا في ذاتها على طريقة صناعة القنبلة الذرية أو النظائر المشعة .

وبالطبع فإن مشكلة عمومية القوانين الأساسية في علم النفس أكثر تعقداً وتركيباً منها في الميادين الأخرى ؛ لأنها تتطلب - عند التطبيق أو الاستخدام - « إضافة » عوامل جديدة قد تغير كيفياً في المبادئ أو القوانين العامة المشتقة من البحوث الأساسية . فمثلاً قد نجد أن طرق التعلم التي يستخدمها الأطفال في حفظ المقاطع عديمة المعنى أثناء تجربة معملية في بحث أساسي تختلف عن تلك التي يستخدمونها في تعلم مادة دراسية لها معنى في حجرة الدراسة ؛ ولهذا نبه علماء النفس كثيراً إلى أن الانتقال من البحوث الأساسية - والتي قد يجرى بعضها على الحيوان - إلى البحوث التطبيقية ، وفنون الممارسة العملية يحتاج إلى خطوات انتقالية متتابعة ،

naturalistic ، ودراسة الحالة في المواقف الكلينيكية ، وغيرها من الطرق التي تتسع لها المؤلفات المتخصصة في مناهج البحث في علم النفس ، ولا يتسع المقام لأي تفصيل فيها ، وحسبنا أن نشير إلى المنهج التجريبي باعتباره موضع هجوم النقاد الإسلاميين .

يمكن أن نتحدد الخصائص العامة للمنهج التجريبي كما يستخدم في مختلف مجالات المعرفة ومنها علم النفس فيما يلي (Kling & Riggs, 1972) :

(أ) يبدأ الباحث في التجربة - كما يبدأ في حالة استخدام الطرق الأخرى للبحث - بغرض محدد في ذهنه ، وقد يكون ذلك في صورة سؤال عام يسعى للإجابة عليه أو فرض خاص ينشد اختباره والتحقق منه . وحينئذ عليه أن يحدد جانب - أو جوانب - السلوك موضع ملاحظته : (الإدراك - الانفعال - الانبساط ، ... الخ) وكيف تلاحظ .

(ب) يهيئ المجرّب بنفسه الفرص والظروف التي تتم فيها ملاحظة السلوك موضع الاهتمام ، كما يعد طرق الملاحظة وإجراءاتها حين يكون مستعداً تماماً لقياس وتسجيل هذا السلوك ؛ وبهذا يكون مهيباً للملاحظة تحت أفضل الظروف الممكنة . وعن طريق تحكمه وضبطه للوقائع التجريبية يمكنه أن يعيد إجراء هذه الوقائع تحت شروط مضبوطة ، وبالتالي يمكن

التوصل إلى تحديد درجة اتساق واطراد حدوث الظاهرة موضع البحث .

(ج) مع ضبط المجرّب شروط الملاحظة في الموقف التجريبي - : يمكنه معالجة هذه الشروط بطريقة منتظمة ، ويسمح له ذلك بتحديد تأثير التغيرات التي يحدثها في بعض هذه الشروط (ما يسمى المتغيرات المستقلة) في السلوك موضع الاهتمام (ما يسمى المتغيرات التابعة) .

(د) يقوم الباحث بالوصف التفصيلي لشروط الملاحظة التي قام بها كما يوصف الإجراءات التي استخدمها ؛ وبذلك يهيئ الفرصة لغيره من الباحثين أن يعيدوا إجراء التجربة تحقيقاً لشرط قابلية النتائج للاستعادة أو التكرار .

وقد نجح علم النفس التجريبي طوال قرن من الزمان - هي عمره الحديث - أن يجري تجاربه الناجحة داخل المعمل وخارجه ، إننا نستطيع القول إن جميع موضوعات علم النفس التي يستخدم في دراستها المنهج التجريبي مثل : الإحساس ، والإدراك ، والتعلم ، والعمليات المعرفية ، والظواهر الفسيولوجية تدخل في باب علم النفس التجريبي ، كما يشمل الميادين والاهتمامات التجريبية في فروع علم النفس الأخرى مثل : سيكولوجية النمو ، وعلم النفس التربوي ، وعلم النفس الصناعي ، وعلم النفس الإداري والتنظيمي ، وعلم

الغربية الحديثة . وإذا كنا نعثر بجابر بن حيان مؤسس علم الكيمياء التجريبي ، وأبى بكر الرازي مؤسس علم الطب التجريبي ، وابن الهيثم مؤسس علم البصريات ، وأبى القاسم الزهراوى مؤسس علم الجراحة ، والشريف الإدريسي مؤسس الجغرافيا الإمبريقية ، وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى على أسس تجريبية ، وابن خلدون مؤسس علم الاجتماع - : فلماذا ننكر على علم النفس استخدام المنهج التجريبي .

وبالطبع فإن المنهج التجريبي يتضمن تركيزاً على بعض سلوك الإنسان ، وفي هذا نوع من التحليل الذى يرفضه نقاد علم النفس ، وهذا الرفض ليس جديداً فى السياق السيكلوجى ذاته ، فتاريخ الصراع بين المدرسة التحليلية والمدرسة التركيبية الكلية (والتي سميت أحياناً بمدرسة الجشطالت وأحياناً بمدرسة المجال) تاريخ معروف مألوف للمبتدئ فى علم النفس . وليست الحجج التى سيقى - وأشرنا إليها آنفاً - بمجديدة على الميدان . إلا أن الخطأ الذى وقع فيه أصحاب هذا الجدل بأطرافه جميعاً هو التزامهم الصارم بأحد أطراف ثنائية التحليل - التركيب دون محاولة التأليف الابتكارى بينهما ، وهو منهج إسلامى فى جوهره . وقد سبق للمؤلف (فؤاد أبو حطب ، ١٩٨٣) أن ناقش هذه المسألة بشيء من التفصيل . ولحسننا

النفس الكلينيكى سواء أكانت هذه الفروع أساسية أم تطبيقية ، وسواء كانت تتناول سلوك الكائنات العضوية (الإنسان والحيوان) السوية أو غير السوية . ولكى يدرك القارئ حجم الإنجاز العظيم الذى حققه علم النفس التجريبي فى مجالاته الأساسية فقط (دون التطبيقية) خلال السنوات الأربعين الماضية (ابتداء من عام ١٩٥١) - : يمكنه أن يطالع المرجع الضخم الذى صدر مؤخراً تطويراً لكتاب ستيفنس الشهير حول علم النفس التجريبي (Arkinson, et al, 1988) .

وهذا المنهج التجريبي الذى يؤكد لعلم النفس « علميته » لا يتعارض مع قيم ومبادئ وتعاليم الإسلام ؛ فالإسلام قد دعا إلى البصر فى النفوس ودراستها ، وفى كثير من المواضع التى أشار فيها القرآن الكريم إلى التفكير فى آيات الله فى الكون أشار أيضاً إلى التفكير فى آيات الله فى النفس ؛ وهذا فى رأينا - والله أعلم - دعوة صريحة فى كتاب الله تعالى إلى استخدام نفس مناهج دراسة الكون - ومنها المنهج التجريبي - فى دراسة النفس ؛ لأن دراسة الكون والإنسان واكتشاف سنن الله وتأمل آياته فيهما من أعظم الأدلة على إبداعه سبحانه وتعالى وقدرته فى خلقه ، ناهيك عن أن « المنهج التجريبي » هو فى جوهره من ابتكار الحضارة الإسلامية ، وليس إنتاجاً فريداً للحضارة

هنا أن نقول : إن الملاحظة باعتبارها جوهر « العلم التجريبي » الذي يخص عليه الإسلام - : هي عملية تحليلية ، والتحليل هنا لا يكون إلا للخصائص أو الأفعال ، فالأشخاص كالأشياء بخصائصها وسماتها ، كما أنها - أي الأشخاص لا تتميز إلا بأفعالها . فنحن نصف الشيء بأنه مستدير أو حاد أو ثقيل أو بهذه الصفات جميعاً ، وبالمثل فإننا نصف الشخص بأنه يستجيب بسرعة أو بعنف أو بدقة أو بغير ذلك من الطرق ؛ ولذلك فمن العبث القول : إننا نحلل « الأشياء » أو « الأشخاص » وإنما نحن نحلل صفات هذه الأشياء وخصائص وأفعال هؤلاء الأشخاص .

والخصائص والأفعال هي تجريدات نصل إليها بتحليل الكليات . وتجريد إحدى السمات من كلية معينة لا يؤثر فيها ؛ لأنها تظل ثابتة محتفظة بكيانها الكلي الذي هو عليه قبل التحليل ؛ فوصف البرتقالة بأنها صفراء اللون ، سكرية الطعم ، كروية الشكل لا يقضى على « كيان » البرتقالة ككل ، أو على « وجودها » المتميز بذاته . وكذلك فإن وصف الشخص بأنه عدواني في انفعالاته ، متوسط في ذكائه ، عملي في ميوله ، محافظ في اتجاهاته ، لا يؤدي إلى « تجزئة » الشخص أو القضاء على « وجوده » ككل .

ولا يستطيع أحد (حتى أكفأ العلماء) أن يزعم أن تجريداته مهما تعددت وتنوعت تستغرق الشيء ، أو الشخص الذي يلاحظه أو تصفه وصفاً كاملاً ، ومع هذا فإن ذلك ليس سبباً كافياً لرفض المنهج التحليلي ؛ لأن ملاحظتنا يمكن أن تكون « عينة » على قدر كاف من الشمول إذا توافر لدينا الجهد والوقت .

وفي جميع الحالات يجب أن يتبع الباحث منهجه التحليلي بنظرة تركيبيّة بنائية تكاملية ترسم « البروفيل » النفسي الذي يربط بين مختلف الخصائص والسمات حتى يحدد « النمط الكلي الفريد لهذه السمات » والذي يميز الشخص أو الشخصية ، والباحث النفسي هنا يشبه الفنان الذي يرسم صورة مجمعة identikit ، وهي عادة ما تكون صورة لشخص غير محدد مقدماً ، يرسمها الفنان اعتماداً على السمات أو الصفات التي يشهد الشهود أنها تشبهه . ويتطلب هذا بالطبع دقة في استخدام منهج التحليل أولاً ليزود الفنان بمجموعة كافية من التفاصيل والأجزاء . وتتوقف درجة اقتراب الصورة المجمعة من الحقيقة الموضوعية الخارجية على مقدار هذه الأجزاء والتفاصيل ودرجة الدقة في وصفها . وبالمثل فإن دقة وصفنا « للنمط الكلي الفريد للخصائص الإنسانية » - وهو تعريف الشخصية كما يستخدمه المؤلف (فؤاد أبو حطب ،



(١٩٨٣) يتوقف على كفاية منهجنا التحليلي في تحديد هذه السمات .

(٦) التهوين من شأن الاكتشاف في علم النفس :

من الانتقادات التي وجهت إلى علم النفس أن ما يزعمه « اكتشافاً علمياً » ليس في حقيقة الأمر كذلك ، ويضرب محمد رشاد خليل (١٩٨٧) على ذلك بمثال الاشتراط ، ويرى أن هذه الظاهرة معروفة تماماً للإنسان منذ أقدم العصور ، وبها استطاع أن يستأنس ويدرب الطيور والحيوانات .

ويتفق علماء النفس مع نقادهم على ذلك ، بل يتفق معهم كل متخصص في أي مجال معرفي ؛ فالعلم ليس من مهامه « اختراع » ظواهره . فعلماء الفيزياء لم يخترعوا الصوت أو الضوء أو الكهرباء أو المغناطيسية ، وعلماء البيولوجيا لم يخترعوا الخلايا والأنسجة ، وكذلك لم يخترع علماء النفس ظواهر التعلم الشرطي أو الإدراك أو الانتباه ، فهذه الظواهر جميعاً موجودة منذ خلق الله الأرض ومن عليها .

وعلى ذكر الاشتراط خاصة نذكر أن مؤرخي علم النفس عن علماء النفس أنفسهم هم أول من أشار إلى أنه مفهوم قديم ؛ فقد أشار فيرنج (Fearing, 1930) إلى أنه كان معروفاً قبل بافلوف بقرنين على الأقل ، ويمكن أن يمتد النطاق الزمني إلى ما قبل

ذلك على النحو الذي أشار إليه محمد رشاد خليل (١٩٨٧) ، أي إلى ما كان يفعله العرب القدماء من تدريب الصقور والكلاب على الصيد ، وتدريب الإبل على اختزان الماء في جسمها بكميات أكبر من حاجتها للاستعانة بها في السفر الطويل .

وبالطبع فإن الإنسان صاغ خبرته الطويلة حول الظواهر الكونية والبيولوجية والإنسانية من حوله في الصورة التي تسمى الفهم العام common sense . إلا أن مهمة العلم أن يجعل وصفنا للظواهر موضع البحث أكثر دقة ، وتفسيرنا لها أكثر معقولية ، وضبطنا لها ، وتنبؤنا بها أكثر إحكاماً . وبالطبع فإن بعض نتائج البحث العلمي قد تتفق مع الفهم العام ، إلا أن الفهم العام لا يتفق دائماً مع الحقائق العلمية . وكثير من قضايا « الفهم العام » قد يكون مقبولاً في ظاهره ، إلا أن صحة هذه القضايا المعتمدة في جوهرها على الخبرة الشخصية والأحكام الذاتية ليست مؤكدة بالضرورة ، بل قد توجد في الفهم العام آراء مختلفة حول الظاهرة الواحدة .

والرأي الذي يعد من قبيل الفهم العام لم يكن في الأصل إلا أحد البدائل التي تفسر ظاهرة ما ، ويسود على غيره من البدائل - بالرغم من أنه قد لا يكون هو البديل الصحيح - بتأثير عوامل كثيرة من أهمها السلطة أو التقاليد الاجتماعية أو

الإقناع الظاهري ، ثم يتحول ليصبح من « الحقائق البديهية » للفهم العام . وقد يكون أكثر الأمثلة وضوحاً في تاريخ علم النفس التربوي « نظرية التدريب الشكلي أو الصوري » التي دحضها تطور المعرفة السيكلوجية فيما بعد ، كما توجد أمثلة أخرى أقل شهرة (فؤاد أبو حطب ، آمال صادق ، ١٩٨٤) .

ويوجد في الفولكلور الإنساني كثير من هذه « الحقائق البديهية » التي لا يتوافر برهان كاف على صحتها ، أغلبها نشأ في صورة ممارسة عادية ثم تحول إلى عالم « الحقائق الثابتة » ، أو « الحقائق البديهية » بسبب شيوعها وانتشارها ، والألفة الزائدة بها ، على الرغم من أنها لم تكن في الأصل سوى نواتج خاصة لظروف وأهداف وممارسات سادت في بعض العصور .

وهكذا يمكن القول : إن مبادئ الفهم العام ليست بالضرورة خاطئة كما أنها ليست بالضرورة صحيحة . وتقبل هذه المبادئ أو رفضها لا يحسمه إلا البحث العلمي المنظم ، وهذه إحدى المهام الجوهرية للعلم ، ومنه علم النفس ، بشرط ألا تقف هذه الأفكار « السابقة على العلم » حجر عثرة لدى الباحث العلمي في سبيل تعديل مناهجه وآرائه بحيث تتواءم مع حقائق العلم ونتائجه .

وهذا ما حدث مع مفهوم الاشتراط -

كما حدث مع غيره من مفاهيم العلم ، فإلى بافلوف يعود الفضل في تناول هذه الظاهرة في ظروف التحكم المعمل الدقيق ، وتزويدنا بكثير من جوانب الفهم الصحيح والتفسير الدقيق لها ، وهي بضعة من أهداف العلم الأساسية .

(٧) تركيز علم النفس على السلوك المرضي :

يرى مصطفى محمود (١٩٨٨) أن علم النفس الحالي هو علم نفس مرضي ؛ لأنه « يركز على العيوب والأمراض والآفات والعلل ، ويفتش في الانحرافات والتشوهات ، ولا يقدم لنا شيئاً إيجابياً عن النفس السوية الصحيحة » .

ويبدو أننا مضطرون أحياناً إلى اللجوء إلى المسائل المبدئية لمناقشة مثل هذه الحجة كما فعلنا مع غيرها . ومن المسائل الشائعة التي يتناولها أي مقرر مبتدئ في علم النفس الإشارة إلى تنوع مجالات السلوك الإنساني (والحيواني) التي يتناولها هذا العلم بالدراسة ، مما ترتب عليه اتساع نطاق اهتماماته وأبحاثه وتطبيقاته على نحو يكاد يشمل كل ميادين هذا السلوك ، مما أدى إلى تفرعه وتشعبه إلى فروع عديدة ، ويوضح هذه الحقيقة الجدول رقم (٢) وفيه عدد أقسام هذا العلم بالجمعية الأمريكية لعلم النفس أكثر الجمعيات في هذا الميدان قوة في عالمنا المعاصر .

جدول رقم (٢) الأقسام التي تتألف منها الجمعية الأمريكية لعلم النفس

رقم القسم	اسم القسم	رقم القسم	اسم القسم
١	علم النفس العام	٢٢	علم النفس النظرى والفلسفى
٢	تدريس علم النفس	٢٣	التحليل التجريبي للسلوك
٣	علم النفس التجريبي	٢٤	تاريخ علم النفس
٤	القياس والتقويم	٢٥	علم نفس المجتمع
٥	علم النفس الفسيولوجى والمقارن	٢٦	الصيدلانيات النفسية
٦	علم نفس النمو	٢٧	العلاج النفسى
٧	جمعية بحوث الشخصية وعلم النفس الاجتماعى	٢٨	التنويم النفسى
٨	جمعية الدراسة السيكولوجية للمسائل الاجتماعية	٢٩	علم النفس كمهنة
٩	سيكولوجية الفنون	٣٠	علم النفس الإنسانى
١٠	علم النفس الكلينيكى	٣١	سيكولوجية التخلف العقلى
١١	علم النفس الاستشارى	٣٢	سيكولوجية السكان والبيئة
١٢	جمعية علم النفس الصناعى والتنظيمى	٣٣	سيكولوجية المرأة
١٣	علم النفس التربوى	٣٤	الأخصائىون النفسىون
١٤	علم النفس المدرسى	٣٥	خدمات الطفل والشباب والأسرة
١٥	علم النفس الإرشادى	٣٦	سيكولوجية الصحة
١٦	علم النفس فى مجال الخدمة العامة	٣٧	التحليل النفسى
١٧	علم النفس العسكرى	٣٨	علم النفس العصبى الكلينيكى
١٨	سيكولوجية الراشدين والمسنين	٣٩	علم النفس القانونى
١٩	علم النفس التجريبي التطبيقى والهندسى	٤٠	الممارسة المهنية لعلم النفس
٢٠	سيكولوجية التأهيل	٤١	سيكولوجية الأسرة
٢١	سيكولوجية المستهلك	٤٢	سيكولوجية الشذوذ الجنسى
		٤٣	سيكولوجية الأقليات
		٤٤	سيكولوجية وسائل التواصل
		٤٥	سيكولوجية الرياضة

ولعل القارئ المتفحص للقائمة السابقة يكتشف من هذا المثال الذى ضربناه من الولايات المتحدة الأمريكية أن اهتمام علم النفس الحديث بالسواء النفسى يفوق كثيراً اهتمامه بالمرض النفسى ، ولو أن الاهتمام بالمرض النفسى وطرق علاجه ليس فى ذاته عيباً يضير العلم .

(٨) سوء استخدام علم النفس :

يشير محمد رشاد خليل (١٩٨٧) إلى أن بعض نتائج علم النفس استخدمت بطريقة سيئة أو ضارة أو خطيرة . ويذكر من أمثلة ذلك تطبيق نظريات المثير والاستجابة والتعلم الشرطى على الشعوب للسيطرة عليها ، وعمليات غسيل المخ التى تستخدمها أجهزة المخابرات ، وتسخير هذا العلم لصالح الرأسمالية الصناعية فى الغرب .

وهذا النقد الموجه لعلم النفس ، وجه من قبل إلى العلم والتكنولوجيا العامة ، ومن ذلك ما يذكره ديكنسون (١٩٨٧) من النظر إليهما فى بريطانيا (مهد الثورة الصناعية الحديثة) على أنهما مسئولان عن « كل الأمراض الاجتماعية » التى نتجت عن هذه الثورة . وقد دفع ذلك العالم والأديب البريطانى سنو C. P. Snow إلى اختراع مصطلح « الثقافتين » فى مطلع الستينات من القرن العشرين كدعوة إلى رد الاعتبار الاجتماعى « للعلم فى ظروف ثقافية واجتماعية وتاريخية نسبية معينة وليس

كتحليل مطلق للعلاقة بين « العلم والمجتمع » . والدليل على ذلك ما يذكره (ديكنسون ، ١٩٨٧ ، ١٩) من أنه « وجد فى كل الأزمان ، وفى جميع مناطق العالم ، علماء على جانب كبير من الإنسانية ، والحساسية المرهفة ، والحس الروحي ، وكانوا قادرين على حفظ الروابط بين الأوساط العلمية ، والأوساط المهمة بالفنون ، وعلى وجه أعم بين العلم والمجتمع ككل » .

وبصفة عامة يمكن القول : إن إثارة هذه المسألة تتضمن ضرورة التنبه فى وقت واحد إلى الدور الاجتماعى للعلم والمسئولية الاجتماعية للبحث العلمى ، والالتزامات الأخلاقية لمهنة العلم . وقد أدركت الإنسانية أهمية هذه القضايا منذ زمن بعيد ، وأقدم الأمثلة على ذلك قسّم أبوقراط التقليدى الشهير فى مجال الطب . وقد توالى على مدار العصور محاولات إعداد مواثيق أخلاقية للممارسة المهنية فى مختلف المجالات ، وخاصة مع ظهور المنظمات والاتحادات والنقابات المهنية فى مجال العلم منذ القرن السابع عشر . وازداد الاهتمام بهذه المواثيق خاصة فى القرن العشرين بعد حربين عالميتين مدمرتين ، ولم تكن الجمعيات السيكولوجية استثناء من ذلك . وسرعان ما ازداد الاهتمام فى الوقت الحاضر بالإعداد الأخلاقى والاجتماعى للباحث

العلمي ، وخاصة بعد التنبه إلى أن هذا الباحث يمارس بالفعل أحكاماً أخلاقية في جميع مراحل بحثه ؛ فلم يعد الأمر مقتصرًا على تطبيق نتائج البحث فحسب على النحو الذي تنبّهت إليه المنظمات والاتحادات والنقابات المهنية كما بينا ، وإنما أصبح القرار الأخلاقي ممتدًا على متصل عملية البحث العلمي كله ، وسوف نتناول هذا الموضوع بالتفصيل فيما بعد .

إلا أن أخطر ما في مسألة نقد العلم - ومنه علم النفس - بسبب سوء استخدامه ما يسميه ديكنسون (١٩٨٧ : ٢١٢) « معاملة الباحث العلمي ككبش فداء » حين يستخدم المجتمع أي معرفة جديدة في تحقيق غايات شريرة . ومن الأمثلة الكلاسيكية في هذا الصدد موضوع الهندسة النووية ، ومن الأمثلة الحديثة موضوع الهندسة الوراثية . والسؤال الآن : هل لأن رئيساً أمريكياً (هو هاري ترومان) لم يستمع إلى تقارير علمائه بعدم استخدام « السلاح الجديد » - أي القنبلة الذرية - يلام العلم ؟. إن حقائق تاريخ الحرب العالمية الثانية تذكر لنا أن العالم الأمريكي فرانك طلب من رئيس بلاده عدم استخدام السلاح قبل « إجراء تجربة مسبقة له في صحراء ما ، أو أي جزيرة قاحلة وفي حضور ممثلين لكل الدول الأعضاء في الأمم المتحدة » ، كما طلب منه عدم استخدامه ضد اليابان خاصة قبل

توجيه إنذار إليها إما « بالتسليم » أو « بإخلاء بعض المناطق » ، أضف إلى ذلك الالتماس - بل الاستعطاف - الذي كتبه تسيلارد ووقعه معه زهاء ستين عالماً فذاً ووجهه إلى الرئيس ؛ ومع ذلك لم يستمع تورمان إلى أحد وضرب مدينتي هيروشيما ونجازاكي يومى السادس والتاسع من أغسطس ١٩٤٥ منهياً بذلك أبشع حروب التاريخ الإنساني ، ومفتتحاً أيضاً عصر الحروب النووية (ديكنسون ، ١٩٨٧ : ٢١٣ - ٢١٤) .

هل يُلام على هذه الجريمة البشعة جوليو كورى وأتوهان وفريتس شتراسمان لاكتشافاتهم « العلمية » الخاصة بالانشطار النووي ؟ أم يُقرّع بور الذى وضع النموذج الأساسى لتركيب الذرة ؟ أم يُلعن أينشتين الذى أتت نظريته النسبية الخاصة إلى استنتاج « أخطر » معادلة في الفيزياء « النظرية الحديثة » وهى $E = mc^2$ ، أى أن الطاقة تساوى الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء ، ولم تكتشف أهميتها إلا بعد انقضاء ثلاثين عاماً على صياغتها ؟ أم توجه كل ألوان السباب إلى تشادويك الذى اكتشف النيوترون ؟ .

يبدو أننا ننسى دائماً إلى من توجه اللوم ، ويستبدلونهم بأولئك الذين يهبون إبداعاتهم للإنسانية لتستثمرها في كل ما هو خير ، فهذه هى القيمة الأخلاقية النهائية

للعلم . وتسخير الطاقة النووية ذاتها في الأغراض المدنية والسلمية في عصرنا أوضح الأمثلة على ذلك أيضاً ، ويصدق نفس القول على الهندسة الوراثية في البيولوجيا وعلى نتائج البحوث السيكلولوجية . وبدلاً من أن نلعن أولئك الذين أساءوا استخدام العلم من الساسة ورجال الصناعة والاقتصاد والحرب والمخابرات وغيرهم - نتوجه بسبابنا إلى العلم ذاته ، وإلى العلماء أنفسهم ، وفي هذا تشويه لصورة العلم بقدر ما فيه من تجنب لمواجهة الخطر الحقيقي ، وتصويب السهام إلى الأهداف الخاطئة .

(٩) علم النفس الحديث هو علم نفس الإنسان الأبيض :

النقد الأخير في هذه السلسلة من الانتقادات التي يوجهها الكتاب الإسلاميون إلى علم النفس هو أنه يختص بالإنسان « الأبيض » أكثر من غيره من الشعوب ، وأشد من نبه إلى ذلك محمد رشاد خليل (١٩٨٧) ، وفي ذلك يقول :

« إن علم النفس الحديث في الغرب هو علم نفس الرجل الأبيض ، وليس صحيحاً أنه كان كذلك في أول الأمر بل إنه مازال كذلك . وهو علم نفس الرجل الأبيض ليس فقط لأن مجال دراسته كان مقتصرًا على دراسة الإنسان الراشد ذى البشرة

البيضاء ؛ بل لأن أهداف دراسته خدمة الرجل الأبيض » .

ومن الطريف أن أول من تنبه إلى هذه الحالة كان علماء النفس أنفسهم . وبدأت تظهر في السنوات الأخيرة ما يمكن أن يسمى « الاهتمامات القومية » في علم النفس كما ظهرت في غيره من العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع (محمد عزت حجازي وآخرون ، ١٩٨٦) ، ولعل أشد النقد للنموذج « الغربي » لهذه العلوم هم علماءنا الذين ينتمون إلى « العالم الثالث » ، فقد كان السائد من قبل أن هذه العلوم جزء من عملية « التنمية » ، مع شيوع الاعتقاد بأن المسار الرئيسى لهذه العملية هو « التحديث على النمط الغربي » وقد قام كاتب هذه السطور بنقد هذا الرأي بالنسبة لعلم النفس (Abou - Hatab ، 1988) . وبإيجاز نقول : إن أقوى من يمثل هذا الاتجاه هو ليرنر (Learner ، 1969) حين أقام هذه الاستراتيجية في التنمية على أساس افتراضين أساسيين هما :

(أ) دول العالم الثالث (أو الدول النامية كما تسمى أحياناً) سوف تتبع في التنمية نفس خطوات التحديث التي تعرض لها الغرب منذ القرن السادس عشر .

(ب) أن دول العالم الثالث سوف تمر بتغيرات اجتماعية ، يترتب عليها اكتساب الخصائص العامة للدولة المتقدمة (وهى

بالطبع الدول الغربية) .

وقد تطلب ذلك عنده توافر شرطين رئيسيين هما :

(أ) بناء مؤسسات على النسق الغربى فى جميع جوانب الحياة فى دول العالم الثالث ، سواء كانت مؤسسات سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو تربوية ، بحيث تعد هذه المؤسسات المسيطرة - : هى الوسائل الجوهرية للتعليم من الغرب ، واقتفاء آثاره ؛ أما المؤسسات التقليدية فعليها أن تتلاشى أو تتعدل .

(ب) إعداد « صفوة مستغربة » تكون لها من القوة بحيث تتحكم فى المؤسسات المسيطرة فى دول العالم الثالث ، وخاصة فى السياسة والاقتصاد والعسكرية والتعليم . ويمكن تدعيمها بالخبراء والمستشارين الأجانب .

وقد تعرضت - ولاتزال تتعرض - جميع دول العالم الثالث - ومنها الدول الإسلامية - لهذا النمط من « التنمية » بضرورة أو أخرى ، وكانت الحالة المتطرفة هى تركيا . ويصف لنا عالم النفس التركى فاساف (Vassaf, 1987) ما حدث فى بلده بعد حوالى خمسين عاماً من « التغريب » بأنه لم يكون سوى تجربة فشل كاملة ، وكأن الأمر كله كان حلقة مفرغة ، وفى ذلك يقول :

« مع عزو مزيد من الأهمية للتغريب من

أجل التنمية ، لم يحدث إلا أن كان زيادة فى التغريب أدت إلى مزيد من الاعتماد والتخلف » .

وهذا التاريخ من الفشل شائع بدرجات مختلفة فى مختلف دول العالم الثالث ، وامتدت آثاره إلى العلم عامة ، وإلى العلوم الاجتماعية والإنسانية خاصة ، وإلى علم النفس على وجه أخص . وقد شخّص المؤلف أعراض هذه الأزمة كما ظهرت على علم النفس فى مصر فى مواضع سابقة ووجدنا بينها وبين كثير من أحوال هذا العلم فى معظم دول العالم الثالث كثيراً من المشابهات (فؤاد أبو حطب ، ١٩٧٥) ، (Abou - Hatab, 1987, 1988) ، ويمكن أن نلخص هذه الأعراض فيما يلى :

(أ) علاقة الاستيراد - التصدير مع علم النفس فى الغرب : هى علاقة من جانب واحد ، فالغرب دائماً هو المصدر ، والعالم الثالث (ومنه العالم الإسلامى) هو دائماً المستورد .

(ب) الاعتماد المعرفى على الغرب : فمعظم ما ظهر فى الغرب فى مجال علم النفس من نظريات ونماذج وافتراضات ومناهج بحث وأدوات جمع معلومات (كالاختبارات النفسية) ونتائج بحوث - : تم استيرادها حتى ولو كانت موضع شك فى موطنها الأصلي .

(ج) قطع الروابط بالتراث الثقافى للأمة

بافتراض أن القديم هو من عوائق التقدم والتحديث .

(د) انتشار البدع الثقافية في العلم : فمعظم التراث الغربي المستورد لم يتم اختباره في ضوء محك الصلة بالثقافة والحاجات القوية ؛ بل إن بعض ما تم استيراده لم يكن إلا محض بدع ثقافية عارضة .

(هـ) كف التفكير الإبداعي في علم النفس : فالمطلع على معظم ما صدر من مؤلفات ، وما أجرى من بحوث في علم النفس في دول العالم الثالث - : لا يجد أثراً يذكر للإبداع العلمي فيها ؛ فمعظم بحوث الماجستير والدكتوراه ليست إلا محض تكرار لما أجراه علماء الغرب ، أو محض تطبيق لاختبارات نفسية ترجمت ترجمة ، وصفناها من قبل بأنها في الأغلب « حرفية أو محرفة » عن أصولها الغربية (فؤاد أبو حطب ، وآخرون ، ١٩٨٧) ، وتم ذلك كله على حساب المشكلات الجوهرية والملحة التي تعاني منها المجتمعات النامية . ناهيك عن ظواهر الادعاء والتزوير والتزييف والسرقة وغيرها من الأعراض المرضية التي ظهرت في بعض ما أجرى من بحوث .

(و) فقدان الهوية الثقافية : يعاني معظم علماء النفس في العالم الثالث - ومنه العالم الإسلامي - من « الاغتراب » عن بيئتهم

وثقافتهم ، ودعم ذلك شعورهم بفقدان الهوية الثقافية .

(ز) فقدان الهوية المهنية : يعاني المتخصصون في علم النفس في العالم الثالث من فقدان الهوية المهنية ؛ فكثيراً ما يتم الخلط بينهم وبين الأخصائيين الاجتماعيين من ناحية ، وأطباء الأمراض العقلية من ناحية أخرى (Abou - Hatab, 1984) . وكلاهما - مع خبرة أكاديمية محدودة للغاية في علم النفس لا تتجاوز دراسة مقرر أو مقررين فيه - يمارسون مهام الأخصائي النفسي ، بل يصفون أنفسهم أحياناً - وخاصة الأطباء - بهذا الوصف . ناهيك عن عجز برنامج الإعداد الحالي للأخصائي النفسي بالفعل .

وبهذا تتحدد « الأزمة » الحقيقية لعلم النفس في العالمين العربي والإسلامي ، وهي أزمة صنعها علماء النفس العرب والمسلمون لأنفسهم بأنفسهم . وبالطبع لا يلام الغرب أن وجه علم النفس فيه لتحقيق مصالحه وإحراز أهدافه ؛ وإنما من يلام حقاً هم أبناء الأمة العربية والإسلامية من علماء النفس الذين وقعوا في شرك « التبعية العلمية » عن وعي أو غير وعي ، وهياؤوا بذلك كل الفرص للطعن في العلم الذي ينتسبون إليه .

ردود الفعل « الدفاعية » لدى بعض علماء النفس المسلمين

أشرنا في مطلع هذا البحث إلى أن الانتقادات الإسلامية لعلم النفس الحديث أحدثت لدى فريق من علماء النفس المسلمين ردود فعل متفاوتة ، لعل أكثرها وضوحاً ما أسميناه « الاستجابات الدفاعية » ، والتي كانت في معظمها أقرب إلى « الحيل » أو « الميكانيزمات » السيكوأوجبة لحل مشكلة التنافر المعرفي لدى أصحابها . ونعرض فيما يلي للاتجاهات الرئيسية التي يمكن تجميعها تحت هذا العنوان مصنفة حسب الحيلة الدفاعية السائدة عند أصحابها .

(١) اتجاه الفصل :

وهو اتجاه لدى أغلبية علماء النفس المسلمين الذين يرفضون الانتقادات التي توجه إلى علم النفس من منطلق الفصل بين علم النفس باعتباره علماً ، والإسلام باعتباره ديناً مع احترام وتقدير شديد لكل منهما ، وعندهم أن العلم علم ، والدين دين ، فهما نسقان مستقلان لكل منظوره ونظيره ومنحاه .

ولعل هذه الفئة هي تلك التي أشار إليها مالك بدرى (١٩٨٧) بأنها فئة الرافضين لأسلمة علم النفس ، وفي نفس الوقت هم « من المؤمنين الملتزمين

بالإسلام ... يؤدي الكثيرون منهم فرائض الإسلام ويجتنبون كبائر ما يهون عنه ، بل إن بعضهم ربما كان أكثر عبادة وإخلاصاً من بعض أولئك الداعين للأسلمة والتأصيل الإسلامي لعلم النفس »^(٣) .

والحيلة المستخدمة هنا هي ما يسمى « الفصل » compartmentalization ، ويلجأ إليها المرء الذي يواجه التنافر المعرفي بالإبقاء على الجوانب المتنافرة منفصلة ، ومستقلة بعضها عن بعض تجنباً للصراع بينهما . ويمكن أن نفسر استخدام هذا « الميكانيزم الدفاعي » لدى هذا الفريق من علماء النفس المسلمين (وهم الأغلبية الساحقة) بالأسباب الآتية :

(أ) بناء الهوية العلمية والمهنية على أساس دراسة وتدريس وبحث وممارسة علم النفس بصورته الراهنة ، كما صنعها وطورها الغرب .

(ب) إدراك علم النفس الحديث على أنه نتاج الغرب المتقدم حضارياً وثقافياً ، والتفوق الحضاري - عند هؤلاء - لا بد له أن يكون شاملاً لمختلف جوانب الحياة ومنها العلم .

(ج) الاعتقاد بأن التفوق الحضاري الغربي في مجال العلوم الطبيعية والبيولوجية ، وفي الاختراعات التكنولوجية صاحبه بالضرورة تقدم في العلوم الإنسانية

والاجتماعية (ومنها علم النفس) .

(د) العلم - سواء أكان علماً طبيعياً أو اجتماعياً إنسانياً - ذو طبيعة محايدة ثقافياً ، وبالتالي يمكن الاستفادة من التقدم الحضارى للغرب باستيراد صفة العلم كاملة منه .

وهذا الاتجاه الذى يتجاهل ما فى العلم من « تحيز ثقافى » لا يتفق مع الصورة التى تقدمها الدراسات والمسوح التى أجراها علماء النفس فى الغرب أنفسهم حول مسيرة هذا العلم ، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية . ويقدم لنا (Gilgen & Gilgen, 1987: 8-9) موجزاً لما حدث كما يلى :

« إن طبيعة علم النفس وميدانه ونموه وتطوره فى العالم خلال السنوات الأربعين الماضية (١٩٤٥ - ١٩٨٥) تعكس جميعاً الظروف ، والأحداث السياسية ، والاقتصادية العظمى التى وقعت خلال هذه الفترة ... دمار أوروبا وانهارها ، وصعود الولايات المتحدة كأمة مهيمنة على العالم اقتصادياً وعلمياً وتكنولوجياً ، ثم ثقافياً ، التوتر الذى أحدثته الحرب الباردة ، التهديد بالحرب النووية ، إعادة إحياء أوروبا الغربية (بفضل مشروع مارشال) ، إعادة بناء الاتحاد السوفيتى وتماسك الكتلة الشيوعية ، تحرير المستعمرات وخاصة فى أفريقيا والهند ، بناء

إسرائيل وما أدى إليه من توتر وصراع فى منطقة الشرق الأوسط ، ظهور الصراعات الإقليمية وخاصة فى كوريا وفيتنام وأفغانستان وأمريكا الوسطى ، زيادة الشعور بحاجات دول العالم الثالث ، ونواحي القوى فيها ، تحول الصين إلى الشيوعية وانتشار الأيديولوجية الماركسية - اللينية فى عدد من أقطار العالم ، النمو السكانى ، زيادة الثروات الاقتصادية لبضعة أقطار محدودة العدد ، ارتفاع وهبوط أسعار النفط ، النمو المذهل للعملاق الصناعى فى اليابان ، الثورة الإلكترونية وما جاءت به خاصة التليفزيون والكمبيوتر ، الانفجار المعرفى والمعلوماتى ، نمو الطيران المدنى كوسيلة انتقال ، شيوع اللغة الإنجليزية باعتبارها اللغة الأساسية للعلم والثقافة » .

وقد أدت هذه العوامل التى لخصها هذان المؤلفات باقتدار إلى ظهور مجموعة من التغيرات على المسرح العالمى لعلم النفس المعاصر ، لعل أهمها التنبه إلى « الطابع الثقافى » ثم « الأيديولوجى » للعلم ، وبخاصة العلوم ذات الطبيعة الاجتماعية والإنسانية ، ومنها علم النفس . فسيطرة علم النفس الأمريكى على المسرح - بعد انهيار أوروبا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية - لم يكن بلا عائد « ثقافى » و« ثمن » أيديولوجى ، وتمثل البعائد الثقافى أولاً قبل كل شئ فى سيطرة اللغة الإنجليزية على

أن يكون ما يصدر عنهم هو نوع من الحيلة الدفاعية التي قد تحقق « تكيفاً زائفاً » على المدى القصير بينما أثرها المؤجل على المدى الطويل قد يكون مدمراً للجميع .

(٢) اتجاه الرفض :

ظهر هذا الاتجاه الدفاعي (الميكانيزم النفسي) لدى أقلية قليلة من علماء النفس في العالمين العربي والإسلامي ، ويتمثل في أولئك الذين يرفضون الانتقادات التي يوجهها الكتاب الإسلاميون إلى علم النفس ولكن من منطلق مختلف . صحيح أن لديهم وجوب الفصل بين العلم والإسلام ، إلا أنهم في نفس الوقت يقدرُون أحدها (وهو العلم) ويحقرون الآخر (وهو الإسلام) ؛ ولذلك فهم يلجأون إلى الرفض الذي هو في جوهره مزيج من حيلتي الإنكار denial والخلفة negativism ، واللذان تظهران لدى من يعانون التنافر المعرفي ويلجأون إلى حله باللجوء إلى التمسك بأحد طرفي الصراع .

ويقود هذا الفريق في أغلب الحالات ذور الاتجاهات الماركسية . ومن الغريب أنهم في الوقت الذين يرفضون « الأسلمة » فإنهم يقبلون « الأدلجة » - نسبة إلى الأيديولوجية - من أي مصدر آخر غير الإسلام ، مع محاولة منظمة لتشويه الصورة الحقيقية للإسلام ، وبالطبع فإن الأيديولوجية الأثرية لديهم هي الماركسية .

العالم كلفة للبحث السيكولوجي ، والتكنولوجيا النفسية (في مجال الاختبارات والعلاج والتربية والصناعة والإدارة) . أما الثمن « الأيديولوجي » فكان أغلى بكثير ، ابتداء من سيطرة « الصيغ » النظرية الأمريكية ، كالسلوكية ؛ أو المتأمركة ، كالتحليل النفسي والجشطات بعد هجرتهما إلى الولايات المتحدة ، وحتى سيادة النمط الأمريكي في البحث والتفكير والسلوك والحياة .

وقد ظهر الوعي بهذه الخاصية « الثقافية - الأيديولوجية » للعلم عامة خفياً في معظم ما يكتبه فلاسفة ومؤرخو العلم المعاصرون ، كما ظهر الوعي بها صريحاً في علم النفس مع التوجه الأوربي الحديث نحو الوحدة . لقد أصبح علماء النفس الأوربيون يتحدثون كثيراً عن علم النفس الأوربي ، ومن قبلهم ركز علماء النفس في الكتلة الشيوعية على علم النفس الماركسي ، ومع ظهور اليابان كقوة عظمى بدأ علماء النفس فيها يتوجهون نحو « التأصيل الياباني لعلم النفس » . ثم انتقلت العدوى إلى العالم الثالث أو الدول النامية . وكانت أكثر دول هذا العالم حماساً للبحث عن الجذور الثقافية والأيديولوجية لعلم النفس فيها هي الهند . فهل تبقى بعد ذلك أية ذريعة للقائلين في عالمنا الإسلامي بالحياد الثقافي والأيديولوجي لعلم النفس إلا

ولكى نوضح معالم علم النفس السوفيتى الذى يعتبره أصحاب هذا الاتجاه نموذجهم نعرض مبادئه الأساسية ، كما تناولها أحد قاداته المعاصرين وهو بوريس لوموف (Lomov, 1987) :

(أ) مبدأ الحتمية : فمبدأ الحتمية عندهم هو أساس كل معرفة علمية ، وعلم النفس لم يتخذ هذه الصفة إلا بعد أن تخلى عن التصور الشائع لظواهره بأنها مستقلة عن القوانين « الموضوعية » ، أو ليست بذات صلة بالعالم المادى . ولا يقصد بالحتمية هنا معناها الميكانيكى « الذى يتحدد فى صورة علاقة مباشرة وخطية وبسيطة وصارمة بين السبب والأثر » ؛ فهذه العلاقة - وخاصة فى السلوك الإنسانى - تتضمن مجموعة معقدة من الديناميات ، وحسب المبدأ « الجدلى » فإن أطراف هذه العلاقة يمكن أن يحل كل منهما محل الآخر ، فالسبب قد يصبح أثراً ، والأثر سبباً ، كما أن السبب والأثر قد تفصل بينهما مسافات زمنية ، تطول وتقصر ، ثم إن السبب يتسم بأنه تراكمى ، ومعنى ذلك أن الأثر قد يكون نتاج عدد كبير من العوامل والأحداث السابقة التى تؤلف « تاريخ » الظاهرة النفسية موضع الاهتمام . ناهيك عن أن السلوك الإنسانى - خاصة - يتسم بأنه ذاتى التحديد Self-determined ، بمعنى أن الإنسان حين ينشط ذهنياً أو بدنياً فإنه

يغير فى البيئة من حوله وبالتالى فى محدّدات سلوكه . وعلى هذا فعند تناول مبدأ الحتمية يجب مراعاة الكثير من العوامل الداخلية والخارجية ونسق الروابط المعقدة بينها .

(ب) مبدأ الانعكاس : يرى علماء النفس السوفيت أن الظاهرة النفسية عبارة عن مستويات أو أنماط مختلفة من الانعكاس الذاتى للحقيقة الموضوعية . وهم بذلك يرفضون ثلاثة حلول قدمت لمسألة العلاقة بين المادة والعقل أشرنا إليها فيما سبق ، وهى : اعتبار العقل جوهرأ مستقلاً ، أو اعتباره حالة خاصة من المادة وهى فى حالة حركة ، أو التوحيد بينه وبين العالم المادى . أما موقفهم فهو اعتبار العقل خاصية من خصائص المادة ، وهى فى حالة حركة ، وليس محض جوهر مستقل ، أو محض حركة . وتظهر هذه الخاصية فى صور مختلفة من « الانعكاس الذاتى » subjective reflection ، وتظهر فى صور الحياة فى مرحلة معينة من مراحل « التطور البيولوجى » . ويعترف علماء النفس السوفيت بأنهم يجهلون - حتى الآن - الشروط اللازمة لهذا الانعكاس لكى يتطور ، أو لتحول المادة « غير الحساسة » إلى مادة « حساسة » ، ويعد ذلك من الأمور الجوهرية والمعقدة عند نقطة المنشأ للحياة ذاتها .

(ج) مبدأ المادية التاريخية (الثمو) :

يرى علماء النفس السوفيت أن أى ظاهرة لا يمكن فهمها إلا فى سياق نمائى .
ويستخدم المنحى النمائى عندهم فى دراسة كل من الجانب النشوى Phylogenetic للعقل فى الجنس البشرى ، والجانب الارتقائى ontogenetic للنمو العقلى عند الأفراد . ثم إن هذا المنحى أيضاً يوجه البحوث السيكلوجية التى تجرى عندهم حول أى ظاهرة نفسية معينة كالإدراك أو التعلم .

والثمو النفسى - عندهم - ليس محض تغيرات كمية - كزيادة سعة الذاكرة مثلاً . وإنما يهتم أيضاً بالتغيرات الكيفية التى تحدث خلاله . ولعل أهم التغيرات الكيفية من الوجهة النشوية ما حدث عند « تكوين » الجنس البشرى ، والمجتمع الإنسانى ؛ فخلال العملية « التطورية » تحدد « تكوين » العقل الحيوانى بالعوامل البيولوجية ويمكن تفسيره بالقوانين البيولوجية ، أما تكوين العقل الإنسانى فقد لعبت فيه العوامل والقوانين الاجتماعية الدور الحاسم ؛ لقد قام العمل الإنسانى بتحويل الطبيعة ، ونشأت العلاقة الاجتماعية ، وظهرت اللغة ، وقد تطلب ذلك كله تطور ظواهر نفسية جديدة كالتفكير ، والتصور ، والتنظيم الإرادى للسلوك وغيرها .. وهكذا يتحدد جوهر

وإذا كان الانعكاس فى حد ذاته هو دالة الحركة والتفاعل بين الأجسام المادية ، فإن الانعكاس الذاتى خاصية الكائنات العضوية الحية فقط ؛ فهذه الكائنات فى حاجة دائمة لتوجه نفسها على نحو يساعد على التكيف مع المحيط ، ولحدوث ذلك لا يمكن للأمر أن يكون محض انعكاس سلبى لهذه التغيرات البيئية (كما هو الحال فى الأجسام المادية) ، أى على نحو أشبه بانعكاس الصورة فى المرآة ، وإنما يجب للانعكاس أن يتجاوز هذه التغيرات ؛ وعلى ذلك فإن الانعكاس الذاتى هو عملية إيجابية يتم فيها انتقاء المعلومات وتحويلها وتخزينها . وبالإضافة إلى ذلك فإن الانعكاس الذاتى موجه إلى الأمام ، فكل لحظة فيه تتضمن معلومات عن الحاضر والماضى وترتبط - على نحو أو آخر - بالمستقبل .

ويتخذ الانعكاس الذاتى صوراً شتى فى مجال الدراسة النفسية ، فقد يدل أولاً على العلاقة بين عملية الانعكاس والأشياء موضوع الانعكاس ، وهذا هو الجانب السيكلوفيزيائى للموضوع . وقد يدل ثانياً على العلاقة بين عملية الانعكاس وحامله (وهو المخ) ، وهذا هو الجانب السيكلوفسيولوجى . أما العلاقة بين عملية الانعكاس والسلوك فتدل ثالثاً على الطريقة التى يوجد بها الانعكاس فى سلوك الإنسان وغيره من الكائنات الحية .

الإنسان بالعلاقات الاجتماعية المعقدة التي ينسجها البشر أنفسهم ؛ وذلك لا ينفي بالطبع أثر القوانين البيولوجية في السلوك الإنساني ، إلا أن التحكم فيها يتم بالقوانين الاجتماعية التاريخية ؛ فالإنسان ابن التاريخ وصناعته .

(د) مبدأ المادية الجدلية : النمو النفسى (المحكوم بالمادية التاريخية) كما بينا هو أيضاً عملية صراع بين المتناقضات والأضداد ، ففي كل مرحلة للنمو يوجد دائماً الصراع بين الدوافع ، وبين الأهداف ، وبين كل من الدوافع والأهداف ، وداخل الصور والمستويات المختلفة للانعكاس . وسيادة الموقف التناقضى أو تلك المجموعة من الديناميات فى مرحلة معينة يمثل المفهوم الماركسى للأطروحة thesis ، والذي يؤدي بالضرورة إلى محاولة حل الصراع والوصول إلى نقيض الأطروحة antithesis ، والذي يعد مرحلة انتقالية إلى مرحلة جديدة من التركيب sunthesis ، والذي يكون مختلفاً كئيفياً عن المكوّنين السابقين . وبهذه الطريقة يرى علماء النفس السوفيت أن قوانين النمو الإنسانى تظهر بطريقة خاصة لكل فرد . ومعنى ذلك أن تكوين الشخصية الإنسانية عندهم هو عملية فريدة لكل شخص على الرغم من أنه يتبع بعض المبادئ العامة .

والسؤال هنا : ما هى العلاقة بين العام والخاص ؟ وتأتى إجابتهم فى ضوء « الجدلية » مرة أخرى ، فعندهم أن العام لا يوجد منفصلاً عن الخاص ، وفى نفس الوقت فإنه فى أى حالة خاصة يوجد دائماً ما هو عام ، وما هو مميز لها . وعلى هذا تصبح أهداف علم النفس عندهم ذات شقين :

أولهما : تحديد الخصائص والقوانين العامة التى تستمد من العمليات والظواهر والأفعال الفردية . وبعبارة أخرى يجب الانتقال دائماً من العيانى والمحسوس إلى المجرد .

وثانيهما : اختبار التجريدات من خلال محاولة التنبؤ بمواقف خاصة ، وعلى الرغم من أن هذه الخطوة صعبة إلا أنها جوهرية ، وخاصة عند محاولة استخدام المعرفة ، والقوانين النفسية فى المواقف العملية التطبيقية .

والمدقق فى خصائص علم النفس السوفيتى يجد أنها مركبة من عناصر شتى : « العقيدة » الماركسية اللينينة - التى تعرضت لعدة تغيرات على يد ستالين ثم خرشوف ، ثم على يد جورباتشوف فى الوقت الحاضر . وتمثل الأفكار التى عرضناها « وجهة » Paradigm لعلم النفس السوفيتى تختلف عن تلك التى سادت فى الغرب .

من خلال العودة إلى منابع الثقافة الحقيقية لثقافتنا؟ وهذا هو أصعب الحلول للمشكلة، وبالطبع فإن أسهل الإجابات ليس بالضرورة أفضلها؛ فطريق الإبداع ليس مفروضاً دائماً بالورود.

(٣) اتجاه التشويه:

التشويه أو التحريف distortion حيلة سيكولوجية دفاعية معروفة أيضاً. ويلجأ إليها المرء لحل صراع التنافر المعرفي، وبها يدرك العناصر غير المتسقة معرفياً عنده على نحو غير صحيح، وذلك بهدف جعلها أكثر اتساقاً مع العناصر الأخرى المتوافرة لديه، وهي حيلة قريية الشبه بحيلة الرفض التي استجاب بها البعض رداً على نقد الإسلاميين لعلم النفس، والتي أشرنا إليها في الفقرة السابقة. إلا أن الرفض هنا في الاتجاه العكسي، فإذا كان أصحاب اتجاه الرفض كما عرضناه آنفاً يركزون على إنكار الإسلام - فإن اتجاه التشويه يتضمن لونا من الإنكار لعلم النفس. وأصحاب الاتجاهين يعرضون - تدعيماً لموقفهم - صورة مشوهة للعنصر الذي يرفضونه: الإسلام عند الفريق الأول، وعلم النفس عند الفريق الثاني، وهذه الحالة قد توقع أصحابها في شرك خطير يتمثل في وصف ما يرفضون بطريقة قد لا تتفق مع الحقيقة.

ومن الأمثلة التي نوردتها على هذا الاتجاه

والسؤال الذي لم يجب عليه علماء النفس عندنا من أصحاب «حيلة» الرفض للإسلام، والقبول بالماركسية - هو: هل تجاوزوا بذلك أزمة التنافر المعرفي لديهم؟ أم أن ذلك زاد من أزمته حدة؟ وخاصة مع ما يشهده علم النفس في مختلف أقطار العالم المعاصر من تزايد الوعي «بالهوية الثقافية». ثم ألا يلفت النظر حقاً أن يبحث علماء النفس في عصرنا من أبناء الشعوب ذات الحضارات الضاربة بجذورها في أعماق التاريخ عن «معالم قومية» لعلمهم بينما تنفر قلة من علمائنا من هذه المهمة التاريخية، ويسعون إلى أيسر الحلول وهو استيراد «السلعة الثقافية الجاهزة»؟ فإذا لم يرق لهم «الإنتاج الثقافي للغرب» فلا غبار عليهم أن يتوجهوا إلى منتج جديد؟ ولم يتجشم أحد منهم مشقة الفحص العميق للتجارب الثقافية الإبداعية التي أشرنا إليها، والتي يخوضها في الوقت الحاضر علماء النفس في ثقافات أخرى غير الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، مثل اليابان والصين والهند وأمريكا اللاتينية، ناهيك عن التجربة التي لاتزال في طور التشكيل وهي تجربة «أوروبا الغربية الموحدة»، التي تسعى للاستقلال الثقافي عن الولايات المتحدة الأمريكية. والسؤال هو: لماذا لا نفعل نحن في ثقافتنا العربية والإسلامية مثلما يفعل هؤلاء، أي بحل مشكلات التنافر المعرفي في علم النفس

ما ذكره أحد أساتذة علم النفس المسلمين في مقال نشره في إحدى الصحف اليومية مستخدماً بذلك بعض أساليب النقاد الإسلاميين لعلم النفس ، يرادف فيه بين المرض النفسي والشخصية السيكوباتية (سيد صبحي ، ١٩٨٦) .

ومن المعروف في علم النفس المرضى أن الأمراض النفسية والعقلية تصنف إلى فئات كثيرة منها ما يسمى الاضطراب السيكوباتي ، وعلى هذا فإن إطلاق تسمية الجزء (المرض السيكوباتي) على الكل (الأمراض النفسية) كان عرضاً مشوهاً لبعض حقائق علم النفس .

فإذا أضفنا إلى ذلك ما ورد أيضاً في هذا المقال عند الإشارة إلى مصطلح الشخصية السيكوباتية من أنها تمثل « صيحة جديدة » في مضمار علم النفس على وجه العموم وفي مجالات الصحة النفسية على وجه الخصوص - : نجد مثلاً آخر على استخدام حيلة التشويه التي تسعى لجعل صورة علم النفس لا تتفق مع الحقيقة . فمن حقائق تاريخ علم النفس المرضى أن هذه الحالة كانت موضع الاهتمام منذ نشأة هذا العلم ، ولدينا في التراث السيكولوجي المصري دراسة رائدة مبكرة حول هذا الموضوع (صبرى جرجس ، ١٩٤٦) .

ومعلم ثالث من معالم هذا التشويه لعلم النفس في هذا المقال ما أورده صاحبه من خصائص الشخصية السيكوباتية كما وردت - في رأيه - في القرآن الكريم وهي على التوالي : النفاق ، الخوف من الفقر ، الخنوع ، السلبية ، ادعاء القوة ، الغرور والصلف . ومن العجيب أن هذه الخصائص جميعاً لا تتصل بوصف السلوك السيكوباتي على وجه الخصوص ، ولو أنها تدل على أنواع أخرى من الاضطراب النفسي . وهكذا وقع الكاتب في الموقف الصعب حقاً - والذي يقع فيه كثير من الذين استخدموا هذه الحيلة - حيث الاستشهاد بالقرآن الكريم ليس في موضعه مطلقاً .

ومرة أخرى تلعب حيلة التشويه دورها في تقديم « صورة غير حقيقية » عن علم النفس ، ولعل ذلك يتضح للقارئ إذا علم أن السلوك السيكوباتي هو نوع من الذهان (أى المرض العقلي) ، ويعنى في جوهره سلوك التضاد مع المجتمع ، ويحدد أى كتاب مبتدئ في علم النفس خصائص هذا الاضطراب السلوكي على النحو الآتي :

(أ) فقدان القدرة على التمييز بين الصواب والخطأ (افتقاد المعايير الأخلاقية) على الرغم مما يتسم به السيكوباتي من ذكاء وجاذبية وخفة دم

وتأثير وانبساطية .

(ب) التعامل مع الأشخاص الآخرين على أنهم أشياء أو موضوعات ، لا أشخاص (فقدان التعاطف empathy والمشاركة الوجدانية sympathy) .

(ج) الميل إلى العيش في اللحظة الراهنة ، وإشباع الدوافع المباشرة ، والرغبة في الحصول على اللذة الفورية وتفضيل الأهداف العاجلة .

ولذلك تصدر عن الشخص السيكوباتي أعمال قد تضر بالآخرين ، أو تسيء إليهم ، ومع ذلك لا يشعر بالندم أو الحجل أو الذنب ، بل قد ينسى نتائج فعله . وحين يضبط متلبساً بالقيام بعمل غير مشروع لا يشعر بالحياء أو الدهشة . وحين يعاقب على سلوك مضاد للقيم الاجتماعية فإنه لا يخاف العقاب ، ولا يتعلم منه أن يحجم عن هذا السلوك بل إنه يكرره ويعاوده .

وتصف بعض الدراسات الأكثر حداثة (scholling, 1978) هؤلاء السيكوباتيين بأن بعضهم قد ينتهي به الأمر إلى الإيداع في مستشفيات الأمراض العقلية ، وبعضهم الآخر يمكنه الاستمرار في القيام بوظائفه الاجتماعية العادية على الرغم مما يسببه للآخرين من إيذاء وإيلام ، إلا أن أغلبهم قد ينتهي به الأمر إلى السجون والمؤسسات العقابية بسبب جرائمهم . وفي جميع

الحالات يحتاج الاضطراب السيكوباتي إلى خبرة كلينيكية عميقة للتمييز بينه كمرض عقلي (ذهان) وبين الإجرام العادي .

ونحن نفترض بالطبع أن أصحاب هذه الحيلة الدفاعية يستخدمونها عن غير علم أو غير وعي ؛ لأنها لو كانت تتم بعلم ووعي لكان ما يصدر عنهم نوعاً من الكارثة التي تدخل أصحابها في باب التلقيق العلمي . فإذا كانت عن غير وعي تكون هذه الحيلة (التشويه) قد اندمجت مع تلك الحيلة النفسية ، التي يسميها فستنجر (Festinger, 1957) « النسيان الانتقائي » selective forgetting ، أو تلك التي يسميها (Hardyck & Kardush, 1968) وقف التفكير Stopping thinking ، وفيهما ينسى المرء أو يتجاهل - لا شعورياً - العناصر التي قد تزيد عنده حالة التنافر المعرفي ، وهذا النسيان يجعل عناصر التنافر المعرفي لديه تبدو أكثر توافقاً وانسجاماً ، ولو كان ذلك تشويهاً صنعه عالم الوهم .

(٤) اتجاه التوحيد بالنقد :

يلجأ بعض علماء النفس في مواقفهم « الدفاعية » إلى حيلة سيكولوجية شائعة أيضاً هي التقمص أو التوحيد identification ، وتتخذ هذه الحيلة هنا صورة خاصة هي التوحيد بالمعتدى بافتراض أن الهجوم الموجه إلى علم النفس من جانب

لقاده الإسلاميين فيه من الحدة والشدة ما يجعل معظمه من قبيل « العدوان » على هذا العلم وعلى المتخصصين فيه . وفي حيلة التوحد بالنقاد هذه تبنى هذا الفريق من علماء النفس المسلمين مواقف هؤلاء النقاد وأفكارهم ، بل ولجأوا إلى استخدام نفس منطقهم وطريقتهم في التفكير ؛ فإذا كان النقاد الإسلاميون لعلم النفس قد رفضوا علم النفس الحديث جملة وتفصيلاً - كما بينا في القسم الأول من هذا البحث - فإن متقصيهم والمتوحدين معهم من علماء النفس المسلمين وقفوا هم أنفسهم من علمهم نفس الموقف ، وتمثل ذلك خاصة في مواقف ثلاثة سوف نتناولها بالتحليل والمناقشة فيما يلي :

(أ) السخرية من علم النفس عند الإشارة إليه في أى سياق ، واعتباره إنتاج الحضارة الغربية الحديثة ، وبالتالي يجب رفضه من بين ما نرفضه منها . والرد على هذا الموقف سيأتى تفصيلاً فيما بعد حين نعرض للأنس الأستمولوجية للعلم في الإطار الإسلامى . وحسبنا أن نشير هنا إلى أنه إذا كانت أهداف العلم في الإطار الإسلامى - كما سوف نحددها - هي : السعى للتعرف على آيات الله سبحانه وتعالى التى هي علامات قدرته فى خلقه ، والكشف عن سننه فى مخلوقاته ؛ فقد حاول الإنسان ذلك فى مختلف العصور

مستخدماً ما زوده الله به من نعم ، وخاصة الحواس والعقل ، وقد بذل الإنسان الحديث نفس المحاولة ، مستخدماً الأسلوب العلمى وأدوات البحث الأكثر دقة .

والمهمتان اللتان يحددهما الإسلام للعلم (التعرف على آيات الله والكشف عن سننه) تشمل العلوم الطبيعية والإنسانية جميعاً ؛ فالقرآن الكريم يجمع آيات النفس والآفاق والأرض فى سياق واحد ، يقول الله تعالى :

﴿ سترهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾
[فصلت : ٥٣]

﴿ وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾

[الذاريات : ٢٠ ، ٢١]

ويتبين لنا من هذا التوجيه القرآنى - والله أعلم - أن أسلوب التعرف والكشف والبصر والتبين فى الحالتين واحد ، وهو بالطبع الأسلوب العلمى فى عصرنا . وهذا هو المنظور الحقيقى الذى يجب أن ننظر من خلاله إلى نتائج العلم سواء أجريت بحوثه فى الشرق أو الغرب . وبهذا التصور الصحيح لمغزى المنهج العلمى فى علم النفس وغيره من مجالات المعرفة - : يمكن أن نتوقف تلك الصيحات العاتية التى تطالب بالتوقف عن الاهتمام بعلم النفس الحديث ، وقد تمتد إلى غيره من فروع العلم ؛ لأنه

يكون إشارة لطيفة في القرآن الكريم لظاهرة كونية طبيعية - هذا إذا صح تخريج المؤول لمعناها - وليس من الصواب في شيء الزج بتلك الإشارة الكريمة إلى تحميلها فوق كل ما تحتمله ، ووضعها موضع التسابق مع أي مبحث علمي ... فمن العبث أن نعقد سباقاً لا محل له ، ولا معنى بين كتاب الله - تنزهت كلماته - وبين علوم البشر . فهي حتى وإن بلغت في هذا الزمان شأواً عظيماً ليست إلا لحات من علم الله الشامل الكامل .

(جـ) « تقديس » تراث العلماء المسلمين ، واعتبار كل ما صدر عنهم أفضل وأسبق من أي إنجاز سيكولوجي حديث . فابن الجوزي مثلاً - في كتابه الأذكياء - أفضل وأسبق - عند أصحاب هذا الاتجاه - من جميع علماء النفس المعاصرين الذين اهتموا بقياس الذكاء والقدرات العقلية .

وهذه المبالغة في تقدير كل ما صدر عن تراث العلماء المسلمين - : لو أدركها أصحاب هذا التراث العظيم أنفسهم لأنكروها ؛ لقد كان رواد المنهج العقلي منهم على علم بحدود استدلال العقل ، كما كان أصحاب المنهج التجريبي منهم أيضاً أعلم بحدود الملاحظة والتجربة ؛ ولهذا لا يمكن لأحد منهم أن يدعى - كما زعم من جاء بعدهم من شراحهم - أنه جمع علم الأولين

من إنتاج معامل الغرب وجامعاته . وهي دعوة في رأينا إلى الجهل والتخلف . ناهيك عن أنها ضد روح الإسلام العظيم الذي دعا رسوله الكريم إلى طلب العلم أنى كان ؛ يقول عليه الصلاة والسلام : « الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها » ، كما يقول أيضاً : « اطلبوا العلم ولو في الصين » ، وكانت أقصى حدود العالم المعروفة وقتئذ .

(ب) اعتبار كل ما توصل إليه علم النفس الحديث - شأنه في ذلك شأن غيره من العلوم - سبق إليه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . وقد نبه إلى حدوث ما يشبه هذا في مجال العلوم الطبيعية والبيولوجية أحد روادنا من العلماء المسلمين المعاصرين (عبد الحافظ حلمي ، ١٩٨٢) حيث يركز الكثيرون ممن يكتبون حديثاً حول « الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة النبوية » على أنهما سبقا العلم الحديث بمئات من السنين . وهذا الحرص الشديد على وضع القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في سياق مع العلوم الحديثة إنما هو منزلق خطير ، ينبه إليه (عبد الحافظ حلمي ، ١٩٨٢) بقوله :

« إنه غالباً ما يكون قولاً جزافاً غير مستند إلى أي أساس علمي أو تاريخي فالأمر موضع التأويل لا يعدو في الغالب أن

والآخرين ، يصدق هذا على جابر بن حيان ، والخوارزمي ، والجاحظ ، وثابت بن قرة ، والتباني ، وأبي بكر الرازي ، وأبي الوفاء البوزجاني ، وابن يونس ، وأبي القاسم الزهراوي ، وابن الهيثم ، والبيروني ، والشريف الإدريسي ، وابن النفيس ، وابن البيطار ، وابن خلدون ، وغيرهم ممن استخدموا المنهج التجريبي - : صدقه على الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ، وابن حزم الأندلسي ، والغزالي ، وابن باجه ، وابن طفيل ، وابن رشد ، وغيرهم ممن استخدموا المنهج العقلي .

ولهذا فإنه من قبيل العبث بالعقل المسلم الحديث أن يدعى بعض أصحاب اتجاه التوحيد بالنقاد بأن بعض ما قرأوه - قراءة متعجلة أحيانا - من كتب هؤلاء الأعلام سبق نتائج البحوث الحديثة ، وهو قول أقرب إلى الجهل - إذا توافر في أصحابه حسن النية ، أو إلى العبث العلمي إذا توافر لديهم سوء المقصد ، ومن سوء الفهم للتراث الذي يشيرون إليه ، والعجز عن فهم طبيعة العلم الذي يدعون الانتساب إليه .

والمنهج العلمي الذي تستخدمه العلوم الإنسانية ومنها علم النفس في العصر الحديث - والذي لا يتعارض مع طبيعة المعرفة في الإسلام كما أشرنا إجمالاً من قبل ،

وكما سنشير تفصيلاً فيما بعد - لم يكن معروفاً قبل القرن التاسع عشر . وكان الشائع قبل ذلك التوحيد بين آراء الفلاسفة والمفكرين وحقائق السلوك الإنساني . وبالطبع لم يكن قد توافر في ذلك الوقت أسلوب يضع هذه الآراء البشرية موضع الاختبار ، (ناهيك عن أن بعضها وضع موضع التقديس لقرون عديدة ، ومنها آراء أرسطو) ، وكانت المواقف إزاءها إما « القبول » ، أو « الرفض » على أساس الجدل العقلي المحض أو الاندماج الانفعالي والوجداني الكامل دون مراعاة « لحقائق » السلوك الإنساني بالفعل ، كما يلاحظ عندما يصدر عن البشر كأجنة وأطفال ومراهقين وشباب وراشدين وكهول وشيوخ (آمال صادق ، فؤاد أبو حطب ، ١٩٨٧) .

وهذا القول يجب ألا يفهم على غير وجهه . فهو لا يقلل أبداً من شأن عبقرية العلماء والمفكرين الذين نشأوا في رحاب الحضارة الإسلامية . فالعلم الحديث يدين لهم ، كما يدين لغيرهم من مفكري الإنسانية بالفضل العظيم . ومهمتنا كعلماء نفس مسلمين أن نعيد كتابة « تاريخ علم النفس » - كما نعيد كتابة تاريخ العلم عامة ، لنضع إسهامات مفكرينا في سياقها التاريخي الصحيح . إلا أننا يجب أن نكون دائماً على درجة كافية من اليقظة عند النظر إلى هذه الآراء السابقة على ظهور المنهج

العلمي الحديث - سواء عندهم أو عند غيرهم من مفكرى الحضارة الإنسانية ، فهي تظل في أحسن حالاتها « تخمينات جديدة » أو « فروضاً » تنتظر الاختبار ، وبهذا وحده يمكن فرز « الجيد » من « الرديء » فيها ، حتى نتجنب مزلق التضمينات النظرية والتطبيقات العملية للأفكار « السيئة » ، أى التى لا يوجد دليل يؤكد صحتها ؛ وبهذا يصبح العلم قيمة في ذاته يحمي المجتمع العلمى - والمجتمع بصفة عامة - من الاستدلال المعيب والتفكير الملتوى . وعلينا أن نتذكر دائماً أنه لا توجد في وقتنا الحاضر سلطة بشرية تفوق الدليل العلمى . وعلينا دائماً أن نقبل الأفكار أو نرفضها في ضوء هذه الأدلة والشواهد وليس على أساس مكانة صاحب الفكرة . بل على الباحث العلمى أن يكون مستعداً هو نفسه للتخلى عن فكرته إذا لم يتوافر لديه دليل يؤكد صحتها .

(٥) الاتجاه الإسقاطى :

لعل هذا الاتجاه ينطبق عليه كل ما أشار إليه مالك بدرى (١٩٨٧) من أنه يمثل « التوفيقية بين الإسلام وعلم النفس » إلا أننا نرى أن وصفه « بالاتجاه الإسقاطى » projective يتفق مع تناولنا الراهن ، وخاصة أن التوفيقية ، ومنها التلفيقية ، قد تظهر بصورة أو أخرى في جميع الاتجاهات السابقة .

ويورد مالك بدرى (١٩٨٧) مثلاً على ذلك الاتجاه من كتابات أحد السيكولوجيين العرب المعاصرين (عزت الطويل ، ١٩٧٧) التى حاول فيها الربط بين القرآن الكريم ونظرية التحليل النفسى لسيجموند فرويد ، ومن ذلك أنه يعتبر أن اللاشعور - وربما يقصد هو id على وجه الخصوص - عند فرويد مقابلاً للمفهوم القرآنى « النفس الأمارة بالسوء » ، والشعور - وربما يقصد أيضاً المفهوم الفرويدى الأنا - ego هو « النفس المطمئنة » فى القرآن الكريم . أما مفهوم الأنا العليا super-ego عند فرويد فهو عنده يقابل مفهوم « النفس اللوامة » فى القرآن الكريم .

أسلوب إسقاطى - دون شك - لجأ إليه أصحاب هذا الاتجاه يقرأون من خلاله القرآن الكريم على نحو يتفق مع وجهتهم المعرفية ، وبطريقة توفر لهم حلاً لتناقضهم المعرفى . وقد لجأ آخرون إلى قراءة السنة النبوية المطهرة ، وقراءة تراث العلماء والفلاسفة المسلمين بنفس الطريقة إلى الحد الذى دفع مؤلف هذا البحث إلى أن يطلق على هذا الاتجاه « الترجمة الفورية » للمفاهيم النفسية فى الإطار الإسلامى (فؤاد أبو حطب ، ١٩٧٨) .

فها هى مفاهيم الذكاء والصحة النفسية والتوافق وغيرها سبق إليها العلماء

والفلاسفة المسلمون قبل أئدادهم من علماء النفس المعاصرين بعدة قرون ، وما علينا إلا نعيد قراءتها لنريج ونستريح . ولعل أوضح ما يؤكد هذا الاتجاه ما نقله مالك بدرى (١٩٨٧) عن المؤلف السابق قوله « ليس هناك تعارض إذن بين القرآن ، وعلم النفس في نظرة كل منهما إلى النفس البشرية (عزت الطويل ، ١٩٧٧ ، ص ١٠) . وبهذا تستريح جميع الأطراف .

وقد ناقش مالك بدرى (١٩٨٧ : ٣٥ - ٣٧) هذه الحالة الخاصة مناقشة مفصلة أوضح فيها على وجه الخصوص الفوارق الجوهرية بين النفس مطمئنة كما وردت في القرآن الكريم باعتبارها حالة نادرة للنفس عند خاصة المؤمنين ، وبين مفهوم الأنا عند فرويد الذى هو الحالة الشائعة عند معظم الناس في توافقهم « المساوم » مع عالم الواقع ، وكذلك تلك الفوارق بين المفهوم القرآنى للنفس اللوامة ، التى هى حالة للنفس تشعر صاحبها بالتقصير المستمر فى حق الله تعالى ، وبين المفهوم الفرويدى للأنا الأعلى ، الذى هو فى جوهره امتصاص للمعايير الاجتماعية والثقافية السائدة ، والتى قد تكون منحرفة بالطبع . وندرة حالة النفس مطمئنة تأتى من أنها « حالة الأنبياء والصديقين من عباد الله ، وهى حالة تكون النفس فيها مطمئنة بالله ، تؤمن ببلقائه ، وترضى بقضائه ،

وتقنع بعطائه ، وهذا دعاء علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء فى حديث أبى أمامة الذى رواه الحافظ ابن عساكر بسنده » (محمد رشاد خليل ، ١٩٨٧ : ٧٤) . وهى حالة لا يمكن الوصول إليها إلا بالمجاهدة .

أما حالة النفس اللوامة فيصنفها محمد رشاد خليل (١٩٨٧ : ٧٣) إلى نوعين : أولاهما حالة لوم المؤمن التقى ، ويكون اللوم عنده لوم على التقصير فى الطاعة والغفلة عن الذكر والإقدام على المعاصى . أما الحالة الثانية فهى لوم الفاجر الغافل ويكون على التقصير فى طلب الدنيا وانتهاز الفرص وفوات الحظوظ والأهواء وهى الحالة الشائعة والتى تسبب لأصحابها القلق والكآبة والتوتر .

وقياساً على ذلك نشير إلى أن حالة النفس الأمانة بالسوء أكثر شيوعاً من الحالتين السابقتين . ومن هنا تكمن الفوارق الجوهرية بين المفهوم القرآنى عن النفس الأمانة بالسوء والمفهوم الفرويدى عن الهو . فالوصف القرآنى لهذه الحالة من حالات النفس يتضمن حكماً بالسوء على أن ما تزينه هذه النفس للإنسان من « حب للشهوات » ؛ ومن هنا نشأت ضرورة « الضوابط » controls التى تتحكم فى سلوك الإنسان ، وتوجهه الوجهة المشروعة الصحيحة ، وأهمها فى الإسلام ضوابط

مستقلة هي « اتجاه المسايرة »
 conformity ، وهي حيلة نفسية لجأ إليها
 أصحاب التنافر المعرفي من علماء النفس
 المسلمين حتى يمكنهم التوافق مع التوقعات
 المتزايدة التي يفرضها النقاد الإسلاميين على
 علم النفس ، وتتألف هذه الحيلة جزئياً من
 حيلة التوحيد أو التقمص ؛ فحتى يبدو
 أصحاب هذا الاتجاه « على صواب » من
 وجهة نظر نقادهم امتصوا المعايير التي
 حددها هؤلاء النقاد للخطأ والصواب في
 علم النفس ، وهم بذلك يسعون لكسب
 التقبل الاجتماعي في ظل الظرف الخاص ،
 والوقت المميز للذين أشرنا إليهما في مطلع
 هذا البحث (أي ظرف ووقت ما اصطلح
 على تسميته الصحوة الإسلامية) . وفي
 سبيل تحقيق ذلك لجأ أصحاب هذا الاتجاه
 إلى عدة أساليب تتسم جميعاً بالفجاجة
 وعدم النضج ، منها :

(١) استخدام المفاهيم النفسية الشائعة ثم
 الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة
 والأحاديث النبوية الشريفة على نحو
 مبتسر ، بحيث لو حذفت هذه النصوص
 الكريمة (التي لا تستخدم في هذه الحالة إلا
 في حدود الديكور الديني) مما يكتبون لما
 بقي إلا محض كتابة عادية في علم النفس
 من النوع الدارج .

(٢) استخدام المفاهيم الإسلامية
 الأساسية ، ثم الاستشهاد ببعض ما يكتب

الحلال والحرام . ومن تفاعل الشهوات
 (الدوافع) والضوابط ينشأ السلوك
 الخلقى (فؤاد أبو حطب ، ١٩٧٢) . أما
 فهو عند فرويد مستودع للشهوات ،
 وخاصة شهوة الجنس التي تعد بما فيها من
 طاقة القوة الدافعة لنمو الشخصية ، ومنها
 يستمد الأنا والأنا الأعلى الطاقة اللازمة
 لنشاطهما ، ناهيك عن التركيز الشديد على
 خطر الكبت الذي قد ينشأ بالطبع عن أثر
 الضوابط .

والخطأ الفادح الذي يقع فيه أصحاب
 هذا الاتجاه أنهم لا يدركون الفروق
 الجوهرية بين مختلف الاتجاهات
 Paradigms في علم النفس ، وهي
 القضية الرئيسية التي يقوم عليها بحثنا
 الحالي .

(٦) اتجاه المسايرة :

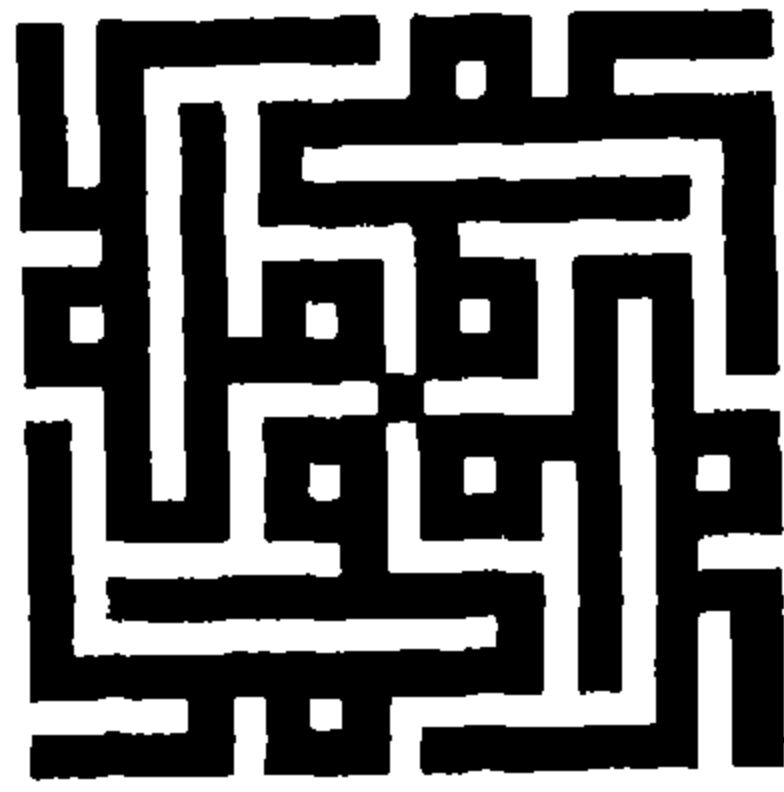
يوجد اتجاه توفيقى آخر إلا أنه أشد
 خطراً من الاتجاه الإسقاطى السابق ويتمثل
 في أولئك الذين يصفهم مالك بدرى
 (١٩٨٧) بأنهم « يكتبون أبحاثهم على
 أساس مبادئ علم النفس الحديث
 ونظرياته وممارساته ثم يبحثون بعد ذلك عن
 الآيات القرآنية والأحاديث التي لها أدنى
 صلة سطحية بموضوعاتهم فينثرونها في
 البحث هنا وهناك ، ثم يقدمونه على أنه
 تأصيل إسلامى لعلم النفس » .

وهذا الاتجاه نرى أن نطلق عليه تسمية

وكلا الأسلوبين يتسم بالسذاجة ،
والبعد عن جوهر المشكلة إلى قشورها ، كما
أنه ضار بكل من الإسلام وعلم النفس ؛
لأنه ييسّط العلاقة بينها تبسيطاً مغللاً ،
يفرّغ الباحثين عن السهولة واليسر بركوب
موجته والبحث عن مكانة ضائعة من
خلاله .

في علم النفس متصلاً بها . وينطبق على هذا
الأسلوب ما أشرنا إليه بالنسبة للأسلوب
السابق . فمرة أخرى لو حذفنا العناوين
الإسلامية التي لا تتجاوز حدود استخدامها
أن تكون لافتات لجذب الانتباه : يتحول
النص السيكلوجي إلى كتابة عادية في علم
النفس من النوع الدارج أيضاً :

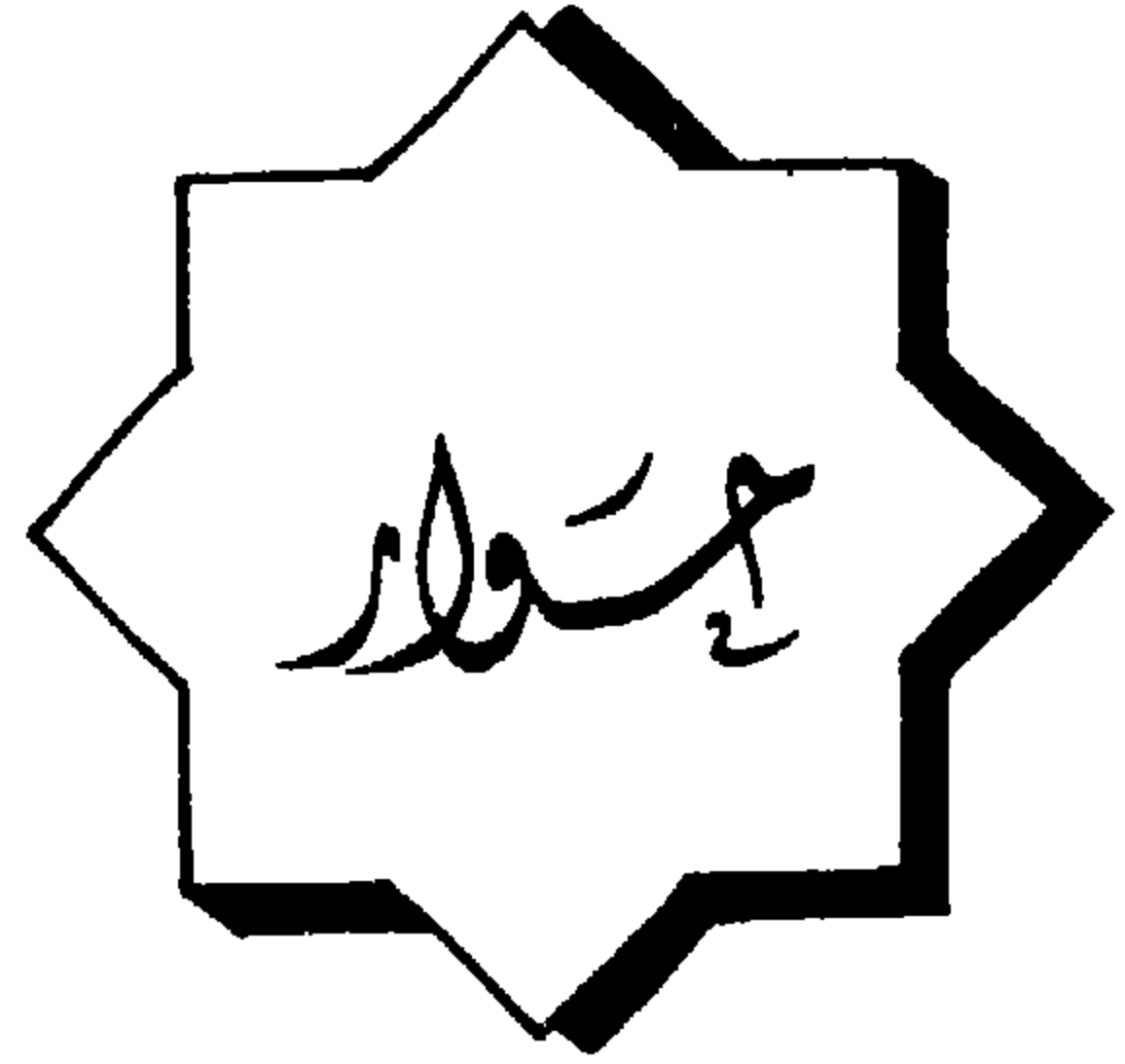
وللبحث صلة



الهوامش

- (١) هو منهج يستخدم حين يستدل بالسلوك الظاهري على الحالات الشعورية لدى الآخرين - ومنهم الحيوانات ، وذلك بالقياس إلى الحالات الشعورية التي يختبرها الملاحظ في نفسه وبشكل مباشر . ويطلق في حالة تطبيق هذا المنهج على الحيوان « الأنسنة » ، أى خلع الصفات الإنسانية على الحيوان .
- (٢) من الطريف أن نشير هنا إلى أن قسم علم النفس الوحيد في مصر المهتم بالتحليل النفسى هو قسم علم النفس بكلية الآداب جامعة عين شمس ، ويعود ذلك إلى فضل منشئه أ.د . مطفى زيور الذى حصل على درجته العلمية العليا من جامعة ليون بفرنسا في مجال الطب ، وتدرّب فيها على التحليل النفسى ، على الرغم من أنه تخرج (عام ١٩٢٩) من قسم الفلسفة بكلية الآداب بالجامعة المصرية ، فجمع بذلك بين « الثقافتين » . ومع ذلك فإن أ. د . زيور يرى أن استخدام التحليل النفسى في العلاج النفسى مهمة طبية قبل أن تكون سيكولوجية .
- (٣) توجد بعض الأمثلة على الساحة السيكولوجية المعاصرة ، إلا أننا نعف عن الإشارة إليها بالاسم حتى لا نخرج نحننا من باب العلم ويدخل في باب الجدل الشخصى ، ناهيك عن أنها تكاد معروفة للجميع .





تلازم الموضوعية والمعارية في الميتودولوجيا الإسلامية

تعقيب م . أحمد سليم ملحم على بحث
أ . محمد أمزيان . العدد ٥٩

« ... ولم تكن الدراسات الاجتماعية لتأخذ شكلاً مغايراً لطبيعة هذا الموقع بحيث استقر في ذهن الباحث الغربي وجود نوع من التلازم ... » ، « ... ولقد ظلت هذه الخلفية حاضرة في ذهن الباحث الغربي ... » . إذاً نحن أمام مشكلة تعريف لمصطلح وصفي ، وهل يمكن للإنسان أياً كان أن يكون وصفاً . موضوعياً تقريرياً بالمعنى المطلق أم أن النسبية أيضاً تحكم أيضاً هذا الأمر ، وكما ورد في كلام الأستاذ مما أشرت إليه من قبل ثلاثة عوامل هي الأساس في ديمومة النسبية وهي :

طبيعة الموقع + الخلفية الثقافية + الزمن
(الحساسية التاريخية) إذاً مادام مقررراً على وجه نهائي أن علماء الاجتماع الغربيين ما كانوا أبداً موضوعيين وصفيين فلا يمكن

١ - يقرر الأستاذ الفاضل محمد أمزيان بشكل مباشر وغير مباشر سعي علماء الاجتماع الغربيين بل تأسيسهم لعلم الاجتماع على أساس وصفي وليس معياري ، وهذا مما لا خلاف عليه . لكن الأستاذ الفاضل ينتقد هذا الاتجاه ويرفضه رفضاً تاماً . ثم يقرر مع ذلك أن علماء الاجتماع الغربيين ما كانوا أبداً وصفيين فقط بل عنصريين والتزموا النظرة المعيارية في علمهم ، ودلل على ذلك في كثير من المواقع منها ما جاء في صفحة ٦٠ : « .. إلا أن الكتابات الاجتماعية تدل دلالة واضحة على أن الباحث الغربي ظل في كل ما يكتب معبراً عن القيم الغربية وملتزماً بالنظرة الاستعمارية لهذه القيم تجاه بقية الشعوب ... » .

محاكمتهم ولا محاكمة علمهم على أساس هذا المبدأ بل ربما على أساس أنهم أعطوا أنفسهم وعلمهم صفة لا تطابق الحقيقة... وهذه قضية لا اختلاف عليها مع الأستاذ الفاضل أمزيان .

إذاً فلا يمكن لنا أن نحكم على علم اجتماع وصفي موضوعي من خلال علماء الغرب فهم شيء وعلم الاجتماع الوصفي الموضوعي شيء آخر ولهذا نتيجة سأتى إليها فيما بعد .

الأمر الآخر الذي يجعلني أؤكد خطأ الحكم على علماء الاجتماع الغربيين على أساس أنهم وصفيون موضوعيون على ما يؤكد الكاتب نفسه ويدلل عليه لغيره من علماء الغرب فيقول في صفحة ٦٠ : « لقد عمل علماء الاجتماع على تأكيد سيادة وتفوق النمط الغربي على المستوى الثقافي والسياسي والاجتماعي على مستوى السلوك والأخلاق والقيم والنظم ... ومن العبث أن نقول إن محاولات هذه كانت محاولات علمية ومحيدة وتستبعد الأحكام المعيارية وتتجرد عن المقاييس الأخلاقية » .

فما داموا غير وصفيين ولا موضوعيين ولا متجردين فلماذا أحكم على خطأ الموضوعية والتجرد من خلال أعمالهم ومختلف نظرياتهم ١٩ .

وكذلك لا يمكنني أن أطالب - وباللحاح كما جاء في كثير من فقرات المقال - باستبعاد علم اجتماع وصفي موضوعي تقريرى من خلال تجربة علماء اجتماع الغرب فقط ولهذا أيضاً ما بعده .

٢ - ومن بين ما يرد في مقال الأستاذ الفاضل ما يلي :

ص : ٥٩ : « ظلت بحوثهم (علماء اجتماع الغرب) ذات صفة معيارية تنطلق في دراستها وتحليلها من واقع القيم الغربية وذات نزعة إصلاحية تسعى إلى تغيير نمط اجتماعي معين بنمط آخر مغاير ... » .

ص ٦٢/٦١ : « إن دوركايم - كما يشير إلى ذلك نقاده - يؤمن بالتقدم الأخلاقي ويعتقد في إمكان وصوله في دراسته إلى منظومة جديدة يمكن أن تكون صحتها مؤيدة بالعلم وقد كان يأمل في أن يكون علم الاجتماع قادراً على إحداث بنية اجتماعية أمتن لكي يقوم مقام البنى التي تداعت بسقوط النظام الأمبراطوري السابق » . « لقد سخر دوركايم علم الاجتماع لأهداف إصلاحية تقوم أساساً على أسس علمانية وإلحادية ومادية ؛ قصّد إحداث تغييرات عميقة داخل البنية الاجتماعية الثقافية الغربية ولم يمنعه التزامه العلمي من التصريح بأن علم الاجتماع لم يكن يستحق ساعة من الاهتمام إذا لم يمكننا من تحسين المجتمع » .

ص ٦٢ : « ... على أن هذه النظرية الإصلاحية لم تكن من تقاليد الرواد الأوائل فحسب ، بل امتدت عند الأجيال التالية ... » .

ص ٦٧/٦٨ : « أما الميتودولوجيا الإسلامية فهي لا ترى وجود هذا التعارض مطلقاً فالمسألة ليست مسألة تعارض وتقابل بقدر ما هي مسألة تكامل وتطابق ، بمعنى أن هناك تلازماً بين المعيارية والوضعية ... » .

ص ٦٩ : « إن الاختصار على الدراسة الوصفية الاستطلاعية يجعل من العلم أداة عقيمة يفقد معها دلالاته ووظيفته فالباحث الاجتماعي لابد أن يتخذ موقفاً بالنسبة لما يعلم وما ثبت له من الحقائق وهو أولى وأحق بهذه العملية من السياسيين والمتعصبين والعامة والجهال » .

إذاً ما الفرق في تحديد غائية علم الاجتماع كما ورد في موقف علماء الاجتماع الغرب في ص ٥٩ و ٦١ و ٦٢ وغيرها مما أشرت إلى بعضه سالفاً ١٩ فدوركايم يصرح بأن علم الاجتماع لم يكن يستحق ساعة من الاهتمام إذا لم يمكننا من تحسين المجتمع والأستاذ الفاضل محمد أمزيان يصرح : « فالباحث الاجتماعي لابد وأن يتخذ موقفاً بالنسبة لما يعلم وما ثبت له من الحقائق » .

إذاً المشكلة في الادعاء والمصطلح فهم ادعوا أن معنى مصطلح الموضوعية يناق المعنى المباشر والمحدد للكلمة لكنهم لم يختلفوا عما ورد في نظرة الأستاذ أمزيان لعلم الاجتماع مع إضافة الفرق الحتمي الثاني والمنطقي أن مقصود الإصلاح هنا يختلف عنه هناك .

٣ - يقول الأستاذ الفاضل أمزيان في ص ٧١/٧٢ : « إن عالم الاجتماع الإسلامي لابد أن يهتم بالقيم باعتباره يقوم بدراسات مقارنة بين الحالة المدروسة وبين النمط الاجتماعي المثالي أو النموذج الإلهي وهو المجتمع الذي ينشد تحقيقه ، وفي ضوء هذه المقارنة يجد نفسه مضطراً لكي يطرح البديل النافع فمهمته التغيير نحو الأحسن ، وكل عمل من هذا القبيل لن يتأتى في التزام الحياء » .

كما أنه رفض من قبل إلا أن يتخذ عالم الاجتماع موقفاً بالنسبة لما يعلم وما ثبت له من الحقائق وجعله أولى وأحق من السياسيين والمتعصبين والعامة والجهال .

وكما ورد بشكل مباشر مثل هذه المعاني في ثنايا المقال ، ورد شيء آخر يوحى بإعطاء صفة الشمولية لعلم الاجتماع على صعيد البحث والدراسة وعلى صعيد المهمة والتغيير ...

وهذا ما ينطبق على بعض العلماء الغربيين بل هذه الرغبة التي جعلت علماء الاجتماع يتجاوزون مهمتهم الوصفية الموضوعية كما هي محددة من قبل لينوء بمهمة علوم أخرى كان الأولى أن تشكل مع علم الاجتماع شمولية تعنى بكليات الحياة وأن تنفرد بها وحدها ..

ودلل الأستاذ أمزيان على بعض ما قرره لعلم الاجتماع بالآية الكريمة ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله﴾ [التوبة : ٩٨] ، وهذا الدليل يؤكد تصور الأستاذ أمزيان لمهمة علم الاجتماع وهي الوصفية والمعيارية معاً وفي آن واحد ، كما لا يرى أن يترك للسياسيين الأمر ولا لغيرهم مهمة اتخاذ المواقف والتغيير ..

وهذا ما اختلف حوله مع الأستاذ أمزيان ، فمهمة علم الاجتماع محصورة في الوصفية الموضوعية ، تتكامل مع عناصر أخرى تربوية وأخلاقية وفلسفية وسياسية دون تضاد ؛ سواء أخطأ المهمة أم أصاب علماء الغرب ، أنصفوا أم انحازوا ... وبالتالي فالقرآن ليست مهمته تحقيق علم اجتماع لأن فيه الوصف أولاً ثم المعيار أو الاثنين معاً أو المعيار دون وصف مع وجود تربية أو سياسة أو الأمرين معاً داخل أي من المعيار أو الوصف أو كلاهما مجتمعين ... فهو شأن آخر ومهمة أخرى

يلتقى علم الاجتماع مع أجزاء منه .
ونحن - الإنسانية - اليوم أحوج ما نكون لعلم الاجتماع وصفى تقريرى فقط ليحدد بالأرقام ويصف بالوقائع والأحوال حياة الأمم والشعوب .. وأنا على يقين أن ذلك لو تحقق بتجرد وإخلاص من أي فريق من الفرقاء أو إنسان من الناس لقدم للبشرية كماً من المعلومات الأولية التي تمكن أولى الألباب من علماء الاجتماع أو علماء السياسة أو علماء التربية من أن يقوموا بدورهم بعد أن هيئت لهم الأسباب ... ولكان المنتفع الأول والأخير من هذه المعلومات هم المسلمون ..

فالمشكلة ليست في مكنون علم الاجتماع الوصفى ولكنها في من استخدم الشعار وأقام تحته علماً آخر أو علم اجتماع معياري غاى بعد أن سماه بغير ذلك ..

وأنا هنا أؤكد مع ذلك أنني لا أعترض على قيام علم اجتماع معياري يقوم بالوصف والتقارير ثم المعيار والتقويم كما جاء في حديث الأستاذ أمزيان : قيام علم اجتماع وصفى موضوعى تقريرى فقط ... دون إخفاء الشرعية والمعيارية والمثالية على ذلك كما أساء الاستخدام علماء الغرب .

وليكن علم الاجتماع المرحلة الأولى التي على أساسها تنطلق العلوم الأخرى كعلم السياسة أو التربية أو التعليم .. فمصور

الأشعة هو الذي يقدم تحديداً أو أشكالاً مختلفة للمشكلة ليأتي الطبيب والصيدلاني ، والأستاذ أمزيان يريد لعلم اجتماع إسلامي أيضاً أن يكون كذلك رغم انتقاده لما قام به الغربيون ... مع اختلافه المذهبي عنهم .. وفي هذه الحالة نكون ظلمنا علم التصوير وهو برىء مظلوم ممن استخدمه لتحقيق غايات أخرى .

الانطلاق من ردود الأفعال لإنشاء علم اجتماعي إسلامي خطأ غير مقصود وكذلك لا يقلل خطأ القياس على خطأ الغرب من

خطأ الغرب نفسه ، فالنظرة الكلية الشمولية لمقال الأستاذ أمزيان لا تخرج عن ضرورة إيجاد علم اجتماع إسلامي آخر غير الغربي لكنه عند البحث في المضمون لا يختلف عن الآخرين إلا في اللون وفي فعل مضاد بيني وهو ينظر لما يقابله من تجربة ، وينطلق من كل هذا لإقامة صرح جديد ، والأفضل الانطلاق من تجرد لا من ردود أفعال مع الاستفادة من التجربة أولاً وتحديد الهدف والوسائل مع إدراك ساحة باقي العلوم لإقامة صحيحة مستقلة متميزة لعلم اجتماع إسلامي .



الموزعون المعتمدون لمنشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي

مصر :

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
٢٦. ب شارع الجزيرة الوسطى
الزمالك — القاهرة
تليفون: (202) 340-9520
فاكس: (202) 340-9520

لبنان :

المكتب العربي المتحد
ص.ب: 135889 بيروت
تليفون: 807779

الأردن :

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
ص.ب. ٩٤٨٩
عمان — المملكة الأردنية
تليفون: 962-6-639992
الفاكس: 962-6-611420

المغرب :

دار الأمان للنشر والتوزيع
4 زنقة المامونية
الرباط — المغرب
تليفون: (212-7) 723276

الهند :

Genuine Publications & Media (Pvt) Ltd.
Vateg Building, Nimmuddin West
New Delhi- 110025
Tel: 6172409

في شمال أمريكا :

المكتب العربي المتحد

United Amb Bureau
P.O. Box: 4059
Alexandria, VA 22303, U.S.A.
Tel: (703) 329-6333
Fax: (703) 329-8052

خدمات الكتاب الإسلامي

Islamic Book Service
10900 W. Washington St.
Indianapolis, IN 46231 U. S. A.
Tel: (317) 839-9248
Fax: (317) 839-2511

في أوروبا :

المؤسسة الإسلامية
The Islamic Foundation
Markfield Da'wah Centre, Ruldy Lane
Markfield, Leioester LE6 ORN, U.K.
Tel: (44-530) 244-944/45
Fax: (44-530) 244-946

خدمات الإعلام الإسلامي

Muslim Informmijon Services
233 Seven Sister Rd.
London N4 2DA, U.K.
Tel: (44-71) 272-5170
Fax: (44-71) 272-3214

المملكة العربية السعودية :

الدار العالمية للكتاب الإسلامي
ص.ب. ٥٥١٩٥ الرياض ١١٥٣٤
تليفون: (966) 1-465-0818
فاكس (966) 1-463-3489



بسمنا تدريس العلوم الشرعية

فضيلة الشيخ محمد الغزالي

د . جمال الدين عطية :

بسم الله الرحمن الرحيم
إن أهمية موضوع تدريس العلوم الشرعية لا تخفى على أحد ؛ وذلك لأن من أهم مشاكلنا ، ولعلها أهمها على الإطلاق ، هي مشكلة الازدواج الثقافي . وتطوير تدريس العلوم الشرعية يعد أحد الحلول والمداخل الطبيعية لحل هذه المشكلة ، بما يضمن امتصاص العلوم الاجتماعية والطبيعية وتكييفها وفقاً للشريعة ، وبذلك تعود الثقافتان إلى ثقافة واحدة .

ومحدثنا في هذا الموضوع هو أستاذنا الشيخ « محمد الغزالي » ، وهو خير من يتحدث فيه علماً وخبرةً وتجربةً ، وأعتقد أنه غنى عن التعريف ، فليفضل :

الشيخ محمد الغزالي :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ،
أيها الإخوة لا بأس أن أبدأ حديثي بطفرة وقعت لصديقي الشيخ عبد المعز عبد الستار^(١) وهو زميل دراسة وكان من قادة جماعة الإخوان المسلمين فقد كان يحب التحدث للجماهير وقد حضر الفقه على المذهب الحنفي - كما حضرته أنا على المذهب الحنفي - وأراد أن يذهب ليدرس في مسجد قريته في فاقوس ، فأخذ كتاب « الإيضاح »^(٢) وهو كتاب الفقه الذي درسناه ، ثم شرع يقول للناس أول سطور الكتاب وهي أن المياه سبعة : ماء البحر ، وماء النهر ، وماء البرد ، وماء الثلج ، وماء المطر ، وماء العين ، وماء البئر ، فقال له

أحد الحاضرين : إن المياه موجودة بالصنبور ... فما هي المياه السبعة التي نتحدث عنها ، فطوى كتابه وهرب ! فالكتاب مؤلف يوم كانت المياه هكذا ، وحين كان طلب المياه للوضوء أو الغسل شيئاً عسيراً وبقي الكتاب كما هو يدرس للآن . قد تكون هذه القصة ماثرة ضحك ؛ ولكنه ضحك أشبه بالبكاء كما يقول أبو الطيب . وقد كنت أسمع إذاعة المملكة العربية السعودية ، وأسمع المفتي يتحدث وكان يشرح قوله تعالى ﴿ في القصص حياة ﴾ وقصاص السن بالسن والعين بالعين معروفة ولكن المشكلة فيما إذا حدث جرح لا يمكن تحديده وأخذ القصص منه ، وقد سمى الفقهاء الجراحات بأسماء مختلفة ، كالشجاج والدامغة والجائفة ... الخ .

المهم أن الشارح أو المفتي أو المذيع قال : إذا ضرب شخص شخصاً آخر وأحدث به ما يسمى في العصر الحاضر « ارتجاج بالمخ » فكيف يتم القصص منه أو ما الذي يصنع به ؟ فالقصص هنا مستحيل لأنه قد يتم ضربه ضربة تؤدي إلى موته . وهنا لابد من تعويض ، فكيف يتم التعويض ؟ فقال أن نفرض هذا المعتدي عليه عبداً ونرى كم ثمنه عالياً ، ثم ثمنه وهو صحيح ، والفرق بين الثمين الصحيح والعليل يدفعه المعتدي . هكذا كانوا يتعاملون في الماضي حيث كان الرق ولكن

هذه الطريقة لا تصلح اليوم . وقد بقيت هذه الأفكار مجمدة في كتبنا الفقهية تجميذاً مؤسفاً ولا معنى له . وعندما كنت إمام مسجد في العتبة الخضراء خلف سوق الكانتو أحضرت ورقة وكتبت عليها : إذا أردت الوضوء فسمي الله وخذ الماء واغسل يديك ثم ادخل الصلاة وراء الإمام وافعل ما يفعل الإمام ؛ فإذا رابك شيء فاسأله . ففي صفحة من عشرة سطور أمكن تقديم الوضوء والصلاة ! ولكننا الآن من الممكن أن نقرأ لابن حزم ما كتبه فيها في مجلدين تقريباً مما يؤدي إلى إطالة الكلام في هذه الموضوعات إطالة كبيرة ولا تدري كيف تقع هذه الإطالة حتى أصبحت الأغسال كأنها عقد مع أنه من المفروض أنها مسألة عملية . والرسول ما فعل هذا وهو يُدرّس للناس الوضوء والطهارة ، إنما قدمها في كلمات قلائل عملية تم بها تعليم الناس الغسل وانتهى الأمر ! ولكن عندما تحول العمل بالدين إلى كلام فيه ، تحول الفقه إلى كلام مكرر في أمور كان يمكن أن تكون سريعة وتؤدي على عجل ، وقد كان ممكناً لبعض الناس أن يذهبوا إلى كتب الفقه ويجردوها من هذه الأشياء التي ذكرناها يعيدوا صياغتها . وربما أول ما يعرض لهم حذف أبواب وصور الرق التي لا تزال تدرس إلى الآن . وبالطبع فإن الفقه بهذه الطريقة هو علم ميت ، وما يبذل فيه من جهد هو جهد باطل . وذلك في الوقت

الذى تغير فيه العالم تغيرا يستدعى أن يتحول الفقه إلى علم عملي . وقد لاحظت أن أبا حنيفة كان له تلميذان مشهوران وهما « محمد بن الحسن الشيباني »^(٣) و « أبو يوسف »^(٤) وقد ألف أبو يوسف كتابه في الضرائب - أى فى الخراج - : فدخل فى صميم الحياة . كما ألف محمد بن الحسن الشيباني كتابه فى السير الكبير فى العلاقات الدولية ؛ ودخل هو الآخر فى صميم الحياة . وأنا ألحظ أن الفقه الإسلامى الآن فيه جانب ميت بيقين ، وهو الناحية الدولية وسوف نتحدث فى هذه الناحية الدولية حول قصة دار الإسلام ودار الحرب وكيف أُلجِئنا إلى التعامل مع الآخرين بما فرضوه علينا ، فهم الذين فرضوا هذا ومع هذا فلدينا أخطاء حقيقية فى الفقه فى هذا الموضوع فالطالب يقرأ أن علاقتنا بالآخرين تدور حول « الإسلام أو الجزية أو الحرب » وهذا ما يدرسه الأزهريون جميعاً ، وهو كلام لا أصل له من الناحية العلمية ، فعلاقتى بالآخرين هى الدعوة وأنا أدعو الناس إلى الله وإلى الإسلام ، ولا علاقة لى بأكثر من الدعوة ، أنا أشبه برجل معه سلعة جديدة تشتمل على توحيد وعدالة ، وديمقراطية ، أعرضها على الآخرين ؛ فإذا لم تعجبهم ، أقول لهم : أتريدون ألا تدخلوا فى هذا الدين ، فإذا قالوا : لا نريد أن ندخل ولا أن نسمع منك ، أقول لهم : لكم هذا ولكننى أطلب

منك أمرين : الأمر الأول أن تدعنى أذهب إلى الآخرين لأحدثهم ، فهل تمنعنى يقول : لا أمنعك ! وإذا استجاب لى أحد أتعرض طريقه ؟ فيقول : لا أتعرض طريقه . فأقول : حسنا لا صلة لى بك . وهذا نص الآية الكريمة ﴿ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يقاتلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سِيلاً ﴾ ، أما إذا قال لى : سأمنعك من الكلام أو أ منع من استجاب لك من أتباعك ، فإننى أقول له : إذن الحرب بينى وبينك ! وهذا لا يقال له إما الإسلام وإما الجزية وإما الحرب . وهذا يوضح أننا قد نسينا الجزء الأول والأساسى وهو الدعوة . وقد يكون للنسيان سند ، فقد كانت الأمة الإسلامية فى الأيام الأولى شبه محتلة بالرومان من شمال الحجاز إلى تبوك وإلى مؤتة وبالفرس فى الحيرة والعراق ؛ ومن هنا كان القتال مثل قتال الفلسطينيين الآن مع بنى إسرائيل الذين يحتلون أرضهم ليس فيه مقولة الإسلام أو الجزية أو الحرب ، ولكنه مسألة غسل للأرض من أناس احتلوها من قرون ، ولم نأنس فيهم إلا أنهم قتلة أو ظلمة . إن القانون الدولى لدينا لم يُدرس ولم توضع له أسس حسنة ، ولم تؤخذ أسسه من الكتاب والسنة ! أما القانون الدستورى فإنه قانون عجيب ليس موجودا فى الفقه الإسلامى أيضاً إذ كان الفقه يقتصر على بعض المعاملات التى تتصل

بالعشيرة وبالمعاملات الساذجة البدائية وأعجب ما في تراثنا أننا نسمى الناس الذين يولوا الحاكم : « أهل الحل والعقد » وذلك في الوقت الذي نقول فيه أن الشورى معلمة لا ملزمة ، فأين الحل والعقد ؟ إذا كان أهل الحل والعقد لا يملكون شيئاً يقولوه للحاكم وهو يفعل ما يريد ، فكيف يكونون أهل حل وعقد ؟!

ومما سبق يتضح أن هناك خلطاً كبيراً ولا بد من إعادة النظر في الفقه الإسلامي كله موضوعاً ودراسةً وإلا فإن بقاء الفقه على النحو الذي يقدم به الآن ما هو إلا تضييع للوقت وللعمى وللغير . فنحن قد درسنا « نور الإيضاح » للشمسبلالى^(٥) ومتن القدوري وشرحه للميداني^(٦) ، ومجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر^(٧) . وهذه الكتب كلها تتكرر في موضوع واحد . أي أن السنوات الثلاث عشرة الأزهرية الابتدائية والإعدادية والثانوية كان يمكن أن تكون ثلاث سنوات فقط ، وبعد اختصار الوقت من الممكن أن ندخل الدراسة الميدانية إذا أحببنا ولكن بعد تجريدها مما ذكرته ، وبعد هذا يدخل القانون الدستوري والقانون الدولي في الشريعة والفقه ولكن في البداية يجب أن يقتصر الأمر على العبادات والمعاملات المعروفة والعادية ! .

وأحياناً تأتي أمثلة تنظر إليها فتعجب .. فعند دراسة الربا وأنا طالب

- على سبيل المثال - أقول في نفسي ما معنى هذا الحديث وما شرحه لي أحد ! « حيث الذهب بالذهب هاء وهاء ومثلاً بمثل ، وكذلك الفضة » وأقول في نفسي ما معنى أن أعطي شخصاً كيلو قمح ويعطيني كيلو قمح وكيف تسير هذه المعاملة ؟ إلى أن قرأت بعد ذلك أن ابن القيم يقول إن هذه معاملة مقصود بها تحريم ربا الفضل وأن هذه ذريعة لتحريم النسيئة . وقد رفض معاوية ذلك.

المهم أن هناك أشياء كأنها عبادية تروى ولا تفهم ، فكيف يكون هذا فقهاً وهو المعرفة ومن هنا لابد من إعادة النظر أولاً في مادة الفقه وفي الدراسة .

إذن كيف نعيد النظر في مادة الفقه ؟

كان قد بدا لي في الماضي أن نبدأ في الأخذ من الكتاب والسنة مباشرة ، وبعد ذلك ندرس الفقه المذهبي معاً وفعلت هذا - وأنا مدير مساجد - ورتبت على الأئمة واخترت كتاب فقه السنة للشيخ « سيد سابق » وهو كتاب حسن وصغير . بالإضافة إلى الفقه المذهبي الذي يختاره الإمام حسب مذهبه ، حنفي ، أو مالكي ، أو شافعي .. فهو حر في هذا . ولكنني بلوت من الناس ما جعلني أراجع عن هذا ، وأقول بتدريس الفقه المذهبي أولاً ثم الفقه المقارن على ضوء فقه السنة مع بعضهما ، لماذا ؟ لأنني وجدت الدخول في السنة دون وعي فقهي مالكي أو شافعي

يعد خطراً على القارىء ويجعله يفهم الأمور فهماً قد يكون رديئاً . وعلى سبيل المثال فإن التفسير الذى وضعته « زينب الغزالي »^(٨) وأرسلته لى ، وضعت فيه حديثاً يقول « بعثت بالسيف بين يدي الساعة » . رغم أنه من ناحية الرواية حديث ضعيف ، ولو فرضنا أنه صحيح ، فإنه يصبح فى بعض الأوقات شعاراً فقط ، بمعنى أن يأتى حديث آخر يقول « أنا نبي الرحمة وأنا نبي الملحمة » ، ومعنى هذا أننا لسنا كالمسيحية التى تُضرب على الخد الأيمن فتدير الخد الأيسر ، وإنما بعث الرسول بالسيف عندما يكون الأمر محتاجاً للسيف . فالسيف موجود عندما يكون الأمر متعلقاً بالملحمة ، وكما قال الشاعر العربى :

ولى فرس فى الحلم بالحلم ملجم
ولى فرس فى الجهل بالجهل مسرج
فمن شاء تقوى فإنى مقوم
ومن شاء تعوى فإنى معوج
أو كما قال أبو الطيب :^(٩)

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلى
فصر موضع السيف فى موضع الندى
ومن هنا فإن وضع الدليل مع الأحداث يحتاج إلى الفقه ومن بين الأئمة الأربعة الذين درستهم أبو حنيفة^(١٠) ومالك^(١١) والشافعى^(١٢) وابن حنبل^(١٣) فإن ابن حنبل رغم أنه أقربهم إلى الأثر فإنه حقيقة رائع فى أخلاقه ورجولته وصلابته وله فهم

فيه دقة ، أما الأئمة الثلاثة ففهمهم أو رأيهم العقلى رأى عجيب ففهم ذكاء غير عادى . فعندما ظهر الشعر الأشيب فى رأس أبى حنيفة قال له الحلاق لا تنزع الشعر الأشيب ؛ لأن مكان الشعرة الواحدة تظهر شعرتان فقال أبو حنيفة إذن فانزع الشعر الأسود حتى يتضاعف ! وهذا قول طريف وفيه شاعرية وليس فيهم جلالة كما يثار حولهم ! وقد كان « مالك » لا يرى صلاة النافلة بعد العصر فكان أن قال له أحد الناس بعد صلاة العصر صل يا إمام .. اركع يا إمام .. فركع الإمام مالك ركعتين فقل له : ليس هذا مذهبك ، فقال : خشيت أن أكون ممن قيل فيهم ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ ؛ وهذه أيضاً نوع من الحساسية والشاعرية ، فقد جمعوا بين الفقه وبين الحس المرهف . ونحن فى دراستنا للفقه الإسلامى لابد أن ندرس هذا الفقه الجميل فى الحقيقة . وأنا من أشد الناس كرهاً له فى حياتى وإلى الآن أضيق بكتبى وربما والله ما نظرت فى كتب الفقه إلا لأدفع عن الإسلام غائلة الجهلة الذين دخلوا فى ميدانه ولهم فتاوى غريبة ولهم جهالات سقيمة اضطرتنى للدخول فيه لكى أعرف الحقائق وقد رأيت حقائق كثيرة بعضها لابد منه فمن الخير أن يدرس الفقه ! والواقع أن طبيعة ثقافتنا العامة مغشوشة ، بمعنى أن كل علومنا كنوز

ولكنها مخلوطة بأثرية لا حصر لها . فكما نستخرج البترول وننقيه ، ونستخرج الذهب وننقيه ؛ فنحن مضطرون إلى الخوض في هذه الكتب ولكن بعقل فيه شيء من النظارة والنقد والإدراك الصحيح ، ثم نأخذ ما يقترب من الكتاب والسنة والفطرة السليمة ؛ لأن الفطرة من مقاييس الإسلام ، هذا بالنسبة للفقهاء . أما بالنسبة لعلم العقيدة وعلم التوحيد أو علم الكلام وهذا ما كان يجب أن نبدأ به فأنا أديم تلاوة القرآن الكريم وهذا من منن الله ، والشيء الذي استيقنت منه أن القرآن أقام الأدلة على معرفة الله منتزعة من هذا الكون الذي نعيش فيه ، والعقل الذي ينظر فيتأمل فيستنتج ، وليست أدلة فلسفية أو نظرية . ليس أكثر من الالتفات إلى البديهيات مثل ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ ؛ ومن هنا فإن البداية تكون بالأدلة العقلية من الكون الذي نعيش فيه ، ثم من هذه الأدلة نقيم العقيدة . ولكن مع الأسف من عهد مبكر اضطربت علوم العقيدة عندنا واختلطت بالفلسفة الإغريقية التي لها نزعة غير النزعة الإسلامية فهي ترى أن المادة خسيصة وأن المعنويات هي الرفيعة . فالكون بجزئياته هابط ولكن الكليات العامة هي الرفيعة . والنظر لديهم ليس موجود أو موجود ولكن بطريقة غير كريمة أو غير سليمة أو غير كاملة . وقد ذكرت ذلك في كتابي « المحاور » أني أتعجب ماذا جعل

المسلمين وهم أصحاب رسالة عالمية بدلا من أن ينقلوا رسالتهم للعالم ، ينقلوا خرافات الإغريق إلينا ؟! يقول البعض إنه انفتاح .. وأقول والله لا بأس ، قد يكون هذا انفتاح فعلا ، ولكن وجدت أن الناس الذين نقلوا الفلسفة الإغريقية كأنما أعجبوا بها إعجابا غلبهم على أنفسهم ، فكانت النتيجة أنني الآن عندما أنظر إلى علم الكلام وأنظر إلى الفرق الإسلامية خصوصا المعتزلة ، وما تفرع منها ، أجد أن الخطأ الكبير عندنا هو أننا أخذنا من فلسفة أرسطو^(١٤) في المادة والصورة ما نقلناه إلى الله والكون ، وكانت النتيجة أننا نقلنا خرافات وأكاذيب لأمعنى لها . وقد سمعت البعض في أصول الدين ، وهو يصف الله سبحانه وتعالى في العقائد ويقول : إن الصفات هي لا هو ولا غيره لأن المعتزلة يقولون : يعلم بذاته ، يقدر بذاته ، وليست له صفات زائدة عن الذات ، وإلا لتعدد القدماء ، وهذا الكلام الساقط منقول نقلا عن فلسفة أرسطو . ورغم أن أرسطو من الفلاسفة الإلهيين إلا أنه أشبه بالفيلسوف المخدر أو الرجل الذي يتعاطى المخدرات ، وقد قال عنه « ويل دورانت » : إنه إله أشبه بملك إنجلترا ، يملك ولا يحكم ، ولا يدري شيئا ، ويقول أيضاً : إن هذا العالم الكبير أصغر من أن ينظر الله فيه وقد ترجم هذا المعنى عندنا على أنه لا يعلم الجزئيات ، وكل هذه

خرافات منقولة لا أصل لها ، ولا وجود لها في الخارج ، ولا وجود لها في الذهن ، ولا وجود لها في العقل ، ولا تساوى شيئاً ، وقد نقل إلينا ولا ندرى كيف أعجبنا به ؟ والذين يردوا على ذلك يأتي ردهم على أساس رفض هذه الفلسفة ، وإننا لو شطبنا كلمة الفلسفة بكل مبادئها الإغريقية من علم الكلام لانتهت المذاهب الفلسفية في ديننا ، وتختفى الأشاعرة والمعتزلة بطبيعة الحال ؛ لماذا ؟ لأن المعتزلة أنكروا الصفات ، وأهل السنة أنكروا ذلك وقالوا : إن هناك صفات . ولكي يجمع الأشاعرة بين الاثنين قالوا : هناك صفات يقيناً ، ولكن هذا لا يعنى تعدد القدماء ، وأتوا لها بحل يناسبهم .

ونحن لا نريد أن نجادل الذين نظروا للفلسفة فأيدوها أو حايدها أو ردوا عليها ؛ وذلك لأن الفلسفة الإغريقية بدأت منذ خمسة قرون تقريباً تتدحرج عن مكائنها ، وذلك في وقت سقوط القسطنطينية في أيدينا ، وفتح الأسبان لأمریکا ، وسقوط الأندلس ، حيث بدأ عصر الإحياء مع أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر . والذي قام على إنكار الفلسفة الإغريقية ، فبدأت في السقوط عن عرشها . ولم يأت القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إلا وكانت الفلسفة الأوروبية بعيدة كل البعد عن فلسفة أرسطو وأفلاطون وسقراط ،

وبعيدة كل البعد عن هذا الكلام الذي تأثرنا به كثيراً وتأثر به علم الكلام عندنا ولكي نعيد علم الكلام أو علم العقيدة أو علم التوحيد لقواعده الأصلية يجب أن نعود إلى الاستدلال على وجود الله من الكون ، ونكتفى بالأسماء الحسنى وبالصفات العلى كما وردت في كتاب الله سبحانه وتعالى . وبعد اختفاء الفلسفة الإغريقية يبقى شيء وحيد ، وهو الذي يفرق بين السلف والأشاعرة الآن ولابد من كلمة حاسمة فيه ، هو موضوع العقيدة . فالعقيدة عندنا أو المذهب الإسلامي السائد الذي قام عليه الأزهر يعد أعدل الدراسات الإسلامية منذ بدأت المدارس الإسلامية وإلى الآن .

فالأزهر يرى أن العقيدة لا تستقى إلا من نصوص قطعية ثبوت وقطعية دلالة ، وبالتالي فإن أحاديث الآحاد ليست مصدراً للعقيدة ؛ وإنما تؤخذ شرحاً لعقيدة جاءت في القرآن غير مفصلة ففصلتها ، وقد دار حوار بيني وبين الدكتور راشد فقد سألتني عن برنامج تدريس علم العقيدة ، فقلت له إن العقائد موجودة وسنحضرها من الكتاب الكريم ولم أذكر السنة في الحقيقة ، . وقلت : إن السنة ما شرح الكتاب ، فرفض ذلك . فقلت له : ماذا تريد إذن ؟! فكان معنا رجل توفي رحمة الله عليه اسمه الشيخ خليل هراس^(١٥) فقال : يجب أن تأخذ من أحاديث الآحاد ، فقلت له : كيف وليس عندنا عقائد من أحاديث الآحاد

فأصر على رأيه فقلت له مثل ماذا من أحاديث الآحاد ، فقال : مثل حديث القدم الذى يقول « يضع الجبار قدمه على النار فتطقطق ... » فقلت هذا حكم عادى وليس عقيدة لأننى عندما أذهب إلى إنجلترا مثلا هل أقول لهم أتؤمنون بالله وقدمه؟! أو تؤمنون بالله وساقه وقد ذكرت ذلك فى كتابى الأخير (حديث الساق) ، وقلت له يكفى أن تكون العقائد عندنا من القرآن الكريم ، ولكنه رفض .

وأصر على أن العقائد إنما تؤخذ من قطعى الثبوت وقطعى الدلالة وما كان شارحا للقرآن ؛ فنحن لدينا ﴿ الوزن يومئذ الحق ﴾ فإذا جاء حديث يشرح الميزان فلا مشكلة فى هذا .. كما أننا لدينا عذاب القبر إجمالا فى القرآن ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ أو ﴿ اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ أو ﴿ من ورائهم برزخ إلى يوم يعثون ﴾ أو ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ﴾ فلا بأس أن تأتى أحاديث تشرح عذاب القبر لأنها توضح ما أجمل القرآن وهذه طبيعة السنة ولا شئ فى هذا . وقد قلت فى كتابى « عقيدة المسلم » وهو كتاب سهل وقد ألفته وأنا صغير ولكنى لا أزال أرى أن فيه خيرا كثيرا وفيه كلمة جديرة بالتأمل وهى « أن اللغات من صنع البشر فهم يضعون الكلمات بإزاء مفاهيم ذهنية أو

أدوات حسية (شخوص وأشياء بألفونها أو أفكار تدور بينهم) فهى حقيقة بالنسبة إلى ما وضعت بإزائه مما يتداول بين الناس من حسيات ومعنويات ، ولكن عندما تكون كلاما عن الغيب فهذا الكلام مجازى بطبيعته ؛ لأنه حتى عندما وصفوا لنا الجنة قال ابن عباس : مافى الجنة من دنيانا إلا الأسماء ، أما الحقائق فلا نعرفها . فإذا كان هذا بالنسبة للجنة ، فكيف الحال بالنسبة لذات الله وصفاته التى يكون الكلام فيها على قدر عقولنا نحن . ومن هنا أنا أؤمن بالمجاز وأن كل لغة فيها مجاز ، والقرآن فيه مجاز ، وقد قال لى أحد الأشخاص : إن القرآن ليس فيه مجاز ، فقلت له : فكيف أفهم إذن معنى قوله تعالى : ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ وقبلها :

﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ فأين هى الأغلال وأين هى السدود ؟ فقال : إن ابن تيمية^(١٦) قد قال إنه ليس فى القرآن مجاز ، فقلت : وإن أصحاب اللغة الذين درسوها أكدوا لنا ذلك ، وأخذنا منهم المجاز العقلى والمجاز المرسل والمجاز بالاستعارة وأخذنا البلاغة وعلومها ، ومن هنا فإن القول بأنه لا يوجد مجاز فى اللغة قول غير صحيح . وعندما كلفت بإلقاء درس بالتلفزيون كنت أطلب أن يعطونى صورة للسحب وهى تنطلق ، وصورة للأمواج وهى

تهيج ، وصورة للزروع وهى تتدلى منها الثمار ، والأشجار وهى باسقات . حتى إننى طلبت أن يعطوننى صورة لعملية جراحية وقد أشرت فى كتابي الأخير أننى كنت أعانى من جلطة بالساق قبل أن تنتقل إلى القلب وقد نجاني الله منها ونشكر الله على ذلك ، وأتوا لى بآلة سمعت فيها صوتا عند وضعها على ساقى فقلت للطبيب : ما هذا الصوت ، قال : إنه صوت الدم وهو يجرى فى العروق . ففكرت فى الشرايين الطويلة التى تصل إلى عدة كيلو مترات ، ويجرى الدم فيها من خلال شعيرات ، مشتملاً على كرات حمراء وكرات بيضاء وأشياء زائدة من السكريات والدهنيات والزلال ... الخ ، وتخيلت لو تم توصيل شرايين ال ٥ مليار نسمة فى العالم إلى أين ستصل .. ستصل بالتأكيد إلى الشمس !! ومن الذى يشرف على ذلك كله .. فأنا ألقت النظر إلى خلق الله وإلى عظمته فى كونه ! ولماذا نذهب بعيداً ، فلقد حاول الشيخ محمد عبده^(١٧) فى كتابه « رسالة التوحيد » الذى كان مقررأ علينا فى السنة الرابعة الثانوية حاول أن يجمع الشمل ويلم المسلمين فى هذا الجانب ، وقال : لماذا النزاع ، فالمعتزلة يقولون باستحالة رؤية الله ، وأهل السنة يقولون إن الرؤية عقيدة لأن الحديث الشريف يقول : « ترونه كما ترون القمر ليلة البدر ، والشمس ليس دونها سحاب » . وقال الشيخ عبده : إن

ما أنكره المعتزلة غير ما أثبتته أهل السنة ؛ لأن المعتزلة يقولون إن الرؤية تعنى الجهة وتعنى التحيز وتعنى المادية وبذلك يصبح الله مخلوقاً ، وعندما نقول إن هذه الرؤية لا ندرىها ولا نعرفها وأنها رؤية غير مادية ينتهى الأمر .

وانتهى المعتزلة كما انتهى أرسطو ، وأصبح هناك إنكار تام للألوهية . إننا نستطيع بالعقل أن ندرك أن ما لا نستطيع أن نبحث فيه نتجاوزه ، وهذا هو الإسلام ، وهذه هى العقيدة كما شرحها كتاب الله وسنة رسول الله . ومن هنا لا بد من إعادة النظر فى دروس العقائد على أساس معقول !

وعندما ننظر للحديث ، وعلم مصطلح الحديث فسوف نجد أن هذا العلم يُدرس إلى الآن دراسة تعبدية بمعنى أنه لا يطبق ، فالحديث المعلق هو الذى سقط منه الرواة من أول السلسلة والحديث المنقطع هو ما سقط منه رواة داخل السلسلة ، والحديث المرسل هو ما سقط منه الصحابي ، والحديث المتروك ما رواه راو ضعيف جدا مخالفاً به أهل الثقة ، وهكذا .. فهل فكر أحد أن يأتى بحديث وسلسلته ليبين لنا مواضع وأسباب الضعف وما حدث للسلسلة ؟ ولم يفكر الأزهر فى تدريس علم مصطلح الحديث حتى أصبح علما أثريا يحال فيه على مجهول مع أنه كان من الممكن أن يأتى بعالم مثل الشيخ

« لا يقتل مسلم في كافر » ومن منطلق أن النفس بالنفس . فإذا كنا نقول إن الحديث شاذ عندما يخالف الثقة ، فكيف لا يكون شاذاً إذا خالف القرآن الكريم . وقد رفضت أحاديث خالفت القرآن ، وسبق أن صحح الألباني والسيوطي^(٢١) حديث « إن لحم البقر داء » ورفضته من منطلق أن الله امتن بلحم البقر في موضوعين من القرآن ﴿ ومن الإبل ومن البقر اثنين ﴾ ، ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ﴾ ، ومن هنا فإن الحديث مرفوض لأنه خالف القرآن .

وقد قال لي الشيخ عبد الحلیم^(٢٢) : إن الله هو الذي دنا وتدلى لسيدنا محمد استناداً لما رواه البخاري من أن الجبار دنا فتدلى ، فقلت وهل ينزل الله لمحمد؟! وعندما بحثت في الحديث وجدته ضعيفاً ومن هنا وجدت أنه لابد من إعادة النظر في دراسة الأحاديث بأن يدرس المصطلح دراسة تطبيقية حتى نعرف لماذا يكون الحديث ضعيفاً ، وثانياً : تُعرض أحاديث الصحاح على ضوابط الصحة التي وضعها الأئمة ولا نأتى بشيء من عندنا ، فإذا كان الأئمة يضعون في شروط الحديث الصحيح ألا يكون فيه شذوذ أو علة قادحة ، فإنه إن ثبت أن الحديث مخالف للقرآن يصبح شاذاً وبه علة قادحة .

الألباني^(١٨) ويسند إليه تدريس الأسانيد ، ويبين للطلبة لماذا قلنا إن هذا الحديث ضعيف ، وهذا منقطع ، وهذا ضعيف ، وهذا مرسل ، وهذا متروك .. الخ ، ثم إنه ما أكثر الأحاديث الضعيفة ، وما أكثر أسباب الضعف في السنن الموجودة ولا نعرفها . وخاصة أن علم المصطلح علم أثري ولا بد له من الشرح التحليلي . وأين الآن في الأزهر علماء السنة مثل : سيد صقر^(١٩) ، أحمد شاکر^(٢٠) . وقبل كل ذلك فإن تعريف الحديث الصحيح هو أنه رواية الضابط الثقة عن مثله إلى منتهى السند من غير شذوذ ولا علة قادحة ، وهذا ما تسير عليه كتب السنة الصحاح . وعلى هذا النحو أجد أحيانا حديثين متناقضين واردين في الصحاح مثل حديث « إذا التقى الختانان وجب الغسل » وحديث « الماء من الماء » الواردين في الصحاح في كتاب تفسير الوضوء تحت بعضهما وضد بعضهما . وهنا لابد من تدخل الفقهاء . وقد سبق أن تدخل أبو حنيفة ورفض ما لا يتعلق بمذهبه ، وتدخل مالك ورفض كل ما خالف أعمال أهل المدينة ، فقد رفض الاستفتاح في دخول الصلاة ، ورفض صلاة ركعتي تحية المسجد والإمام يخطب ، ورفض الرضعات الخمس والعشر ورضاع الكبار ، ورغم أن كل ذلك موجود في الصحاح ، وعندما جاء أبو حنيفة رفض حديث

ومع هذا فمما لا شك فيه أن السنة غربلت وبذلت في الأحاديث جهود جبارة ولم ينقد تراث بشر كما نقد محمد عليه الصلاة والسلام لأنه ليس قرآنا ، وقال العلماء : إنه ظني الثبوت فإذا خالف قطعياً ، سقط بطبيعته . ومن هنا فإنه يجب أن تُدرس هذه القواعد عندما تُدرس السنة .

وعندما كنت أدرس بجامعة الأزهر اجتمعت بالإخوة الذين يقومون بالتدريس في الكليات وقلت لهم لكي تكونوا عمليين لا يجب أن ندرس جميع الأبواب حديث بخديث ؛ لأننا بذلك لن نهي منها حتى آخر العام سوى باين فقط ، وإنه من الأفضل أن نأخذ حديثاً من كل باب ، وعلى سبيل المثال نأخذ حديثاً من باب الجمعة ، وحديثين من باب العيد .. وهكذا حتى ننتهي من جميع الأحاديث الموجودة بالأبواب المقررة على آخر العام ، ونكون بذلك قد أحطنا بشيء من السنة . ولكنهم رفضوا اقتراحي رفضاً باتاً ، وأصرروا على تدريس جميع أحاديث الباب الواحد ، حتى لو وصل الأمر إلى تدريس ٣٠ حديثاً في باب الجمعة ، وفي هذا مضیعة للوقت . وأذكر أنه كان علينا ونحن طلبة أن ندرس صحيح مسلم كله بهذه الطريقة من السنة الأولى إلى السنة الرابعة ،

ومع ذلك لم ننه ربه ! وقد اضطرت لقراءته بعد التخرج ، وكثيراً ماقلت وأنا طالب للشيخ عبد الفتاح العناني عندما كان يأتي لحضور المجلس الأعلى في عامي ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ : لقد خرجتمونا جهلة مع أننا كنا أحسن من تعلموا في هذه الفترة .

أما علم التفسير فإنني أرى أننا لم ندرسه في الأزهر على الإطلاق ؛ إذ أن دراسته كانت مجرد تطبيقات بلاغية وإعرابية فقط .

وهنا أقول إنه لابد من إلقاء نظرة عامة على التفسير الموضوعي للسور كلها ، ثم تُفسر الآيات جزءاً جزءاً ، ولا بأس أن نعرض للبلاغة وللنحو ولما يكون من علوم تتصل بالتفسير ، سواء كانت علوم كونية أو غيرها ، وذلك دون أن يطغى هذا على التفسير النفسي أو الذاتي للقرآن الكريم . ومثال ذلك عندما نأتي لتفسير سورة آل عمران ، فإنه يمكننا أن نشطرها إلى شطرين ، الشطر الأول : حوار مع أهل الكتاب يتمثل في دعوة أصحاب الكتب الأولى ، ويبدأ من أول السورة إلى قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَمْسِكُمْ حَسَنَةً تَسْوءُهُمْ ﴾ والشطر الثاني : تعليق على هزيمة أحد وجهاد الوثنية الأولى ، وتبدأ من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّءُ

المؤمنين مقاعد للقتال ﴿ إلى آخر السورة .
وقد يلتقى الشطران معاً في آخر السورة
ليبين أن جهاد الدعوة الذى قد يكون مع
أهل الكتاب ، وقد يكون مع الوثنيين ،
يحتاج إلى الصبر والثابرة ؛ حيث
ختمت السورة بـ ﴿ اصبروا وصابروا
ورابطوا ﴾ .

وقد اعتمدت وأنا أفسر سورة البقرة في
خطبتى بمسجد عمرو بن العاص على كتاب
الشيخ عبد الله دراز^(٢٨) « النبأ العظيم » ،
وهو كتاب أتمنى أن يقرأه الجميع . فقد
شرح السورة ، وقال : إنها يمكن أن تسمى
سورة « الأتقياء » إذ أنها تعد هدى
للمتقين ، حيث تشرح أوصاف المتقين ،
وأركان الإسلام الخمسة (الإيمان ،
والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج) ،
كما أنها تقدم تاريخ بنى إسرائيل ، وتمهد
للوحدة الدينية التى يريد الإسلام أن ييشر
الناس بها ، كما أنها تتحدث عن الأسرة
الإسلامية ودور الأم فيها ، والجهاد في
الدعوة ، وهكذا جمع الشيخ عبد الله دراز
أقسام السورة ووضعها في باقة من الورد
التي توضح أهدافها وتعطى لقارئ السورة
رؤية واضحة لمسيرة السورة وهو مغمض
العينين !

ومن هنا فإن التفسير الموضوعى للسورة
لا بد منه ، وبعد هذا لا بأس من الدخول

في الإعراب ؛ حيث إنه في بعض الأحيان
لا يبين المعنى إلا من خلال الإعراب .
وأذكر أننا عندما كنا نقوم باختيار الأئمة
لترقيتهم إلى مفتش .. كنت أسأل الإمام
أولاً عن الحفظ وأقول له اقرأ أول سورة
يونس ، فيقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم
أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل
منهم ﴾ .. فأقول له : أين اسم كان في
هذه الآية ، فلا يعرف .. فأقول له : أنت
إذن لم تفهم السورة ، إذ أن اسم كان هو
أن وما دخلت عليه وهو أن أوحينا إلى
رجل عظيم منهم » .. حيث إن الجملة
« أكان إيحائنا إلى رجل من الناس
عجباً » .. فمن الضروري إذن فهم المعنى
في دراستنا للقرآن الكريم .

وقد نسيت وأنا أتناول السنة أن أذكر
أنه لا بد من المقابلة بين ما يبدو فيه التناقض
بين الكتاب والسنة . والمثال على ذلك أن
مالك قد رفض تحريم الحمر الأهلية استناداً إلى
قوله تعالى : ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إليّ
محرمًا على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتاً أو
دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ﴾ بينما
أوضح الشيخ رشيد رضا^(٢٩) في تفسيره
عكس ذلك .

وأنا في نظرى أن تفسير الشيخ رشيد
رضا من الكتب القيمة التى تعين على فهم
الكتاب والسنة ، حيث إن الشيخ رشيد

رجل سلفى ، خلفى ، جامع مانع ،
عصرى وتاريخى ، وكان كالبحر المحيط ،
حتى إن الأستاذ المرشد عندما أراد تفسير
القرآن بعد أن أغلقوا له الدار ، وقرر
إصدار مجلة الشهاب ، بدأ من أول سورة
« الرعد » وعندما سأله عن السبب في
ذلك ، قال : وهل أستطيع أن أكتب شيئاً
بعد ما كتبه الشيخ رشيد ... إننى سأبدأ
من حيث انتهى . وهذا هو تقدير
الرجال ... ورحمة الله على الشيخ المرشد
فقد كان إماماً وعالمًا وعظيمًا . وكان
ينتمى إلى نفس مدرسة الشيخ رشيد
والإمام محمد عبده العظيمة والتي كانت
تتميز بالعقلانية !

أعود فأقول إنه من المهم دراسة اللغة
العربية أيضاً ، خاصة وإننى قد لاحظت أن
الكتب التى درسناها فى النحو والصرف
وهى كتاب شرح أوضح المسالك
للأشمونى ، تعتمد فى إقامة القواعد على
الشواهد . فما معنى الشاهد .. هل هو
الدليل ؟! لو كان كذلك فإن الأمر يتعلق
بالمفعول المطلق . وإذا قلنا أن الشاهد يعنى
الدليل فهذا يعنى أننا نقول أن المفعول
المطلق هو كل ما يرادف المصدر .

وهذه شواهد لا بأس بها ، ولا بد منها
عند وضع قواعد اللغة ، ولكن هل تبقى
اللغة كما هى إلى قيام الساعة ؟! وهنا

نقول : إن كل قاعدة تحتاج إلى دليل ،
وعلى سبيل المثال فإن الدليل على أن « ما »
تجزم فعلين ، قوله تعالى : ﴿ ما أصابك من
حسنة فمن الله ﴾ و ﴿ ما تفعلوا من خير
يوف إليكم ﴾ .. وهذان دليلان واضحيان
من القرآن الكريم على أن « ما » تجزم
فعلين . وقد نشأ عن إهمال أصل الدليل فى
اللغة عجز المتخرجين فى الأزهر عن تطبيق
القاعدة اللغوية على آلاف الأمثلة المنتزعة
من الحياة .

وفى الواقع فإن أول من خرج عن هذا
العجز ، وبدأ يعلم الناس أصل الأدلة هو
الشيخ « حفى ناصف »^(٣٠) ، وجاء بعده
« على الجارم »^(٣١) وهو رجل عظيم
استبحر فى النحو ثم تلاه « عباس
حسن »^(٣٢) الذى بلغ القمة فى هذا المجال .
فلماذا إذن هذا التثبث بالكتب القديمة ،
ولماذا لا نأتى بكتاب عباس حسن ويتم
تدريسه لننفع به العامة والخاصة . نحن إذاً
محتاجون إلى إعادة دراسة اللغة العربية ؛
لأنه إذا ماتت اللغة وضيع القرآن فى
المتاحف ، بل إننى أعتبر أن دراسة اللغة من
الدين ، بل إن اللغة دين . ونحن محتاجون
إيضاً إلى تعريف غير العرب باللغة العربية ،
وفى هذا أشعر بالأسف إذ أقول إن العرب
قد خانوا الإسلام عندما وقفت حركة
تعريب الناس - التى كانت موجودة فى

الماضي - وذلك مع ضعف الدولة .
ويكفى أن سُبَّع المسلمين فقط هم الذين يعرفون اللغة العربية ، بينما ستّ أسباع منهم لا يعرفونها (وصل عدد المسلمين إلى مليار و ٢٠٠ مليون مسلم تقريباً) ، كما أن اللغة العربية مازالت مرفوضة عالمياً ، وليست من اللغات الخمس التي دون بها ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، وهي : الإنجليزية ، والفرنسية ، والروسية ، والصينية ، والأسبانية . ونحن نتحمل المسؤولية في ذلك لأننا لم نحترم لغتنا ولم نتعصب لها ، ولم نغضب لها عندما أهملت . وأذكر أنني تراجعت عن تعلم اللغات الأجنبية عندما وجدت في لغتنا العربية أشياء كثيرة تحتاج إلى وضع ضوابط سريعة لها ، وتحتاج في ذلك إلى نوع معين من علماء اللغة ، مثل الاشتقاق والمترادفات والمصادر وجموع التكسير (٢٦ جمع تكسير) ، وذلك حتى نستطيع أن نضعها (أي الضوابط) بين يدي الطلبة واضحة صحيحة . وأعود فأؤكد أن اللغة العربية تحتاج إلى إعادة النظر فيها حتى نستطيع أن نعلم الناس لغتنا ونُسهل تعريفها لمن لا يحسنها .

نأتى إلى علم أصول الفقه ، وأقول : إن علم أصول الفقه في الأزهر علم أثرى ، فهو يُدرس ولا يُفهم ، فلم تُوضع له أمثلة ولا قواعد ويُعتمد في تدريسه على بعض الكتب مثل شرح المنتهى ، والتلخيص ، الملخص ، والتحصيل ، الحاصل ، المحصول الخ ، والتي لا تزيد ولا تنقص وليس فيها شيء ! وأعتقد أنه عندما نقول إن الأحكام الشرعية خمسة ، أن نأتى بخمسة أو ستة نماذج للواجب من الكتاب والسنة ، ومثلها للمكروه ، ومثلها للمحرم وهكذا ... وذلك حتى يتبين لنا ما هو الواجب ، وما هو المكروه ، وما هو المحرم ، وما هو المندوب ، وما هو المباح ، ولا بأس أن نأتى برأى الأحناف الذين يقولون بأن الأحكام سبعة وليس خمسة ، ووضعوا منزلة بين الواجب وبين المكروه ، وفرقوا بين الفرض والواجب والسنة المؤكدة ، على أساس أن الفرض هو ما يكون بدليل قاطع لا شبهة فيه . وعلى هذا قالوا : إن حديث الآحاد ليس فرضاً لأنه به شبهة ، وكذلك فإن الطمأنينة لديهم ليست فرضاً أيضاً . وكما وضعوا الواجب بين الفرض والسنة ، فقد وضعوا « المكروه تحريماً » بين « المكروه تنزيهاً » وبين الحرام . ولذلك فإن الحرير لديهم ليس حراماً لأن ثبوت تحريمه ليس قطعياً . ومن هنا فإننا نريد أن يتم تقييم ما قاله الأحناف في الأصول إلى ما قاله الجمهور فيها ، وهذا يحتاج إلى عقول واسعة بقدر المستطاع .

الماضي - وذلك مع ضعف الدولة .
ويكفى أن سُبَّع المسلمين فقط هم الذين يعرفون اللغة العربية ، بينما ستّ أسباع منهم لا يعرفونها (وصل عدد المسلمين إلى مليار و ٢٠٠ مليون مسلم تقريباً) ، كما أن اللغة العربية مازالت مرفوضة عالمياً ، وليست من اللغات الخمس التي دون بها ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، وهي : الإنجليزية ، والفرنسية ، والروسية ، والصينية ، والأسبانية . ونحن نتحمل المسؤولية في ذلك لأننا لم نحترم لغتنا ولم نتعصب لها ، ولم نغضب لها عندما أهملت . وأذكر أنني تراجعت عن تعلم اللغات الأجنبية عندما وجدت في لغتنا العربية أشياء كثيرة تحتاج إلى وضع ضوابط سريعة لها ، وتحتاج في ذلك إلى نوع معين من علماء اللغة ، مثل الاشتقاق والمترادفات والمصادر وجموع التكسير (٢٦ جمع تكسير) ، وذلك حتى نستطيع أن نضعها (أي الضوابط) بين يدي الطلبة واضحة صحيحة . وأعود فأؤكد أن اللغة العربية تحتاج إلى إعادة النظر فيها حتى نستطيع أن نعلم الناس لغتنا ونُسهل تعريفها لمن لا يحسنها .

نأتى إلى علم أصول الفقه ، وأقول : إن علم أصول الفقه في الأزهر علم أثرى ، فهو يُدرس ولا يُفهم ، فلم تُوضع له أمثلة ولا قواعد ويُعتمد في تدريسه على بعض

وعندما نأتى إلى الكليات الخمس التي هي أساس المصالح المرسله ، وهي : الدين ، والمال ، والعرض ، والنفس ، والعقل ، نجد أن الشيخ ابن عاشور^(٣٣) قد تجرأ وأضاف لها كلية سادسة وهي « الحرية » وأنا أيضاً أتجرأ وأضيف إليها كلية سابعة وهي « العدالة » ! وذلك استناداً إلى أن العدالة هي أساس الرسائل السماوية كلها ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ وفي هذا تتضح العدالة الاجتماعية والعدالة النفسية ، والعدالة السياسية .

وقد أعجبني كتاب « تخريج الفروع على الأصول » ولا أذكر اسم صاحبه الذي جمع فيه مذهب الأحناف ومذهب الشافعية ، وبين القواعد الفقهية في المذهبين وهو عمل جيد لأنه تدخل في الفقه وأتى بالسند والعمل والخلاف . ومن أمثلة ما أورده الخلاف حول هل على اليتيم زكاة ؟ .. وصحة صلاة من صلى وأخطأ القبلة دون أن يجتهد في تحديدها ، وحول مسألة : تعدد الحق ، بالإضافة لقواعد فقهية خلافية كثيرة ، قام فيها بتخريج الفروع على الأصول وضم هذه القواعد لعلم أصول الفقه .

أعود فأقول : إن علم أصول الفقه علم وضع قديماً ، حتى جاء الشاطبي^(٣٥) في

« الموافقات » واستبحر فيه ووسعه وأكثر فيه من التماذج والأمثلة . وقد خشي شيوخ الأزهر من تدريس « الموافقات » وأتوا بكتاب ميت وهو كتاب « ابن الحاجب »^(٣٦) ودرسوه للطلاب ، مما أدى إلى تخريج طلبة يعرفون أصولاً لا صلة لها بالحياة ولا بالفقه . ولما كان علم الأصول هو أصل القوانين وأصل الأحكام ولما كان هو البحيرة العظمى التي انبثقت منها المذاهب الأربعة فإنه لابد من إعادة النظر فيه ونقله من مرحلة العلم الأثرى الميت الذي لاصلة له بالحياة ، وذلك بضم القواعد الفقهية إليه ، وضم دراسات الأحناف في الأحكام الخمسة إليه ، وكذلك ضم كتاب « الموافقات » إليه . وهذه الأمور كلها بالإضافة إلى الأمور الخاصة بالقياس وأحكام وأهداف الشريعة ، يجب أن تكون موجودة في الدراسات الأزهرية ، ويجب أن يتم تعريف الطلاب بها ، ولابد منها .

وفي النهاية فإنني أعتقد أن موضوع الدراسة الدينية ، مادة وعرضاً ، يحتاج إلى كثير من المراجعات ، وأكون مدعياً إذا قلت إنني قد أوفيته حقه من العرض . وبقي أن أقول إننا لو أتينا في هذا المجال برجال من مجمع البحوث الإسلامية من المتبحرين في الدين واللغة والتراث ، ومن

لديهم معرفة بالدراسات الأزهرية ، لخرج لنا العالم الذي يخدم الإسلام في العصر الحاضر . بل إنه يمكن من خلال وضع برنامج دراسي لعامين أو ثلاث أعوام إدخال الطبيب والمهندس والكيميائي والمحاسب ... الخ في الدراسات الإسلامية ، وإعطائه خلاصات في الأمور التي يحتاج إليها كداعية ، وتنفعه وهو يعرض الإسلام في هذا العصر .

هذا والله ولي التوفيق

د . جمال عطية :

جزى الله شيخنا خير الجزاء على هذا الحديث الممتع والخطير والعظيم حقاً وكعادتنا في مثل هذه اللقاءات ، نرجو من الإخوة الأفاضل أن يدلي كل بما عنده بترتيب الجلوس حتى نعم الفائدة .

د . محمد عمارة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أعتقد كما أشار الأخ الدكتور جمال عطية ، أن هذا الحديث الفياض ، هو أيضاً حديث خطير لأنه يتناول المحاور الأساسية في العلوم الشرعية بنظرة نقدية ومن موقع المعاشة والخبرة ، ليس فقط في دراسة هذه العلوم والتبحر فيها ، وإنما أيضاً على ضوء الخبرة الحياتية في الدعوة والحوار مع تيارات الفكر في الإطار الإسلامي . والواقع أن هذه

الخبرة الحياتية والحوار مع تيارات الفكر هي التي تبرز ، وتلقى الضوء على نقاط الضعف في مناهج تدريس العلوم الشرعية .

لقد استمعت بإعجاب شديد لهذا الحديث ؛ إذ أنني قد عشت مع الشيخ الغزالي سنوات الدراسة في الأزهر . وقد كنا نرصد في بعض كتب الفقه والخواشي والتعليقات التي ذكرها ، أن ما بين المبتدأ والخبر من الممكن أن تمر صفحة أو صفحتان حتى تتم الجملة الواحدة ، وأنه لا بد من دورة واسعة وغير عادية حتى نصل إلى معلومة أو حقيقة بسيطة وفي هذا ضياع للوقت . والواقع أن الناس عندما تنفق عمرها في تحصيل أدوات فقط لا يبقى لديها شيء لتضيفه في تحصيل الغايات ، التي من المفروض أن تكون هي الأساس وهي القصد من وراء هذه العلوم . وقد أدى هذا إلى تخريج إناس معزولين تماماً عن الحياة كما رأينا ! وذلك لأن - كما أشار فضيلة الشيخ - تدريس العلوم يتم بمعزل عن الأمثلة التطبيقية التي تواكب العصر والواقع الذي يعيش فيه الناس ، وبالتالي يخلق هذا شريحة من العقول المعزولة تماماً عن الواقع الذي تعيش فيه . وهذا هو الذي صنع الفراغ الحقيقي الذي ملأه الفكر التغريبي ؛ إذ أننا لم نستطيع أن نجعل من العلوم الشرعية بضاعة يتم ترويحها في المجتمع ، في وقت تمتليء فيه السوق بالبضاعة المعلبة والمغلقة

التي يتم عرضها بشكل جيد ومغر ، وهي بضاعة الآخرين .

إننى أرجو ألا ينتهى حديث الشيخ الغزالي حول هذه القضية عند حد العرض فقط فمن الضروري أن يكون هناك إلحاح على متابعة هذه القضية في أطر مختلفة ، ومنها ما أشار إليه فضيلة الشيخ وهو الإلحاح على المؤسسة الأم الأزهر ، ومجمع البحوث لإثارة هذه المشكلات الحيوية واتخاذ موقف منها . فقد وصلنا الآن إلى عصر تخرج فيه الآلاف من الناس الذين يحملون شهادة العلماء وهم في الحقيقة أميون بكل معنى الكلمة فقد هبطت المستويات في كل المؤسسات التعليمية ولكن إذا كان الهبوط محتملاً في بعض المؤسسات التعليمية ، فإنه ليس محتملاً في المؤسسة التي تُخرج الأمناء على عقيدة الأمة وهي محور علوم الشرع وعلوم الحضارة . كما أن الهبوط ليس محتملاً في المؤسسة التي تصبغ علوم الحضارة بصبغة الله سبحانه وتعالى .

ومن هنا أعتقد أنه من المهم أن نواصل الإلحاح على متابعة خيوط القضية والنقاش حولها .

والواقع أن لي بعض الإشارات حول قضايا من القضايا التي أثارها فضيلة الشيخ .. فرغم اتفاق مع فضيلته حول نقد

الفلسفة اليونانية فإننى أريد أن أقول إنه في بعض الأحيان يُفرض على الناس استخدام سلاحاً مناسباً في معركة محددة ، ويكون الخطأ عندما تتجاوز استخدامه في المعركة ، وفات أوان استخدام هذا السلاح ، ورغم ذلك نستمر في الاحتكام إلى هذا السلاح وتعميمه في كل علومنا وفي كل معاركنا ، وهذا هو الخطأ ، وفي تقديري أن المسلمين بعد عصر الفتوحات قد اضطروا إلى ترجمة الفلسفة اليونانية واستخدامها لا لتكون هي فلسفة الإسلام ولكن لأن جمهور البلاد التي تم فتحها لم يكونوا يعترفون بغير مقاييس ومعايير الفلسفة اليونانية ، وكانت كل التيارات الفكرية تعيش وتتعامل وتحتكم إلى منطق أرسطو وإلى الفلسفة اليونانية . ولذلك كان لابد للمسلمين من تعلم هذه الفلسفة ، لا لتكون فلسفة الإسلام ، ولا لتكون علم التوحيد المعبر عن فلسفة المسلمين ، ولكن لتكون سلاحاً محدداً في معركة محددة . وقد ألمح بعض الفلاسفة المسلمين إلى ذلك وقالوا : إن التركيز على فلسفة وعقلانية أرسطو كان سلاحاً في مواجهة الفكر الباطني الذي كان مستشرياً نتيجة الإسرائيليات والفلسفة الهندية والمذاهب الفارسية . وإذا كان قد تم استخدام الفلسفة اليونانية كسلاح في معركة محددة ، فإنه من الخطأ الاستمرار في إشاعة روح هذه الفلسفة في كل علومنا

الأمر الثاني الذي أود الإشارة إليه يتعلق بحديث فضيلة الشيخ الغزالي عن علوم الحديث ، وكيف أن دراسة الحديث ودرايته قد ذبلت بتركيزها على قضية الرواية والسنة دون النظر في متن الحديث ، ودون عرضه على ما هو يقيني وقطعي من القرآن الكريم . ورغم أن علماء السند والرواية المتقدمين أنفسهم قد نبهوا إلى هذا ، فإننا لم نستفد من هذه التنبيهات ! وقد أشار الإمام « أحمد » إلى إمكانية أن يكون السند سليماً تماماً والمتن مكذوب ؛ لأن هناك كاذباً أو إنساناً منكراً في روايته ، يأتي بالكلام المكذوب ، ويضيفه إلى رواة عدول .

والذي حدث أن الجهد العظيم الذي بُذل في السنة كان في حقل الرواية أكثر وأعظم منه في حقل الدراية . ومن هنا تأتى أهمية ما أشار إليه الشيخ الغزالي ، في كتابه الأخير ، من ضرورة نقد متون الأحاديث وعرضها على معايير ومقاصد الشريعة وروح الإسلام وعلى القرآن الكريم .

فكما أن القرآن يفسر بعضه ، فإن عرض الأحاديث بعضها على البعض الآخر يفسرها وكما نلجأ إلى أسباب النزول فيما يتعلق بالقرآن ، فإنه من المطلوب أن يُدرج الحديث على ضوء ملابسات رواية هذا الحديث . ففي كثير من الأحيان يبدو أن

وفي كل عصورنا ، وأعتقد أن هذه الملاحظة تبرى هؤلاء الفلاسفة الذين ترجموا والذين شرحوا والذين تحدثوا عن الفلسفة اليونانية . وعلى سبيل المثال فإن ابن سينا^(٣٧) قد قال في مقدمة « الشفاء » : « نحن نعرض فلسفة اليونان ، لا لأنها هي الفلسفة الحقّة » ، وإنما لأن هناك إنساناً لا يحترمون إلا كل ما هو يوناني وهذا في الحقيقة ما يحدث اليوم .. عندما نقول إن الشريعة الإسلامية عظيمة جداً لأن مؤتمر المستشرقين قال : إنها منظومة قانونية متميزة ومعتز بها . فمادام لدينا « خواجات » لابد أن نناقشهم بسلاح « الخواجات » ! . و « الخواجات » يقولون : إن الفلسفة اليونانية ليست هي الفلسفة الحقّة والفلسفة الحقّة هي فلسفة المستشرقين ، وإن لكل عقيدة ، ولكل حضارة لون متميز من ألوان الفلسفة . ومن هنا أقول إننا لو نظرنا إلى تراثنا في التعامل مع الفلسفة اليونانية من هذه الزاوية ، لاستطعنا أن ننقى علومنا كلها التي طغى عليها المنطق الأرسطي والفلسفة اليونانية وهذا يستوجب التعامل مع هذه الفلسفة على أساس أنها كانت سلاحاً محدداً في معركة محددة ، ولا داعي بعد أن طويت صفحة هذه المعركة ، أن تظل كل العلوم الإسلامية مشوبة بهذه الروح اليونانية .

هناك تناقضاً بين حديثين أو أكثر ، ورغم أنه ليس بينهما تناقض حقيقى ؛ لأن رسول الله (ﷺ) قد قال هذا الحديث لإنسان يناسبه ، وقال الآخر لإنسان يناسبه هذا القول . ونعود فنؤكد إننا محتاجين إلى تنمية علم الدراية ، كما نعى السابقون علم الرواية في دراسة الحديث .

الأمر الثالث يتعلق بما ذكره مولانا الشيخ الغزالي حول مناهج تفسير القرآن . وفي هذا الصدد أشير إلى ما أشار الإمام محمد عبده إليه في مقدمته للتفسير حول مناهج المفسرين ، ونقده للتفسيرات التى ركزت على اللغة أو على البلاغة ... الخ ، ثم قدم تفسيره للقرآن الكريم . ومن هنا أريد أن أقول - فى الختام - : إن هذه الإشارات الطيبة النافذة تحتاج منا إلى التأمل والمتابعة بالبحث والدراسة والحوار حولها ، وشكراً لكم .

د . محمد كمال إمام :

بسم الله الرحمن الرحيم ، حقيقة وكما أشار الأستاذ الدكتور جمال الدين عطية والأستاذ محمد عمارة فإن هذا الحديث هام وخطير فى موضوع يتصف أيضاً بالأهمية والخطورة لما له من دور فى تطوير حياتنا من الناحية المستقبلية .

وأبدأ من حيث انتهى أخى الدكتور محمد عمارة بضرورة أن تكون هناك متابعة

جيدة ومتوازنة لهذا الموضوع نظراً لأهميته ودقته . وهناك نقطة اعتبرها مهمة بالرغم أنها قد ذكرت على هامش الموضوع وهى أننى أطلب من المعهد الذى نظم هذا اللقاء بأن يضم إلى ما قاله أستاذنا « الشيخ الغزالي » الندوة التى عقدها منذ عشر سنوات اتحاد الجامعات العربية بجامعة أم درمان الإسلامية ، وكان موضوعها « تطوير الدراسات الإسلامية » وذلك لأن من بين الأوراق التى قدمت كان منها الكثير الذى يتعلق بتطوير أصول الفقه وبتطوير علم التفسير وتطوير علم الحديث ، كما شملت إلى جانب العلوم الشرعية ، العلوم الإسلامية . فياحبذا لو كُتبت ورقة تتضمن تلخيصاً لما دار فى هذه الندوة واعتُبرت بالإضافة إلى ما قاله شيخنا الجليل الشيخ « الغزالي » هذه الليلة ورقة عمل مشتركة لندوة قادمة ينظمها المعهد بالاشتراك مع الأزهر أو بالاشتراك مع أى جهة أخرى .

الأمر الثانى : فيما يتعلق بمنهجية تدريس العلوم الشرعية كما طرحها أستاذنا الشيخ « الغزالي » فقد كنت أتمنى حقيقة أن يبين المدى بين العلوم الإسلامية وبين العلوم الشرعية ، وهل نستطيع أن ندخل اللغة العربية وعلوم اللغة فى العلوم الشرعية بالمعنى الاصطلاحي الدقيق أم إننا نعتبرها علوماً إسلامية كما نعتبر التاريخ الإسلامى علماً إسلامياً كما نعتبر غيره من العلوم

يشارك كبار أساتذة الأزهر في تأليف مقرر دراسي يتم تطبيقه على جميع المراحل التعليمية في جميع الكليات ؛ لأن ترك كل أستاذ يؤلف - منفرداً - مقررأ دراسياً لطلابه أصبحت مسألة بالغة الخطورة على ضوء الإنتاج المطروح الذي أصبح لا يضيف إلى مكتبتنا الفقهية شيئاً جديداً وهاماً نقدره ونحترمه ، بل إنه يساهم في ازدياد أزمة العقل الفقهي الإسلامي المعاصر . وهذا - كما قلت - أمر يحتاج إلى مراجعة سريعة !

الأمر الخامس : أشار الشيخ « الغزالي » إلى نقطة بالغة الأهمية عندما تناول تطوير منهج العلوم الشرعية ليس فقط المرحلة الجامعية ، ولكن في جميع مراحل التعليم الأزهرى من بدايته إلى نهايته . وأقول إنه لا بد لمنهج تطوير من أن يربط بين ما يُدرس في المرحلة الأولية ، وما يُدرس في المرحلة الثانوية الأزهرية ، وما يُدرس في المرحلة الجامعية ، وذلك حتى يمكن تفادى التكرار ، وحتى يمكن أن يكون هناك نمو عضوى في المناهج ، تتحدد فيه جرعة كل مرحلة حتى يتم البناء عليها في المرحلة التالية وحتى مرحلة الدراسات العليا .

وأعود فأؤكد أن هذه الندوة يجب ألا تكون نهاية المطاف ، وأكرر رجائى بأن ينظم المعهد بالاشتراك مع الأزهر أو مع

فحبذا لو حددنا تحديداً اصطلاحياً دقيقاً ماذا نعني بالعلوم الشرعية وهل تقتصر على العلوم الشرعية التي تتعلق بالنظام القانوني للشرعية الإسلامية مثل الفقه والحديث وما إلى ذلك ، أم تتسع لتشمل علم العقيدة وعلم اللغة وما إلى ذلك وأنا أطرح هذا الأمر للمناقشة وأتمنى أن نصل فيه إلى رأى . والأمر الرابع : أن قضية تدريس العلوم الشرعية تحتاج إلى مدى زمنى طويل ، وإلى مؤسسات وجهات ، ويحتاج هذا الإقناع أيضاً إلى وقت ، وأقترح هنا - ومعنا الآن أحد عمداء جامعة الأزهر الشريف - دراسة إلى أى مدى يمكن إلغاء الكتاب الجامعى في جامعة الأزهر ؛ لأن المشكلة في جامعة الأزهر الآن هي مشكلة الكتب الجامعية العجفاء المقررة على الطلاب في كل السنوات وفي كل الكليات وأعتقد أنها من بين أهم الأسباب التي تؤدي إلى تخرج طالب الأزهر وهو لا يعرف كيف يعود إلى الأصول سواء الأصول التي تحتاج إلى تنقيح أو التي لا تحتاج إلى تنقيح ، ولا يعرف أيضاً الموضوعات التي يشملها المنهج الدراسى . وذلك لأن الأستاذ يقوم بكتابة مذكرة عجل في مائة صفحة أو أكثر ، بعضها منقول ، وبعضها مؤلف ، وبعضها مكرر . ومن هنا فإن هذه القضية قد أصبحت تحتاج بالفعل إلى مراجعة كأن

إحدى كليات الأزهر ، أو مع إحدى المؤسسات الإسلامية ، ندوة أخرى تقوم بطرح هذا الموضوع من خلال ورقة عمل أو مجموعة أوراق ، وتنتهي إلى توصيات محددة تتجه إلى الجهات المعنية لتنفيذها .
وشكراً .

المستشار طارق البشري :

بسم الله الرحمن الرحيم . أولاً : أتوجه بالشكر للشيخ الغزالي على محاضرته القيمة والشيخ « الغزالي » في الحقيقة من علامات عصرنا الحاضر بالنسبة للفقهاء والفكر الإسلامي وأرجو ألا يمنعني الحياء أن أقول إننا كما نحتاج إلى الصيدلي في عصرنا هذا ، نحتاج إلى الميزان الذي نزن به قدر التجديد مع قدر الأصالة ، وقدر السلفية مع قدر التطور في تفكيرنا . فكما نريد التجديد ، نريد الأصالة ، ولكن المقادير المختلفة الموزونة بشكل دقيق والتي تناسب العصر الذي نعيش فيه فإننا نجد هذا المزيج في أحسن صورة لدى مولانا الشيخ « الغزالي » أطال الله لنا في عمره ، ونفعنا بحياته إن شاء الله .

هناك نقطتان يشكلان هامشين صغيرين جداً بالنسبة للمحاضرة . الهامش الأول : إنني من خلال رؤيتي أجدهم بالنسبة لتدريس الفقه الإسلامي ، أن الشريعة الإسلامية تُدرس في الأزهر بنفس الطريقة التي تُدرس

بها في كليات الحقوق بالجامعات الأخرى . وتركز في الأساس على الفقه القريب مثل الزواج والميراث والفقه والمعاملات ، دون إشارة إلى الجهود المعاصرة ، كاجتهادات المحاكم الشرعية المتراكمة لمدة طويلة من الزمن ، وهي موجودة ومجموعة ومنشورة في مجلة المحاماة التي ظلت لعشرات السنين تنشر هذه الأحكام . ومع ذلك لا نجد في تدريس الفقه الإسلامي أية إشارة إلى هذه الاجتهادات التي وضعها أساتذة وقضاة أفاضل في المحاكم الشرعية ، ونفس الأمر بالنسبة لأحكام واجتهادات محكمة النقض ومجلس الدولة التي لا نجد لها أي صدى على الإطلاق في كتب الفقه الشرعي الحديث التي وقفت في هذا الموضوع عند اجتهادات الفقهاء القدامى ، وآخر ما وصلت إليه هو قدرى باشا^(٣٨) قاضي المحكمة العدلية .

وعندما نقارن ذلك بكتب الفقه في القانون الوضعي ، نجد أن أساتذة القانون في كلية الحقوق يتسابقون في الحصول على أحكام النقض ، والإدارية العليا ، والمحكمة الدستورية ، حتى يقوموا بتطوير الفكر القانوني إلى الأحسن ! ولا يقتصر تسابقهم هذا إلى الأحكام المنشورة ، ولكن يتعدى ذلك إلى الأحكام والدراسات غير المنشورة مثل البحوث ورسائل الدكتوراه . ومع ذلك تتجاهل كتب الفقه الإسلامي

الحديث التى تُدرس فى جامعاتنا كل ذلك ، حتى إننا لا نجد فيها الفتاوى التى أصدرتها دار الإفتاء ونشرتها فى (١٤) جزءاً . كما لا نجد أى أثر منها لرسائل الدكتوراه التى تعد ثروة علمية كبيرة جداً بالنسبة لدراسة الفقه الإسلامى والدراسات المقارنة بينه وبين الفقه الوضعى لما بها من اجتهادات كثيرة .

أما الهامش الثانى : فهو خاص بأسلوب الفقه ، فمن خلال تجربتى وممارستى فى تفسير القوانين الوضعية وجدت أن الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى قد انحصرت فى قضايا الأحوال الشخصية فى الأساس . وأن استفادة القانون المدنى منها لم يتعد بعض القضايا القليلة مثل مرض الموت والشفعة . وبقي الجسر الأساس الذى يربط بين القضاء وبين العقل القانونى الوضعى فى الشريعة الإسلامية ، وهو علم أصول الفقه كما هو إلى الحد الذى أصبحنا فيه لا نعرف كيف نفهم النص فهماً مقنعاً نطمئن إليه دون أن نطبق مناهج أصول الفقه فى كثير من القوانين الوضعية . وقد أدى هذا إلى كثرة مدارس التفسير المصرية وكثرة أحكام النقض والإدارية العليا والدستورية وكثرة الفتاوى أيضاً ! وأدى فى النهاية إلى اتجاه مدرسة التفسير المصرية إلى تفسير القانون وفقاً للإرادة الظاهرة

للقانون ، وليس وفقاً للإرادة الباطنية للقانون . فقد كانت القوانين الوضعية والتى أخذناها من فرنسا - تُفسر فى فرنسا نفسها بمنطق الإرادة الباطنة وهى الإرادة التحضيرية للقانون ، ومن هنا كانت المدارس المصرية - خصوصاً عند ظهور محكمة النقض لأول مرة - تميل إلى دراسة القانون الوضعى بالإرادة الذاتية ؛ وذلك لأنها كانت تعمل بمناهج أصول الفقه فى التفسير . وقد أشار السنهورى^(٣٩) فى آخر كتبه إلى بعض النقاط الهامة فى أصول الفقه مثل التزام الموجب بإيجابه خلال فترة الإيجاب ، وحق القادر فى قبوله خلال مدة معينة ، وهل هو حق أم رخصة وكل هذه الأمور لم ترد فى المناهج أو المفاهيم الغربية فى تفسير القانون ، ولكن السنهورى ومحكمة النقض أشارا إليها وحلّا بها كثيراً من المشاكل الوضعية المعاصرة . فالشريعة الإسلامية ليست هى فقط الأحكام التى تتعلق بالأحوال الشخصية التى تطبق فى أصول الفقه ، ولكنها أيضاً كل ما يتعلق بالمعاملات والقانون الإدارى والقانون الدستورى وكل مجالات القانون الأخرى . وأرجو أن يكون هناك مجال لدراسة هذا الأمر وإيضاح تأثير أصول الفقه أيضاً على القانون الوضعى .

بقيت نقطة صغيرة فى حديث الشيخ

الجليل محمد الغزالي وهي تتعلق بالسند ، وأقول إننا نؤكد على السند عندما نناقش شخصاً ينكر السنة ، ونؤكد على المتن عندما نناقش شخصاً يهتم بالسند اهتماماً مطلقاً . وذلك لأن هناك إناساً كتبوا عن أشياء كثيرة فلا بد من التأكيد على السند والمتن ، وهذه هي ملاحظاتي ، وشكراً لكم .

الشيخ : على جمعة :

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله . نحن سعداء في هذه الأمسية بأستاذنا فضيلة الشيخ « الغزالي » . في الحقيقة : إن مسألة ازدواجية التعليم مسألة قديمة نشأت في عصر محمد علي ومع دخول مصر في العصر الحديث ولم يحظ التعليم الأزهرى وتطوره بكثير من الدراسات الأكاديمية الجادة . وقد كتب « عزت عبد الكريم » كتاباً عن التعليم في مصر في عهد محمد علي وفي عصر سعيد وفي عصر إسماعيل وأثار مسألة ازدواجية التعليم ، وهل كانت مفيدة أم غير مفيدة ، وهل ازدواجية التعليم مشكلة يجب القضاء عليها أم ازدواجية التعليم لابد منها لدخول المسلمين في العصر الحديث ، وما الذى يترتب على أن يكون هناك ازدواجية في التعليم ؟ هل يصبح المتخصص في الشريعة لا يعلم من العلوم الطبيعية إلا بقدر

ما يستطيع به أن يبلغ الدعوة ، وأن يصبح لدينا الطبيب المتخصص والمهندس المتخصص وهذا هو طبيعة العصر وطبيعة التراكم المعرفى وطبيعة الثورة في المعلومات إذ لا بد من وجود تخصص دقيق في كل شيء لأن الوقت والبرنامج اليومى الذى يعيشه الإنسان المعاصر لا يسمح له مع سرعة المواصلات الرهيبة أن يجلس يقرأ بالساعات كما كان يفعل من الفجر إلى العشاء في المسجد يقرأ ويدرس فكمية الوقت المتاحة للعلم أصبحت قليلة ، ومن هنا فإن ازدواجية التعليم وسليبيتها أو إيجابياتها تحتاج إلى بحث . وأضرم صوتى إلى صوت الدكتور « كمال إمام » في وجوب عقد ندوة أو مجموعة ندوات ومؤتمرات حول مسألة التعليم بصفة عامة والتعليم في الأزهر بصفة خاصة حتى نصل إلى دراسة دقيقة لمثل هذه المشكلات . وقد سبق أن واجه الشيخ محمد عبده مشكلة القضاء الشرعى وانهيائه ، وكتب تقريراً مبكياً عن حالة القضاء الشرعيين الذين لا يعرفون شيئاً ، ويتسمون بالأمية ومن هنا فإن المشكلة ليست جديدة ، بل هي موجودة ، وعاصرها محمد عبده ورآها . وقد ذكر شكيب أرسلان^(٤٠) أنه طلب من الشيخ محمد عبده أن يجلس مع كبار علماء الأزهر فذهب إلى أحدهم وقال له : أنا من بيروت ، فلم يعرفها فقال له : هي في لبنان

محمد الغزالي ، حيث إن العلماء المجتهدين في الأزهر وفي العالم الإسلامي كله قلة ضئيلة ؛ لأن المناهج وتطويرها تحتاج إلى مجتهد يطبقها ، كما تحتاج إلى تحديد دقيق لما نريده من العملية التعليمية فهل نريد أن نُخرج من الأزهر داعية أم نريد أن نُخرج من الأزهر مجتهداً ، أم نريد أن نُخرج من الأزهر مدرساً للعلوم الشرعية الخ .

نأتى إلى نقطة أخرى .. وهى هل الحديث الذي دار بيننا حول تطوير التعليم الأزهرى ينصب على المرحلة الجامعية أم يشمل المراحل الابتدائية والثانوية وحتى الدراسات العليا ؟! وأعتقد أن هذا سؤال مهم يجب الإجابة عنه . ويمكن الإجابة عليه من خلال قيام أحد طلاب الدكتوراه بإعداد رسالة عن ذلك تحت إشراف الشيخ الغزالي ، يتناول فيها جذور المشكلة ويتفرغ لبحث القضية ، وتوضع أمامه المشكلات الدقيقة وتاريخها ووثائقها حتى يخرج لنا عملاً يساعدنا على الخروج مما نحن فيه الآن من تدهور شديد في التعليم ! فمشكلة التعليم موجودة ليس فقط في الأزهر . وقد ذكر د . حسين مؤنس أنه سأل أحد طلاب الدراسات العليا في التاريخ لكلية الآداب عن الذى قام بثورة ١٩١٩ ، فقال له : جمال عبد الناصر ، وسأله عن الذى قام بثورة يوليو ، فقال : أحمد عرابي . كما

فأجابه وما هى لبنان كما وجد أنه لا يعرف كتابة الأعداد بالأرقام ، فشكى شكيب أرسلان إلى محمد عبده وقال له ليست هذه النوعية ما أريد فقال محمد عبده : هذا من كبار العلماء .

وقد حاول السابقون أن يحلوا مشكلة التعليم في الأزهر وأصدروا ثلاثة قوانين في أعوام ١٩٠٦ ، ١٩٠٨ ، ١٩١١ ثم قانون آخر في ١٩٢٩ ، كما حاول الشيخ الظواهري^(٤١) في كتابه عن العلم والعلماء وقال : إن الطريقة الأزهرية ترى ملكة اللفظ ولا ترى ملكة الفقه .

أما مشكلة القضاء الشرعى وارتباطها بتطوير التعليم فإن الشكوى منها قديمة ، وقد بذلت فيها جهود متراكمة ولكنها باءت بالفشل . وقد دعى الشيخ عبد المتعال الصعیدی - كما ندعو اليوم - إلى تطوير المناهج والأساليب والتدريس ، على اعتبار أن العملية التعليمية تتكون من المدرس والطالب والكتب والمنهج وأنه لا بد من دراسة كل عنصر من هذه العناصر على حدة . وعندما طبق في الستينات كلام الشيخ الصعیدی الذى وضعه في الأربعينات - : لم ينتج شيئاً ، فقد فشل التطبيق ، وتحول ما قاله غيره عند التطبيق إلى شيء آخر تماماً ؛ وذلك لعدم وجود المدرس القادر على التطبيق من أمثال شيخنا

أن مشكلة التعليم موجودة في أمريكا ،
ولكننا هنا نريد إحياء دور الأزهر ونصرة
دين الله سبحانه وتعالى .

إن الدراسات العليا في الأزهر يُدرس
فيها الآن التمهيد في تخرج الفروع على
الأصول للأسنوى^(٤٢) ، وتخرج الفروع على
الأصول للزنجاني ، وذلك لمدة سنتين في
الدبلوم ، والواقع أن الطالب يظل طوال
أربع سنوات في المرحلة الجامعية الأولى غير
فاهم لأصول الفقه ولو اجتهد وحضر
ودرس لفهم أصول الفقه في الدراسات
العليا . فعندما يقرأ التمهيد للأسنوى
والأشباه والنظائر للسيوطي ، والضياء
اللامع في شرح جمع الجوامع ، على يد شيخ
فاهم وواع ، لفهم الطالب - وهذا ما
نطلبه - كيف يأتي بالقاعدة أو الحكم
الأصولي ويبنى عليه الفروع . وللتذكرة
فإن كتاب الضياء اللامع ليس موجوداً منه
سوى نسخة واحدة في دار الكتب
المصرية ، ونسختين في الأزهر ، وممنوع
تصويرهما ، وهو مطبوع في فاس بالمغرب
عام ١٣١٠ .

إننا أمام مشكلة حقيقية نحتاج فيها إلى
البناء قبل الهدم ؛ لأننا قد نهدم ولا نستطيع
أن نبني البديل بسبب الضائلة الشديدة في
الإمكانات ، ومن هنا فإن المسألة تحتاج إلى
هدوء في تشخيص المشكلة وفي وضع حل

لها قبل الهدم . وعلى سبيل المثال .. هل
أصبح كتاب مختصر ابن الحاجب كتاباً
ميتاً ، أم إنه كما قال د . عمارة - سلاح
قد أدى دوره في عصره وانتهى . وكذلك
هل البحث اللفظي ليس مفيداً رغم أهمية
الملكة اللفظية في قراءة المتون والمصادر حتى
يصبح الإنسان متخصصاً ، وحتى يفهم ما
قاله الأقدمون والواقع إننا يجب أن نتعلم
اللغة حتى نفهم التراث ، ونعيش عصرنا
ونطور أنفسنا لمستقبل تكون فيه السيادة
للإسلام .

إنني أقصد من ذلك أن يتم البناء بدون
هدم لملكة اللفظ فالعالم قد ينفق سنوات
طويلة في تحصيل العلم ، ويظل يتعلم كل
يوم . ومن هنا فإن هذه القضية نريد لها
مؤتمرات ونريد لها طلاباً يدرسون دراسة
أكاديمية تحت إشراف فضيلة مولانا الشيخ
الغزالي ، وأرجو أن تكون هذه التوصية من
بين توصيات هذا السيمينار خاصة وأن معنا
سعادة عميد أصول الدين ، ونتوسل إلى
الشيخ الغزالي أن يفرغ من وقته لهذا الأمر
الذي يحتاجه !

الشيخ الغزالي :

الواقع أنني مازلت أرى أنه لا بد من
إعادة النظر في كتب الفقه مثل نور
الإيضاح وهو في العبادات فقط ، وما يماثله
من كتب الفقه المالكي والشافعي . وأريد

لقد دخلت الأزهر على قانون عام ١٩٢٩ ، وكنا ندرس فيه الجبر محدد المعادلات التكميلية ، والحساب ونظريات الهندسة . وقديماً كان لدينا نظام شهادة الكفاءة وشهادة البكالوريا . وكان للكفاءة شق علمي وشق أدبي في المدارس وكنا ندرس علوم الأحياء والنبات والحيوان والكيمياء والطبيعة وكان لأحمد حسنين باشا خمس كتب عن الصوت والضوء والكهرية والمغناطيسية والحرارة . وكان من اللازم أن ندرس كل ذلك حتى نتخرج علماء .

وأنا أرى أننا يمكننا أن نخرج التعليم الديني والتعليم المدني في تعليم عام من الابتدائية وحتى الثانوية ، ولكن هذا الأمر يتطلب تغييراً في السياسة التعليمية ؛ فمن غير المعقول ألا يكون الدين مادة نجاح ورسوب في المدارس ، فالأقباط لا يتعدون نسبة ٥٪ من سكان مصر ، ولا يمكن أن تكون هذه النسبة السبب في ترك المسلمين لدينهم . ومن هنا لابد من توحيد التعليم ليشمل الجميع من الابتدائي حتى الثانوي حتى يتعلم الجميع الطهارة والصلاة ، أما تخصيص نوع من التعليم الديني ليعلم التلاميذ الوضوء والصلاة ، فإن هذا لا يحتاج إلى عبقرية ، ولا يحتاج إلى هذا كله . إننا نحتاج في إطار إعادة النظر إلى

أن أشير إلى أنني أدرس الفقه بصرف النظر عن الأزهر ، وعن الزيتونة وعن المدارس الإسلامية الأخرى . فنحن نتحدث عن الثقافة الإسلامية وليس عن التعليم الأزهرى فقط ومن هنا نتحدث عن ضرورة إعادة النظر في علم مصطلح الحديث . ولما كان الأزهر هو الذي يُدرس هذه العلوم ، فإنه يرجع إليه تطوير ووضع المنهج المناسب الذي يقوم الأستاذ بتدريسه . وعن أهمية الأستاذ أقول : إنني سمعت أن مالك يقول : « إذا كان المعلم في الأكابر رجع الناس إليه ، وإذا كان في الأصاغر انصرف الناس عنه » ، وأنا أشعر بالأسف عندما أقول إن العلوم الدينية هي علوم الضعفاء من المسلمين ، فلا يدخل الأزهر أبناء الباشوات أو اللوردات ، وإنما يدخله أبناء العمال والفلاحين وصغار التجار . وأعتقد أن سبب التدهور الذي سقطت فيه الأمة الإسلامية منذ عدة قرون يعود إلى شقين : الشق الأول : يتعلق بالفقه وأصول الفقه والتفسير والحديث ودراسة الأدب واللغة ، و الذي لم يستطع عرض الإسلام عرضاً صحيحاً .

الشق الثاني : يتعلق بعدم تخريج علماء أزهرين ! رغم أن تخصصات العلوم الأزهرية يجب أن تخرج لنا الداعية والقضاة والقانونيين واللغويين . ولكن كيف تؤدي هذه التخصصات ذلك ؟!

تنقية علوم الدين من الغش ومن الدخل
ومن أثر العقول الغوغائية في صياغتها
خصوصاً وإن عدد كبير من المشتغلين
بالدين من أنصاف المتعلمين أو الأميين ومن
لا عقل لهم ؛ فالأزهر نفسه يحتاج إلى
إنقاذ .

إن مشكلتنا هي أننا نريد الديمقراطية في
كل شيء إلا في الإسلام ، وعلى سبيل المثال
بينما تذكر الإذاعات الأجنبية أن الهنود
« الهندوس » يريدون هدم مسجد حكم
القضاء ببقاء المسجد ، لم نجد مديعاً عربياً
يذيع علينا ذلك . فالعرب قد خانوا
الإسلام ما بين قوميين ، وبعثيين ،
ووطنيين وهم كلهم مرتزقة . إن الأمر
يتطلب أن نبدأ جميعاً في نقد أنفسنا ، حتى
نستطيع أن ننقى الثقافة الإسلامية ، وإعطاء
النماذج وتحديد الأهداف ثم نبدأ العمل . إن
المسلمين لم ينصروا في بدر بنشاطهم وإنما
هم دخلوا المعركة رغم أنهم ليكون النصر
من عند الله . وعندما يجد الله أن المسلمين
أهل للقيادة العقلية فإنه سوف يعطيهم
القيادة العقلية ويمكنهم في الأرض . ولكنني
أخشى من قيادة المسلمين للعالم ؛ لأنهم
بهذه الحالة سوف يفقدون العالم إلى الوراثة
ولن يستطيعوا أن يقدموا له أخلاقاً أو تربية
أو علم الخ . ومن هنا فإن علينا أن
نبدأ من الآن في تقديم إسلام نظيف ، بدلاً

من الإسلام الذي علق به الكثير من
الشوائب ، ليبقى الوحي والسنة وكلام
الأئمة الأعلام والعباقرة العظام الذين انتهوا
من عشرة قرون ! ولكن أن أفرض على
الإنسانية ما يدرس في الأزهر الذي لا
يستطيع أن يقوم بدوره ، فهذا ما لا
يصح ! إننا نريد أن نعلم الناس خشية الله
حتى يكونوا على صلة به .

وفي محاولات التنقية لابد أن نأخذ
الحذر حتى لا نتهم اتهامات باطلة ويأخذ
البعض كلامنا على أنه ضد الإسلام نفسه ،
أنا متهم وحتى الآن بأنني ضد السنة ومن
هنا لابد من اتخاذ الحذر في عمليات البناء
والهدم .

إنني أريد أن أفرق بين الثقافة الإسلامية
والتراث الإسلامي ؛ لأننا إذا سرنا كما سار
من سبقونا منذ ٤ قرون لوصلنا إلى
الهاوية ، فنفس العلوم كانت موجودة بينما
كان البرتغاليون يكتشفون رأس الرجاء
الصالح ونحن مشغولون بالتصوف
واكتشفوا أمريكا ونحن نتجادل مثل
البيزنطيين عندما دخل محمد الفاتح وقضى
عليهم .

إذن كيف نصلح أحوالنا ؟ إن الدواء
ليس في معاهد الثقافة الإسلامية التي تشبه
شركات الأدوية الفاسدة ، ومن هنا فإن
علينا أن نبدأ بأنفسنا حتى نزيل الغبار الذي

علق بالإسلام وننظف المعدن النفيس .
وأملنا كبير في المعهد العالمى للفكر
الإسلامى فى القيام بهذا الدور !

د . حسن رجب :

مرة أخرى أشكر المعهد والدكتور
« جمال عطية » أن أتاح لنا فرصة التزود من
بحر عطاء أستاذنا « الشيخ الغزالي » . لقد
سعدت كثيراً بما سمعت وليس لى سوى
تعليق صغير فى قضية التجديد والتنقية ففى
رأى أنها قضية ملحة جداً ليس فقط بسبب
وجود أوراق تعوق الفهم وتُعطل تخرج
الداعية الحقيقى الفاهم والعالم ، وتُعطل
مواكبة العلم الإسلامى للحياة المعاصرة
بكل تحدياتها ، ولكن أيضاً بسبب ما
يحدث من تسرب كثير من هذه الأوراق
إلى الكتب المعاصرة . والواقع أن هذا ليس
ذنب الأزهر وحده ، بقدر ما يتعلق هذا
بالعلم القائم الذى تسربت إليه كثير من
الأوراق وأدت إلى تخريب المفاهيم
الإسلامية ، وتخريب مفهوم الناس عن
الإسلام . وإلا فكيف يأتى أستاذ وعميد
كلية من الكليات ويقول ، فى إحدى كتبه
التي تدعو إلى المفاهيم الإسلامية ، فى
كراهية معاشر المرأة لأكثر من رجل إن
ذلك ينتج عنه أن تكون النطفة من رجل
ودماء الجنين من رجال آخريين . فمن أين
أتى بهذا الكلام . وهذا يؤكد أن المسألة

خرجت إلى حد العبث والجهل الشديد !
وعندما أقرأ فى كثير من كتب الإعلام
الإسلامى الجديدة والتي تصدر الآن عن
بعض الدعاة أو غيرهم ، أن الحرب وسيلة
من وسائل الدعوة الإسلامية ، فإن هذا
يشير إلى شىء مروع وخطير ؛ إذ أننا بذلك
نؤيد أقوال أعداء الإسلام الذين
يستشهدون بذلك فى حربهم علينا .

وأعود فأؤكد أن عملية التنقية ليست
فقط لصالح العملية التعليمية ، وليست فقط
بهدف التنقية العامة ، وإنما أيضاً لدرء مخاطر
كثيرة تسرب الآن إلى عامة الفكر
الإسلامى وتضر الإسلام بشكل مباشر ،
وشكراً .

د . أبو اليزيد العجمي :

بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله
والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله
وبعد ، فى البداية أضيف إلى ما أبداه
الأخوة من عظيم الشاء لما أفاض علينا شيخنا
وشيخ العصر الشيخ « محمد الغزالي »
فأقول : إني كلما سئلت فى مناسبة ما عن
كتابه الذى أثار الضجة الأخيرة كنت أقول
أننا إذا نظرنا إلى الشيخ الغزالي على أنه يردد
نصوصاً أو يحرق مسائل فقط ، فنحن
نغبط الرجل حقه . ولكننا إذا نظرنا إلى
الرجل باعتباره يصبرخ صرخة عالية مدوية
لإيقاظ الغافلين وتحريك الكسالى من عقلاء

المسلمين فضلاً عن غيرهم ، فإننا بذلك نضع الرجل في مكانه . والشيخ « الغزالي » بما أسداه إلينا الليلة إنما يضرب على وتر حساس لأمر خطير . والواقع أنني أتعاطف مع التيار الواقعي في معالجة قضية التطوير ، باعتبار أن التطوير في بلادنا يمر بمراحل طويلة ومن خلال لجان وهيئات ومؤسسات ، ومن هنا أقترح أو أرى أن يقتصر التطوير في البداية على المرحلة الجامعية إذ أن تغيير وحدات المناهج في الجامعات أيسر كثيراً من تغيير وحدات السلم التعليمي من أوله إلى آخره . أما بالنسبة للعلوم التي ذكرها فضيلة الشيخ فإنني أرى ضرورة إدخالها في نسيج الحياة ؛ فقد آن الأوان أن ينتقل الطالب الذي درس الفقه بهذا الفقه إلى المرحلة المعاصرة ، عن طريق تقديم دراسات فقهية في قضايا معاصرة للطالب ، حتى يستطيع أن يدخل بالحلال والحرام والأحكام الشرعية إلى منطقة الحياة حيث يعيش الناس . كما أنه قد آن الأوان لإعطاء علم أصول الفقه ، وهو من العلوم التي تمثل منهاج المسلمين في قضية العلم ، حقه في هذا المجال ، وذلك بالتركيز عليه ، حتى يتضح أمام المسلمين أن لهم منهجاً في الاستدلال والاستنباط والاجتهاد والأمر والنهي والعلة ، وذلك دون الدخول في جدليات التفسير والحديث ، كما يجب أن يتم

ربط هذا العلم بالحياة . فيتم - كما ذكر الشيخ الغزالي - ربط النص القرآني بالحياة ، وليس فقط بالممارسات اللغوية رغم ما لها من قيمة في بيان النص . وعلى سبيل المثال فإن القصص القرآني لا يزال يُدرس في كتب التفسير وفي غيرها على أنه نوع من السرد التاريخي الذي هو جزء من معجزة القرآن ، ولكن لم نلتفت إلى أن هذا القصص يقدم مادة تربوية يمكن أن تنقل الناس من حال المرض إلى حال آخر ، وهذا هو الهدف من التغيير الذي أحدثه الإسلام ، وهو تغيير ينطلق من الفهم الصحيح للقرآن والسنة ، إنني أركز في عملية التطوير على الجامعة ؛ لأنه يتخرج منها عدد هائل من الذين يتولون أمر التدريس في المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية . وإذا استطعنا أن نصيغهم صياغة جديدة ، فإننا نكون قد مهدنا الأرض لإحداث التطوير والتغيير في المراحل التعليمية التي تسبق الجامعة .

بقيت لي عدة نقاط سريعة أريد أن أتحدث فيها ، وأولها ما ذكره الشيخ « الغزالي » عن غزو الفلسفة اليونانية لعلم الكلام ، ولكن ليس هناك علاقة بين هذا الغزو ومسألة الفرق الإسلامية ؛ إذ أن هذه الفرق قد ظهرت قبل نهاية القرن الأول الهجري أثر مسألة التحكيم ، فظهرت الفرق الفاعلة وهي الشيعة والخوارج وإلى



العمق في إحدى النواحي الأكاديمية يمكننا أن نكلف بها فضيلة الشيخ الغزالي . وشكراً .

الدكتورة : فوية حسين :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ، وعليه نتوكل .. وبعد :
لقد سعدت كثيراً بما استمعت إليه من فضيلة الشيخ « محمد الغزالي » حول تطوير مختلف العلوم الشرعية . وقد فهمت من حديثه أن التطوير يتجه إلى دمج الحاضر مع الأصول التي يتم تدريسها ، وأن هذا التطوير لا يهدف إلى إلغاء كل ما هو قائم مرة واحدة ، وإنما يتدرج في عمليات الاستبعاد والإحلال والتجديد . وهذا أمر طيب .

ولكن - كما أوضح سيادته ، لا يجب أن نقصر الحديث على الأزهر الشريف فهو مؤسسة إسلامية لها قدرها في أعيننا نحن الذين خارجة . بل يجب أن يمتد الحديث إلى الثقافة الإسلامية بصفة عامة ليشمل أعضاء هيئات التدريس بالجامعة الأزهرية وبكلية دار العلوم ليكون لهم جميعاً اليد العليا في إحداث التطوير المنشود .

وأتفق مع أحد الزملاء بضرورة البدء في التطوير بالجامعة ، على أساس أنها هي التي تخرج المدرسين على اختلاف تخصصاتهم . وهذا يبرز ضرورة الاهتمام بهذا المدرس وهو

جانبهما ظهرت المعتزلة الذين بدأوا في مرحلة تالية في استخدام أسلحة فكرهم للرد على الفرق الأخرى . وأنا أتفق مع الشيخ الغزالي ومع د. عمارة في ضرورة تقدير المسائل بقدرها الحقيقي .

والنقطة الثانية : هي أن الشيخ الغزالي تحدث عن قضية المجاز في اللغة ، وقال : إن اللغة يمكن أن تكون مجازية ، وأنا حسب فهمي لا أرى ضرورة أن تكون اللغة مجازية بمعنى أنها يمكن أن تكون لغة حقيقية ، على أساس أن المشترك اللفظي موجود ، وعلى سبيل المثال فإن كلمة رؤف رحيم بالنسبة لله سبحانه وتعالى ، غير كلمة رؤوف رحيم بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم . أعود فأؤكد إنني لست مع الذين يقولون إن القرآن ليس به مجاز ، ولكنني أريد ألا نفتح هذا الباب .

النقطة الأخيرة : أنني أنظر إلى اقتراح تسجيل رسائل يشرف عليها الشيخ الغزالي وتناقش هذه القضايا وتدرسها دراسة أكاديمية ، فرغم أن هذا شيء طيب للغاية ، إلا أننا يجب أن نتذكر أن هناك آلاف الرسائل في آلاف الموضوعات مكدسة على رفوف مكتباتنا ومن هنا فإنني أرى الندوات والمؤتمرات وحلقات البحث أكثر حيوية لمناقشة هذه القضايا ومن الدراسات الأكاديمية . وحين نحتاج إلى مزيد من

ما يزال طالباً بالجامعة .

ومن هنا نعود فنطالب بضرورة إدخال مقرر للثقافة الإسلامية في جميع الكليات الجامعية ، على أن يستأنس هذا المقرر بكل ما هو قائم بالفعل من مناهج مختلفة ويعرض مختلف الآراء السائدة ، ويشرح جميع المذاهب المتعلقة بالعقيدة ، وحتى المذاهب الفلسفية المتطرفة ، وذلك من خلال بيان أسس الفكر الإسلامى ، والواقع أن وضع كتاب لهذا المقرر يحتاج إلى لجنة من العلماء الأفاضل ، ويجب أن يراعى الخلفية الذهنية للطلاب الجامعى خارج الأزهر ويأخذها في الحسبان ، حتى لا يأتي الكتاب المقترح بعيداً تماماً عن التكوين الذهني والنفسي للشباب . ومن الممكن إدخال هذا المقرر أولاً في الكليات الإنسانية مثل الآداب والتجارة والحقوق ، ثم بعد ذلك الكليات الأخرى .

وأشار المستشار « البشرى » إلى ضرورة الاستفادة من أحكام المحاكم الشرعية ، واعتقد أن هذا الأمر يخص في الأساس كلية الحقوق . إذا تحدثنا في المدخل إلى الفكر الإسلامى عن الفقه مثلاً فإنه لا بد أن يتم تطويره بالاستئناس برأى السادة الذين يقررون الأحكام ويصدرونها .

أعود إلى مسألة المقرر المقترح للثقافة

الإسلامية لأضيف أنه بعد التعريف بأسس الفكر ومعالمه يبدأ الكتاب في الحديث عن العلوم الإسلامية ، ثم المناهج الإسلامية كما أشار د . عمارة ، د . كمال إمام ؛ وذلك حتى يمكن تدريسه للطلبة الجامعيين في كليات العلوم الإنسانية حسب تخصصاتهم المختلفة من تجارة واقتصاد وآداب الخ .

.. الواقع أننى أتفق تماماً مع الشيخ الغزالي حول الحاجة إلى التغيير في الطرق القديمة ولكننى أرى أن هذا الأمر لا يعنى هدم القديم كله ؛ لأن منه ما يعد تراثاً مرتبطاً بأساليب المسلمين في فهم وتقدير وتقييم الفكر الوافد عليهم .

وبالنسبة للتعليم غير الأزهرى فقد علمت أن هناك قسماً للتعليم الأساسى بكلية البنات بجامعة عين شمس ، ويخرج هذا القسم مدرسات التعليم الابتدائى ، والواقع أننا يمكننا الاستفادة من هذا القسم ، عن طريق إضافة ما تحتاج إليه الطالبات من تكوين إسلامى .

تفضل الشيخ الغزالي فأشار إلى الخطأ في عدم إدخال مادة الدين في مجموع درجات الطلاب وأضيف إلى ذلك أن مادة أخرى مثل الرسم يتم إدخال درجاتها في المجموع حتى يزيد الإقبال على دراستها .

أما بالنسبة لكتب التربية الدينية فقد

وأعتقد أن في وجود هذه المادة تكريس للعلمانية في الواقع المعاصر ؛ فالطالب عندما يدرس التربية الدينية ، وفي نفس الوقت يدرس بحوارها الفلسفة بكل ما فيها ، والاجتماع بكل ما فيه ، والتاريخ القومي أو تاريخ دول حوض النيل أو التاريخ المصري والفرعوني فإنه يصاب بازدواجية في شخصيته ، ويكون أمامه إما أن يرفض الدين وإما أن يرفض الوقائع الأخرى ، فيضطر إلى المزاجية بين الاثنين . ومن هنا فإنني أرى أن الهدف في التطوير لا يتعلق بمادة التربية الدينية ، بقدر ما يحتاج إلى ضرورة صياغة المواد الثقافية صياغة إسلامية تمنع في النهاية هذا النوع من الازدواجية .

وفيما يتعلق بالمرحلة الجامعية فإنني أود أن أشير إلى قانون تطوير الأزهر الذي حاول أن يجعل الأزهر على غرار الكليات العلمانية ، وذلك بإضافة مواد ثقافية إلى كلياته في حين أنه كان من المفترض أن يؤسلم الكليات الأخرى . بالإضافة إلى ذلك ، كان من المفترض أن يكون لدينا - كما هو موجود في جميع أنحاء العالم - جامعة تسمى الجامعة الحضارية ، التي تحمي تراث الأمة وعقلها وروحها وتكوينها الداخلي والتاريخي وذلك مثل جامعة « تل أبيب » في إسرائيل ، وجامعة أخرى في روما .

أصبحت جيدة إلى حد ما في المرحلة الابتدائية رغم أنه مازالت لنا ملاحظات على كتب التربية الدينية في المرحلة الإعدادية ، أما في المرحلة الثانوية فإننا نلاحظ أن كتاب الفلسفة الجديد قد أتى أسوأ بكثير من الكتاب القديم ، وهو في شكله القديم والجديد لا يليق تدريسه حيث لا يستطيع تكوين شاب وهذا أمر مؤسف للغاية ، حيث يصطدم فيه الطالب المسلم بأرسطو ، كما يصطدم فيه بسقوط الكثير من المفاهيم الطيبة التي كونها عن رجال الفكر الإسلامي . وأعود فأكرر أنه لا بد أن تصبح مادة الدين في المدارس مادة رسوب ونجاح ، وتضاف درجاتها إلى المجموع ، وشكراً .

الأستاذ : نصر عارف :

بسم الله الرحمن الرحيم .. أعتقد أنني أصغر من أن أتكلم في هذا المجال ولكن مجرد هموم الطالب الذي هو موضوع التغيير أو الذي يؤمل في أن يغير عقولهم وأفكارهم حتى يحملوا في المستقبل إن شاء الله إن تيسر لهم الأمر هذه الشعلة .

وفي البداية وتعليقاً على كلام الأستاذ الشيخ « على جمعة » حول الفصل بين التعليم الديني والتعليم غير الديني أو المدني ، فإنني أقول : إن هذا الأمر قد تغلغل في كل المستويات إلى أن وصل إلى مادة الدين .

ففى إسرائيل مثلاً هناك نمطين من التعليم :
 الأول التعليم الدينى أو تعليم
 « الحاخامات » والثانى التعليم العلمانى الذى
 ليس له علاقة بنصوص التوراة أو التلمود .
 ومن هنا فإننى أرى ضرورة التفرقة بين
 نوعين من تطوير التعليم .. النوع الأول
 ويتعلق بالتطوير فى جامعة الأزهر أو
 الزيتونة أو أى جامعة تمثل عقل الأمة
 وتخرج مجتهدىها ، والثانى : يتعلق بالكليات
 والجامعات المدنية أو العلمانية . وفى النوع
 الأول فإننى أرى أنه رغم أهمية الربط
 بالواقع فإنه من الضرورى الحفاظ على
 التراث وتنقيته وذلك للحفاظ على
 استمرارية عقل الأمة أما فى النوع الثانى
 (الكليات غير الإسلامية) فإن التطوير
 يمكن أن يتم عبر أسلوبيين : الأول : يقوم
 على اختيار دقيق من القرآن والحديث
 والفقه والسيرة والتاريخ الإسلامى ما يتعلق
 بموضوعات الدراسة المختلفة من اقتصاد
 وسياسة وإعلام ... الخ وبحيث لا يدرس
 الطالب كماً ضخماً من السنة والتفسير
 والفقه ولا يتعلق بموضوعه . أما الأسلوب
 الثانى : فيقوم على الاستفادة من مناهج
 العلوم الإسلامية فى تشكيل عقول طلبة
 الكليات غير الأزهرية ، وعلى سبيل المثال ،
 يمكن إدخال منهج المحدثين فى علم الرواية
 والدراية فى دراسة التاريخ ، ويمكن إدخال
 منهج الفقهاء فى تدريس الوقائع وتخرج

الأحكام والتحقيق والتحرير فى دراسة
 الاجتماع ، حتى يستطيع الطالب أن يدرس
 الظاهرة الاجتماعية دراسة حقيقية تعبر عن
 الواقع وحتى يستطيع أن ينزل على الواقعة
 الحكم المناسب لها . وأشير فى هذا الصدد
 إلى رسالة الدكتوراه التى أعدها
 « د . سيف عبد الفتاح » فى العلوم
 السياسية وحاول فيها تطبيق منهج المصلحة
 الشرعية لدراسة الظاهرة السياسية وذلك
 باستخدام مقاصد ومراتب الشريعة
 والمزاوجة بينهما وبين الحال والمؤجل والعام
 والخاص ، وخرج بتقسيم كبير يستطيع من
 خلاله رسم السياسات العامة فى كل أمور
 الحياة . ويضعها فى إطارها الضرورى أو
 الحاجى أو التحسينى الذى يتعلق بحفظ
 الدين أو العقل أو النسل أو المال ... الخ .
 وهذه الدراسة يمكن أن تكون مرشداً لنا
 فى دراسة الأوضاع المعاصرة وتقنينها
 وتشريعها وفى نفس الوقت . هناك محاولة
 أخرى لدراسة استخدام مقاصد الشريعة
 الخمسة فى دراسة التنمية السياسية مع إعادة
 لتفسير مضمون المقاصد بحيث يكون
 حفظ الدين على سبيل المثال متعلقاً بحفظ
 جميع حدوده وشرائعه والأمر بالمعروف
 والنهى عن المنكر وتطبيق ذلك فى كل أمور
 الحياة . ويكون حفظ العقل بحفظه من
 التدنيس والتلبيس والحجر عليه وتضليله
 وتشويهه ، وحفظ النسل ليس فقط فى

تلميذ قد درس في كلية علمانية . وأولها أننى لا أجد في دراسات العقيدة أثراً في هذا الوقت سوى ارتباطها بالأيدولوجيات المعاصرة ، ولا أجد في دراسات العقيدة أثراً إلا بربطها بواقع الحياة ، وقد قرأت كتاب الأستاذ « الفاروقى »^(٤٤) رحمه الله عليه عن التوحيد والذي يؤكد على الآثار السياسية والاجتماعية والمعرفية كما يؤكد عن نمط جديد يجب أن يستخدم في دراسة علم العقيدة أيضاً وهو الفرع الخاص بدراسات فقه الواقع ، وذلك بعد أن ساهمنا في تغييب الشرع عن هذه الحياة بتركيزنا على فقه الحكم الشرعى دون فقه الواقع وفقه التنزيل دون تنزيل الحكم على الواقع ، وبذلك ساهمنا بقسط وافر في الفصل بين دراسة الحكم الشرعى ودراسة الواقع وذلك في الوقت الذى تنطلق الكليات العلمانية في دراستها من فقه الواقع ويقومون بانتقاء وقائع معينة منه لإثبات نتائج مسبقة ! ومن هنا أرجو أن تكون لدينا دراسات متخصصة حول كيفية دراسة الوقائع والأحداث ، في محاولة لتأصيل هذا من ناحية المنهجية . كما أرجو أن يُستحدث فرع حول دراسات الفقه الحضارى والبناء الحضارى . وأعتقد أن دراسة بناء الحضارة بكل تشابكاتها وتنوعاتها مسأل هامة جداً ، تختلف عن مسألة تخريج جيش من الدعاة يفيد في بناء الأمة .

وجود الإنسان في بطن أمه ، ولكن أيضاً بتربيته تربية سليمة ، وتوجيهه توجيهاً سليماً وثقافة سليمة وإعلاماً سليماً حتى يشب مسلماً حقاً ، وحفظ المال من الربا والغش والسرقة والنهب . ومن هنا يمكن ملء المفاهيم بالأفكار والأوضاع الحياتية المعاصرة مما يؤدي في النهاية إلى أن تكون هذه المقاصد الخمسة شاملة لكل حياة الإنسان ، وشكراً .

الدكتور : سيف عبد الفتاح :

بسم الله الرحمن الرحيم .. أعتقد أن ما يقال في هذه القاعة وتلك الأمسية لو صدر من شخص علمانى لقالوا إنه يريد هدم الدين ، ولكنه صدر من أساتذة أجلاء يعرفون للأمور قدرها ، خبراء مارسوا العلم والتعليم في الجامعة وفي حقيقة الأمر فإن تلك الأمسية قد تركزت على موضوع هام وهو علاقة العلوم الشرعية بالعصر ، وأظن أن ذلك يحدد الأهداف ، فالأهداف يجب أن تحدد بدقة ، وذلك لأن تحديد الهدف يعد جزءاً من الوصول إليه ثم يتم بعد ذلك بناء المنهج . وهى عملية طويلة وممتدة كما قال الشيخ فإن العجلة في الهدم قد لا يعقبه بناء ، ومن ثم فإن ما هو موجود موجود ، ولكن علينا أن نفكر في البديل قبل أن نهدم . الأمر الآخر أننى أريد أن أدلى فقط بمجموعة من الخواطر باعتبارى

كما أود أن أشير إلى أن علم أصول الفقه ليس إلا منهجاً لدراسة الظواهر في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، ودراسة النص .

فعلى سبيل المثال إذا كان هناك من يتحدث عن تحليل المضمون ، فإن أصول الفقه يتحدث عن دراسة النص وتحليله ، فلماذا لا نستبدل هذا بذلك ، وخاصة أن تحليل المضمون يطبق في بعض الدراسات بصورة هزلية .

أود أيضاً أن أشير إلى أنه في كليتنا يتحدثون ليل نهار عن منهج المصلحة القومية ويؤكدون أنه منهج لا يأتيه الباطل ، وأنه صالح للتطبيق على كافة الظواهر وخصوصاً ظواهر التعامل الدولي . وعندما قرأت كتاباً جديداً في مفهوم المصلحة الشرعية رأيت مدى تبعيتنا المفرطة لمنهج الغرب ، فمنهج المصلحة القومية منهج شائك ، لم يحدد مفهوم المصلحة ومراتبها ، وماذا تعنى ومن الذى يحددها .

وأقول في النهاية: إن الغرب قد أحسن عرض بضاعته رغم ضعفها ، ونحن أسأنا عرض بضاعتنا رغم قوتها وأصالتها ، كما أريد أنؤكد على ضرورة بناء مداخل للعلوم الإنسانية والاجتماعية من منظور إسلامي . وشكراً .

الدكتور : السيد رزق الطويل :

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على من أنزل رحمة للعالمين محمد النبي الأمي اللهم صلى وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد ، أعتقد أن مهمة آخر المتحدثين في مثل هذه الحلقة بالغة الصعوبة ، لكننى على كل حال سأوجز ما لدى من أفكار وفي البداية أقول : إننى سعدت سعادة بالغة بما استمعت إليه الليلة من أفكار جيدة وبناءة كانت تصادف هوى في نفسى وترجم نبضات قلب الإنسان وكثيراً ما يعتمل في صدر الإنسان أفكار لكن يضيق بها الصدر ولا ينطق بها اللسان أما عن موضوع هذه الحلقة وهو تدريس العلوم الشرعية فإننى دائماً وأبداً أحب في أول الأمر أن أقف عند المفاهيم لكي نحددها حتى يكون حديثنا فيها على بينة وقد أشار الأخ الدكتور « كمال إمام » إشارة موجزة إلى هذا . فماذا نعنى بالعلوم الشرعية ؟ إذا كنا نعنى بالعلوم الشرعية العلوم المشروعة فإن كل المعارف في الدنيا مشروعة في الإسلام والحكمة ضالة المؤمن وطلب العلم فريضة على كل مسلم فإذا كنا نعنى بالعلوم الشرعية العلوم المشروعة في المنظور الإسلامى إذاً لابد أن نتناول كل معارف الدنيا ، وإذا كنا نعنى بالعلوم الشرعية المفهوم الدقيق لمعنى الشرع والشرعية الذى يتداول على ألسنتنا ، فإنه

ينبغي أن نستبدل هذا العنوان ونقول مثلاً
تدريس العلوم الإسلامية أو علوم الثقافة
الإسلامية . على أى حال هذه ليست قضية
لكن هناك ملاحظة هامة جداً : لا عجب
عندما نتحدث في هذا الموضوع أن نتحدث
عن الأزهر لأننى أرى بعض المحدثين
يتخرج من هذا ولكننى أقول إذا تحدثنا في
هذا الموضوع لابد أن نتحدث عن الأزهر
باعتبار أن الأزهر شيخ الجامعات الإسلامية
ورائدها وصاحب تاريخ طويل ، ولابد أن
نتحدث فيه ولابد أن ننتقده ، فالنقد لا
يعيبه وإنما يعنى أنه شئ له أهميته في تاريخ
هذه الأمة ، وأن الناقدين له حريصون عليه
وحفيون به . فإذا تحدثنا في هذا الموضوع
لابد أن نتحدث عن الأزهر لأن الأزهر هو
الذى تحمل هذه المسئولية التاريخية ،
مسئولية الحفاظ على الدين الإسلامى وعلى
اللسان العربى أيضاً والثقافة الإسلامية
والعلوم الإسلامية والعلوم الشرعية وأتفق
مع الشيخ « الغزالي » في أن اللغة العربية
تعتبر عنصراً أساسياً في الثقافة الإسلامية ؛
لأن مهمة الاستعمار في كل عصر كانت
ضرب اللغة ، لأنه إذا ضربت اللغة وقُطع
لسان هذه الأمة ، حيل بينها وبين كل ما لها
من تراث ولذلك فإن مهمة الاستعمار على
امتداد النصف الأول من القرن العشرين
وأواخر القرن التاسع عشر كانت تتجه إلى
ضرب اللغة العربية ، ففي كل مكان نزل

فيه الاستعمار كان يحاول أن يضرب اللغة
العربية ؛ لأنه بهذا يضرب عصفورين بحجر
واحد . وقد عجبت كثيراً عندما وصلنى
نبأ قيام الأزهر حالياً باختيار بعض أعضاء
لمجمع البحوث الإسلامية لإكمال عدده ،
واقترح البعض عدم أخذ أحد من اللغة
العربية ، وقصر الاختيار على المتخصصين
في الحديث أو الفقه أو التفسير فقط ، ولا
داعى لمن يتخصصون في اللغة العربية .
وقد عجبت لهذا الأمر أشد العجب ! وإذا
ألقينا نظرة على تدريس العلوم الشرعية في
الأزهر لوجدنا أن الخطأ في القضية كلها
يكمن في الكتب التى تُدرس فمن العجيب
أن الكتب التى تُدرس للطلاب في كل
المراحل ، كتب من عصور متأخرة مع أن
في الثقافة الإسلامية كتب عظيمة في هذه
المواد ، فعلى سبيل المثال فإن كتاب الخراج
« لأبى يوسف » مازال يُدرس في فقه
الأحناف رغم أن محمد بن الحسن الشيباني
قد ألف كتاباً في الأحكام به أصول
اقتصادية عظيمة جداً ، وهناك أيضاً الكتب
التي ألفت في مرحلة النضج العقلى في الفقه
وهي عظيمة جداً ومفيدة ومؤثرة ، ورغم
ذلك اقتصرنا في هذا المجال على الكتب
المؤلفة في العصور المتأخرة والمليئة بالفروض
النادرة جداً .

إن عملية التغير ليست صعبة ، فكل ما

في الأمر أننا نحتاج إلى رجل فقيه فطين يعرض المعارف الفقهية عرضاً واضحاً وميسوراً يلائم ذوق العصر وذوق الطلاب . والواقع أن الخطورة في كتب الفقه تتمثل في تقريرها تعدد الآراء وتشعبها بطريقة تصل إلى حد التناقض ، والأخطر من ذلك أننا ننظر لكل رأى موجود بكتب الفقه على أنه هو الإسلام . ولذلك من الممكن أن نخرج بآراء تتنافى تماماً مع الإسلام وليس لها صدى في كتب الفقه . فالإسلام هو الكتاب الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والسنة الصحيحة التي ثبتت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما كتب الفقه والعقيدة ما هي إلا اجتهاد فكر إسلامي ولا تؤسس عقيدة . ولا أعتقد أن أحداً منا قد تعلم العقيدة من كتب العقيدة أو من كتب علم الكلام . إن هذه الكتب تتحدث عن الله وتقول إن صفات الله هي الوجود والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث ، والقيام بالنفس والوحدانية . وهي اصطلاحات فلسفية تأثرنا بها ، فكيف تصف الله بالقدم ، وهو قد سمي نفسه بالأول والآخر وأيضاً ما معنى القيام بنفسه وهو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وهو الحي القيوم .

إن علينا أن نأخذ العقيدة المصفاة ، ونفتح أعين الطلاب على الآيات الكونية في

كتاب الله تبارك وتعالى ، ليعرف الطالب أن الله هو العظيم القادر القوى الكبير المتعال ، بدلاً أن يعرف بأن القدرة صفة قديمة وأن الله قائم بذاته ، ويدخل في الإشكالات القديمة حول هل الصفة هي عين الذات أم غير الذات كما يقول المعتزلة : إن الله قادر بذاته لأن الصفة غير الذات .

ومن هنا أقول إن كتب العقيدة في حاجة إلى تغيير شامل على كل المستويات . إن الكتب الحديثة تشكو من الشكوى في هذه الأيام من غيبة العقل الإسلامي ، وقد تحدثت في أحد المرات عن حديث السحر ، وقد قلت إنه لا يمكن أن يكون الرسول قد سحر أبداً ، وقد قال الله تعالى : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ و ﴿ قال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ و ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ . وقد قال لي الشيخ الألباني إن هذا تكذيب للسنة .. فماذا في ذلك فالمشركون قد قالوا عن النبي الكثير من الكلام الصحيح مثل ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ . فقلت له : انظر إلى كلام رب العالمين عندما قال المشركون : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ وقال رب العالمين : ﴿ وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ .

يقول : إن رواة الأدب أعقل من رواة الحديث لأنهم ينظرون إلى سند ومتن النص الأدبي وفحصه ودرسه . وإذا تأملنا في حياة عمر بن الخطاب لوجدنا لمحات عظيمة ، فعندما أرسل جماعة من الناس إلى أحد البلدان قال لهم : « ستزلون على أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تشغلوهم عنه برواية الأحاديث » . وكان إذا أتاه رجل يقول : لقد قال الرسول كذا .. يقول له ائتنى بآخر يشهد بأنه سمع مثل ما سمعت . وعندما جاءته فاطمة بنت قيس بحديث الرضاة والسكنى قال لها : هل ندع كلام الله لكلام امرأة . كما أن السيدة عائشة رضى الله عنها عندما روى عبد الله بن عمر حديث « يعذب الميت بكاء أهله » قالت له : نوليك ما توليت إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ ولم يثر أحد في وجه السيدة عائشة وقال لها : إنك تنكرين سنة الرسول مع أنها كانت فقيهة من الفقيهات أو من فقهاء الصحابة كما تُوصف .

وفي جامعة الأزهر التي تطالب الجامعات الأخرى بالتطوير ، يمكنها لو توفر الأستاذ المدقق الفطن الوفي أن تقدم كتباً تفيد الطلاب ، وعلى سبيل المثال فإن الشيخ « على جمعة » يدرس الفقه الإسلامى ومن حقه أن يؤلف كتاباً بعد سنة أو سنتين

فهو بذلك يفتح باب للطعن ، فالمستشرقون لهم أن يقولوا ما يشاءون عن أن النبى قد سحر في فترة ولم يكن يشعر بأنه يفعل الشيء حتى كان يخيل إليه أنه فعل الشيء وهو لم يفعله . وعندما قلت ذلك وجدت من يكتب ويقول : إننى مُكذب لسنة النبى صلى الله عليه وسلم ، والله يعلم أننى حفى بها وحريص عليها كل الحرص . وقد كتبت مرة مقال عن زواج السيدة عائشة وقلت إن عمرها لم يكن ثمانية أو تسعة سنوات . فالتى عرضت على النبى الزواج من السيدة عائشة قالت : له يا محمد أنت في حاجة إلى من يصلح لك شأنك بعد وفاة خديجة ، وكانت عائشة مخطوبة لمصعب بن عدى فكيف تصلح شأن النبى وهى بنت ٩ سنوات . وقد عرضت في المقال الأدلة النقلية والمنطقية التى استندت إليها فى ذلك . إلا إننى

وجدت خلال ١٥ يوماً قد أُلِف كتاب كامل للرد على مقالى الموجز فى صحيفة المدينة المنورة بالسعودية . وهذا يوضح مدى تغيب العقل الإسلامى وصعوبة التعامل معه . ومن هنا أقول إن حديث النبى يمثل قضية مهمة وخطيرة ، إذ أنه به درر غوالى وكلمات عظيمة جداً ، ونحن نريد أن نبعد عنه الزيف والدخيل والتلبيس الذى زيف عقل الأمة . وأذكر أن البندارى له عبارة عجيبة جداً إذ كان

حسب القانون ويدع الفكر الذى نريده ،
ويصيفه للطلاب ، وبذلك يمكننا تحقيق
الكثير ، فحسب قوانين الجامعة يمكن
للأساتذة أن يؤلفوا كتباً للطلبة إذا كانوا
على درجة أساتذة وعلى قدر من العلم
والفهم والفطنة والمسئولية .

ولكن مشكلة الدراسة فى الأزهر لها
أسباب عميقة لسيرها على الطريقة النمطية .
فعلى سبيل المثال فإن فى الفقه لا يوجد فى
الأزهر إلا المذاهب الأربعة ، ولا يجد
سواهم متسعاً . وفى النحو يتعصب الأزهر
لمدرسة البصريين ، وفى العقيدة يتعصب
لمدرسة الأشاعرة والماتريدية وهذه أنماط
ثابتة ومفروضة يسير عليها الطلاب ويرون
أن هذا هو رأى الصحيح . ومن هنا فإن
الثقافة الإسلامية أو التراث الإسلامى -
على سعته - ليس متاحاً لأبناء الأزهر كما
ينبغي .

وإذا تركنا الأزهر نجد أن التعليم
الإسلامى فى وزارة التربية والتعليم ، فى
مأساة خطيرة جداً حيث يقدم للطلاب فى
الصف الأول الثانوى بعض الشخصيات
يلتمسون منها المواقف البناءة من حياة هذه
الشخصيات . ولكننا يجب أن نقدم
للطالب شخصية لها موقف حتى يتعلم
الطالب أن الإسلام قد دفع هذه الشخصية
إلى موقف معين وجعله يتصدى فيه

لقضية .

إننى مع الشيخ « الغزالي » فى أن العرب
قد خانوا أمانة الإسلام ، فقد كان ينبغي
وقد ابتلاههم الله واجتباهم - أن يكونوا هم
رواد الفهم الإسلامى الصحيح . وأذكر أنه
طالما ظل العرب على هذه الصورة البعيدة
عن الإسلام ، فلا يمكن أن نتظر صلاح
المسلمين فى البلاد الأخرى . فلا بد أن يعود
العقل العربى الإسلامى ، لتعود من جديد
أمة الإسلام .. وأقول قولى هذا وأستغفر
الله لى ولكم .

د . جمال الدين عطية :

لى كلمة صغيرة حيث يحضرنى فى هذا
المقام موقف حدث مؤخراً ويبين الوضع
الذى صرنا إليه فى موضوع العلوم
الشرعية . فقد استشارتنى طالبة من البلاد
العربية فى موضوع تسجله لدرجة
الدكتوراه فذكرت لها (١١) موضوعاً .
فذهبت بهذه القائمة وعرضتها على أستاذها
فى الفقه حتى يختار ما يشاء منها ، ولكنه
رفضها جميعاً . فطلبت منه أن يختار لها هو
موضوعاً . فقال لها : يا ابنتى لم يعد هناك
موضوعات ، وهذه الواقعة لها دلالة
واضحة على مدى ما وصلنا إليه . إذن
فلنغلق الدراسات العليا مادام الواقع لم يعد
فيه مشكلات تحتاج إلى الدرس . إننى أتفق
مع الزملاء فى ضرورة متابعة هذا

مقاصد الشريعة في كل علم من العلوم .
فإذا تتبعنا هذا الخط ، وطورنا هذه المقاصد
بصورة عملية بحيث يأخذها المتخصص في
الاقتصاد والإعلام والتربية وغيرها من
العلوم تكون قد بلغت بشكل متين
ووصلت توصيلاً جيداً ، ليأخذها
المتخصص في العلوم الأخرى ويبنى عليها
تخصصه . وفي النهاية أعتقد أنه من الواجب
أن نتابع هذا الموضوع ... وشكراً .

تعليق الشيخ الغزالي :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أعتقد أن
المسلمين في هذا العصر يمرون بمحنة .
ولولا أني واثق من قوله تعالى : ﴿ إنا نحن
نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ واثق من
أن الذكر لن تحفظه الملائكة تنزل من
السماء إنما يحفظه بشر يثبتون في الأرض .
وهذا يجعلني واثق من أن أمتنا قد تمرض ،
ولكنها لن تموت ، وقد تمر بها نحن شديدة
ولكنها لن تؤثر فيها ، بل تغلب عليها
وتمضي وتستأنف سيرها في الدنيا ، وتبلغ
رسالة الله التي ارتبطت بعنقها وأمل أن
نتعاون جميعاً على أن نخدم الإسلام الخدمة
الصحيحة ، عندما يزحم الميدان بقضاياها
وبأحكامه ، يغالب التيارات الوافدة بمنطق
العصر حتى نستطيع أن نهزمها ونردها من
حيث جاءت . فالغزو الثقافي الآن خطير
جداً وهناك انهيار تام في الميدان السياسي من

الموضوع ، ولكنني أرى أن جهد المتابعة
يجب أن يكون غير رسمي ، فلن نشكل
لجاناً على المستويات الرسمية ، وإنما ننشد
من الأساتذة من واقع مناصبهم المشاركة في
هذا العمل بصفة شخصية حتى يكون
هناك مرونة وتحرر وحتى يتم العمل
بنضج ، ثم بعد ذلك يتم عرضه على الجهات
الرسمية .

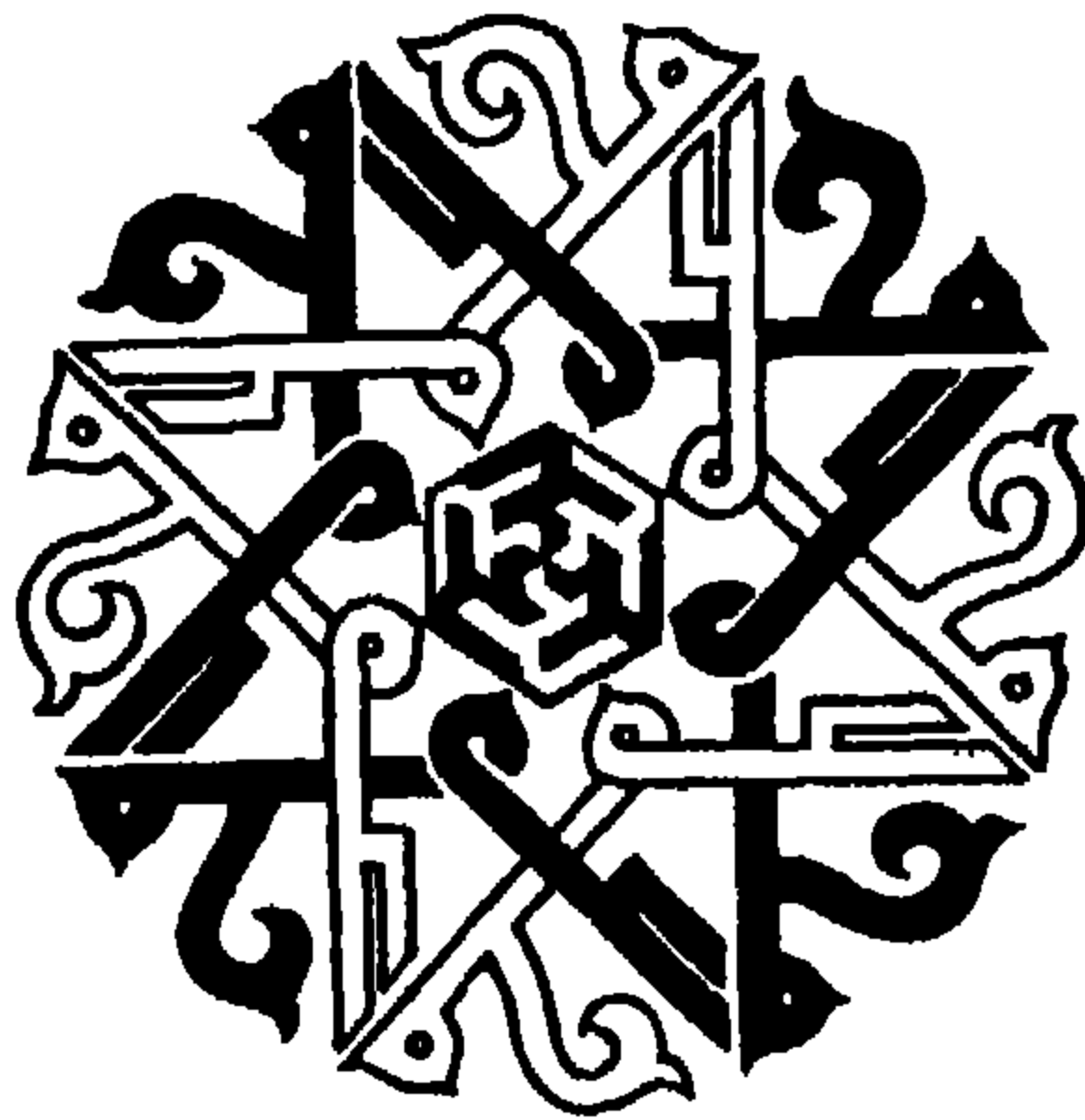
الأمر الثاني : أنه لا بد من إقامة البديل
أولاً قبل الحديث عن نقض ما هو قائم .
وأعتقد أنه بالإمكان أن تتم عملية الإحلال
تدريجياً وأتصورها في أن العلوم كما تُدرس
الآن يجب أن يفصل فيها بين الأصول .
فإذا نظرنا للفقهاء - مثلاً - نفصل
الأصول ، أي ما ورد في الكتاب والسنة
في المسألة المعروضة للدرس ، والتطبيقات
العملية التي كانت مرتبطة - بطبيعتها -
بعصر معين وبيئة معينة . وهذا الفصل
ضروري مع الزمن حتى يتضاءل حجم
هذه التطبيقات ، ليحل محلها تطبيقات
معاصرة على حياتنا ! الأمر الآخر : أن
مهمة رجال العلوم الشرعية في تصوري
تتمثل في وضع بدايات للعلوم الاجتماعية ،
بمعنى القيم والمقاصد الشرعية ، ولعل من
المفيد أن يتم استكمال الجزء الذي وضعه
ابن عاشور والذي لم يتحدث فيه عن
مقاصد الشرعية ككل وإنما تحدث عن

الدعاء . ومن هنا لا نريد أن نضعف ولا نريد أن نستكين ، وأعتقد أن الله سيجعل من هذا الضيق فرجا والمهم أن نعمل لكي نلقى الله وقد بذلنا الجهد في العمل الذي كلفنا به . والآن لابد من إحسان عرض الإسلام على الناس وهزيمة هذه التيارات التي نازلتنا في ديارنا وتوشك أن تغلب علينا ، ولكننا إن شاء الله سنهزمها ، والله المستعان ، وصلى الله على محمد وآله .

د . جمال الدين عطية :

شكراً لكم جميعاً .

الناحية الإسلامية ، حتى خيل إلى كأن الاستعمار يقول ليس في الإمكان أبدع مما كان ، وأن العرب لن يصنعوا بأنفسهم أكثر مما نريد أو أقل مما نريد . وهذا يجعلنا نصحو ونعمل على أن نقدم ديننا بعقل مفتوح ونشاط موصول ويقظة دائمة . وأفهم أن الكفاح العسكري يتعب أصحابه أحياناً حتى يقولون كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ﴾ ، ﴿ وما ضعفوا وما استكانوا ﴾ والله يحب الصابرين ﴿ وما كان قولهم إلا هذا

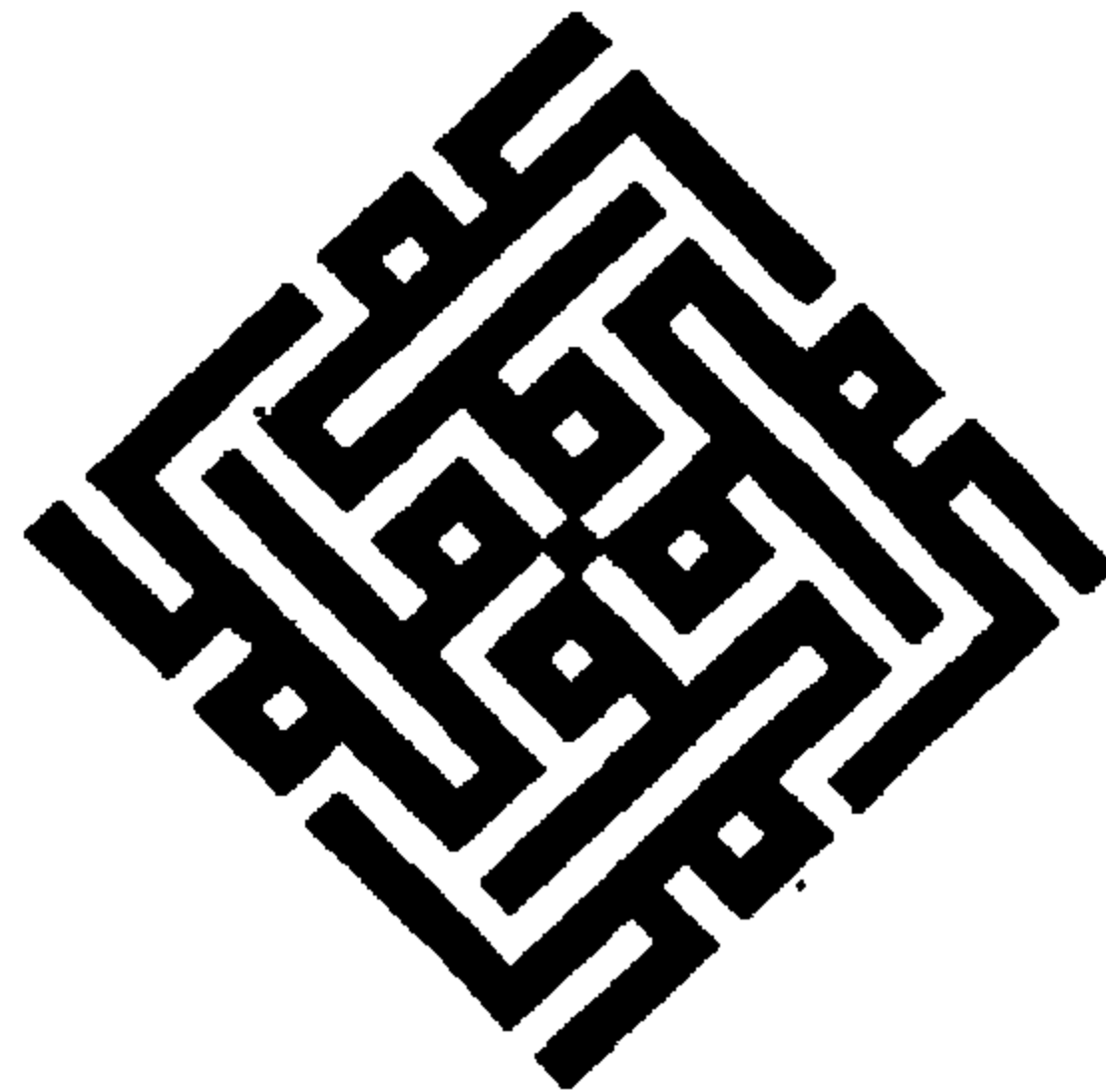


الهوامش

- (١) عبد المعز عبد الستار : من المعاصرين وقيادات الإخوان المسلمين ، وخريج اللغة العربية من جامعة الأزهر الشريف .
- (٢) نور الإيضاح : كتاب في فقه الأحناف يشتمل على العبادات . صنفه حسن بن عمار الشرنبلالي الآتي ترجمته وشرحه .
- (٣) محمد بن الحسن الشيباني : تلميذ أبي حنيفة ، (١٣١ - ١٨٩ هـ = ٧٤٨ - ٨٠٤ م) له مؤلفات كثيرة ولى القضاء ومات بالرى قال الشافعي : (لو أشاء أن أقول نزل القرآن بلغة محمد بن الحسن لقلت : لفصاحته) .
- (٤) أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي تلميذ أبي حنيفة (١١٣ - ١٨٢ هـ = ٧٣١ - ٧٩٨ م) ولى القضاء ، ومات ببغداد له مؤلفات كثيرة .
- (٥) الشرنبلالي : هو حسن بن عمار بن علي الشرنبلالي نسبة إلى شبرا بلومه من أعمال المنوفية (٩٩٤ - ١٠٦٩ هـ = ١٥٨٥ - ١٦٥٩) له نور الإيضاح متن في الفقه الحنفي وشرح له سماه مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح وغيرها . توفي بمصر .
- (٦) الميداني : هو عبد الغني بن طالب الميداني فقيه حنفي له : اللباب في شرح الكتاب والكتاب هو متن القدوري (١٢٢٢ - ١٢٩٨ هـ = ١٨٠٧ - ١٨٨١ م) توفي بالشام .
- (٧) مجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر: تأليف عبد الله الرضوي بن محمد بن سليمان الحنفي في مجلدين . مطبوع .
- (٨) زينب الغزالي : من الإخوان المسلمين . معاصرة .
- (٩) أبو الطيب : هو أحمد بن الحسين بن الحسن - شاعر حكيم مشهور ، ولد بالكوفة ونشأ بالشام ومدح سيف الدولة الحمداني ، زار مصر . ألف عنه الكثير (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ = ٩١٥ - ٩٦٥ م) .
- (١٠) أبو حنيفة : النعمان بن ثابت أحد الأئمة الأربعة وفاته ببغداد وله فيها مقام يزار بالأعظمية نسبة إلى لقبه (الإمام الأعظم) (٨٠ - ١٥٠ هـ) .
- (١١) مالك : هو مالك بن أنس الأصبحي أحد الأئمة الأربعة وفاته بالمدينة ودفن بالبقيع وهو إمام أهل المدينة التقى بأبي حنيفة وهو شيخ الشافعي (٩٦ - ١٧٤ هـ) .
- (١٢) الشافعي : محمد بن إدريس الشافعي أحد الأئمة الأربعة وفاته بمصر وقبره مشهور بنحى الإمام الشافعي بالقاهرة (١٥٠ - ٢٠٥ هـ) .
- (١٣) ابن حنبل : أحمد بن محمد بن حنبل أحد الأئمة الأربعة وفاته ببغداد وهو تلميذ الشافعي (١٦٤ - ٢٤١ هـ) .
- (١٤) أرسطو : أرسطوطاليس - يقال عنه المعلم الأول ، وله الأرجانون والميتافيزيقا فيلسوف يوناني (٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م) .

- (١٥) خليل هراس : أحد علماء الأزهر نشأ بطنطا وتخرج في كلية أصول الدين وكان زعيماً لجمعية أنصار السنة المحمدية بعد مؤسسها حامد الفقى .
- (١٦) ابن تيمية : هو أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية الحراني - شيخ الإسلام (٦٦٨ - ٧٢٨ هـ) مات بدمشق مسجوناً بسجن القلعة له مؤلفات كثيرة جداً ، وله اجتهادات في الأصول والفروع .
- (١٧) محمد عبده : .. مفتي الديار المصرية - وفاته بالقاهرة (١٨٥٠ - ١٩٠٥ م) له رسالة التوحيد ، والتفسير وغيرها ، من المجددين .
- (١٨) ناصر الدين الألبانى : ناصر الدين أبو عبد الرحمن محمد الألبانى الساعاقي أصله من ألبانيا ، سكن الشام ولازم الظاهرية ، وتعلم الحديث بنفسه له مؤلفات كثيرة - معاصر .
- (١٩) سيد صقر : سيد أحمد صقر ولد ونشأ بالقاهرة وبها وفاته سنة ١٩٨٩ م اهتم بالحديث وجمع كتبه حتى صارت مكتبته يضرب بها .
- (٢٠) أحمد شاکر : أحمد محمد شاکر محدث فقيه قاضى شرعى ، أبوه محمد شاکر كان وكيلاً للأزهر . حقق الكثير من الكتب مات بالقاهرة (١٣٠٩ - ١٣٧٧ هـ = ١٨٩٢ - ١٩٥٨ م) .
- (٢١) السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ت ٩١١ هـ مكث من التأليف له أكثر من ٥٠٠ كتاب دفن بالقاهرة بحي سيدي جلال بجوار القلعة .
- (٢٢) عبد الحلیم محمود : شيخ الجامع الأزهر مات سنة ١٩٧٩ م .
- (٢٣) على بن أبى طالب : سيدنا على بن أبى طالب ، رابع الخلفاء الراشدين وفاته سنة ٤٠ هـ بالكوفة .
- (٢٤) النووى : محيى الدين يحيى بن مشرف النووى - شامى - ركن من أركان الفقه الشافعى (٦٣١ - ٦٧٦ هـ) .
- (٢٥) مسلم : مسلم بن الحجاج القشيري صاحب الصحيح ، تلميذ البخارى (توفى سنة ٤٦٢ هـ) .
- (٢٦) فاطمة بن قيس : صحابة .
- (٢٧) تميم الدارى : صحابى .
- (٢٨) محمد عبد الله دراز : من علماء الأزهر - تخرج في السربون - ألف كتباً كثيرة مهمة ، مات بالقاهرة (ت ٣٧٧ = ١٩٥٨ م) .
- (٢٩) محمد رشيد رضا : من علماء الأزهر تتلمذ على محمد عبده له تفسير مجلة المنار وغيرها . مات بالقاهرة سنة (١٣٥٤ هـ = ١٩٣٤ م) .
- (٣٠) حنفى ناصف : حنفى بن إسماعيل بن خليل بن ناصف - أديب قاض شاعر ، وفاته بالقاهرة (١٢٧٢ - ١٣٣٨ = ١٨٦٥ - ١٩١٩ م) .
- (٣١) على صالح الجارم : كان شاعراً وأستاذاً بدار العلوم المصرية ، وفاته بالقاهرة (١٢٩٩ - ١٣٦٨ = ١٨٨١ - ١٩٤٩ م) .
- (٣٢) عباس حسن : صاحب كتاب النحو الوافى في أربع مجلدات ، عضو مجمع اللغة العربية ، معاصر .
- (٣٣) الطاهر بن عاشور : محمد الطاهر بن عاشور مفتي تونس وشيخ جامع الزيتونة وفاته بتونس (١٢٩٦ - ١٣٩٣ هـ = ١٨٧٩ - ١٩٧٣ م) له التفسير الكبير ومقاصد الشريعة وغيرها .

- (٣٤) تخریج الفروع على الأصول . الزنجاني .
- (٣٥) الشاطبي : إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي - من أهل غرناطة ، من أئمة المالكية أغلب مؤلفاته في النحو ، وألف الموافقات في الأصول (٧٩٠٥ هـ = ١٣٨٨ م) .
- (٣٦) ابن الحاجب : عثمان بن عمر بن الحاجب فقيه أصولي قارئ نحوي عاش ومات بالإسكندرية وهو مدفون بجوار المرسى أبي العباس . توفي سنة ٦٤٦ هـ وله مؤلفات دقيقة في كل فن من أذكياء العالم .
- (٣٧) ابن سينا : الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله له كتاب الشفا في نيف وعشرين مجلداً وغيره ت سنة ٤٢٨ هـ من فلاسفة الإسلام .
- (٣٨) محمد قدری باشا : من رجال القضاء بمصر ولّد بملوی بالصعيد وتعلم بالقاهرة وكان ناظراً للحقانية ثم وزيراً للمعارف قنن الشريعة على مذهب الأحناف في (مرشد الحيران) ، (قانون العدل والإنصاف) ، (الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية) وله كتب كثيرة . (١٢٣٧ - ١٣٠٦ هـ = ١٨٢١ - ١٨٨٨ م) .
- (٣٩) السنهوري : عبد الرزاق السنهوري - إمام من أئمة القانون له الوسيط . شرح فيه القانون المدني ، وله غيره . وفاته بالقاهرة (١٣١٢ - ١٣٩١ = ١٨٩٥ - ١٩٧١ م) .
- (٤٠) شكيب أرسلان : شكيب بن محمود أرسلان - أمير من سلالة ملوك الحيرة . وفاته ببيروت (١٢٨٦ - ١٣٦٦ = ١٨٦٩ - ١٩٤٦ م) له مؤلفات كثيرة .
- (٤١) الظواهري : الشيخ محمد الأحمدی الظواهري شيخ الجامع الأزهر (١٢٩٥ - ١٣٦٣ هـ = ١٨٧٨ - ١٩٤٤ م) .
- (٤٢) الأسنوي : عبد الرحيم الأسنوي له كتاب التمهيد في تخریج الفروع على الأصول في المذهب الشافعي ، له مؤلفات كثيرة (ت ٧٠٤ - ٧٧٢ هـ = ١٣٠٥ - ١٣٧٠ م) .





التقريب الختامي لندوة التأصيل الإسلامي للخدمات الاجتماعية

- ٦ - د. مصطفى أحمد محمد حسان ،
الأستاذ المساعد بكلية الخدمة
الاجتماعية - جامعة حلوان .
- ٧ - د. طلعت مصطفى السروجي ،
المدرس بكلية الخدمة الاجتماعية -
جامعة حلوان .
- ٨ - د. حمدي محمد إبراهيم منصور ،
المدرس بكلية الخدمة الاجتماعية -
جامعة حلوان .
- ٩ - د. جمال شكرى محمد عثمان ،
المدرس بكلية الخدمة الاجتماعية -
جامعة حلوان .
- ١٠ - د. أحمد يوسف محمد بشير ،
المدرس بكلية الخدمة الاجتماعية -
جامعة حلوان .
- انعقدت في الفترة من ١١ -
١٣/٨/١٩٩١ بفندق فلانكو بالزمالك
بالقاهرة ندوة « التأصيل الإسلامي للخدمة
الاجتماعية بحضور كل من :
- ١ - فضيلة الشيخ محمد الغزالي .
- ٢ - أ.د. محمد شمس الدين أحمد ،
الأستاذ بكلية الخدمة الاجتماعية -
جامعة حلوان .
- ٣ - أ. سليمان محمد مرزوق ، عميد
المعهد العالي للخدمة الاجتماعية -
سابقاً .
- ٤ - د. محمد عمارة، المفكر الإسلامي.
- ٥ - أ.د. كمال أغا ، الأستاذ المتفرغ
بكلية الخدمة الاجتماعية - جامعة
حلوان .



- ١١ - د. جلال عبد الفتاح منصور ،
المدرس بكلية الخدمة الاجتماعية -
جامعة حلوان .
- ١٢ - د. زين العابدين محمد علي ،
المدرس بكلية الخدمة الاجتماعية -
جامعة حلوان .
- ١٣ - د. أحمد محمد يوسف عليق ،
المدرس بكلية الخدمة الاجتماعية -
جامعة حلوان .
- ١٤ - د. علي إبراهيم محرم ، المدرس بكلية
الخدمة الاجتماعية - جامعة
حلوان .
- ١٥ - د. مدحت أبو النصر ، المدرس
بكلية الخدمة الاجتماعية - جامعة
حلوان .
- ١٦ - د. فؤاد سيد مرسى ، المدرس
بكلية الخدمة الاجتماعية - جامعة
حلوان .
- ١٧ - د. مصطفى عبد العظيم الفرماوى ،
المدرس بكلية الخدمة الاجتماعية -
جامعة حلوان .
- ١٨ - د. عادل محمد مرسى جوهر ،
المدرس بكلية الخدمة الاجتماعية -
جامعة حلوان .
- ١٩ - أ. فؤاد حسين حسن ، المدرس
المساعد بكلية الخدمة الاجتماعية -
جامعة حلوان .
- ٢٠ - أ. أحمد إبراهيم حمزة ، المدرس
المساعد بكلية الخدمة الاجتماعية -
- جامعة حلوان .
- ٢١ - أ. أحمد عيسى عيد الجمل ،
المدرس المساعد بكلية الخدمة
الاجتماعية - جامعة حلوان .
- ٢٢ - أ.د. إحسان زكى عبد الغفار ،
الأستاذ المساعد بكلية الخدمة
الاجتماعية - جامعة حلوان .
- ٢٣ - أ. عصام عبد الرازق فتح الباب ،
المدرس المساعد بكلية الخدمة
الاجتماعية - جامعة حلوان .
- ٢٤ - أ. إبراهيم أحمد عبد المجيد ، المدرس
المساعد بكلية الخدمة الاجتماعية -
جامعة حلوان .
- ٢٥ - أ. سعاد علي محمد سليمان ،
المدرس المساعد بكلية الخدمة
الاجتماعية - جامعة حلوان .
- ٢٦ - أ. علي سيد علي مسلم ، المعيد
بكلية الخدمة الاجتماعية - جامعة
حلوان .
- ٢٧ - أ. وجدى محمد بركات ، المعيد
بكلية الخدمة الاجتماعية - جامعة
حلوان .
- ٢٨ - أ. حسن محمود منصور ، ضابط
شرطة بكلية الخدمة الاجتماعية -
جامعة حلوان .
- ٢٩ - د. فوقية إبراهيم عجمى ، العضو
بهيئة التدريس بكلية الخدمة
الاجتماعية - جامعة القاهرة -
الفيوم .

- ٣٠ - د. مصطفى محمد الحسيني
النجار ، المدرس بكلية الخدمة
الاجتماعية - جامعة القاهرة -
الفيوم .
- ٣١ - أ. كوثر محمد الحسنی ، المدرس
بكلية الخدمة الاجتماعية - جامعة
القاهرة - الفيوم .
- ٣٢ - د. سالم صديق أحمد ، المدرس
بكلية الخدمة الاجتماعية - جامعة
القاهرة - الفيوم .
- ٣٣ - د. كمال عبد المحسن البنا ، المدرس
بكلية الخدمة الاجتماعية - جامعة
القاهرة - الفيوم .
- ٣٤ - د. محمد رضا حسين عنان ،
المدرس بكلية الخدمة الاجتماعية -
جامعة القاهرة - الفيوم .
- ٣٥ - د. السيد عبد الفتاح عفيفي ،
المدرس بكلية الخدمة الاجتماعية -
جامعة القاهرة - الفيوم .
- ٣٦ - د. محمود ناجي محمود ، المدرس
بكلية الخدمة الاجتماعية - جامعة
القاهرة - الفيوم .
- ٣٧ - د. بواب شاكر على جمعة ،
المدرس المساعد ، بكلية الخدمة
الاجتماعية - جامعة القاهرة -
الفيوم .
- ٣٨ - أ. عادل محمود مصطفى ، المعيد
بكلية الخدمة الاجتماعية - جامعة
القاهرة - الفيوم .
- ٣٩ - أ. هدى توفيق محمد ، المعيد بكلية
الخدمة الاجتماعية - جامعة
القاهرة - الفيوم .
- ٤٠ - أ. زينب معوض الباهي ، المعيد
بكلية الخدمة الاجتماعية - جامعة
القاهرة - الفيوم .
- ٤١ - د. محمد أحمد عبد الهادي ،
الأستاذ بالمعهد العالي للخدمة
الاجتماعية - كفر الشيخ .
- ٤٢ - د. أحمد محمد موسى ، المدرس
بالمعهد العالي للخدمة الاجتماعية -
كفر الشيخ .
- ٤٣ - أ. مصطفى مغاوري عبد الرحمن ،
مشرف التدريب بالمعهد العالي
للخدمة الاجتماعية - كفر الشيخ .
- ٤٤ - د. حسن أحمد عمر علام ، مدرس
علم نفس بكلية التربية - أسوان .
- ٤٥ - أ.د. إبراهيم عبد الرحمن رجب ،
رئيس قسم الخدمة الاجتماعية -
جامعة الإمام محمد بن سعود .
- ٤٦ - د. زكى محمد إسماعيل ، أستاذ
الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع -
جامعة الإمام محمد بن سعود .
- ٤٧ - أ.د. كمال إبراهيم مرسى ، أستاذ
الصحة النفسية - جامعة الإمام
محمد بن سعود - الرياض .
- ٤٨ - د. رشاد أحمد عبد اللطيف ،
الأستاذ المشارك - بجامعة الإمام

- محمد بن سعود الإسلامية .
- ٤٩ - د. علي حسين زيدان ، الأستاذ المشارك - بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
- ٥٠ - محمد محروس الشناوي ، أستاذ علم النفس المشارك بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية - الرياض .
- ٥١ - أ. عفاف إبراهيم الدباغ ، المحاضر بالمعهد العالي للخدمة الاجتماعية - الرياض .
- ٥٢ - أ.د. الفاروق محمد زكي يونس ، الأستاذ بكلية الآداب - جامعة الكويت .
- ٥٣ - د. إجلال إسماعيل حلمي ، أستاذ علم الاجتماع المساعد بجامعة الإمارات العربية .
- ٥٤ - د. رفعت عبد الباسط محمود ، مدرس التنمية الاجتماعية والتخطيط - جامعة الإمارات العربية .
- ٥٥ - د. إقبال الأمير السمالوطي ، أستاذ التخطيط والتنمية المساعد بالمعهد العالي للخدمة الاجتماعية .
- ٥٦ - أ. زينب عبد الله الشفقي ، الأخصائية الاجتماعية بجمعية أحياء مصر .
- ٥٧ - أ. زينب عطية محمد ، الأخصائية الاجتماعية .
- ٥٨ - أ.د. سامية محمد فهمي ، عميدة المعهد العالي للخدمة الاجتماعية - الإسكندرية .
- ٥٩ - أ.د. سعيد إسماعيل علي ، أستاذ أصول التربية بكلية التربية - جامعة عين شمس .
- ٦٠ - أ.د. محمد السيد النينة ، أستاذ الأراضي بكلية الزراعة - جامعة عين شمس .
- ٦١ - د. عبد الحميد البعلی ، أستاذ الفقه المقارن بكلية الشريعة والقانون - جامعة الأزهر .
- ٦٢ - د. محمد كمال إمام ، رئيس قسم الشريعة - جامعة المنيا .
- ٦٣ - د. سهير عبد العزيز محمد ، أستاذ علم الاجتماع المساعد بكلية الدراسات الإنسانية .
- ٦٤ - أ. فاطمة إسماعيل محمد ، مدرس الفلسفة الإسلامية المساعد بكلية البنات .
- ٦٥ - أ.د. صلاح عبد المنعم حوטר ، نائب رئيس جامعة حلوان .
- ٦٦ - أ. يحيى بسيوني مصطفى ، محاضر إذاعة وتلفزيون - جامعة الإمام محمد بن سعود سابقاً .
- ٦٧ - أ.د. سهير فضل الله ، أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية البنات - جامعة عين شمس .
- ٦٨ - د. صلاح مصطفى الفوال ، الاجتماعي الإسلامي ، ورئيس

- المساعد بمعهد الدراسات والبحوث
البيئية .
- ٧٩ - أ. أحمد مصطفى حسن ، المدرس
المساعد بمعهد الدراسات والبحوث
البيئية .
- ٨٠ - أ. سحر فتحى محمد مبروك ،
الباحثة الاجتماعية .
- ٨١ - د. أحمد محمد عبد الله ، الطبيب
النفسي .
- ٨٢ - أ. حسن محمد عبد اللطيف ،
مساعد أخصائي تعليم .
- ٨٣ - أ. أماني عصمت هية ، المعيدة
بقسم أصول التربية بكلية البنات .
- ٨٤ - أ. مكي إبراهيم حجازي ، باحثة
بقسم علم النفس - كلية
الآداب .
- ٨٥ - أ. نيفين عبد الحميد البيه ،
الأخصائية الاجتماعية .
- ٨٦ - أ. محمد حسين أبو العلا ، المحرر
بمجلة الإذاعة .
- ٨٧ - حيدر بكر ، الصحفي بمجريدة
مايو - القسم الديني .
- ٨٨ - أ.د. جمال الدين عطية ، المستشار
الأكاديمي للمعهد العالمى للفكر
الإسلامي .

وقد قدمت للندوة البحوث التالية :

- ١ - مداخل التأصيل الإسلامي للخدمة
الاجتماعية ، أ.د. إبراهيم رجب .
- ٢ - نحو مدرسة إسلامية في الخدمة

- مركز البحوث والخدمات
التنموية .
- ٦٩ - أ. د. صلاح الدين محمد عبد المتعال ،
أستاذ الاجتماع بالمركز القومى
للبحوث الاجتماعية والجناائية .
- ٧٠ - د. محمد جمال حسين ، خبير
البحوث والتخطيط والتنمية -
وزارة الشؤون الاجتماعية .
- ٧١ - أ. عبد الوارث مبروك سعيد ،
مدرس اللغويات والدراسات
الإسلامية - جامعة الكويت .
- ٧٢ - أ. على أحمد حمدى ، مستشار
المنظمة العربية للتربية والثقافة
والعلوم .
- ٧٣ - أ. على عبد الموجود القاضى ،
موجه عام بوزارة التربية والتعليم
سابقاً .
- ٧٤ - أ. فؤاد الخطيب ، أمين عام الاتحاد
الدولى للبنوك الإسلامية .
- ٧٥ - أ. عائشة سيد محمد محفوظ ،
موجه أول التربية الاجتماعية -
مديرية التربية والتعليم .
- ٧٦ - أ. خالد عبد القوى محمد زهران ،
موجه فنى الخدمة الاجتماعية -
سابقاً .
- ٧٧ - أ. هبة رؤوف عزت ، المعيدة
بقسم العلوم السياسية كلية
الاقتصاد - جامعة القاهرة .
- ٧٨ - أ. حاتم عبد المنعم أحمد ، المدرس

١٤ - طريقة تنظيم المجتمع مع معتنقى الإسلام حديثاً ، د. رشاد أحمد عبد اللطيف .

١٥ - دور الخدمة الاجتماعية في العمل مع المنحرفين : منظور إسلامي ، د. على حسين زيدان .

١٦ - الإنسان وعلاقته بالبيئة من منظور إسلامي ، د. أحمد يوسف بشير .

١٧ - مدخل جديد في علم الترويج ، أ. يحيى بسيوني مصطفى .

١٨ - العلاج الإسلامي للحالات الفردية ، د. محمد سلامة غباري .

١٩ - دليل الملاحظة : نموذج للتعرف على شخصية الطفل المسلم ، د. زين العابدين محمد رجب .

٢٠ - المعاونة المهنية من الخدمة الاجتماعية لإحدى مؤسسات العمل الإسلامي: دراسة حالة ، د. على حسين زيدان .

وقد نوقشت على مدى خمس جلسات عمل عدا الجلسة الافتتاحية والجلسة الختامية البحوث المقدمة للندوة وأصدر المشاركون في الندوة البيان الختامي والتوصيات التالية .

أولاً : في مجال جهود التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية :

في ضوء ما قدم إلى الندوة من أوراق علمية ، وما دار حولها من مناقشات فقد تأكدت أهمية بذل كل دعم ممكن لجهود

الاجتماعية ، أ.د. نبيل محمد صادق .

٣ - المنهج العلمي للبحث من وجهة إسلامية ، أ.د. إبراهيم رجب .

٤ - نحو مكنز للخدمة الاجتماعية الإسلامية ، أ. زينب عطية .

٥ - المنظور الإسلامي لتفسير المشكلات الفردية ، أ. عفاف إبراهيم الدباغ .

٦ - المبادئ الأساسية للخدمة الاجتماعية الإسلامية ، د. محمد سلامة غباري .

٧ - الأهداف العامة لمساعدة الأفراد على مواجهة مشكلاتهم النفسية ، د. محمد محروس الشناوي .

٨ - سياسة الرعاية الاجتماعية من منظور إسلامي ، أ.د. فاروق زكي يونس .

٩ - المنظور الإسلامي للطبيعة الإنسانية ، أ. عفاف إبراهيم الدباغ .

١٠ - السياسات الاجتماعية المعاصرة من وجهة نظر إسلامية ، أ.د. عبد العزيز عبد الله مختار .

١١ - الرعاية الاجتماعية في الإسلام والخدمة الاجتماعية ، د. مصطفى أحمد حسان .

١٢ - المدخل الوقائي للخدمة الاجتماعية في رعاية الطفل إسلامياً ، د. زين العابدين محمد رجب .

١٣ - الخدمة الاجتماعية في مجال الدعوة الإسلامية ، أ.د. محمد أحمد عبد الهادي .

التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية باعتبار ما لهذه المهنة من دور مؤثر وفعال في المجتمع بكل قطاعاته ... وعلى ذلك توصي الندوة بما يلي :

١ - تشكيل لجنة مشتركة تضم عدداً من أساتذة الخدمة الاجتماعية وعلماء الشريعة الإسلامية في إطار المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، تكون مهمتها :

أ - وضع سياسة واضحة لتوجيه جهود التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية .

ب - بلورة الخطط الملائمة لتنفيذ تلك السياسة بالتعاون مع الجامعات ، والمراكز العلمية المعنية وبالتنسيق فيما بينهما .

ج - متابعة تنفيذ تلك الخطط وتذليل العقبات التي قد تواجهها .
د - تيسير نشر ما ينتج عن تلك الجهود الخيرة وتعميمها على الباحثين والمهتمين بهذه القضية .

٢ - تكوين فرق عمل لإنجاز الأدوات البحثية التي تلزم الباحثين في مجال التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية وخصوصاً :

أ - مراجعة كشف القرآن الكريم للمصطلحات المتصلة بالخدمة الاجتماعية ، والإسراع في إخراجه .
ب - استكمال تكشيف السنة

والسيرة النبوية .

ج - استكمال تكشيف التراث .

د - عمل قائمة ببيوجرافية كاملة وتحديثها باستمرار .

هـ - تقويم الكتابات المعاصرة للخدمة الاجتماعية الإسلامية .

و - وضع خريطة للبحوث المطلوبة لاستكمال عملية التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية ، وتشجيع الباحثين على تغطيتها ، وعلى وجه الخصوص البحوث المقترحة في القائمة المرفقة .

٣ - تصميم برنامج لتيسير وتقريب المفاهيم الإسلامية للقائمين على تعليم الخدمة الاجتماعية وغيرهم من المتخصصين في العلوم الاجتماعية لمعاونتهم على الإسهام الفعال في جهود التأصيل الإسلامي في تلك المجالات .

ثانياً : في مجال تعليم الخدمة الاجتماعية :
لما للدور الأخصائي الاجتماعي من أهميته في المجتمع ، وتأثيره العميق في الأفراد والجماعات ، وحتى يمكن تأمين تخرج أخصائي اجتماعي مسلح بالقيم الإسلامية .
توصي الندوة بما يلي :

١ - إعادة النظر في سياسات القبول لكليات ومعاهد الخدمة الاجتماعية ، بما يضمن قبول الطلاب الذين بلغوا مستوى معقولاً من النضج الاجتماعي والفكري بما يساعدهم على أن

ثالثاً : في مجالات الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية :

توصي الندوة بما يلي :

- ١ - إعادة النظر في مناهج إعداد العاملين في مجال الدعوة الإسلامية بما يضمن تسليحهم بالمعارف والمهارات التي تعينهم على التعامل الفعال مع المواقف الفردية والاجتماعية بما يحقق أهداف الدعوة إلى الله بفاعلية ، وفي هذا المجال يجب الاهتمام بما يلي :
 - أ - تدريس مقرر أو أكثر في العلوم السلوكية والاجتماعية وخصوصاً علم الاتصال .
 - ب - تدريس مقرر في مهارات الخدمة الاجتماعية .
- ٢ - إعطاء أولوية لمجال تنشئة الطفل المسلم باعتباره الرصيد الاستراتيجي للأمة .
- ٣ - إنشاء منظمة للطفولة الإسلامية تعمل على مستوى الدولة الإسلامية على غرار المنظمة الدولية القائمة حالياً في مجال الثقافة والعلوم .
- ٤ - تدعيم جهود مشروعات كفالة اليتيم وتقديم المشورة الفنية والعلمية اللازمة لذلك .
- ٥ - الالتزام بالضوابط الإسلامية في مجالات الترويج بجميع أنواعها .

يكونوا أخصائيين اجتماعيين قادرين على التأثير في المجتمع .

- ٢ - تطعيم المقررات الحالية في جميع طرق الخدمة الاجتماعية ومجالاتها ، بالمادة التي تثرى ، وتؤكد المنظور الإسلامي كإطار للممارسة المهنية .
- ٣ - يراعى عند تطوير وتعديل خطط الدراسة بكلية ومعاهد الخدمة الاجتماعية تخصيص مقرر مستقل واحد على الأقل للمنظور الإسلامي للخدمة الاجتماعية لتوضيح وتأكيده أصالة القيم والعمليات التي تتضمنها الممارسة الميدانية من المنظور الإسلامي .
- ٤ - إعادة النظر في مقرر الشريعة الإسلامية بحيث يتضمن القواعد والمبادئ الشرعية التي تحكم السلوك الفردي والعلاقات الاجتماعية كما قررها الإسلام حتى تسهم في تكوين الشخصية والعلمي الإسلامي لطالب الخدمة الاجتماعية حتى لو تطلب ذلك زيادة الساعات المخصصة لها في الخطة الدراسية .
- ٥ - معاونة الدارسين الجادين الراغبين في تسجيل الرسائل العلمية في الموضوعات المتصلة بالتأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية .

٦ - إصدار تشريعات لحماية البيئة تنطلق من أسس إسلامية صحيحة كما جاء في القرآن والسنة .

٧ - دعم دور الجمعيات الخيرية الإسلامية حتى تستطيع أداء دورها بطريقة رشيدة وفعالة ، مع تعديل القوانين الخاصة بالجمعيات والمؤسسات الخاصة للنص على ألا يكون النشاط الذي تقوم به الجمعيات متعارضاً مع القيم الإسلامية .

هذا .. وتوصي الندوة في الختام بترتيب عقد ندوة التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية دورياً كل عامين متابعة الجديد في هذه الجهود الخيرة وتبادل الرأي والمشورة فيما بين المعنيين بها . والله الموفق والمستعان .

٨ - استخدام حصيلة الزكاة في دعم الخدمات التي تقدم على المستوى المحلي .

ملحق بمحور مقترح القيام بها

١ - تأصيل « المنهج العلمي » من القرآن الكريم والسنة .

٩ - تطوير دور الأخصائي الاجتماعي في مجالات ممارسة الخدمة الاجتماعية وخصوصاً في المجال المدرسي ليكون أكثر إيجابية وأكثر اتساقاً مع القيم الإسلامية .

٢ - نحو نظرية إسلامية « للحاجات الإنسانية » .

٣ - قاموس إسلامي للخدمة الاجتماعية مع مقابلة مصطلحاته بالترجمة الإنجليزية لها .

١٠ - الاهتمام بتدريس مادة التربية الدينية في مدارس التعليم العام مع ربطها بالحياة اليومية للتلاميذ .

٤ - مدخل إسلامي للخدمة الاجتماعية .

٥ - بحوث في كل مجال من مجالات الرعاية الاجتماعية .

١١ - مناقشة السلطات المختصة حصر نشاط المدارس والمستشفيات التي

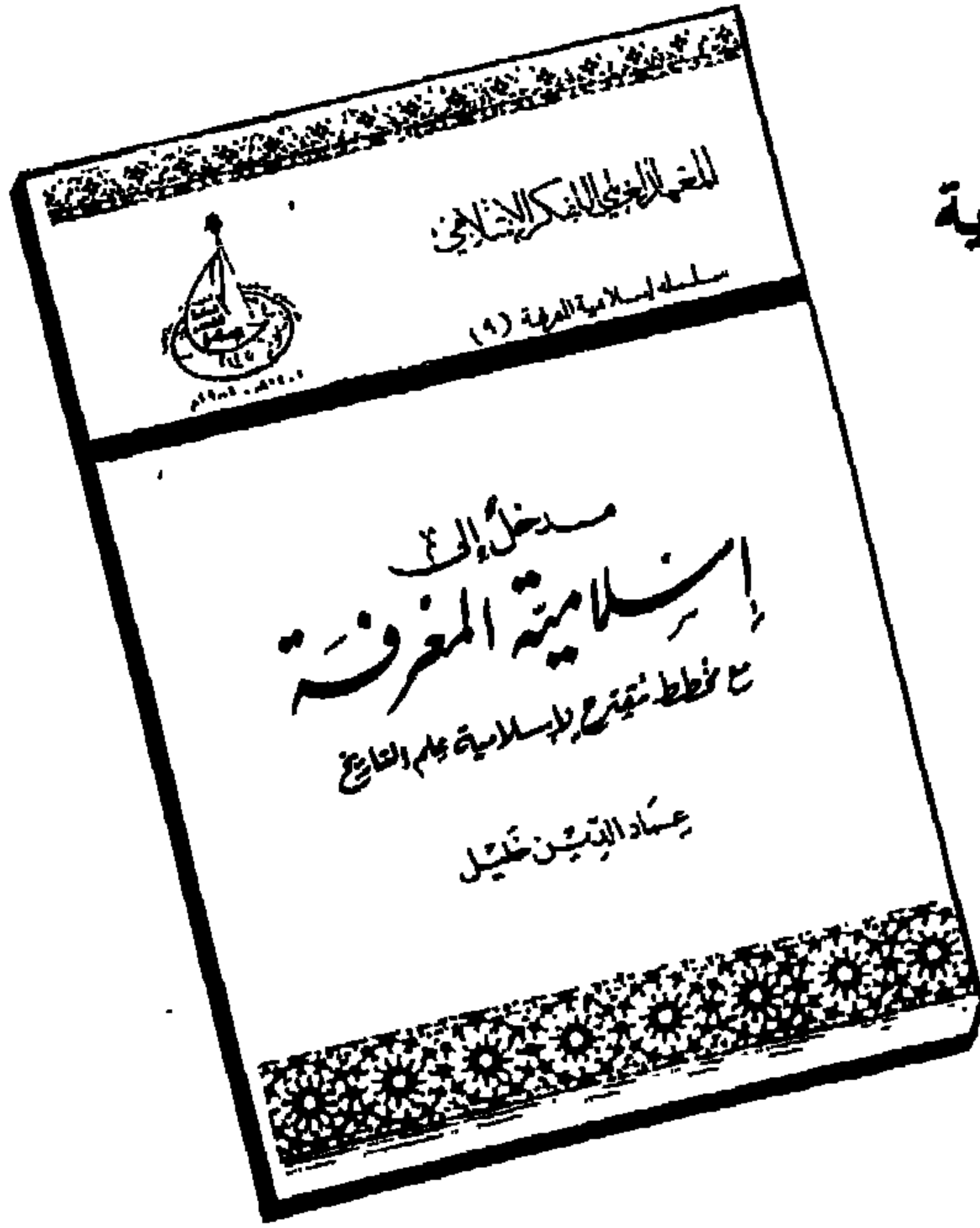
٦ - دراسات تطبيقية في المجتمعات الإسلامية ومشكلاتها مع تقديم الحلول برؤية إسلامية .

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

يقدم إلى قرائه الكرام
أحدث إصداراته في سلسلة إسلامية المعرفة

مدخل إلى
إسلامية المعرفة
مع مخطط مقترح لإسلامية
علم التاريخ

للدكتور
عماد الدين خليل



يقدم للقارئ مشروع إسلامية المعرفة على خريطتين متكاملتين
الأولى تنظيرية والثانية تطبيقية يتناول في الأولى المصطلح
والضرورات الداعية إلى المشروع ويختار في الثانية علم التاريخ
ميداناً للتخطيط لكتاب منهجي..

يطلب من مكاتب المعهد بجميع أنحاء العالم



مركز أبحاث إسلامي لخدمة المجتمع

أ. زينب عطية محمد

مقدمة

يُطلق على العصر الحالي عصر المعلومات ، وحتى نساير لغة العصر علينا الاستعانة بنظم المعلومات ، وتعد المراكز إحدى أدوات هذه النظم ؛ ويُقصد بها اكتناز رؤوس موضوعات العلم ومصطلحاته في إطار واحد مرتبة ترتيباً هرمياً منطقياً على عدة مستويات تتدرج من الكليات إلى الجزئيات إلى تفريعات العلم الدقيقة .

من هذا المنطلق بدت الحاجة إلى إعداد مركز إسلامي للخدمات الاجتماعية فبدأت بعون الله في إعداده منذ سنة ١٩٨٤ م .. وحتى يجمع بين الأصالة الإسلامية والمعاصرة العلمية المتطورة .. فكان ولا بد من الاطلاع على بعض المراكز العالمية

كمركز الأمم المتحدة للتنمية الاجتماعية والاقتصادية ومركز الجمعية الأمريكية لعلم النفس وأحدث تقسيمات العلم بالمجلة الأمريكية لبحوث الخدمة الاجتماعية ومراكز لهيات أخرى متخصصة .. هذا بالإضافة إلى أحدث ما نُشر عن إعداد المراكز .. ومن بين ما صدر في هذا الصدد دليل تكشيف القرآن الكريم وعمل مراكز لأغراض التكشيف والذي أصدره المعهد العالي للفكر الإسلامي سنة ١٩٨٩ بناء على توصيات ندوة التكشيف -- والذي كان لي شرف المساهمة في إعداده .

هذا من ناحية شكل المركز ، أما من ناحية المضمون ولتأصيل الخدمة الاجتماعية إسلامياً ، فقد عكفت على دراسة القرآن

المعلومات مكونة في مجموعها نواة لموسوعة إسلامية للخدمات الاجتماعية .

وهذا الجهد المتكامل لا يمكن بطبيعة الحال أن يقوم به فرد أو عدة أفراد ولكن يحتاج إلى مجموعات عمل من المتخصصين ليس فقط في فروع الخدمات الاجتماعية المختلفة وإنما في العلوم الإسلامية وعلوم نظم المعلومات .

نحو مكنز إسلامي للخدمات الاجتماعية

المستوى الأول

أولاً : النظرية .

ثانياً : المنهج .

ثالثاً : التطبيق .

المستوى الثاني

أولاً : النظرية :

أ - سنن الله في النفس والمجتمع .

ب - الضوابط الشرعية .

ج - مقاصد الخدمة الاجتماعية .

د - موضوعات الخدمة الاجتماعية .

ثانياً : المنهج :

أ - مبادئ الخدمة الاجتماعية .

ب - طرق وأساليب الخدمة

الاجتماعية .

الكريم على مدى سبع سنوات والاطلاع على ما يزيد على خمسة عشر تفسيراً من تفاسيره المعتمدة والتي تمثل الاتجاهات والمذاهب الإسلامية المختلفة ، هذا إلى جانب دراسة السيرة العطرة والأحاديث النبوية الشريفة والعديد من كتب الفقه وأصول الفقه .. وذلك لاستنباط المصطلحات الإسلامية ذات الدلالة الاجتماعية ووضعها في موضعها المناسب من المكنز مع مراعاة الترتيب المنطقي لكليات العلم وجزئياته .

هذا ويقدم المكنز خدمة مكتبية متخصصة للباحثين والمكتشفين ، وضمن سلسلة هذه الخدمات المكتبية فقد انتهت بفضل الله وتوفيقه من إعداد كشف قرآني للخدمة الاجتماعية تم الانتهاء منه بحمد الله متزامناً مع الانتهاء من إعداد المكنز حيث يكمل كل منهما الآخر .

ويقع الكشف القرآني في ٢٠٠٠ بطاقة تكشف تقريباً تشير كل بطاقة إلى مصطلح اجتماعي تدل عليه بآية كريمة ويوضحه بيان مختصر من التفاسير القرآنية المعتمدة .

وحتى تكتمل سلسلة الخدمات المكتبية المتخصصة فمازلنا في حاجة إلى إعداد كشف للحديث النبوي الشريف وآخر للسيرة وثالث للتراث الإسلامي ومعجم للمصطلحات الإسلامية ذات الدلالة الاجتماعية لتتكامل هذه الأدوات مع نظم

ج - أدوات الخدمة الاجتماعية .

ثالثاً : التطبيق :

أ - الخدمة الاجتماعية كمهنة .

ب - مجالات الرعاية الاجتماعية .

المستوى الثالث

أولاً : النظرية :

أ - سنن الله في الأنفس والمجتمع .

١ - سنن فطرية .

٢ - سنن ذات علاقة سببية .

ب - الضوابط الشرعية :

١ - عقيدة .

٢ - قيم أخلاقية .

٣ - أحكام تكليفية .

ج - مقاصد الخدمة الاجتماعية :

١ - جانب وقائي :

● سد خلة المجتمع

(التكافل الاجتماعي) .

● سد ذرائع الفساد

(الرعاية الاجتماعية) .

٢ - جانب علاجي :

● الإصلاح الاجتماعي

(علاج المشكلات الاجتماعية) .

● تفريج الكرب (علاج

المشكلات الفردية) .

● إغاثة الملهوفين (نجدة

ضحايا الكوارث) .

٣ - جانب إنمائي :

● عمارة الوقت .

— تركية النفس

(الارتقاء الأخلاقي) .

— تهيئة الحياة الطيبة

(الارتقاء الاجتماعي) .

د - موضوعات الخدمات الاجتماعية .

١ - الرعاية الاجتماعية .

٢ - التنمية الاجتماعية .

٣ - المشكلات الفردية .

٤ - الإصلاح الاجتماعي .

ثانياً : المنهج :

أ - مبادئ الخدمة الاجتماعية .

١ - الرفق في المعاملة .

٢ - التدرج في تعديل السلوك .

٣ - مراعاة اختلاف البشر

(الفروق الفردية) .

٤ - الستر والسرية .

٥ - المحاسبة والمراقبة (التقويم

الذاتي) .

٦ - المجاهدة واستفراغ الوسع

(المساعدة الذاتية) .

٧ - التعاون والمشاركة الإيجابية .

٨ - لا ضرر ولا ضرار (المصلحة

الشخصية في إطار المصلحة

العامة) .

ب - طرق وأساليب الخدمة

الاجتماعية :

١ - العمل مع الأفراد .

٢ - العمل مع الجماعات .

- ٧ - رعاية الأحداث .
- ٨ - رعاية المسجونين .
- ٩ - الرعاية الصحية الاجتماعية .
- ١٠ - الرعاية النفسية الاجتماعية الطبية .
- ١١ - الرعاية الطبية الاجتماعية .
- ١٢ - مجال مكافحة المخدرات وعلاج الإدمان .
- ١٣ - مجال التربية والتعليم .
- ١٤ - الرعاية العمالية .
- ١٥ - الرعاية الاجتماعية في مجال القوات المسلحة .
- ١٦ - المجال الأمني والشرطة .
- ١٧ - الكوارث والإغاثة والتهجير .
- ١٨ - الإسكان والمواصلات .
- ١٩ - تنمية المجتمعات الريفية والصحراوية والحضرية .
- ٢٠ - التعاون الدولي والإقليمي .
- ٢١ - مجال الدعوة إلى الله .
- ٢٢ - رعاية معتنقي الإسلام حديثاً .
- ٣ - تنمية المجتمع المحلي .
- ٤ - التخطيط والسياسة الاجتماعية .
- ٥ - الإدارة في الخدمة الاجتماعية .
- ٦ - البحوث في الخدمة الاجتماعية .
- ج - أدوات الخدمة الاجتماعية :
 - ١ - المقابلة الفردية .
 - ٢ - الزيارة المنزلية .
 - ٣ - المقابلة الجماعية .
 - ٤ - اجتماعات الجماعة .
 - ٥ - تصميم البرامج .
 - ٦ - التسجيل .

ثانياً : التطبيق :

- أ - الخدمة الاجتماعية كمهنة :
 - ١ - سمات شخصية (الأخصائي الاجتماعي) .
 - ٢ - الإعداد العلمي .
 - ٣ - التدريب الميداني .
 - ٤ - التنظيم المهني .
- ب - مجالات الرعاية الاجتماعية :
 - ١ - المساعدات العامة .
 - ٢ - رعاية الأسرة .
 - ٣ - رعاية الطفولة .
 - ٤ - رعاية الشباب .
 - ٥ - رعاية المسنين .
 - ٦ - رعاية المعوقين .

المستوى الرابع

أمثلة من النظرية :

- أ - سنن الله في النفس والمجتمع .
- ب - سنن فطرية : أمثلة منها :
 - العبودية لله وحده .

- ب - الضوابط الشرعية :
- ١ - العقيدة .
 - التوحيد .
 - الإيمان بالله تعالى .
 - الإيمان بالملائكة .
 - الإيمان بالكتب المنزلة .
 - الإيمان بالرسول .
 - الإيمان باليوم الآخر .
 - الإيمان بالقدر خيره وشره .
 - الأسوة الحسنة برسول الله صلى الله عليه وسلم .
 - ٢ - القيم الأخلاقية :
 - بر الوالدين .
 - صلة الرحم .
 - التعاون على البر والتقوى .
 - الإحسان .
 - الخير والبر .
 - المعروف .
 - الإيثار والعطاء .
 - نصرة المظلومين .
 - إغاثة الملهوفين .
 - تفريج الكرب .
 - الستر للمسلم ورعاية الحرمات الخاصة .
 - إصلاح ذات البين والإصلاح بين الأخوة .
 - الإصلاح بين الناس .
 - النصيحة .
- الاستخلاف في الأرض .
- الهداية العامة (هداية النجدين).
- أمانة الفطرة (الاختيار — الإرادة).
- وحدة الإنسان (جسد — روح — وجدان — عقل) .
- الإنسان عرضة للأغيار (التغيير النفسي والبدني) .
- حب الشهوات (النفس — الحس — الانجاب — المال — الجاه) .
- الاختلاف بين البشر (الخلق — الخلق — الأرزاق — الآجال) .
- القابلية لتعديل السلوك (الاستعداد: الفطري) .
- التعارف والتكامل والتعاون (الإنسان كائن اجتماعي) .
- الإنسان عرضة للفناء (إخفاء مكان وزمان وكيفية الموت) .
- القضاء والقدر (الابتلاءات) .
- مداولة الأيام بين الناس (التغيير الاجتماعي) .
- الرزق (ضمانه — تقديره — إخفاؤه — التفاوت فيه) .
- ٢ - سنن ذات علاقة سببية :
 - السلوك الإنساني والأحداث الكونية .
 - التغيير النفسي والتغيير الاجتماعي .



- الخرج) .
- التوازن في إشباع الملكات.
- التحكم في الانفعالات.
- الفلاح لمن زكى نفسه .
- الحية لمن دس نفسه .
- مشروعية التوبة (المحاسبة —
- المراقبة — المجاهدة) .
- عقد الزواج بشروطه —
- الإتيان المشروع للزوجة .
- الإنجاب المشروع — تجنب
- أبناء السفاح .
- حفظ العائلة — القيام
- بمسئوليتها .
- حفظ النفس (من المكروه
- والانتحار والإدمان والضياع) .
- حفظ المال (الكسب الحلال
- الإنفاق في الحلال ، الاعتدال في
- الإنفاق ، مراعاة مصالح
- الآخرين ، أداء حق الآخرين في
- المال ، الشكر لله) .
- تسخير الكون للإنسان
- لعمارتة .
- تسخير البشر بعضهم
- لبعض للتكامل والتعاون
- بينهم .
- تقسيم المعيشة بين الناس
- للابتلاء والرضا بالمقسوم .
- تداول الأيام بين الناس
- للابتلاء .

- التنافس المحمود
- والمسارعة في الخيرات .
- التواصي بالحق والصبر
- والرحمة .
- الأمر بالمعروف والنهي
- عن المنكر .
- كف الأذى عن الناس .
- الأمانة في المعاملات .
- الصدق والإخلاص .
- الوفاء بالوعد .
- التسامح والعفو والحلم
- وكظم الغيظ .
- التواضع .
- العدل الاجتماعي
- والمساواة .
- الرضا بقضاء الله وقدره.
- المسؤولية الفردية
- والاجتماعية .
- الشورى .
- تأكيد قيمة العمل .
- تأكيد قيمة الوقت .
- ٣ — أحكام تكليفية لها علاقة بالخدمة
- الاجتماعية :
- أ — فيما يتعلق بالسنن الفطرية:
- الميثاق الفطري .
- عمارة الأرض والإصلاح.
- تجنب الإفساد في الأرض.
- التكليف والمسئولية والجزاء
- (التكليف الواسع — رفع

- تفاوت الدرجات
بتفاوت المساعي .
— الرزق على قدر الهمة .
— الأخذ بالأسباب وربط
الأسباب بالمسيبات .
— التوكل على الله والتسليم
له وتفويض الأمر لله .
— فتنة الناس بعضهم لبعض
للابتلاء .
— ابتلاء الشهوات (السراء
والضراء — الرخاء والشدة).
— ابتلاء الشبهات (الشك،
الكفر ، النفاق) .
- ب — فيما يتعلق بالسنن ذات العلاقة
السببية :
- ١ — السلوك الإنساني والأحداث
الكونية — المعاصي والكوارث
— الأحكام التكليفية : تقوى
الله انتشار الفساد والإهلاك
بالذنوب .
- ٢ — التغير النفسي والتغير الاجتماعي
— الاستغناء والطغيان .
— البسط والبغي في الأرض .
— الترف والظلم .
— الإنعام والإعراض .
— الأحكام التكليفية ::
— السراء والبطر .
— الضراء والقنوط .
- التمتع والعتو ونسيان الذكر .
— الإعطاء والإكداء .
— الأحكام التكليفية :
— الشكر في السراء .
— الصبر في الضراء .
— أداء حق الله في المال .
- ج — أحكام لها علاقة بموضوعات
الخدمة الاجتماعية .
- ١ - الرعاية الاجتماعية :
- فيما يتعلق برعاية الحقوق الاجتماعية :
- حقوق الوالدين :
البر والإحسان بهما — الطاعة —
النفقة — الإرث من الأبناء .
- حقوق الزوج :
- القوام — الطاعة — إحسان العشرة
— الاستمتاع — قرار الزوجة في البيت —
السكن والمودة والرحمة — العدة والإحداد
عند الوفاة — الإرث في حالة وفاة
الزوجة .
- حقوق الزوجة :
- الصداق — النفقة — الاستمتاع —
عدم العزل — إحسان العشرة — المودة
والرحمة — العدل بين الزوجات — الإرث
في حالة وفاة الزوج .
- حقوق المطلق :
- العدة — الإمساك — عدم كتمان ما
في الأرحام .

— حقوق المطلقة :

نفقة العدة — المتعة — التسريح
بإحسان — عدم الإضرار بها أو العضل —
الخلع — الافتداء .

— حقوق الحوامل والمرضعات :

الإنفاق عليهن — مشروعية أخذ
أجر على الإرضاع — السكنى المناسبة —
استئجار مريض .

— حق الجنين :

الحياة وتحريم الإجهاض .

— حق الأيامي (العوانس والمطلقات والأرامل) :

التزويج للعفة والإحصان والستر .

— حق الطفل :

الحياة — الإنبات الحسن — صلاح
الأم — العدل بين الأبناء — الإنفاق عليهم
— الولاية والرعاية — الإرث من
الوالدين .

— حق ذوى القربى :

صلة الرحم — الإنفاق الواجب —
الستر والمواساة .

— حق اليتامى :

الولاية والكفالة .

الرفق والرحمة بهم .

— حق المساكين والفقراء :

سد الخلة .

— حق السائل والمحروم :

العدل الاجتماعى .

— حق القانع والمعتز :

توفير حد الكفاية .

— حق الجار :

الإحسان إليه .

أمن البوائق .

— حق أبناء السبيل :

الإعانة والإيواء .

— حق الضيف :

القرى والضيافة والإكرام .

— حق الغارمين :

سداد ديونهم .

— حق المشردين :

الإيواء — إكرام المثوى .

— حق المسنين :

الإكرام والرعاية .

— حق المرضى :

العلاج — العيادة .

— حق المنبوذ :

الالتقاط — الكفالة والولاية .

— حق الملهوفين :

الإغاثة .

— حق المظلومين :

النصرة .

— حق المستضعفين :

الرعاية والولاية .

— حق الخدم :

الإحسان — الرفق — الإعانة على ما

- غلبهم .
- حق ضحايا الحروب والكوارث :
- النجدة — الإيواء — العلاج —
التأهيل — التهجير والتوطين والتعمير .
- حق العامل :
- الأجر العادل الفوري — الراحة —
عدم السخرة .
- حق العمل :
- الإتقان — الإخلاص .
- حق الصحبة :
- النصيحة — الإعانة — الإخوة .
- حق المواطن :
- القرار في وطنه .
- حق أهل الذمة :
- التسامح — الحماية نظير الجزية .
- حق الناس :
- الإصلاح بينهم — كف الأذى عنهم .
- حق الطريق :
- غض البصر — كف الأذى —
إمالة الأذى عن الطريق — هداية
الأعمى — إغاثة المظلوم — إرشاد
السبيل — الإعانة على حمولة —
حسن الكلام — الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر .
- حق الموتى :
- الغسل — التكفين — الصلاة عليه
- إكرامه بالدفن — مواراته التراب —
سداد ديونه — إنفاذ وصيته .
- حق الحيوان :
- الرفق به .
- ٢ - التنمية الاجتماعية :
- أحكام تكليفية لها علاقة بالتنمية
الاجتماعية .
- استباق الخيرات (المبادرة والتنافس
المحمود) .
- تسخير الناس بعضهم لبعض
(تحقيق التكافل الاجتماعي) .
- تكريم الإنسان (توفير حد الكفاية
للفرد) .
- التعاون على البر والتقوى (المشاركة
الإيجابية) .
- الإيثار رغم الخصاصة (التطوعية
والغيرية) .
- الأخذ بالأسباب ثم التوكل على الله .
- لا ضرر ولا ضرار (مراعاة مصالح
الآخرين) .
- استفراغ الوسع (استشارة الطاقات
المعطلة والموارد الكامنة) .
- نبذ الإسراف والتقتير — الاعتدال
والقوام .
- نبذ التواكل والبطالة والكسل
والعجز .
- الكدح والكد (تأكيد قيمة العمل
وإتقانه والمثابرة عليه) .

(الرشوة — الوساطة والشفاعة السيئة —
استغلال النفوذ) .
— النهي عن الإفساد في الأرض
(الخرابة — شهادة الزور — تهريب وتجارة
المخدرات) .

٤ - الإصلاح الاجتماعي :
أحكام تكليفية لها علاقة بالإصلاح
الاجتماعي .

— الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
— التعزير (الدفاع الاجتماعي) .
— الحدود .
— التحكيم (في الخلافات الزوجية) .
— الإصلاح بين الناس (الإصلاح بين
الأخوة — إصلاح ذات البين) .
— الكفارات (جزاءات مادية وعينية) .
— أساليب العلاج الفردي : مشروعية
التوبة — التطهير النفسي — تزكية النفس
— الصدقة تطهير وتزكية — الترغيب
والترهيب — تقوية الإرادة بالمجاهدة
بالصوم والصبر — ذكر الله (الصلاة
وقراءة القرآن — الدعاء — التسبيح
والتحميد والاستغفار) .

د - أحكام تكليفية لها علاقة بمقاصد
الخدمة الاجتماعية :
— سد ذرائع الحاجة :
التكافل الاجتماعي .
— المال مال الله والإنسان مستخلف
فيه .

— استثمار وعمارة الوقت (تأكيد قيمة
الزمن تربوياً واجتماعياً) .
— الأمر بالعرف — العادة محكمة
(العادات والتقاليد والأعراف — الدراسة
— الترشيح — التحكيم) .

٣ - المشكلات الفردية والاجتماعية :
أحكام تكليفية لها علاقة بالمشكلات .
— النهي عن الإضرار بالذات
(الانتحار — الإدمان — الضياع) .
— النهي عن الإضرار بالغير (القتل —
الإيذاء — المكر السيئ) .
— النهي عن التقصير في حقوق ذوى
القرى (قطيعة الرحم) .
— النهي عن عقوق الوالدين .
— النهي عن أكل الأموال بالباطل
(الميسر — الربا — السرقة — السحت —
النصب والاحتيال) .

— النهي عن استغلال أموال اليتامى إلا
بالتى هي أحسن — النهي عن دع اليتيم .
— النهي عن انتهاك حرمة الأعراض
(الزنا — النظر للمحرمات — هتك
الأعراض — قذف المحصنات — الجنسية
المثلية) .

— النهي عن انتهاك حقوق الغير (الغيبة
والتميمة — الاحتيال والطمع والجشع —
السخرية — التجسس — الحقد
والحسد) .

— النهي عن انتهاك حقوق المجتمع

- إدالة الثروة .
 — الزكاة فريضة اجتماعية .
 — نوافل الصدقات .
 — الإنفاق الواجب .
 — الإنفاق في سبيل الله .
 — إنفاق العفو .
 — القرض الحسن .
 — الحض على طعام المسكين .
 — سد ذرائع الفساد : درء المفسد .
 — حماية الأعراض (تحريم الزنا —
 غض البصر — حفظ الفرج — الحجاب —
 تضيق دائرة الاختلاط) .
 — حماية الأنساب : جفط العائلة —
 تشجيع الزواج) .
 — حماية النفس .
 — حماية العقل .
 — حماية الدين .
- هـ — أحكام تكليفية لها علاقة بمنهج الخدمة الاجتماعية :
- ١ — المبادئ :
- الرفق والتيسير ورفع الحرج —
 المشقة تجلب التيسير (التقبل) .
 التدرج في تعديل السلوك
 (آيات تحريم الخمر على مراحل تدريجية) .
 — اختلاف البشر — كل ميسر لما
 خلق له — كل يعمل على شاكلته (الفروق الفردية) .
- المحاسبة والمراقبة الذاتية (التقويم الذاتي) .
 — المجاهدة واستفراغ الوسع (بذل الجهد والمساعدة الذاتية) .
 — الستر ورعاية الحرمات الخاصة (السرية) .
 — لا ضرر ولا ضرار (المصلحة الشخصية في إطار المصلحة العامة) .
 — التعاون والتنافس واستباق الخيرات (المشاركة الإيجابية) .
- ٢ — الطرق والأساليب :
- العمل مع الأفراد : الدين النصيحة (الإرشاد والتوجيه الاجتماعي) .
 — العمل مع الجماعات : التواصي والتأهي والأخوة الإسلامية (التفاعل الجماعي الموجه) .
 — تنمية المجتمع : الدعوة إلى الخير، التعاون على البر .
- إدارة المؤسسات الاجتماعية :
 الولاية على النفس (الناقص الأهلية) .
 — تخطيط وسياسة اجتماعية : درء المفسد مقدم على جلب المنافع .
 — بحوث اجتماعية : حصر مصارف الزكاة في ثمانية يقتضي البحث الاجتماعي ﴿ إنما الصدقات ﴾ إنما تفيد الحصر .
- ٣ — الأدوات :
- المقابلة الشخصية : الستر ورفع الحرج .

و - أحكام تكليفية لها علاقة بالتطبيق :

— المهنيون :

أحكام تكليفية خاصة بهم .

— مشروعية أخذ الأجر على الخدمة

الاجتماعية بتخصيص مصرف للعاملين عليها

﴿ إنما الصدقات ... والعاملين

عليه ﴾ .

— التصدي لتحمل المسؤولية

﴿ اجعلني على خزائن الأرض ... ﴾ .

— المبادرة والنجدة ﴿ فاستبقوا

الخيرات ... ﴾ .

— الزيارة المنزلية : عيادة المريض —

المواساة — تفقد الأحوال .

— المقابلة الجماعية : التواصي

والتناهي .

— الاجتماعات : الشورى —

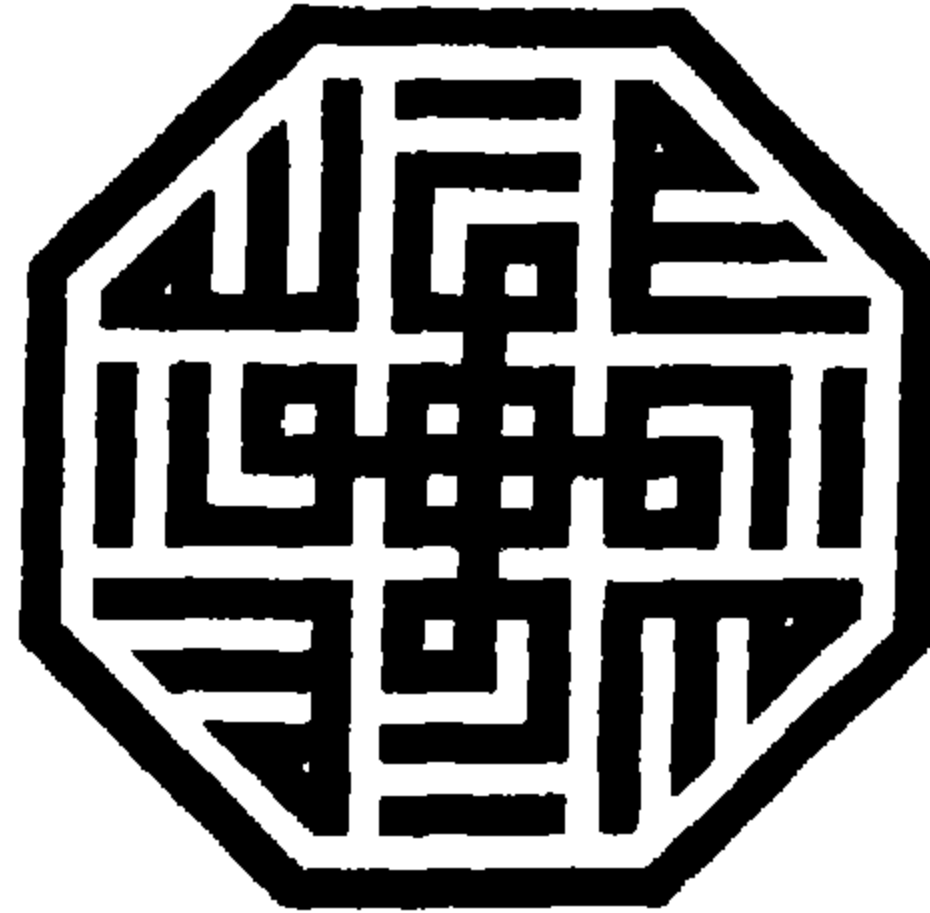
الجدال بالتي هي أحسن .

— تصميم البرامج : التعاون —

استثمار الوقت — السير والنظر والاعتبار .

— التسجيل : تأكيده « كتابة

الدين » .



الكشاف الإسلامي



من أجل إضاءة أسطح للمساحات الواسعة
التي يشغلها الفكر العربي الاسلامي المعاصر
ومصادره الأصيلة.

الكشاف الإسلامي

- * أداة يحتاجها الباحثون والعلماء، ودليل يستخدمه طلاب الدراسات الاسلامية، ومرجع لا تستغني عنه المكتبات ومؤسسات التوثيق والمعلومات.
- * نظام معلومات متكامل تعالج إشارات الببليوغرافية وكشافها التحليلي التبادلي محتويات أوعية المعلومات العربية الاسلامية بعمق وشمولية.
- * مجلة فصلية تعنى بالموضوعات الاسلامية في المطبوعات العربية. صدر العدد الأول منها في مطلع العام ١٩٨٩، مغطياً الدوريات الصادرة منذ العام ١٩٨٨، والكتب منذ العام ١٩٨٧.



تطلب من: دلمون للنشر

Dilmun Publishing Ltd.

P.O.Box 7161 NICOSIA - CYPRUS

Tel: 357-2-313491, Fax: 357-2-423198

al-Muslim al-mu'asir

THE CONTEMPORARY MUSLIM



VOI . 16

NO . 62

Rabi' II, Jumàdà I, Jumàdà II 1412

November, December 1991, January 1992

In this Issue

- A talk to intellectuals .
- Religion & Philosophy .
- Sayyid Qutb & Islamic Interpretation of History.
- Quranic Science of Kalam .
- Futurology in Islamic View .
- Islamic Paradigm of Psychology .